المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
شعبة التفسير وعلوم القرآن

الصلاة في القرآن الكريم
دراسة موضوعية

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب

محمد بن عبد الله بن ناصر بن ظافر

الرقم الجامعي: ٤٢٤٧٠٠١٤

إشراف

فضيلة الدكتور/ سليمان الصادق البيره

١٤٢٨-١٤٢٩هـ

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة: («الصلاة في القرآن الكريم» دراسة موضوعية).

إعداد الطالب: محمد بن عبد الله بن ناصر بن ظافر لنيل درجة الدكتوراه.

هدف الدراسة: بيان أن موضوع «الصلاة» يحتاج في كل عصر إلى تجديد عرض وصياغة، وإلى إثارة الكلام عنها ونشره لأنها ركن الإسلام الأعظم بعد الشهادتين.

موضوع الرسالة: تتبع كل آية ورد فيها ذكر «الصلاة» بلفظها أو معناها وكذا الآيات الواردة في الطهارة، واستقبال القبلة، والمواقيت، ومعرفة أول ما نزل في شأنها وآخر ما نزل واستخراج الدلالات المختلفة مع ملاحظة السياق القرآني الذي وردت فيه كل آية ومناسبتها له وللسورة الواردة فيها مع بيان أوجه الإعجاز القرآني..

أبواب الرسالة : الأول: حقيقة الصلاة في اللغة والقرآن، وفيه فصلان.

الثاني: حديث القرآن عن الصلاة وبيان منزلتها ومكانتها، وفيه ستة فصول.

الثالث: الصلاة فريضة الله على خلقه أجمعين، وفيه ثلاثة فصول.

الرابع: أنواع المصلين وصفاتهم في القرآن الكريم، وفيه أربعة فصول.

الخامس: أنواع الصلوات الواردة في القرآن الكريم، وفيه اثنا عشر نوعاً.

السادس: مقاصد وفقه الصلاة في القرآن الكريم، وفيه ستة فصول.

السابع: أسلوب القرآن وخصائصه في حديثه عن الصلاة، وفيه تمهيد وفصلان.

حقيقة الرسالة: مساهمة متواضعة في بحوث «التفسير الموضوعي» الذي هو تفسير العصر، وهو تفسير المستقبل، والحاجة ماسة إليه حيث يقوى صلة المسلمين بالقرآن الكريم ويعرفهم على مبادئه وحقائقه، ويعينهم على حسن عرض القرآن و الإسلام على الآخرين والوقوف أمام الأعداء والمخالفين.

أهم النتائج و التوصيات:

١- إن الدراسة الموضوعية لموضوع «الصلاة في القرآن» تساعد على توسيع دلالات ومضامين الآيات القرآنية، وإضافة الأبعاد والمعاني الجديدة التي قد لا يلتفت إليها السابقون من المفسرين ولا يجدها القارئ في كتب التفسير الموضعي.

٢- عظم الله عز وجل شأن الصلاة في القرآن حيث وردت مائة آية بلفظ الصلاة ومشتقاته وعشرات الآيات بغير لفظها.

٣- أحصت الدراسة عشرين وجهاً من المعاني التي أرادها القرآن من لفظ الصلاة، واثني عشر لفظاً جاء بها القرآن في معنى الصلاة.

٤- أوضحت الدراسة جملة طيبة من فضائل الصلاة، وخصائصها، وثمراتها، وحِكَمها، وحُكْمها، وحُكْم تاركها، وأسرارها ومقاصدها مستنبطة من القرآن الكريم.

٥- الدراسة محاولة للرد على من يظن (أن حديث القرآن عن الصلاة كان حديثاً عاماً شاملاً مجرداً أو أنه حديث عن وجوبها و الأمر بها فحسب).

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

اسم الطالب	اسم المشرف
محمد بن عبد الله بن ناصر بن ظافر	د/ سليمان بن الصادق البيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى من ربياني صغيراً ...

ونشآني على الصلاة وحبها ...

وإقامتها في أماكنها ...

وعلَّماني شروطها وأحكامها ...

والديَّ الكريمين

أطال الله عمرهما في طاعته...

والـــــدِي

الذي ما زال يحوطني بعونه المادي والمعنوي...

ووالدتي

التي لا تفتر من الدعاء لي ليلاً ونهاراً...

أهدي لهما

هذه الرسالة

وفاء لبعض حقهما العظيم عليَّ

فجزاهما الله عني برضوانه وجناته

إنه

سميع قريب مجيب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أنزل علينا الكتاب المبين، وجعله معجزة خير المرسلين، فعجزت الخلائق عن الإتيان بمثله أو حتى بآية منه فصدق فيهم قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء ٨٨].

والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فالقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد المعجز بلفظه ونظمه، ومن ثم كانت أشرف العلوم هي تلك التي تدور حوله، فتشرح غامضه، وتوضح مبهمه، وتبين عن جوانب العظمة في آياته، وهذا ما يضطلع به علم التفسير.

وبرز في هذا العصر لون جديد من التفسير للقرآن، وهو تفسير القرآن حسب الموضوعات التي اشتمل عليها، وهو ليس تفسيراً بالمعنى الاصطلاحي المألوف، بل هو جمع للآيات الواردة في الموضوع من مختلف سور القرآن، ثم تصنيفها، والاستنباط منها، والتعقيب عليها.....

ويسمى «التفسير الموضوعي» أو «دراسة موضوعية».

ومن المعلوم أن (الصلاة) هي ركن الإسلام العملي الأعظم بعد الشهادتين فلا عجب أن نرى كثرة المصنفات حولها في جميع العصور ..

فمن مصنف في فضلها، أو حكمها، أو حكم تاركها، أو عن مقاصدها وأسرارها، أو عن الأحاديث الواردة فيها، أو عن فقهها وما يتعلق بأدائها..

ومع كل هذا فإن الحديث عن الصلاة يحتاج في كل عصر إلى تجديد عرض وصياغة وإلى إثارة الكلام عنها ونشره.

من هنا رأيت أن أبحث في «**الصلاة - في القرآن الكريم**» دراسة موضوعيه.

أولاً : فكرة الموضوع :

ذكر الله تعالى «الصلاة » في ما يقرب من مائه آية من القرآن العظيم وفي كل أية إما وعد المصلين بالكرامة أو وعيد للتاركين لها بالعقوبة والملامة، أولها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة آية: ٣].

وآخرها قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر آية: ٢] هذه الآيات المائة بلفظ (الصلاة) ومشتقاته، وهناك عشرات الآيات تحدثت عن الصلاة بغير لفظها كألفاظ: السجود، والإيمان، والقرآن، والذكر، والتسبيح، والقنوت، والاستغفار، والحسنات.

كما أن لفظ «الصلاة» قد يطلق في القرآن، ويراد به الدعاء، وقد يراد به الاستغفار أو المغفرة، أو الرحمة، أو بمعنى بيوت «الصلاة» أو الكنائس...

وقد ذكر علماء الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ما يقرب من عشرين وجهاً لمعنى لفظ «الصلاة» في القرآن الكريم.

لذا أحببت أن أدرس موضوع «الصلاة » في القرآن الكريم دراسة موضوعية شاملة من أول القرآن إلى أخره متتبعاً كل آية جاء فيها ذكر الصلاة، والمصلين، وأحكام الصلاة ولبها، ومكانتها في الإسلام .. ومعرفة تطور تشريع الصلاة، ومعرفة أول ما نزل في شأنها وآخر ما نزل، واستخراج الدلالات المختلفة مع ملاحظة السياق القرآني الذي وردت فيه كل آية ومناسبتها له وللسورة الواردة فيها مع بيان أوجه الإعجاز القرآني.

ثانياً: أهمية الموضوع:

لا شك أن الصلاة عماد الدين الذي لا يقوم إلا بها، وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله فصلاح عمله وفساده بصلاح صلاته وفسادها، وهي آخر ما يفقد من الدين فإذا ذهب آخر الدين لم يبق منه شيء، وهي آخر وصية أوصى بها النبي ﷺ أمته، وقد مدح الله القائمين بها ومن أمر بها أَهْلَهُ، وذم المضيعين لها والمتكاسلين عنها وهي أعظم أركان الإسلام ودعائمه العظام بعد الشهادتين ..والصلاة شرط لصحة الإيمان، وأن ترك الصلاة محبط للأعمال.

والقرآن الكريم اهتم كثيراً ببيان الصلاة ومفهومها وصلتها بالعبادات الأخرى، واشتراك الصلاة في القرآن مع أصول الدين الإسلامي ... وقد أوضح مكانتها العظمى في آيات عديدة ومواضع مختلفة لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من الإشارة إليها وبيان مزاياها وخصائصها.

كما تناول القرآن فضل الصلاة وثمرتها في آيات عديدة وبأساليب شتى وبيَّن ما أعده من الثواب لمقيمي الصلاة ومن العقاب لتاركيها، وبيَّن أيضاً آثار الصلاة على

المؤمنين في الحياة الدنيا وما فيها من تهذيب للسلوك وتقويم للأخلاق كما جاء بيان الحكمة من الصلاة ومعناها الذي يسمو بالإنسان إلى الدرجة التي اصطفاها الله له واختاره لها.

وإن جمع ودراسة وتحليل وعرض حديث القرآن الكريم عن هذه الشعيرة العظيمة وإظهار ميزاته الأسلوبية و تحديد ملامحها العامة، ومعالمها النضرة، على وفق منهج موضوعي يتتبع بدقة وتفحص الدلالات واللطائف الدقيقة المستخرجة من النصوص وسياقها ومناسبتها لما قبلها وبعدها، لهو أمر جدير بالاهتمام والبيان.

ثالثاً: أسباب اختيار الموضوع:

١- لم أطلع على رسالة جامعة لموضوع «الصلاة في القرآن» مع كثرة البحث والتقصي.

٢- الصلاة قرة عيون المحبين، ولذة أرواح العابدين، وهي رحمة الله المهداة إلى عباده المؤمنين، هداهم إليها، وعرفهم بها، وأهداها إليهم على يد رسوله الصادق الأمين ﷺ رحمة بهم وإكراماً لهم، لينالوا بها شرف كرامته، والفوز بقربه.

٣- المساهمة في بحوث« التفسير الموضوعي» الذي هو تفسير العصر- وهو تفسير المستقبل والحاجة إليه ماسة ولا سيما في هذا العصر- حيث يقوي صلة المسلمين بالقرآن ويعرفهم على مبادئه وحقائقه، ويساهم في تشكيل تصوراتهم وتكوين ثقافاتهم، ويعينهم عل حسن عرض القرآن، والإسلام على الآخرين، والوقوف أمام الأعداء والمخالفين.

٤- إن الدراسة الموضوعية لموضوع «الصلاة في القرآن» تساعد على توسيع دلالات ومضامين الآيات القرآنية، وإضافة الأبعاد والمعاني الجديدة إليها التي قد لا يلتفت إليها السابقون من المفسرين، ولا يجدها القارئ في كتب التفسير الموضوعي.

٥- كما أن الدراسة الموضوعية تساعد على تنفيذ أمر الله بتدبر القرآن، وإمعان النظر فيه وإحسان فقه وفهم نصوصه وتأويلاته.

٦- الصلة بين الصلاة والقرآن صلة قوية ورباطها وثيق بل يطلق لفظ (القرآن) ويراد به الصلاة: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء آية: ٧٨].

وفي هذه الدراسة محاولة للرد على من يظن (أن حديث القرآن عن الصلاة كان

حديثاً عاماً شاملاً مجرداً وأنه حديث عن وجوبها والأمر بها فحسب) كما سيظهر ذلك في فصول الرسالة إن شاء الله تعالى.

٧- إبراز منهج القرآن الواضح في معاملة منكر الصلاة وتاركها.

٨- التأصيل للحديث عن (أسرار الصلاة ومقاصدها) الذي تكلم فيه كثير من القدامى والمحدثين... وبيان أن عرض القرآن وحديثه عن أسرار الصلاة ومقاصدها كان واسعاً وشاملاً ومتنوعاً.... .

٩- التدليل على أن الصلاة عبادة قديمة افترضها الله وأوجبها على الأنبياء والرسل السابقين وأمرهم بإقامتها والدعوة إليها.... وأن هذا الأمر ورد ذكره في عشرات الآيات.

١٠- إثبات أن الكون كله في خضوع دائم وعبادة مستمرة فجميع المخلوقات على اختلاف أنواعها وتنوع عباداتها في صلاة تتفق مع طبيعتها ووظيفتها.. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور آية: ٤١]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

رابعاً: الدراسات السابقة:

١- هناك كتب كثيرة جداً ألفت عن الصلاة وحكمها وفقهها، والأحاديث الواردة فيها، وهناك من ألف عن مقاصد الصلاة، وأسرارها، والخشوع فيها، غير أني لم أجد كتاباً واحداً ألف تحت عنوان: «الصلاة في القرآن الكريم» دراسة موضوعية.

٢- وهناك رسالة متوسطة بعنوان: «الصلاة في القرآن الكريم، مفهومها وفقهها» تأليف أ.د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي. وهي رسالة مختصرة تقع في مائه صفحة تقريباً وجاءت في فصلين:

الأول: مفهوم الصلاة في القرآن الكريم.

الثاني: فقه الصلاة في القرآن الكريم.

غير أن المؤلف اختصر فيها جداً وقال في خاتمتها: «وأذكر أني في عرضي هذا قد حاولت الإيجاز ما استطعت وكم من مرة رفعت القلم وأنا أشعر بأن الآيات

القرآنية تفيض من المعاني وتفيض ولو ذهبت أتلقى فيضها وأجمعه لناء كـاهلي أولاً ولما استطعت جمعه ثانياً، ولما تحقق الهدف الذي أردت...».

٣- بسؤال أهل العلم ومنهم أ.د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي. باركوا البحـث في هـذا الموضوع وأنه جدير بالبحث والدراسة.

٤- بالبحث في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسـات الإسـلامية، وكـذلك فهرسـة مكتبة الملك فهد الوطنية. لم أظفر بهذا العنوان مسجلاً فيها.

خامساً: منهج البحث:

قام المنهج في هذا البحـث عـلى قواعـد «التفسـير الموضـوعي»وذلـك مـن خـلال الخطوات التالية:

١- حصر وجمع الآيات الواردة في «الصلاة» ومشتقاتها لفظاً ومعنـى، وكـذلك الآيـات الواردة في الألفاظ المستعملة في معنـى الصـلاة، مثـل: القيـام، الركـوع، السـجود، الإيمان، القرآن، الذكر، التسبيح، القنوت.

٢- استخراج معاني الألفـاظ السـابقة مـن أمهـات كتـب اللغـة مثـل: مقـاييس اللغـة لابن فارس، ومفردات ألفاظ القرآن للراغـب، وعمـدة الحفـاظ للسـمين الحلبـي، ولسان العرب لابن منظور، والكليات لأبي البقاء.

٣- تسجيل ما يدور حول الآيات من أسباب النزول، والنسخ، والقـراءات الصـحيحة، وترتيب هذه الآيات حسب المكي والمدني، وزمان النزول، وملاحظة مـا يتعلـق بهـا من تدرج في التشريع، أو عموم أو خصوص، أو غير ذلك.

٤- الرجوع إلى أمهات كتب التفسير في ذلك سواء القديم منهـا أو الحـديث أو مـا كـان بالمأثور أو بالرأي، وكذا كتب تفسير آيات الأحكام.

٥- بيان الأبعاد المعاصرة للآيات بالالتفات إلى ما تتضمنه من إيحاءات مرتبطة بحاجات ومشكلات العصر الحاضر، وتنزيل هذه الآيات على حالة العصر والنظـر إلى هـذه القضايا والمشكلات من خلال هذه الآيات.

٦- استخلاص الدلالات والعبر واللطائف مـن الآيـات المجموعـة، بـذكر الـدلالات المستخرجة وبيان موطن ووجـه الاسـتدلال والتركيـز عـلى الـدلالات ذات البعـد الإيماني، والبعد الاجتماعي والإنس (هـ) .

٧- التقيد بقواعد التفسير الموضوعي وضوابطه العلمية من حيث البقاء مع القرآن وتجنب الحشو والاستطراد.

٨- أما عن تخريج الأحاديث فإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما، وإن كان في غيرهما اعتمدت على من حكم عليه من الأقدمين فإن وجدت حكماً له في أحد كتب الشيخ محمد ناصر الدين الألباني أثبته واكتفيت به.

سادساً: خطة الدراسة:

وجاءت في مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة.

المقدمة: أوضحت فيها أهمية الموضوع وخطة البحث.

الباب الأول: حقيقة الصلاة في اللغة والقرآن، وفيه فصلان:

الفصل الأول: معنى الصلاة وألفاظها في القرآن الكريم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الصلاة في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: وجوه ونظائر الصلاة في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: الألفاظ المستعملة في معنى الصلاة مثل: القيام، الركوع، السجود، الإيمان، القرآن، الذكر، التسبيح، القنوت.

الباب الثاني: حديث القرآن عن الصلاة وبيان منزلتها ومكانتها، وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: أهمية الصلاة وعظم شأنها.

الفصل الثاني: الحكمة من الصلاة وفضائلها.

الفصل الثالث: خصائص الصلاة.

الفصل الرابع: ثمرات الصلاة وآثارها على النفس والأخلاق.

الفصل الخامس: الآثار المترتبة على ترك الصلاة والجزاء على ذلك.

الفصل السادس: الأعمال الصالحة التي قرنت مع الأمر بالصلاة.

الباب الثالث: الصلاة فريضة الله على خلقه أجمعين، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الصلاة فريضة إلهية على سائر الأنبياء والأمم.

الفصل الثاني: فرض الصلاة وتطور تشريعها على الرسول محمد ﷺ.

الفصل الثالث: جميع من في الكون في صلاة دائمة وعبادة مستمرة.

الباب الرابع: أنواع المصلين وصفاتهم في القرآن الكريم، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: الأنبياء والمؤمنون وحالهم مع الصلاة.

الفصل الثاني: المشركون وحالهم مع الصلاة.

الفصل الثالث: المنافقون وحالهم مع الصلاة.

الفصل الرابع: أهل الكتاب وحالهم مع الصلاة.

الباب الخامس: أنواع الصلوات الواردة في القرآن الكريم:

١- الصلوات الخمس. ٢- صلاة الليل. ٣- صلاة الجمعة. ٤- صلاة الجماعة. ٥- صلاة النافلة: صلاة الضحى، الركعتان بعد المغرب، ركعتي الطواف، صلاة التوبة، سجود التلاوة. ٦- صلاة العيد. ٧- الصلاة على الميت. ٨- صلاة السفر. ٩- صلاة الخوف. ١٠- صلاة المريض. ١١- صلاة الكسوف والخسوف. ١٢- صلاة الاستسقاء.

الباب السادس: مقاصد وفقه الصلاة في القرآن الكريم، وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: إقامة الصلاة تحقيق لذكر الله.

الفصل الثاني: الخشوع روح الصلاة ولبها.

الفصل الثالث: شروط الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم.

الفصل الرابع: أركان الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم.

الفصل الخامس: واجبات الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم.

الفصل السادس: سنن الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم.

الباب السابع: أسلوب القرآن وخصائصه في حديثه عن الصلاة، وفيه تمهيد وفصلان:

الفصل الأول: خصائص وأسلوب القرآن، في العهد المكي.

الفصل الثاني: خصائص وأسلوب القرآن في العهد المدني.

الخاتمة

ولخصت فيها أهم ما توصلت إليه من دراسة الآيات.

الفهارس

١- فهرس الآيات القرآنية:

٢- فهرس الأحاديث والآثار.

٣- فهرس المراجع والمصادر.

٤- فهرس الموضوعات.

هذا ولا يسعني إلا أن أشكر الله الكريم اللطيف بعباده الذي أعانني على إكمال هذه الدراسة، ووفقني لاختيار هذا الموضوع، فإن نعمه عليَّ وعلى عباده لا تحصى، وفضله عليهم وعليَّ واسع، فله الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

كما أشكر جامعة أم القرى والقائمين عليها وأخص منهم القائمين على (كلية الدعوة وأصول الدين) وخاصة (قسم الكتاب والسنة) فقد كانوا خير المعين والموجه فجزاهم الله خيراً.

وأشكر شيخي الدكتور سليمان الصادق البيرة حفظه الله والذي أفدت من سمته وعلمه وجلوسي معه الشيء الكثير، والذي كان له الفضل بعد الله في توجيهي لاختيار الموضوع وصياغة خطته ومتابعته حتى تمت الموافقة عليه.. وأسأل الله الكريم أن يثيبه على الأوقات الثمينة التي قضاها مصغياً لما أقرأه عليه من الرسالة فقد قرأتها عليه حرفاً حرفاً وأتلقى توجيهاته السديدة التي كانت سبباً في ظهور البحث بهذه الصورة.

كما أفدت من أسلوبه في كتبه القيمة النافعة التي أهداها لي فجزاه الله عني خير الجزاء.

وفي الختام: أؤكد أن هذه الدراسة لا تعدو أن تكون مجرد محاولة خطؤها أكثر من صوابها والله تعالى أسأل أن يتجاوز عني بعفوه ويشملني بستره، ويسامحني بفضله والحمد لله رب العالمين وصلى الله على إمام المصلين الخاشعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الأول

حقيقة الصلاة في اللغة والقرآن

وفيه فصلان

الفصل الأول: معنى الصلاة، وألفاظها في القرآن الكريم، وفيه مبحثان

المبحث الأول: الصلاة في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: وجوه ونظائر «الصلاة في القرآن الكريم»

الفصل الثاني: الألفاظ المستعملة في معنى الصلاة مثل: القيام، الركوع، السجود، الإيمان، القرآن، الذكر، التسبيح، القنوت.

الفصل الأول

المبحث الأول: الصلاة في اللغة والاصطلاح

المطلب الأول: الصلاة في اللغة:

(١) الصلاة: اسم مصدرٍ، من قولهم: «صلى صلاة»، وهو مأخوذ من مادة: «ص ل و / ي» التي تدل على أمرين:

الأول: النار وما أشبهها من الحمى.

والثاني: جنس من العبادة.

يقول ابن فارس[(١)]: فأما الأول: فقولهم: صليتُ العود بالنار، والصَّلاء: ما يصطلى به وما يذكى به النار ويوقد.

وأما الثاني: فالصلاة: هي الدعاء، يقول المصطفى ﷺ: (إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليأكل، وإن كان صائماً فليصل)[(٢)] أي: فليدع لهم بالخير والبركة.

(٢) قال صاحب اللسان[(٣)]: والجمع «صلوات» والصلاة: الدعاء والاستغفار.

قال الأعشى:

وصهباء طاف يهوديها ... وأبرزها وعليها ختم
وقابلها الريح في دنها ... وصلى على دنها وارتسم

قال: دعا لها أن لا تحمض ولا تفسُد.

والصلاة من الله تعالى الرحمة، قال عدي بن الرقاع:

صلى الإله على امرئ ودعته ... وأتم نعمته عليه وزادها

وقال الراعي:

صلى على عزة الرحمنُ وابنتها ... ليلى وصلى على جاراتها الأخر

وصلاة الله على رسوله ﷺ: رحمته له وحُسن ثنائه عليه.

---

(١) يُنظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٣٠).

(٢) أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي، رقم (١٤٣١) وأحمد في المسند (٣/ ٣٩٢) ويُنظر: شرح السنة للبغوي (٦/ ٣٧٥).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٧/ ٣٩٧) مادة «صلا».

وفي حديث ابن أبي أوفى أنه قال: (أعطاني أبي صدقة ماله فأتيت بها رسول الله ﷺ فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى)(١).

قال الأزهري: هذه الصلاة عندي الرحمة، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فالصلاة من الملائكة دعاءٌ واستغفار، ومن الله رحمة، وبه سميت الصلاة لما فيها من الدعاء والاستغفار.

وكل داعٍ فهو مصلٍ ومنه قول الأعشى:

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوماً فإن لجنب المرء مضطجعاً

معناه: أنه يأمرها بأن تدعو له مثل دعائها أي تعيد الدعاء له..

(٣) قال الزجاج: الأصل في الصلاة «اللزوم» يقال: قد «صلي» و«اصطلى» إذا لزم، ومن هذا: من يُصلى في النار، أي يلزم النار(٢).

(٤) قال ابن الأثير: «...وهي العبادة المخصوصة، وأصلها في اللغة **الدعاء** فسميت ببعض أجزائها، وقيل: إن أصلها في اللغة **التعظيم**، وسميت العبادة المخصوصة صلاة لما فيها من تعظيم الرب تعالى، وقوله في التشهد «الصلوات لله» أي الأدعية التي يراد بها تعظيم الله تعالى، هو مستحقها لا تليق بأحد سواه، فأما قولنا: «اللهم صل على محمد» فمعناه: عظمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وتضعيف أجره ومثوبته، وقيل: لما أمر الله سبحانه بالصلاة عليه ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلنا على الله وقلنا: اللهم صل أنت على محمد لأنك أعلم بما يليق به»(٣).

(٥) قال الجوهري: «... والصلاة واحدة الصلوات المفروضة، وهو اسم يوضع موضع المصدر، تقول: صليت صلاةً، ولا تقل تصليةً، وصليت على النبي ﷺ.

وصلَّيت العصا بالنار: إذا لينتها.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، رقم (١٤٩٧) (١/ ٤٦٤) وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، رقم (١٠٧٨) (٢/ ٧٥٦).

(٢) يُنظر: لسان العرب (٧/ ٣٩٧).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/ ٥٠).

وقال قيس بن زهير العبسي:

فلا تعجل بأمرك واستدمه   فما صلّى عصاك كمستديم

أي قوّم.

والمصلى: تالي السابق، يقال: صلى الفرس إذا جاء مصلياً، وهو الذي يتلو السابق لأن رأسه عند صلاه... **والصلا**: ما عن يمين الذنب وشماله، وهما صلوان.

وأصلت الفرس: إذا استرخى صلواها، وذلك إذا قرب نتاجها»[(١)].

(٦) وقال السهيلي: «إن أصل الصلاة انحناء وانعطاف من «الصلوين» ثم قالوا: صلى عليه: بمعنى: انحنى عليه، ثم سمو الرحمة «حنواً وصلاة» إذا أرادوا المبالغة فيها «أي الرحمة» فقولك: صلى الله على محمد، أرق وأبلغ من قولك: رحم الله محمداً من الحنو والعطف، والصلاة أصلها في المحسوسات، وعبر بها عن هذا المعنى مبالغة وتأكيداً، ومنه قيل: صليت على الميت: دعوت له دعاء من يحنو عليه، ولذلك لا تكون الصلاة بمعنى **الدعاء على الإطلاق**، فلا تقول: صليت على العدو أي دعوت عليه، وإنما يقال: صليت عليه في معنى الحنو والرحمة والعطف لأنها فعل انعطاف، ومن أجل ذلك عديت في اللفظ بـ«على» ولا تقول في الدعاء: إلا صليت له بمعنى دعوت له فتُعدِّي الفعل باللام إلا أن تريد الشر والدعاء على العدو»[(٢)].

(٧) وقال الراغب: «... والصلاة قال كثير من أهل اللغة: هي الدعاء والتبريك والتمجيد، يقال: صليت عليه: أي دعوت له وزكيت...

إلى أن قال: .... وقال بعضهم: أصل الصلاة من الصَّلى.

ومعنى صلى الرجل أي: إذا ذاد وأزال عن نفسه بهذه العبادة الصَّلى الذي هو نار الله الموقدة، وبناء «**صلّى**» كبناء «**مرّض**» لإزالة المرض، ويسمى موضع العبادة «الصلاة» ولذلك سميت الكنائس «صلوات» كقوله: ﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج: ٤٠]»[(٣)].

(٨) وقال قوم: هي مأخوذة من «الصِّلا» وهو عرق في وسط الظهر، ويفترق عند

(١) الصحاح (٦/ ٢٤٠٢).

(٢) يقارن مع نضرة النعيم (٦/ ٢٥٣٧) ويُنظر: الغرابة في الحديث النبوي للبركاوي (١٧٨).

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني (٤٩١) ويُنظر: لسان العرب (٧/ ٣٩٨).

العجب فيكتنفه، ومنه أُخذ المصلى في سبق الخيل لأنه يأتي في الحلبة ورأسه عند صلوى السابق، فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلى من الخيل، وإما لأن الراكع تثنى صلواه، والصلا مغرز الذنب من الفرس، والاثنان صلوان.. وقال علي رضي الله عنه: «سبق رسول الله ﷺ، وصلّى أبو بكر، وثلّث عمر»[(١)].

(٩) مما سبق يظهر تردد أئمة اللغة في اشتقاق الصلاة والأصل فيه، وللطاهر ابن عاشور يرحمه الله في التحرير والتنوير كلام بديعٌ جداً في الجمع بين الأقوال السابقة والتوفيق بينها والاستدلال لها أحاول تلخيصه هنا لأني لم أر أجمع ولا أخصر منه فيقول: «... قال قوم «الصلاة» مشتقة من «الصلا» وهو عرق غليظ في وسط الظهر ويفترق عند عجب الذنب فيكتنفه فيقال حينئذ هما «صلوان»، ولما كان المصلي إذا انحنى للركوع ونحوه تحرك ذلك العرق اشتقت الصلاة منه كما يقولون «أنف من كذا» إذا شمخ بأنفه لأنه يرفعه إذا اشمأز وتعاظم، فهو من الاشتقاق من الجامد كقولهم «استنوق الجمل»... والذي دل على هذا الاشتقاق هنا عدم صلوحية غيره فلا يعد القول به ضعيفاً لأجل قلة الاشتقاق من الجوامد.

وإنما أطلقت على الدعاء لأنه يلازم الخشوع والانخفاض والتذلل.

ثم اشتقوا من الصلاة «**صلّى**» إذا فعل الصلاة... كما اشتقوا «**صلَى**» الفرس إذا جاء معاقباً «**للمجلي**» في حلبة الخيل، لأنه يجيء واضعاً رأسه على صلا سابقه، واشتقوا منه «المصلى» اسماً للفرس الثاني في خيل الحلبة، وهذا الرأي في اشتقاقها مقتضب من كلامهم وهو الذي يجب اعتماده إذ لم يصلح لأصل اشتقاقها غير ذلك.

وما أورده الفخر في التفسير أن دعوى اشتقاقها من «الصلوين» يفضي إلى طعن عظيم في كون القرآن حجة لأن لفظ الصلاة من أشد الألفاظ شهرة، واشتقاقه من تحريك الصلوين من أبعد الأشياء اشتهاراً فيما بين أهل النقل، فإذا جوزنا أنه خفي واندرس حتى لا يعرفه إلا الآحاد لجاز مثله في سائر الألفاظ فلا نقطع بأن مراد الله تعالى من هذه الألفاظ ما يتبادر منها إلى أفهامنا في زماننا هذا لاحتمال أنها كانت في زمن الرسول ﷺ موضوعة لمعان أخر خفيت علينا»[(٢)]، يرده أنه لا مانع من أن يكون لفظ

(١) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٦٨) ويقارن مع البيضاوي (١/ ٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (١/ ٣٩٣).

مشهور منقولاً من معنى خفي لأن العبرة في الشيوع بالاستعمال، وأما الاشتقاق فبحث علمي ولهذا قال البيضاوي: «واشتهار هذا اللفظ في المعنى الثاني مع عدم اشتهاره في الأول لا يقدح في نقله منه»، ومما يؤيد أنها مشتقة من هذا كتابتها بالواو في المصاحف إذ لولا قصد الإشارة إلى ما اشتقت منه ما كان وجه لكتابتها بالواو، وهم كتبوا الزكاة، والربا، والحياة، بالواو إشارة إلى الأصل.

وأما قول صاحب الكشاف: وكتابتها بالواو على لفظ المفخم أي لغة التفخيم للام يرده أن ذلك لم يصنع في غيرها من اللامات المفخمة[١].

(١٠) ويرجح بعض اللغويين المعاصرين من أعضاء مجمع اللغة العربية أن لفظ الصلاة ليس عربياً أصيلاً، وأنها في الآرامية «صلوطاً» من فعل معناه الانحناء والانثناء، وخرجوا عليه بعض الأقوال التي سبق ذكرها من أن أصل الصلاة «من الصَّلا» وهو ما عن يمين الذنب وشماله، أو من «الصَّلا» وهو عرق وسط الظهر، وقالوا: إن هذه الأقوال تنتهي إلى المعنى الآرامي، وهو أن مأخذ الصلاة من حركة المصلي انحناءً وقياماً، حيث جاء في معجم ألفاظ القرآن قولهم:« ومن هذا المأخذ المشترك قد يمكن القول بأن المادة موجودة في غير لغة واحدة من الساميات مشتركة فيها، ويكون هذا مرجحاً إلى حدما- للقول بأن مأخذ الصلاة من أعضاء للإنسان تتحرك عندها، هي الظهر أو موصل الفخذين لما يكون من الانثناء والانحناء عند الصلاة...»[٢].

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٣٢-٢٣٤) باختصار وتصرف بسيط وتفسير الكشاف (٣٨).

(٢) يُنظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم - مجمع اللغة العربية- الطبعة الأولى (١/ ٦٩٦)، ويُنظر أيضاً: لسان العرب (١/ ٣٩٨) ليعرف شي مما احتجوا به، ثم إن مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية حذف كثيراً من التعليقات في طبعته المنقحة عام ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

المطلب الثاني: الصلاة في الاصطلاح

١) قال الجرجاني: «الصلاة في الشريعة عبارة عن أركان مخصوصة، وأذكار معلومة بشرائط محصورة في أوقات مقدرة»[١].

٢) ويقول الفقهاء: «هي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة على تفصيل لدى المذاهب»[٢].

٣) وقد عبر عنها المفسرون بتعبيرات متقاربة منها:

أ- «الصلاة في الشريعة أفعال وأقوال على صفات مخصوصة»[٣].

ب- «الصلاة في الشرع دعاء انضاف إليه هيئات وقراءة...»[٤].

جـ- «الصلاة في الشريعة اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود وثناء»[٥].

د- وقال بعضهم:«وقد نقلت الصلاة في لسان الشرع إلى الخضوع بهيئة مخصوصة ودعاء مخصوص وقراءة وعدد...»[٦].

هـ- وقيل: الصلاة اسم علم وضع لهذه العبادة، فإن الله تعالى لم يخل زماناً من سن شرع، ولم يخل شرع من صلاة ...[٧].

٤) وهنا مسألة تعرض لها جمع من المفسرين وهي أن معنى الصلاة في الشرع هل له علاقة وصلة بالمعنى اللغوي.. بمعنى هل هي مبقاة على أصلها اللغوي الوضعي الابتدائي؟ والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام؟ أو هل تلك الزيادة من الشرع تصيرها موضوعة كالوضع الابتدائي من قبل الشرع؟

والواقع أن هذه مسألة أصولية تعرض لها وناقشها جمع من الأصوليين واللغويين.

وذكر ابن العربي في تفسيره أن في هذه المسألة قولين:

---

(١) التعريفات للشريف علي الجرجاني (١٣٤).
(٢) يُنظر: الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري وآخرين (١/ ١٧٥) والفروع لابن مفلح (١/ ٢٨٥).
(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٣٩).
(٤) المحرر الوجيز لابن عطية (٥١).
(٥) معالم التنزيل للبغوي (١٥).
(٦) التحرير والتنوير (١/ ٢٣٤).
(٧) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٦٩) حيث نسب هذا القول لأبي نصر القشيري.

أحدهما: أن الصلاة لم تكن معروفة عندهم حتى بينها النبي ﷺ، فعلى هذا هي لفظ مجمل.

والثاني: أنها عامة في متناول الصلاة حتى خصها النبي ﷺ بفعله المعلوم في الشريعة.

ثم قال: «والصحيح عندي أن كل لفظ عربي يرد مورد التكليف في كتاب الله عز وجل مجملٌ موقوف بيانه على رسول الله ﷺ إلا أن يكون معناه محدوداً لا يتطرق إليه اشتراك، فإن تطرق إليه اشتراك، واستأثر الله عز وجل برسوله ﷺ قبل بيانه، فإنه يجب طلب ذلك في الشريعة على مجمله، فلا بد أن يوجد، ولو فرضنا عدمه لارتفع التكليف به...» [(١)].

ورجح القرطبي أن الصلاة مبقاة على أصلها اللغوي الوضعي الابتدائي، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام ثم قال: «لأن الشريعة ثبتت بالعربية والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين، ولكن للعرب تحكم في الأسماء كالدابة وضعت لكل ما يدب ثم خصصها العرف بالبهائم، فكذلك لعرف الشرع تحكم في الأسماء» [(٢)].

وقال ابن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال ونقلت ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات، ومما جاء في الشرع «الصلاة»، وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود وإن لم يكن على هاته الهيئة، قال النابغة:

أو درةٌ صدفية غواصها ... بهج متى يرها يُهِلّ ويسجد

وهذا وإن كان كذا فإن العرب لم تعرفه بمثل ما أتت به الشريعة من الأعداد والمواقيت [(٣)].

ولا شك أن العرب عرفوا الصلاة والسجود والركوع، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقد كان بين ظهرانيهم اليهود يصلون، أي يأتون عبادتهم بهيئة مخصوصة وسموا كنيستهم

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٣٢) بتصرف واختصار.

«صلاة»، وكان بينهم النصارى وهم يصلون، وقد قال النابغة في ذكر دفن النعمان بن الحارث الغساني:

فآب مصلّوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونايل

أراد المصلين عليه عند دفنه من القسس والرهبان إذ قد كان متنصراً[(١)].

وإذا نظرنا إلى معنى الصلاة في اللغة والاصطلاح وجدنا الصلة بينهما وثيقة فالدعاء، والتعظيم، واللزوم، كلها معان موجودة في الصلاة بمعناها الشرعي، وأطلقت على الصلاة كلها من باب تسمية الشيء ببعض أجزائه وإن كانت في اللغة مأخوذة من «الصلوين» فهما موضعان في الإنسان يقوم عليهما الركوع والسجود، فلا ركوع ولا سجود بلا تحريك لهما، فأخذ اسم الصلاة منهما كما أخذ اسم «البيع» من «الباعين» اللذين يمدهما البائع والمشتري.

وإن كانت الصلاة مأخوذة من «صلوتا» وهو موضع الصلاة فالصلة بين المعنيين ظاهرة...[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٣٣) بتصرف واختصار.

(٢) يُنظر: الصلاة في القرآن الكريم د. فهد الرومي (١٠).

المبحث الثاني
وجوه ونظائر «الصلاة» في القرآن الكريم

من المعلوم أن علم «الوجوه والنظائر» هو من فروع علم التفسير، ومعناه: أن تكون الكلمة الواحدة مثل «الصلاة» ذكرت في ما يقرب من مائة موضع من القرآن الكريم منها ما هو على لفظ واحد وحركة واحدة، ومعنى واحد، ومنها ما ليس كذلك، وقد جعل بعض العلماء ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر.

والمتتبع لإطلاقات القرآن الكريم للفظ «الصلاة» يظهر له وبوضوح أنه لم يقصر إطلاق لفظ «الصلاة» على الصلوات الخمس المفروضة وحسب بل أطلقه عليها وعلى غيرها.

وسأحاول في هذا المبحث تتبع الآيات القرآنية الكريمة ومعرفة المعاني التي أرادها القرآن من لفظ «الصلاة».

الوجه الأول: بمعنى الصلوات الخمس بعينها[١]:

وهذا المعنى فيه أكثر الآيات الواردة مثل قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣][٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [هود: ١١٤][٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣][٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الحج: ٣٥][٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، إلى غير ذلك من المواضع التي لا مجال هنا لحصرها، وستأتي دراستها في مواضع أخرى.

قال ابن الجوزي: «وكذلك كل صلاة قرنت بذكر الزكاة»[٦].

---

(١) يُنظر: كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر لابن العماد (١٠٦) وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٣/ ٤٣٨) والوجوه والنظائر للدامغاني (٢٩٤).

(٢) وهناك ست آيات بهذا اللفظ وثلاثة بلفظ: (يقيموا).

(٣) وهناك أربع آيات أخرى بلفظ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

(٤) وهناك أحد عشر آية بهذا اللفظ.

(٥) وفي النساء (١٦٢) بلفظ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

(٦) منتخب قرة العيون النواظر لابن الجوزي (١٦١) وقد ورد ذلك في خمس وعشرين آية.

الوجه الثاني: **بمعنى الدعاء**[١]:

قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال ابن كثير يرحمه الله: وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: أي ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن أبي أوفى قال: (كان النبي ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى)[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له[٣].

الوجه الثالث: **بمعنى الاستغفار**[٤]:

وقد جمع الدامغاني رحمه الله بين هذا الوجه والوجه السابق[٥]، وفسّر آيتيْ سورة براءة به[٦]... ولكني رأيت إفراده عن سابقه كما صنع الفيروزآبادي[٧]، وابن الجوزي[٨]، وابن العماد[٩] رحمهم الله، ولأن الدعاء أعم، والاستغفار أخص، ويستدل له بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٩٩].

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾: «أي دعاءه واستغفاره»[١٠].

وقال الدامغاني: «يعني استغفار الرسول»[١١].

وقال البيضاوي: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾: وسبب صلواته لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولذلك سن للمتصدَّق عليه أن يدعو للمتصدِّق عند أخذ

---

(١) كشف السرائر (١٠٦) وبصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٨) ومنتخب قرة العيون (١٦١).
(٢) تقدم تخريجه صفحة (٣).
(٣) يُنظر: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٥٨٩).
(٤) يُنظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٦/ ٤٦٣) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) الوجوه والنظائر للدامغاني (٢٩٤).
(٦) سورة التوبة، الآية (٩٩) والآية (١٠٣).
(٧) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٨).
(٨) نزهة الأعين النواظر (٢/ ١٠).
(٩) كشف السرائر (١٠٦).
(١٠) معالم التنزيل (٥٧٨).
(١١) الوجوه والنظائر (٢٩٤).

صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال النبي ﷺ: (اللهم صل على آل أبي أوفى) لأنه منصبه فله أن يتفضل به على غيره[(١)].

الوجه الرابع: بمعنى المغفرة[(٢)]:

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] حيث جاءت هذه الآية تعقيباً على جزاء المؤمنين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا «إنا لله وإنا إليه راجعون».

قال البيضاوي: «... والصلاة من الله تعالى التزكية والمغفرة، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها، والمراد بالرحمة اللطف والإحسان»[(٣)].

ومثل آية البقرة آيتيْ الأحزاب فسرهما جمع من المفسرين بمعنى المغفرة[(٤)].

فالآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «فصلاة الله تعالى المغفرة»[(٥)].

وقال الدامغاني: «إن الله تعالى يصلي بالمغفرة، وملائكته بالاستغفار»[(٦)].

الوجه الخامس: بمعنى الرحمة[(٧)]:

ويستدل لهذا الوجه بالآيات السابقة في الوجه الرابع فقد فسر جمع من المفسرين الصلاة بأنها من الله بمعنى الرحمة، وأفردت هذا الوجه عن سابقه لأن المغفرة من مظاهر الرحمة.

قال البغوي عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة:

---

(١) يُنظر: تفسير البيضاوي (١/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: جامع البيان (٢/ ٢٦) والوجوه والنظائر (٢٩٥) وكشف السرائر (١٠٦).

(٣) تفسير البيضاوي (١/ ١٠١).

(٤) يُنظر: منتخب قرة العيون (١٦١) وزاد المسير (٩٦).

(٥) منتخب قرة العيون (١٦١).

(٦) الوجوه والنظائر (٢٩٥).

(٧) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٧) والعمدة في غريب القرآن لمكي بن أبي طالب (٨٥).

[١٥٧] صَلَوَٰتٌ أي رحمة، فإن الصلاة من الله رحمة، وَرَحۡمَةٌ ذكرها الله تأكيداً، وجمع الصلوات أي رحمة بعد رحمة[١].

وقال في تفسير آية الأحزاب: «فالصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين»[٢].

وقال القرطبي عند تفسير قوله تعالى: أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ : هذه نعم من الله عز وجل على الصابرين المسترجعين، وصلاة الله على عبده: عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة، ثم قال: «وكرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيداً وإشباعاً للمعنى»[٣].

الوجه السادس: بمعنى القراءة[٤]:

قال تعالى: وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا [الإسراء: ١١٠].

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا عن أصحابك فلا تسمعهم وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا [٥].

الوجه السابع: بمعنى صلاة الجماعة[٦]:

قال تعالى: وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ [المائدة: ٥٨].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة استهزاء الكفار بصلاة الجماعة والآذان لها حيث إن صلاة الجماعة هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب، ولا يستهزئ بها إلا من لم يعقل عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات

---

(١) معالم التنزيل (٧٥).
(٢) المرجع السابق (١٠٤٥).
(٣) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ٥٧٨).
(٤) نزهة الأعين النواظر (٢/ ١٠).
(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير- سورة الإسراء، الباب (١٤) رقم (٤٧٢٢) وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية بين الجهر والإسرار إذا خاف من الجهر مفسدة رقم (٤٤٧).
(٦) يُنظر: بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٧) ونزهة الأعين النواظر (٢/ ١٠).

أتباع الشيطان[١].

الوجه الثامن: **بمعنى صلاة الجمعة**[٢]:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

ولا شك أن المقصود بالنداء للصلاة في هذا اليوم هي صلاة الجمعة.

وإنما سمي اليوم جمعة لاجتماع الناس للصلاة، وكانت العرب تسميه «العروبة».

وقيل: سماه كعب بن لؤي لاجتماع الناس فيه إليه، وأول جمعة جمعها رسول الله ﷺ أنه لما قدم المدينة نزل قباء فأقام بها إلى الجمعة ثم دخل المدينة وصلى الجمعة في واد لبني سالم بن عوف[٣].

الوجه التاسع: **بمعنى صلاة العيد**[٤]:

قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قال: خرج إلى العيد فصلى صلاته، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرءاً تصدق ثم صلى، ثم يقرأ هذه الآية، وقال نافع: كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني من يوم العيد قال: يا نافع أخرجت الصدقة؟ فإن قلت: نعم، مضى إلى المصلى، وإن قلت: لا قال: فالآن فأخرج فإنما نزلت هذه الآية في هذا[٥].

الوجه العاشر: **بمعنى صلاة العصر**[٦]:

قال تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يريد صلاة العصر، قاله الأكثر من العلماء لأن أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويتجنبون فيه الكذب واليمين الكاذبة.. وقيل: إن فائدة اشتراطه بعد الصلاة تعظيماً للوقت، وإرهاباً لشهود الملائكة ذلك الوقت، وفي الصحيح: (من حلف على يمين كاذبة بعد العصر لقي الله وهو عليه

---

(١) يقارن مع المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٣٨٧).
(٢) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٧) ونزهة الأعين النواظر (٢/ ١٠).
(٣) يقارن مع تفسير البيضاوي (٢/ ١٠٦٨)، وينظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري (٢/ ٣٩٤-٣٩٦) ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٢٣-٥٢٥) والبداية والنهاية (٣/ ٢١٣-٢١٤).
(٤) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٧).
(٥) يُنظر: معالم التنزيل (١٤٠١).
(٦) نزهة الأعين النواظر (٢/ ١٠) وبصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٧).

غضبان)[(١)]، وأصرح من ذلك لإثبات ورود صلاة العصر في القرآن قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ذلك أن أرجح الأقوال في تفسيرها أنها صلاة العصر، ففي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال يوم الأحزاب: (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً)[(٢)]، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، وهو الصحيح الذي تدل عليه الأحاديث الصحيحة الراجحة، وإليه ذهب الطبري والدمياطي وابن كثير وأهل الأثر[(٣)].

الوجه الحادي عشر: بمعنى صلاة الجنازة[(٤)]:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤].

في هذه الآية أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصل على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وقد كان سبب نزول الآية في عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين حيث صلى عليه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل[(٥)].

الوجه الثاني عشر: بمعنى صلاة السفر[(٦)]:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١].

تسمى هذه الآية آية القصر، والقصر المقصود هنا في السفر وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ومعنى القصر هنا عند جمهور العلماء هو القصر من عدد الركعات في الصلاة الرباعية فتصبح ركعتين بدلاً من أربع، وذلك في صلاة الظهر،

---

(١) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٦٧٨) والحديث أخرجه البخاري بمعناه في كتاب المساقاة، باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، رقم (٢٣٦٩) (٢/ ٥١).

(٢) يُنظر: صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، رقم (٦٢٧) (١/ ٤٣٧) ويُنظر: زاد المسير (١٤٦).

(٣) زاد المسير (١٤٧) من تعليق المحقق.

(٤) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٧) ونزهة الأعين النواظر (٢/ ١٠).

(٥) يقارن مع المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٥٨٤).

(٦) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٧).

والعصر، والعشاء، وقصر الصلاة في السفر جائز بإجماع الأمة(١).

الوجه الثالث عشر: بمعنى صلاة الخوف(٢):

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢].

أخرج البغوي عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهما: «أن المشركين لما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى الظهر يصلون جميعاً ندموا أن لو كانوا أكبوا عليهم فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم يعني «صلاة العصر»، فإذا قاموا فيها فشدوا عليهم فاقتلوهم، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنها صلاة الخوف، وإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعلمه صلاة الخوف»(٣).

الوجه الرابع عشر: بمعنى صلاة الأمم الماضية(٤):

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: ٨٧].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال تعالى عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقال في قصة زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

فجميع هذه الآيات السابقة وغيرها مما يدل على أن المقصود بالصلاة في هذه الآيات هو صلاة الأمم السابقة قبلنا، وأن الله فرضها عليهم.

---

(١) يُنظر: زاد المسير (٣١٨) ومعالم التنزيل (٣٣١) ويقارن.

(٢) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٧).

(٣) معالم التنزيل (٣٣٢)، ويُنظر: الدر المنثور (٤/ ٦٦٠-٦٧٣) وقد ذكر روايات عدة عن غير ابن عباس وجابر في صفة صلاة الخوف قريبة من هذه، ويُنظر: صحيح سنن أبي داود، رقم (١٠٩٦) وصحيح سنن الترمذي، رقم (٢٤٣١).

(٤) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٨).

الوجه الخامس عشر: بمعنى الإسلام[(١)]:

قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١].

والراجح في تفسير هذه الآية أن فعل «صدق» مشتق من التصديق، أي تصديق الرسول ﷺ وهو المناسب لقوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾، والمعنى: فلا آمن بما جاء به الرسول ﷺ، وعطف ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ على نفي التصديق تشويهاً له بأن حاله مبائن لأحوال أهل الإسلام، والمعنى: فلم يؤمن ولم يُسلم[(٢)].

الوجه السادس عشر: بمعنى الدِّين[(٣)]:

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧].

روي عن عطاء أن المراد بقوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ أي: دينك، ومعنى الآية: أنهم يقولون له على سبيل التهكم والاستهزاء والسخرية: أدينك يأمرنا أن نترك عبادة الأوثان والأصنام وأن نترك التطفيف على قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد[(٤)].

وقال صاحب التحرير والتنوير: «كانت الصلاة من عماد الأديان كلها، وكان المكذبون الملحدون قد تمالؤوا في كل أمة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها... فلما كانت الصلاة أخص أعماله المخالفة لمعتادهم جعلوها المشيرة عليه بما بلغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم -بناء على التناسب بين السبب والمسبب في مخالفة المعتاد- قصداً للتهكم به والسخرية عليه تكذيباً له فيما جاءهم به، فإسناد الأمر إلى الصلوات غير حقيقي إذ قد علم كل العقلاء أن الأفعال لا تأمر، والمعنى: أن صلاته تأمرهم بأنهم يتركون أي: تأمره بأن يحملهم على ترك ما يعبد آباؤهم، إذ معنى كونه مأموراً بعمل غيره أنه مأمور بالسعي في ذلك بأن يأمرهم بأشياء»[(٥)].

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: زاد المسير (٤٩٥) ومعالم التنزيل (١٣٦٨) والتحرير والتنوير (٢٩/ ٣٤٩) ويقارن.

(٣) نزهة الأعين النواظر (٢/ ١٠) وكشف السرائر (١٠٥).

(٤) يُنظر: زاد المسير (٦٦٩) والمصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٦٤٤) ويقارن.

(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ١٤١).

الوجه السابع عشر: بمعنى مواضع الصلاة وبيوتها أو الكنائس[(١)]:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وفي المراد بالصلوات قولان:

أحدهما: مواضع الصلوات، وروي عن قتادة والضحاك أنها كنائس اليهود، وهي بالعبرانية «صلوتا»، وروي عن أبي العالية أنها مساجد الصابئين.

والثاني: أنها الصلوات حقيقة.

قال الزجاج: معنى الآية: لولا دفع بعض الناس ببعض لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد[(٢)].

الوجه الثامن عشر: بمعنى صلاة المشركين البدعية[(٣)]:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

قال ابن عباس والحسن: المكاء: الصفير، وهي في اللغة اسم طائر أبيض يكون بالحجاز له صفير كأنه قال: الأصوات مكاء، والتصدية: التصفيق.

وعن ابن عمر: أن سبب نزولها أن قريشاً كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفرون ويضعون خدودهم بالأرض فنزلت هذه الآية.

وقال مقاتل: كان النبي ﷺ إذا صلى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفران، ورجلان عن يساره فيصفقان ليخلطوا على النبي ﷺ صلاته.

وقال ابن الأنباري: إنما سماه صلاة لأنهم أمروا بالصلاة في المسجد الحرام فجعلوا ذلك صلاتهم[(٤)].

وقال البيضاوي: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعونه موضعها[(٥)].

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٣٨) وإصلاح الوجوه والنظائر (٢٩٥) ونزهة الأعين النواظر (٢/ ١١).

(٢) يقارن بين زاد المسير (٩٦٠) ومعالم التنزيل (٨٧٠) وبين ما ذكر هنا.

(٣) لم أقف على ذكر لهذا الوجه في كتب الوجوه والنظائر.

(٤) يُنظر: زاد المسير (٢٥٢) ومعالم التنزيل (٥٢٥) ويقارن.

(٥) تفسير البيضاوي (١/ ٣٨٤).

الوجه التاسع عشر: بمعنى صلاة المنافقين[(١)]:

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

قال ابن الجوزي: نزل هذا في المنافقين الذين لا يرجون لصلاتهم ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً فإن كانوا مع النبي ﷺ صلوا رياءً وإن لم يكونوا معه لم يصلوا.

وقال ابن مسعود: والله ما تركوها البتةولو تركوها البتة كانوا كفاراً ولكن تركوا المحافظة على وقتها[(٢)].

وقال سبحانه في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنيْ الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً)[(٣)].

الوجه العشرون: بمعنى صلاة جميع المخلوقات[(٤)]:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

ينبه الله تعالى عباده على عظمته وكمال سلطانه وافتقار جميع المخلوقات إليه في ربوبيتها وعبادتها.. من الحيوان والجماد، وخص الطير بالذكر لأنها تكون بين السماء والأرض إذا طارت فهي خارجة عن جملة من في السماوات والأرض حيث ورد عن بعض المفسرين أن ضرب الأجنحة صلاة الطير، وصوته تسبيحه.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي كل من هذه المخلوقات له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل: كالجن، والإنس، والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات.. ويحتمل أن

---

(١) لم أقف على من ذكرهذا الوجه من علماء الوجوه والنظائر.

(٢) يُنظر: زاد المسير (١٥٩٤).

(٣) يُنظر: فتح الباري (٦/ ٣٨٦) وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالعصر، رقم (٦٢٢) (١/ ٤٣٤)، ويُنظر: المصباح المنير (١٥٣٥).

(٤) لم أقف على من ذكر هذا المعنى من علماء الوجوه والنظائر.

الضمير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يعود إلى الله تعالى، وأن الله قد علم عبادتهم وإن لم يعلم العباد منها ذلك[1].

وحين يتأمل المتأمل في العشرين وجهاً من المعاني التي أطلق عليها لفظ الصلاة في القرآن الكريم يجد أنها لا تعدوا الحالات التالية[2]:

١- إما استعمال للكلمة «الصلاة» بمعنى الصلوات الخمس المفروضة وذلك في أكثر الآيات على الإطلاق.

٢- أو استعمال «للصلاة» في معناها اللغوي الأول «الدعاء» أو أخص منه «الاستغفار» أو ثوابه «المغفرة» أو ما هو أعم منها «الرحمة».

٣- أو من باب إطلاق الكل على البعض كإطلاقه «الصلاة» على «القراءة» فيها، أو «صلاة الجماعة» أو «الجمعة» أو «العيد»، أو «العصر» أو «الجنازة» أو «السفر» أو «الخوف» أو «الأمم السابقة» أو «صلاة المشركين» أو «المنافقين» أو «صلاة جميع المخلوقات».

٤- أو من باب إطلاق «الصلاة» على «مواضعها».

٥- وقد يطلق لفظ الصلاة على غيرها مما هو أعم منها لإظهار الصلة الوثيقة بين المعنيين وجعل لفظ «الصلاة» بمثابة الرباط القوي بينهما الذي يجعلهما كالشيء الواحد الذي لا ينفصل بعضه عن بعض وذلك كما رأينا في:

أ- إطلاق لفظ الصلاة على «الدين» أو «الإسلام».

ب- وفي إطلاقها على «المغفرة» أو «الرحمة» دلالة على أثرين من آثار الصلاة على العباد، وكأن المغفرة، والرحمة لازمتان من لوازم الصلاة المقبولة لا ينفكان عنها.

---

(١) يُنظر: زاد المسير (١٠٠٢) ومعالم التنزيل (٩١٣) وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٥١٨) ويقارن.

(٢) يُنظر: الصلاة في القرآن الكريم (١٧) ويقارن.

الفصل الثاني
الألفاظ المستعملة في معنى الصلاة

إن المتدبر للقرآن الكريم يظهر له وبوضوح تعظيم القرآن واهتمامه بالصلاة وذكره لها بأسماء شتى متعددة منها ما هو من أجزائها كالقيام، والركوع، والسجود.

ومنها: ما هو من الأذكار والأقوال التي تشتمل عليها الصلاة كالحمد، والتسبيح، والقنوت، والاستغفار.

ومنها: ما هو من موجباتها وآثارها كالإيمان.

وسأحاول هنا جمع ما ظهر لي من هذه الألفاظ والنظر في الآيات الواردة في ذلك وتلمس الحِكم والمعاني التي من أجلها أطلق القرآن تلك الأسماء على الصلاة، ولندرك اهتمام القرآن بشأنها وتفخيمه لها لفظاً ومعنى.

يقول ابن القيم رحمه الله: «ولما بنيت الصلاة على خمس: القراءة، والقيام، والركوع، والسجود، والذكر، سميت باسم كل واحد من هذه الخمس»[(١)].

أولاً: سميت «قياماً»:

لقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢]، يعني: صل الليل[(٢)]، ولقوله تعالى في آخر السورة: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] يعني أنك تصلي[(٣)].

وقيام الليل لقب في اصطلاح القرآن والسنة للصلاة فيه ما عدا صلاة المغرب والعشاء ورواتبهما، وأمر الرسول ﷺ بقيام الليل أمر إيجاب وهو خاص به لأن الخطاب موجه إليه وحده.. وأما قيام الليل للمسلمين فهم اقتدوا بالرسول ﷺ.. وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس.. ولعل حكمة هذا القيام الذي فرض على الرسول ﷺ في صدر رسالته هو أن تزداد به سريرته زكاءً يقوي استعداده لتلقي الوحي[(٤)].

وإن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها،

---

(١) يُنظر: أسرار الصلاة لابن القيم (٩٨).

(٢) الوجوه والنظائر (٣٨٠).

(٣) المرجع السابق (٣٧٩).

(٤) يُنظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٨) باختصار وتصرف.

والاتصال بالله وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن... واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته في الليل الساجي.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ﷺ وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، و ينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] يعني: صلوا لله قانتين[(٢)].

وهذا أمر بالقيام في الصلاة بخضوع، فالقيام: الوقوف، وهو ركن في الصلاة فلا يترك إلا لعذر، وأما القنوت فهو الخضوع والخشوع قال تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٠].

ثانياً: وسميت «قراءة»:

وقد يعبر عن الصلاة بلفظ «القرآن»[(٣)] لقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨].

قال مجاهد: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ قال: صلاة الفجر[(٤)]، ومعنى الآية: وأقم قراءة الفجر، وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حين سميت الصلاة قرآناً[(٥)].

وقوله: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾)[(٦)] وذلك زيادة في فضلها وبركتها، وأيضاً فهي يحضرها أكثر المصلين لأن وقتها وقت النشاط، وبعدها ينتظر

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/ ٣٧٤٥) باختصار.
(٢) الوجوه والنظائر (٣٧٩).
(٣) يُنظر: كشف السرائر (١٠٥).
(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الإسراء، باب ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ رقم () (٥/ ٢٢٧).
(٥) زاد المسير (٨٢٧) ويُنظر: معالم التنزيل (٧٥٢).
(٦) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الإسراء، باب ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ رقم (٤٧١٧) (٨/ ٣٠٢) وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (٦٤٩) (١/ ٤٥٠).

الناس طلوع الشمس ليخرجوا إلى أعمالهم فيكثر سماع القرآن حينئذ[(١)].

ولعل من الحِكم في إطلاق اسم القرآن على صلاة الفجر ما للقرآن من إيقاعه في الحس في مطلع الفجر ونداوته ونسماته الرخية وهدوئه السارب وتفتحه بالنور ونبضه بالحركة وتنفسه بالحياة[(٢)].

ثالثاً: **وسميت «ركوعاً»**:

وقد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ الركوع[(٣)].

في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

وأخرج البخاري عن مجاهد: ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾: صلوا، ﴿لَا يَرۡكَعُونَ﴾: لا يصلون[(٤)].

والآية الأولى: أعني آية البقرة جاءت في سياق خطاب اليهود حيث نهاهم الله عن خلط الحق بالباطل ثم أمرهم بإقامة الصلوات الخمس وإيتاء الزكاة ثم قال لهم: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي صلوا مع المصلين محمد ﷺ وأصحابه، وذكر ذلك بلفظ الركوع لأنه ركن من أركان الصلاة ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع فكأنه قال: صلوا صلاة ذات ركوع.. وفي هذا حث على إقامة الصلاة جماعة كأنه قال لهم: صلوا مع المصلين الذين سبقوكم بالإيمان[(٥)].

ولعل من الحِكم في تسمية الصلاة حيناً بالركوع ما في التعبير عن العبادة بجزئها أو بفعل لازم من أفعالها وهو الركوع، وذلك يدل على فريضته فيها[(٦)].

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ ذهب أكثر العلماء إلى أن هذا الأمر قيل لهم في الدنيا بدلالة السياق فإنه قال قبل ذلك: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ أي في الدنيا.. وخص الركوع بالذكر هنا في هذه السورة المكية لأن كثيراً من العرب كان يأنف من الركوع، وفي الحديث: أن وفد ثقيف طلبوا من الرسول ﷺ ألا ينحنوا في الصلا،

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨٤) لعل هذا في الأصل، وإلا في الحاضر فالله المستعان.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٤٦).

(٣) إصلاح الوجوه والنظائر (٢٤٢).

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة المرسلات (٦/ ٧٧).

(٥) معالم التنزيل (٣٠) ويقارن.

(٦) يُنظر: أحكام القرآن للجصاص (١/ ٣٢) وتيسير الكريم الرحمن (٣٣) ويقارن.

فقال عليه الصلاة والسلام: (لا خير في دين لا ركوع فيه)(١).

إذ الصلاة شعار الإسلام، والركوع مما يميز صلاة هذه الأمة عن غيرها من الأمم من اليهود والنصارى.

رابعاً: وسميت سجوداً:

وقد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ السجود(٢).

أخرج البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] ﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: المصلين(٣).

وهذه الآية من سورة الشعراء جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩] حيث جمعت هذه الآيات بين صلاة النبي ﷺ وحده وصلاته في الجماعة، والمعنى: «يراك وحدك ويراك في الجماعة، وهذا قول الأكثرين»(٤).

ويقول الطاهر ابن عاشور: «وهذا يجمع معنى العناية بالمسلمين تبعاً للعناية برسولهم، فهذا من بركته ﷺ، وقد جمعها هذا التركيب العجيب الإيجاز»(٥).

ومثل آية الشعراء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨].

قال كثير من المفسرين: وكن من المصلين(٦).

(ولقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة)(٧) وهذا منه عليه الصلاة والسلام أخذاً بهذه الآيات لما يجده في الصلاة من أنس بمناجاة ربه.

ولعل من الحِكم في التعبير بالسجود عن الصلاة: لأن حالة القرب من الله فيها

---

(١) مسند أحمد (٢٩/ ٤٣٨) رقم (١٧٩١٣) وسنن أبي داود، كتاب الخراج، باب ما جاء في خبر الطائف، رقم (٣٠٢٦)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود ص (٢٤٠) والسلسلة الضعيفة (٤٣١٩).

(٢) الوجوه والنظائر (٢٦٦) وبصائر ذوي التمييز (٣/ ١٨٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الشعراء (٦/ ١٦).

(٤) يُنظر: زاد المسير (١٠٣٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٤).

(٦) يُنظر: جامع البيان (١٤/ ٧٣) والمحرر الوجيز (٨/ ٣٦١) وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٣٨).

(٧) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٧٨) وأحمد في مسنده (٥/ ٣٨٨) من حديث حذيفة: (كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى) قال المنذري - حاشية سنن أبي داود (٢/ ٧٨) -: «ذكر بعضهم أنه روي مرسلاً».

السجود، وهي أكرم حالات الصلاة عند الله وأقمنها بنيل رحمته ولذة مناجاته[(١)].

ومن اللطيف في آيتيْ الشعراء والحجر أن كلاً منهما سُبقت ببيان موقف الكافرين من دعوة الرسول ﷺ، كما تضمنت كل منهما توجيه الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بملازمة الصلاة، وفي الجمع في كل منهما في لفظ ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ إشارة إلى صلاة الجماعة، ولا سيما أن هذا التوجيه في السورتين سُبق بخفض الجناح للمؤمنين الذين بهم قوام صلاة الجماعة[(٢)].

خامساً: وسميت ذكراً:

وقد عبر القرآن عن الصلاة بلفظ الذكر[(٣)].

فتارة يعني به الصلوات الخمس في مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]. يعني صلوا لله الصلوات الخمس

وكقوله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] يعني عن الصلوات الخمس.

وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: ٩] يعني عن الصلوات الخمس.

وتارة يعني به صلاة واحدة في مثل قوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] يعني صلاة الجمعة.

وكقوله تعالى على لسان نبيه سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢] يعني صلاة العصر وحدها[(٤)].

والذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن الإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولهذا قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان،

---

(١) المحرر الوجيز (١٠٨٢).

(٢) يُنظر: معاني الركوع والسجود في القرآن المجيد د. إبراهيم الدوسري (٦٠).

(٣) بصائر ذوي التمييز (٣/ ١٤) ومنتخب قرة العيون (١٢١).

(٤) يُنظر: الوجوه والنظائر (٢١٩).

بل عن إدامة الحفظ، وكل قول يقال له ذكر[(١)].

ولعله يظهر بهذا السر في إطلاق القرآن اسم «الذكر» على الصلوات الخمس أو صلاة العصر خاصة أو صلاة الجمعة فكأنه يدعو إلى المحافظة عليها وعدم نسيانها ومداومة استحضارها بالقلب واللسان والتخلص من الغفلة والنسيان عند ذكرها والقيام بها.. ويقول ابن القيم رحمه الله: «والذكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم..

والذكر جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً...

والذكر باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته»[(٢)].

سادساً: وقد يعبر عن الصلاة بلفظ «الاستغفار»[(٣)]:

في مثل قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

قال الحكيم الترمذي: «أي يصلون لأن في الصلاة سؤال المغفرة»[(٤)].

ويقول ابن الجوزي: «إنما سميت الصلاة استغفاراً لأنهم طلبوا بها المغفرة، والسحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر، فوصفهم الله بهذه الطاعات ثم وصفهم بأنهم لشدة خوفهم يستغفرون»[(٥)].

والعبادة في السحر أشد إخلاصاً لما في ذلك الوقت من هدوء النفس، ولدلالته على اهتمام صاحبه بأمر آخرته، فاختار له هؤلاء الصادقون آخر الليل لأنه وقت صفاء السرائر والتجرد عن الشواغل[(٦)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ

---

(١) يُنظر: بصائر ذوي التمييز (٣/ ٩) والمفردات (٣٢٨).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٤١) باختصار.
(٣) بصائر ذوي التمييز (٣/ ١٨٩) وكشف السرائر (١٠٦).
(٤) تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي (١١٨).
(٥) زاد المسير (١٨٢) بتصرف واختصار.
(٦) يُنظر: التحرير والتنوير (٣/ ١٨٥).

يَسۡتَغۡفِرُونَ [الأنفال: ٣٣] يعني: وهم يصلون[١].

سابعاً: وقد يطلق القرآن على الصلاة لفظ «الإيمان»[٢]:

قال تعالى: وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡۚ [البقرة: ١٤٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡۚ : أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك، ما كان يضيع ثوابها عند الله، وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السبيعي عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡۚ ، ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه»[٣].

وبهذا «يطمئن الله المسلمين على إيمانهم، وعلى صلاتهم، وأنهم ليسوا على ضلال، وأن صلاتهم لم تضع، فالله سبحانه لا يعنت العباد، ولا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه، ولا يشق عليهم في تكليف يجاوز طاقتهم التي يضاعفها الإيمان ويقويها.. إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ إنه يعرف طاقتهم المحدودة، فلا يكلفهم فوق طاقتهم، وإنه يهدي المؤمنين، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان حين تصدق منهم النية، وتصح العزيمة، وإذا كان البلاء مظهراً لحكمته فاجتياز البلاء فضل رحمته»[٤].

ثامناً: وقد يطلق القرآن على الصلاة لفظ «القنوت»[٥]:

قال تعالى: أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا [الزمر: ٩].

قال ابن قتيبة: أي مصلٍ، وأصل القنوت: الطاعة ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ ساعاته[٦].

في هذه الآية الكريمة يقابل الله بين العامل بطاعته وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تباينها، وعلم علماً يقيناً تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه كمن هو قانت: أي مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة

---

(١) الوجوه والنظائر (١٠٤) ويُنظر: جامع البيان (٣/ ٢٠٨) والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٢/ ٢٠).
(٢) بصائر ذوي التمييز (٣/ ١٥٠) وكشف السرائر (١٠٥).
(٣) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٣)، ويُنظر: الدر المنثور (٢/ ٢٥) وصحيح سنن الترمذي، رقم (٢٣٦٥).
(٤) في ظلال القرآن (١/ ١٣٣).
(٥) كشف السرائر (١٠٦) وبصائر ذوي التمييز (٤/ ٢٩٨).
(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (٣٨٢).

وأفضل الأوقات وهي أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله فوصفه بالعمل الظاهر والباطن.

ثم قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

نعم لا يستوي هؤلاء وهؤلاء كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار»[(١)].

ولعل الحكمة من إطلاق لفظ القنوت على الصلاة للتأكيد على وجوب الخشوع في الصلاة حال السجود والقيام.

يقول ابن كثير رحمه الله في قوله: « ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ أي في حال سجوده وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون»[(٢)].

تاسعاً: وقد يطلق القرآن على الصلاة اسم «الحسنات»[(٣)]:

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

والجمهور على أن المراد بالحسنات هنا الصلوات الخمس، قاله ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومسروق ومجاهد والقرظي والضحاك وغيرهم[(٤)].

والمعنى: أن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)[(٥)].

ولهذا، قال جمهور المفسرين إن «السيئات المذكورة هنا هي الصغائر من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٦٦) باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٦١٦).

(٣) يُنظر: كشف السرائر (١٠٥).

(٤) زاد المسير (٦٧٥).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، رقم (٢٣٣) (١/ ٢٠٩).

الذنوب»[(١)].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)[(٢)].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ذكر ابن كثير جملة طيبة منها، وذكر الزمخشري وجهاً مقبولاً في معنى ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وذلك بأن يكن لطفاً في تركها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥][(٣)].

ولعل الحكمة من إطلاق اسم ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ على الصلوات الخمس أنها أعظم وأفضل الأعمال الصالحة الحسنة، ذلك أن الحسنة «يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله»[(٤)].

عاشراً: وقد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ «التسبيح»[(٥)]:

في مثل قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧].

قال البغوي: «وقيل معناه: صلوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي تدخلون في المساء، وهو صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي تدخلون في الصباح، وهو صلاة الصبح، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يحمده أهل السماوات وأهل الأرض ويصلون له، ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي صلوا لله عشياً يعني صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة، وهو الظهر، قال نافع بن الأزرق لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال: جمعت الآية الصلوات الخمس ومواقيتها»[(٦)].

---

(١) معالم التنزيل (٦٣٣) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩٧١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، رقم (٥٢٨) (١/ ١٨٤) وصحيح مسلم، كتاب ، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، رقم (٦٦٧).

(٣) الكشاف (٥٠١).

(٤) المفردات (٢٣٥).

(٥) الوجوه والنظائر (٢٧٧).

(٦) معالم التنزيل (١٠٠٤).

ومثلها ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحديد: ١، الحشر: ١، الصف: ١] ونحوه كثير.

وسميت الصلاة تسبيحاً لأن التسبيح تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء.

قال ابن الأثير: «وقد يطلق التسبيح على صلاة التطوع والنافلة فيقال: سبحة وقضيت سبحتي... وإنما خصت النافلة بالسبحة وإن شاركتها الفريضة في معنى التسبيح لأن التسبيحات في الفرائض نوافل»(١).

فكأن المصلي المداوم على صلاته ينزه الله جل ثناؤه من أن يكون له شريك يستحق العبادة سواه سبحانه.

أحد عشر: وقد يطلق القرآن على الصلاة لفظ «الحمد»(٢):

قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: ١٨]، فسرها ابن عباس بالصلوات الخمس.

ولعل من الحكمة في تسمية الصلاة باسم «الحمد» أن الصلاة من أعظم العبادات التي تشتمل على أنواع الحمد كلها من الحمد القولي، أو الحمد الفعلي، أو الحمد الحالي، أو الحمد اللغوي، أو الحمد العرفي(٣).

ثاني عشر: وقد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ «الدعاء»:

ذلك أن الصلاة من أشهر معانيها الدعاء، وجاءت في القرآن بهذا المعنى في كثير من آياته منها قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾:

قال ابن عمر وابن عباس: الصلاة المكتوبة.

وقال مجاهد: هي الصلوات الخمس.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٣١).
(٢) الوجوه والنظائر (١٧٦).
(٣) يُنظر تعريف هذه الأنواع من الحمد في كتاب: التعريفات (٩٣).

وفي رواية عن مجاهد وقتادة قالا: صلاة الصبح والعصر.

وروي عن مقاتل: أن الصلاة كانت يومئذٍ ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي، ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك[(١)].

ولعل الحكمة من تعبير القرآن عن الصلاة بلفظ «الدعاء» ما اشتملت عليه الصلاة من معنى الطلب من الله مع الخضوع والتذلل، وما فيها من التعظيم والإجلال للخالق عز وجل، ويظهر ذلك في القراءة والقنوت والركوع والسجود له سبحانه.

(١) يُنظر: زاد المسير (٤٤٠) باختصار.

الباب الثاني
حديث القرآن عن الصلاة
وبيان منزلتها ومكانتها

وفيه ستة فصول

الفصل الأول: أهمية الصلاة وعظم شأنها.

الفصل الثاني: الحكمة من الصلاة وفضائلها.

الفصل الثالث: خصائص الصلاة.

الفصل الرابع: ثمرات الصلاة وآثارها على النفس والأخلاق.

الفصل الخامس: الآثار المترتبة على ترك الصلاة والجزاء على ذلك.

الفصل السادس: الأعمال الصالحة التي قرنت مع الأمر بالصلاة.

الفصل الأول
أهمية الصلاة وعظم شأنها

إن من يريد أن يكتب أو يتكلم عن كيف أظهر القرآن أهمية الصلاة؟ وكيف عظّم شأنها؟ يحار من أين يبدأ؟ وماذا يقدم في الحديث وماذا يؤخر؟ وكيف يصف تلك المظاهر؟ أو كيف يرتبها؟

ذلك أن الله ذكر الصلاة في مائة آية بلفظ الصلاة ومشتقاته، أولها: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وآخرها: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾.

وفي آيات لا أستطيع إحصاءها بغير لفظ الصلاة، بل وفي آيات عامة تدخل فيها الصلاة بصورة من الصور.. حتى أكاد أجزم أنه لم تخل سورة من كتاب الله الكريم إلا وفيها ذكر للصلاة إما نصاً، أو إشارة، كل ذلك بتنويع في العرض، واهتمام بالغ، وألفاظ جوامع، فتارة وعد للمصلين بالكرامة أو وعيد للتاركين بالعقوبة والمهانة، أو مدح للمقيمين، وذم للمضيعين، أو ذكر لكثير من الأحكام المتعلقة بها من بيان فرضيتها ووجوبها، أو بيان شيء من أركانها، وشروطها، وسننها، أو في الحديث عن فرضها على السابقين من الأنبياء والرسل والأمم، وهناك آيات كثيرة تتحدث عن الصلاة من جميع المخلوقات غير الإنس والجن، ناهيك عن الآيات الواردة في الأمر بالمحافظة عليها، أو الخشوع فيها، أو المداومة عليها، أو الآيات التي تظهر خصائصها، وفضائلها، وآثارها، وثوابها في الدنيا والآخرة.

غير أني سأحاول جاهداً جمع وإظهار بعض الأدلة من القرآن التي تظهر لي في بيان بعض المظاهر التي تكلم عنها القرآن في بيان عظم قدر الصلاة وأهميتها.

أولاً: التأكيد على فرضها على جميع الأنبياء والرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام:

١- لعل من أوضح الأدلة على ذلك ما جاء في سورة مريم بعد أن ذكر الله جملة وافرة من الأنبياء ووصفهم نبياً نبياً قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ (٥٨) ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٨، ٥٩].

وجاء في الخبر عن رسول الله ﷺ أن الأنبياء قبله صلوات الله عليهم لم يزالوا

يصلون الخمس التي صلاها جبريل بالنبي ﷺ.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أمّني جبريل عند البيت مرتين، وذكر الأوقات في اليوم الأول وفي اليوم الذي بعده ثم قال ﷺ: ثم التفت إليَّ فقال: يا محمد الوقت فيما بين هذين الوقتين، هذا وقت الأنبياء قبلك)[(١)].

٢- وفي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] ما يدل على افتراضها على يونس عليه الصلاة والسلام.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قال: من المصلين[(٢)].

٣- وفي قصة شعيب عليه الصلاة والسلام لما نهى قومه عن عبادة غير الله ونهاهم عن التطفيف في الكيل والوزن قالوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود: ٨٧].

٤- ولما ذهب إبراهيم بإسماعيل صلى الله عليهما وسلم فأسكنه بواد ليس به أنيس، دعا ربه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولم يذكر عملاً غير الصلاة فدل ذلك أنه لا عمل أفضل من الصلاة ولا يوازيها[(٣)].

وقال تعالى أيضاً عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

قال قتادة: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ قال: من الشرك وعبادة الأوثان، وقوله: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ قال: القائمون هم المصلون[(٤)].

٥- وكما افترضها الله على خليله إبراهيم عليه السلام افترضها على ذريته إسماعيل،

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٣) والترمذي (١٤٩) وأحمد (١/ ٣٣٣، ٣٥٤) وصححه ابن خزيمة (٣٢٥) والحاكم (١/ ١٩٣) ووافقه الذهبي.. والحديث صححه الألباني (الإرواء ١/ ٢٦٨).

(٢) رواه الطبري في جامع البيان (٢٩٦٠٢) وابن أبي حاتم (١٨٢٨٧).

(٣) يُنظر: تعظيم قدر الصلاة للإمام المروزي (٢٥).

(٤) رواه الطبري (٢٥٠٣٤) وابن أبي حاتم (١٣٨٧٦).

وإسحاق، ويعقوب، وزكريا عليهم الصلاة والسلام.

أ- فقال سبحانه عن إسماعيل: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

ب- وقال تعالى في شأن إسحاق وذريته: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

جـ- وقال في قصة زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

د- وقال سبحانه: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

٦- ويحكي الله سبحانه عن تعظيم داود عليه السلام للصلاة أنه لما أصاب الخطيئة وأراد التوبة لم يجد لتوبته مفزعاً إلا إلى الصلاة[1] فقال عنه سبحانه: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩﴾ [ص: ٢٤].

وابنه سليمان عليه السلام لما أشغلته الخيل عن صلاة العصر، وكشف عراقيبها قال الله عنه: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [ص: ٣٢، ٣٣].

٧- ومما دل الله تعالى به على تعظيم قدر الصلاة ومباينتها لسائر الأعمال إيجابه إياها على أنبيائه ورسله، وإخباره عن تعظيمهم إياها، فمن ذلك أنه جل وعز قرَّب موسى نجياً وكلمه تكليماً فكان أول ما افترض عليه بعد افتراضه عليه عبادته «إقام الصلاة» ولم ينص له فريضة غيرها، فقال تبارك وتعالى مخاطباً لموسى بكلمات ليس بينه وبينه ترجمان[2]: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٣، ١٤].

ثم كان من أول ما أمر به موسى عليه السلام أن يأمر بني إسرائيل بعد أن آمنوا به «الصلاة» فقال سبحانه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢٦).

(٢) يُنظر: تعظيم قدر الصلاة (٢٤).

﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: ٨٧].

٨- ما حكاه الله عن عيسى ﷺ حين تكلم في المهد صبياً أنه قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

ومعنى أوصاني: أي أمرني بهما[(١)].

ثانياً: التنصيص على أنها أول فريضة بعد الإخلاص بالعبادة لله عز وجل:

ورد ذلك في آيات كثيرة منها:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

- وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ويفسر آيتيْ التوبة الحديث المتفق عليه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله)[(٢)].

ثالثاً: التنصيص على وجوبها في وقتها:

قال المروزي: ثم وكدها الله في الوجوب بفرضها بنص التنزيل فقال: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

قال: كتاباً واجباً، وروي ذلك عن الحسن البصري، وعن زيد بن أسلم: كلما مضى-

---

(١) معالم التنزيل (٢٠٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، رقم (٢٥) وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله...، رقم (٢٢).

وقت جاء وقت(١).

رابعاً: الوعيد على من أضاعها، وتوبيخه تعالى الكافر على تركها:

ومن تعظيم القرآن لقدر الصلاة أن الله عز وجل توعد بالعذاب من أضاعها، أو سها عنها، فصلاها في غير وقتها:

١- فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ومعنى إضاعة الصلاة: تأخيرها عن وقتها، روي ذلك عن ابن مسعود، والنخعي وعمر بن عبدالعزيز والقاسم بن مخيمرة.. وقيل: تركوها(٢).

٢- وقال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وعن سعد بن أبي وقاص: هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها(٣).

قال المروزي: وحكى الله عن الكفار أنهم لما سئلوا بعد دخولهم النار فقيل لهم:

٣- ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣]، فلم يذكروا شيئاً من الأعمال عذبوا عليها قبل تركهم الصلاة.

٤- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

قال الضحاك: عن الصلوات الخمس(٤).

٥- وفي قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١-٣٢] توبيخ من الله للكافر حيث لم يضم إلى التصديق شيئاً غير الصلاة، فالكذب ضد التصديق، والتولي ترك الصلاة وغيرها من الفرائض، ويقال: إنها نزلت في أبي جهل(٥).

---

(١) يُنظر: تعظيم قدر الصلاة (٣٨).

(٢) يُنظر: زاد المسير (٨٩٠).

(٣) يُنظر: جامع البيان (٣٨٠٣٨).

(٤) تعظيم قدر الصلاة (٤٤).

(٥) يقارن مع تعظيم قدر الصلاة (٤٥).

٦- وفي قولـه تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩] توبيخ لكفار قريش حيث كان رسول الله ﷺ يدعوهم وهم لا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة وهذا قول الجمهور(١).

خامساً: مدح الله تعالى المصلين وثناؤه عليهم وذكر جزائهم في الدنيا والآخرة:

وذلك في آيات كثيرة جداً منها:

١- ما مدحهم به بألفاظ ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في أكثر من عشر آيات وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢].

وقولـه تعـالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وغيرها من الآيات في معناها والتي سيأتي بسطها في فصل قادم.

وإقامتها -كما قال جمهور المفسرين- هو المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها، وسجودها وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، والخشوع والخضوع فيها(٢).

٢- وفي سورة (المؤمنون) مدح الله تعالى عباده المؤمنين، فبدأ بذكر الصلاة قبل أي عمل فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] فمدح خشوعهم فيها، ثم أعاد ذكرها في آخر أوصافهم إعظاماً لقدرها في القربة إليه، ولما أعد للقائمين بها المحافظين عليها من جزيل الثواب، ونعيم المآب فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

٣- وفي سورة (المعارج) يقول تعالى عن الإنسان: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١] ثم لم يبرئ أحداً من هذين الخُلقين المذمومين من جميع الناس غير المصلين فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

(١) يقارن مع المحرر الوجيز (١٩٣٧).
(٢) يقارن مع زاد المسير (٣٩) وتعظيم قدر الصلاة (٤٩).

صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ [المعارج: ٢٢-٢٣] ثم أعاد ذكرهم وجزاءهم فقال: وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ [المعارج: ٣٤-٣٥].

٤- وفي مثل قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ [فاطر: ٢٩] في كل الآيات يبدأ بمدح الصلاة قبل سائر الأعمال، ويكرر الثناء، ويمدحهم بالمحافظة، والمداومة كل ذلك تعظيماً لشأنها.

سادساً: من تعظيم قدر الصلاة الحديث عن المساجد والقبلة:

ومما يبين اهتمام القرآن الكريم بشأن الصلاة وتعظيمها حديثه عن المساجد وتعظيمه لها ولبنائها وعمارتها بالصلاة، وتعظيم حرماتها.. وقد ورد في القرآن الكريم ما يقرب من أربعين آية تتحدث عن المساجد بلفظها وبغير لفظها، وعن القبلة وأحكامها وما يتعلق بتحويلها عن بيت المقدس.. وفي كل ذلك ما ينبئ على أن القرآن الكريم فخم شأن الصلاة وجعل لها منزلة خاصة تتميز بها عن سائر العبادات.. وإن دراسة هذه الآيات تحتاج إلى رسالة خاصة.. غير أني أذكر طرفاً مختصراً منها:

١- فمن فضل المساجد ومكانتها أن الله اختارها أن تكون أول بيت يوضع في الأرض فقال سبحانه: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ [آل عمران: ٩٦].

٢- أمر الله بتطهير البيت وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ [الحج: ٢٦].

٣- دعا الله إلى الإخلاص في بناء المساجد وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا [الجن: ١٨]، وحذر من المساجد التي لا تبنى لوجهه تعالى وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

٤- دعا القرآن إلى التعبد في المساجد وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ [الأعراف: ٢٩].

٥- دعا لأخذ الزينة عندها ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ [الأعراف: ٣١].

٦- وحث القرآن على عمارة المساجد، وجعله من علامات الإيمان بالله وباليوم الآخر فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

٧- وفي بداية الجزء الثاني من سورة البقرة حديث مسهب عن القبلة وتحويلها من بيت المقدس، وردٌ على السفهاء المعترضين على ذلك، وبيان الحكمة من ذلك التحويل إلى هذا البيت العظيم، ثم بيان أحكام القبلة في السفر وغيره، ثم في ختام ذلك أمر للمؤمنين بالاستعانة بالصبر والصلاة[(١)].

سابعاً: من عظم شأن الصلاة أنها لا تسقط بحال من الأحوال:

ميّز القرآن الكريم الصلاة على سائر العبادات بوجوبها على كل حال، وبعدم سقوطها فهي فريضة دائمة على الحر والعبد، والرجل والمرأة، والغني والفقير، والصحيح والمريض، والمقيم والمسافر، والآمن والخائف.

ولم يجعل القرآن هذا لغير الصلاة، فالزكاة لا تجب على من لا يملك نصابها[(٢)].

والصيام يسقط عمن لا يطيقه، ومن كان مريضاً أو مسافراً جاز له الفطر ثم القضاء، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

والحج كذلك يسقط عمن لم يستطع إليه سبيلاً، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أما الصلاة فلم يسقطها القرآن عن أحد بل أوجبها على المؤمنين في أوقاتها، وأمر بالمحافظة عليها في جميع الأحوال، حال السفر، وحال الحرب والخوف، حتى ولو أديت قصراً، أو بصفة غير صفتها العادية.. فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم

(١) يُنظر: سورة البقرة، الآيات (١٤٢-١٥٣).
(٢) يُنظر: الصلاة في القرآن الكريم (٣٠).

مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا [النساء: ١٠١-١٠٣].

وحالة الحرب دونها كل حالة حتى حالات المرض، والسفر، فلا ريب أن لم تسقط أيضاً عن المريض ولا عن المسافر، وفي تأكيد القرآن على المحافظة على الصلوات حتى في مثل هذه الحال يظهر جلياً عظم شأن الصلاة ومكانتها من الدين.

ثامناً: من تعظيم القرآن لشأن الصلاة ذكره جل أنواعها وأحكامها:

وكما عرفنا في الباب السابق فقد جاء في القرآن ذكر صلاة الجماعة، والعيدين، والظهر، والعصر، والعشاء، والفجر، والجمعة، وصلاة الليل، وصلاة الجنازة...

وكذلك كما سيأتي في الأبواب القادمة من ذكره لشيء من شروطها، وواجباتها وأركانها وسننها.. وما ذلك إلا لما تحتله الصلاة من القرآن العظيم من مكانة وبالغ اهتمام.

ولو أردت تتبع جميع صور ومظاهر اهتمام القرآن بشأن الصلاة وتعظيمه لها لطال الحديث.

الفصل الثاني
الحكمة من الصلاة وفضائلها

إن الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها هي عبادته المتضمنة لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم، يقول عز شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتظهر الحكمة من الصلاة عند تأملنا لقوله تعالى عندما ناجى كليمه موسى عليه السلام فقال له: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، فقوله جل وعلا: ﴿لِذِكْرِي﴾ اللام للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وبه عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره وخصوصاً الصلاة لأنها تذكر العبد بخالقه إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته(١).

ويجوز أن يكون الذكر، الذكر اللساني، لأن ذكر اللسان يحرك ذكر القلب، ويشتمل على الثناء على الله والاعتراف بما له من الحق، أي الذي عينته لك، ففي الكلام إيماءٌ إلى ما في أوقات الصلاة من الحكمة(٢).

وفي سورة العنكبوت المكية يأمر الله نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

في هذه الآية أمرٌ من الله لرسوله ولأمته لأنه قدوتهم كما دل على ذلك آخر الآية

---

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٤٥٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠١).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ .. أمره بتلاوة القرآن إذ ما فرَّط سبحانه فيه من شيء من الإرشاد، ومعنى تلاوته: اتباعه بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، و الاهتداء بهداه، وتصديق أخباره وتدبر معانيه وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب علم أن إقامة الدين كلها داخلة في تلاوة الكتاب فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة وهي: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[(١)].

وتظهر هنا الحكمة الثانية من مشروعية الصلاة وهي تعليل الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني عندما تنهى عن الفحشاء والمنكر، وموقع «إن» هنا موقع فاء التعليل، ولا شك أن هذا التعليل موجه إلى الأمة لأن النبي ﷺ معصوم من الفحشاء والمنكر فاقتصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة دون تعليل الأمر بتلاوة القرآن لما في هذا الصلاح الذي جعله الله في الصلاة من سر إلهي لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشاد منه تعالى، فأخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمقصود أنها تنهى المصلي[(٢)].

يقول ابن عطية: «وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يديه وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليه مرقوب، صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تبارك وتعالى فاطردَتْ لذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر ولا يكد يفتر من ذلك حتى تظلله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله... فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجراء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل فذلك يترك صاحبها من منزلته حيث كان»[(٣)].

وخلاصة القول أن من أعظم حكمة الصلاة هو تحقيق التقوى في القلب، والابتعاد عن الفحشاء والمنكر.. وذلك أن العبد (المقيم لها) المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، إن مداومته ومحافظته عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٥٨١).
(٢) يقارن مع التحرير والتنوير (٢٠/٢٥٨).
(٣) يُنظر: المحرر الوجيز (١٤٦٤) باختصار.

أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها، وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر:

وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله بالقلب، واللسان، و البدن، فالله تعالى إنما خلق العباد لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [(١)].

وجوز بعض المفسرين عطف قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ على جملة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فيكون عطف علة على علة، ويكون المراد بذكر الله هو الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي صلاة الجمعة، ويكون العدول عن لفظ الصلاة إلى التعبير عنها بطريق الإضافة للإيماء لتعليل أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر أي إنما كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر لأنها ذكر الله، وذكر الله أمر كبير، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة، مقصود به قوة الوصف كما في قولنا: الله أكبر، لا نريد أنه أكبر من كبير آخر.

ويجوز أن يكون المراد بالذكر تذكر ما أمر الله به ونهى عنه، أي مراقبة الله تعالى وحذر غضبه، فالتفضيل على بابه، أي ولذكر الله أكبر من النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة في ذلك النهي، وذلك لإمكان تكرار هذا الذكر أكثر من تكرر الصلاة فيكون قريباً من قول عمر رضي الله عنه: (أفضل من شكر الله باللسان ذكره عند أمره ونهيه) [(٢)].

وعلاوة على ما في الحكمة من الصلاة من الدلالة على فضلها العظيم في القرآن الكريم فإنه يمكن استنباط فضائل أخرى كثيرة من الآيات الواردة في الصلاة ومنها:

أولاً: سمى الله عز وجل ثناءه على خلقه ورحمته بهم واستغفار ملائكته لهم باسم «الصلاة»:

١) وأظهر آية تدل على ذلك هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقد شرف الله بهذه الآية نبيه الكريم ﷺ، وكذلك شرف ملائكته عليهم السلام، وصلاة الله تعالى رحمة منه وبركة، وصلاة الملائكة دعاء وتعظيم، والصلاة على رسول الله ﷺ في كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يصح تركها ولا يهملها إلا

(١) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (٥٨١) باختصار.

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٦٠-٢٦١) باختصار وتصرف بسيط.

من لا خير فيه[(١)].

يقول ابن كثير: «والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه.. قال: ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً»[(٢)].

وقد سأل أحد الصحب الكرام رسول الله ﷺ عن كيفية الصلاة عليه ﷺ؟

فقال له قولوا: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[(٣)].

وفي أمر المؤمنين بالصلاة على النبي ﷺ اقتداء بالله، وملائكته، وجزاءً له على بعض حقوقه عليهم وتكميلاً لإيمانهم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبةً وإكراماً، وزيادة في حسناتهم، وتكفيراً عن سيئاتهم[(٤)].

وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيراً إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته[(٥)].

٢- وفي آية سابقة لهذه الآية، وفي السورة نفسها يقول عز شأنه:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وفي هذه الآية ما يدل على رحمة الله بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان

---

(١) يُنظر: المحرر الوجيز (١٥٢٢) بإيجاز.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٥١٦).

(٣) يُنظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، بابٌ، رقم (٣٣٦٩) (٨/ ٤١٠) وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦) (١/ ٣٠٥) ولهذا الحديث صيغ أخرى بألفاظ مختلفة. يُنظر: فتح الباري (١١/ ١٢٨).

(٤) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٦١٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ٩٧).

والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا[(١)].

وهذه الآية تعليل لما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

فكأن صلاة الله عز وجل وملائكته جزء من عاجل ثوابه وفضله للمحافظين على صلاتهم والمداومين عليها ولا سيما صلاتَيْ الغداة والعصر.

ولا شك أن ذكر الله وتسبيحه مجلبة لانتفاع المؤمنين بجزاء الله على ذلك بأفضل منه من جنسه، وهو صلاته وصلاة ملائكته، والمعنى: أنه يصلي عليكم وملائكته إذا ذكرتموه بكرة وأصيلاً...

والصلاة: الدعاء والذكر بخير وهي من الله الثناء، وأمره بتوجيه رحمته في الدنيا والآخرة أي اذكروه ليذكركم لقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين فيكون دعاؤهم مستجاباً عند الله فيزيد الذاكرين على ما أعطاهم بصلاته تعالى عليهم..

و ﴿يُصَلِّي﴾ بصيغة المضارع لإفادة تكرار الصلاة وتجددها كلما تجدد الذكر والتسبيح، أو إفادة تجددها بحسب أسباب أخرى من أعمال المؤمنين وملاحظة إيمانهم، وقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ تذييل.. ورحمته بالمؤمنين أعم من صلاته عليهم لأنها تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطاف[(٢)].

٣- وتزداد صلوات الله عز وجل ورحمته لفئة خاصة من عباده المؤمنين وهم من ابتلوا وامتحنوا بالسراء والضراء من خوف أو جوع، أو ذهاب شيء من الأموال، أو موت في الأصحاب والأقارب والأحباب، أو نقص في الثمرات، فلا تُغَلُّ حدائقهم ومزارعهم.. فصبروا على كل ذلك وقالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

فيتسلوا بقولهم هذا عما أصابهم، لأنهم علموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم

---

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٦١٤).

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٩-٥٠) باختصار وتصرف.

عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة[(١)].

هؤلاء السابق وصفهم عليهم من الله صلوات خاصة أخبر عنها بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

«والصلاة: الحنو، والتعطف، فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله تعالى: ﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد: ٢٧]، والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة أي رحمة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ لطريق الصواب حيث استرجعوا وسلموا لأمر الله»[(٢)].

ولصاحب الظلال كلام جميل في هذه الآية وما سبقها من آيات حيث يرى أنها تعبئة في مواجهة المشقة والجهد والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف فيقول: «إن الله يضع هذا كله في كفة، ويضع في الكفة الأخرى أمراً واحداً.

﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ إنه لا يعدهم هنا نصراً ولا تمكيناً ولا مغانم، ولا يعدهم شيئاً إلا صلوات الله ورحمته وشهادته لهم بالهداية.. لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها فكان من ثم يجردها من كل غاية ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية -حتى الرغبة في انتصار العقيدة.. كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون، هذا هو الهدف وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفوا إليها قلوبهم وحدها.. إن لهم من صلوات الله ورحمته وشهادته جزاءً على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة، وجزاء على القتل والشهادة.. إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجح من النصر، وأرجح من التمكين، وأرجح من شفاء غيظ الصدور.

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين»[(٣)].

---

(١) يقارن مع المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (١١٨).

(٢) يُنظر: الكشاف للزمخشري (١٠٥).

(٣) يُنظر: في ظلال القرآن، المجلد الأول (١٤٦) باختصار وتصرف.

ثانياً: من فضل الصلاة أنها أول عمل من أعمال الجوارح التي توصل إلى حق الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

من صفات المنافقين أنه لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين[(١)].

وفي الآيات التي معنا هنا يثني الله على أصحاب الإيمان الكامل حيث ذكر أعمالهم القلبية من الخشية والإخلاص والتوكل، وأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت، و رهبت فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، لأن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

ثم أثنى عليهم بأنهم ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، ويتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير واشتياقاً إلى كرامة ربهم أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان[(٢)].

ثم أثنى عليهم بعبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت، وعمل بحسبها في أن يمتثل الإنسان ما أمر به ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز، وينتظر بعد ذلك ما تُكفل له به من نصر ورزق أو غيره..[(٣)] فقال عنهم: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ثم وصفهم بأنهم الذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، جاء بإعادة الموصول «الذين»، وذلك للدلالة على الانتقال في وصفهم إلى غرض آخر غير الغرض

---

(١) نقل ذلك ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما. يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٨١٩).

(٢) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (٢٧٧).

(٣) يُنظر: المحرر الوجيز (٧٧٨).

الذي اجتلب الموصول الأول لأجله، وهو هنا غرض محافظتهم على ركنيْ الإيمان: وهما إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فلا علاقة للعلة المذكورة هنا بأحكام الأنفال والرضى بقسمها ولكنه مجرد المدح، وعبر في جانب الصلاة بالإقامة للدلالة على المحافظة عليها، وجيء بالفعلين المضارعين في ﴿يُقِيمُونَ﴾ و ﴿يُنفِقُونَ﴾ للدلالة على تكرر ذلك وتجدده[(١)].

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ جملة مؤكدة لمضمون جملة ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخرها..

والمعنى: أي أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً[(٢)] وذلك لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، وبين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، وبين أداء حقوق الله، وحقوق عباده.. وقدم الله تعالى في وصفهم أعمال القلوب من الخشية والتوكل لأنها أصل لأعمال الجوارح، وفي الآيات دليل على مذهب جمهور الأمة على أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة، وينقص بضدها، ولهذا ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه ولا يحصل ذلك إلا بتدبر كتاب الله وتأمل معانيه[(٣)].

ثم بين الله ثمرة الإيمان الكامل فقال: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات، ويغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات، و في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم، فقال: بلى، والذي نفسي بيده! رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)[(٤)].

ثالثاً: جعل الله عز وجل إقامة الصلاة أول أسباب رحمته لعباده المؤمنين:

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٦٠) باختصار وتصرف.

(٢) يقارن مع الكشاف (٣/ ٤٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢٧٧) باختصار وتصرف.

(٤) يقارن مع المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير (٥٢٥) ويُنظر: فتح الباري (٦/ ٣٦٨) وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء، رقم (٢٨٣١) (٤/ ٢١٧٧).

هناك أسباباً عدة لنزول رحمة الله سبحانه على عباده، غير أن أهمها وأولها إقامة الصلاة، يقول سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

يذكر الله أسباباً ثلاثة لرحمته: أولها إقامة الصلاة بأركانها وشروطها وأداؤها ظاهراً وباطناً... وبإيتاء الزكاة من الأموال المستحقة التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ممن ذكرهم الله لمصارف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلها جامعتان لحقه وحق خلقه، إخلاص للمعبود، وإحسان للعبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حين يقوم العباد بذلك تحصل لهم الرحمة الواسعة الشاملة، فمن أراد الرحمة فهذا طريقها، ومن رجاها دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو متمن كاذب وقد منته نفسه الأماني الكاذبة[١].

وبتدبر سياق الآية يظهر أن الخطاب موجه للذين آمنوا خاصة بعد أن كان موجهاً لأمة الدعوة في قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ﴾ [النور: ٥٤].

والطاعة المأمور بها هنا غير الطاعة المأمور بها في الآية السابقة، لأن تلك دعوة للمعرضين، وهذه ازدياد للمؤمنين.

وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحات، فأهمها بالتصريح وسائرها بعموم حذف المتعلق بقوله ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ﴾ أي في كل ما يأمركم وينهاكم.

ورتب على ذلك رجاء حصول الرحمة لهم، أي في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن في الحياة الدنيا، وفي الآخرة بالدرجات العلى[٢].

رابعاً: ومن فضل الصلاة أنها أول عمل صالح يُعد من عزم الأمور:

إن من أفضل الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المؤمن «قوة العزيمة»، التي من مظاهرها: علو الهمة، وقوة الإرادة والرجولة، والمروءة، والنشاط، والنبل.

وعزم الأمور خلق تحلى به جملة من أفضل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام..

(١) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (٥٢٢) ويقارن.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٩) باختصار وتصرف.

ودعا الله عز وجل حبيبه محمداً ﷺ بأن يقتدي بهؤلاء الرسل فيصبر ويصابر كما صبروا عليهم السلام فقال له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وفي سياق وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه جاء قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وسياق هذه الآية أن لقمان انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة، والصلاة: التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان، والصلاة عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله، وطلب الاهتداء للعمل الصالح.

ثم أمره بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وذلك يقتضي إتيان الآمر وانتهاءه في نفسه لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر ومصالح ومفاسد فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم.

فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير وبثه في الناس، وكفه عن الشر وزجره الناس عن ارتكابه.

ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه، وذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معاداة من بعض الناس أو أذى من بعض فإذا لم يصبر على ما أصابه أوشك أن يتركهما.

ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكور من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصاب، والتأكيد للاهتمام[(١)]، والمعنى: أن ما أوصيتك به من الأمور التي يجب أن تعزم عليها وتهتم بها ولا يوفق لها إلا أهل العزم والحزم السالكين طريق النجاة.

وعن مجمل هذه الوصية يقول صاحب الظلال: «... وإنها لعظة غير متهمة، فما يريد الوالد لولده إلا الخير، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحاً... حيث بين له في هذه الوصية طريق العقيدة المرسوم توحيد الله وشعور برقابته وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر، بالزاد الأصيل زاد العبادة

(١) يُنظر: التحرير والتنوير (٢١/ ١٦٥-١٦٦) باختصار وتصرف، ويقارن مع الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٨٨).

والتوجه إليه بالصلاة، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء في النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها.

ومن الأذى تمتد به الألسنة، وتمتد به الأيدي، ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

وعزم الأمور قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم»(١).

خامساً: ومن فضل الصلاة في القرآن أنها من علامات الولاية بين المؤمنين وشرط للأخوة في الدين:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

بالنظر في سياق الآية وأنها جاءت بعد آيات نهى الله فيها المؤمنين عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم وأنه الخسران المبين يخبر الله تعالى من يجب ويتعين على المؤمن أن يتولاه..

وقد روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية أن: عبدالله بن سلاّم رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: إن قومنا من قريظة والنضير قد هجرونا وأقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل فنزلت هذه الآية، فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء(٢).

يقول ابن عاشور: «جملة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ إلى آخرها متصلة بجملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة: ٥١] وما تفرع عليها من قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٢، ٥٣] وقعت جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤] بين الآيات معترضة ثم اتصل الكلام بجملة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

فموقع الجملة موقع التعليل للنهي، لأن ولايتهم لله ورسوله مقررة عندهم، فمن

(١) يُنظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٧٩٠) بتصرف بسيط.

(٢) يُراجع: أسباب النزول للواحدي (١٤٨)، ويُنظر: الدر المنثور (٥/ ٣٦١).

كان الله وليه لا تكون أعداء الله أولياءه، وتفيد هذه الجملة تأكيداً للنهي عن ولاية اليهود والنصارى، وفيه تنويه بالمؤمنين بأنهم أولياء لله ورسوله بطريقة تأكيد النفي أو النهي بالأمر بضده لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ يتضمن أمراً بتقرير هذه الولاية ودوامها فهو خبر مستعمل في معنى الأمر.. ومعنى كون الذين آمنوا أولياء للذين آمنوا أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وإجراء صفتيْ ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على «الذين آمنوا» للثناء عليهم وكذلك جملة ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ وظاهر معناها أنها عين معنى قوله ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إذ المراد بـ ﴿رَٰكِعُونَ﴾ مصلون لا آتون بالجزء من الصلاة المسمى بالركوع.

ووجه هذا العطف: إما بأن المراد بالركوع ركوع النوافل أي الذين يقيمون الصلوات الخمس المفروضة ويتقربون بالنوافل، وإما المراد به ما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات، أي الذين يديمون إقامة الصلاة بأنهم يؤتون الزكاة مبادرة بالتنويه بالزكاة كما هو دأب القرآن(١).

ثم ذكر الله فائدة هذه الولاية فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] أي فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية، وولاية، وحزبه الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله، وصار من حزبه وجنده أن له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض الأحيان، لحكمة يريدها الله تعالى، فآخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً(٢).

وأما كون إقامة الصلاة شرطاً للأخوة في الدين فيدل عليه قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

والمعنى: إن تاب المشركون عما هم عليه من الكفر، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، فعاملوهم معاملة الإخوان، وفي هذا من

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٣٩، ٢٤٠) باختصار وتصرف.

(٢) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (١٩٨، ١٩٩) ويقارن.

استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تحريض على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها(٢).

وإنه لمن سماحة هذا الدين ورسوله مع المشركين الذين لهم تاريخ طويل يزيد عن اثنتين وعشرين سنة من الإيذاء والحرب والتأليب.. ومع هذا فلقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتلوا.. كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله والتزموا شعائر الإسلام التي تدل على اعتناقهم هذا الدين واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه وذلك أن الله لا يرد تائباً مهما كانت خطاياه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وإنه لحسم صريح، فإما دخول فيما دخل فيه المسلمون وتوبة عما مضى من الشرك والاعتداء، وعندئذٍ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوا من هؤلاء المشركين المعتدين، وتقوم الوشيجة على أساس العقيدة، ويصبح المسلمون الجدد إخواناً للمسلمين القدامى، ويسقط ذلك الماضي كله بمساءاته من الواقع ومن القلوب(٣).

وقد قال الله في السورة نفسها قبل عدة آيات: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

«وفي هذه الآية شرع الجهاد والإذن فيه، والإشارة إلى أنهم لا يقبل منهم غير الإسلام، وهذه الآية نسخت آيات الموادعة والمعاهدة، وقد عمت جميع المشركين، وعمت البقاع إلا ما خصصته الأدلة من الكتاب والسنة..

ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والتوبة عن الشرك هي الإيمان، أي فإن آمنوا إيماناً صادقاً بأن أقاموا الصلاة الدالة إقامتها على أن صاحبها لم يكن كاذباً في إيمانه، وبأن آتوا الزكاة الدال إيتاؤها على

---

(١) يُنظر: محاسن التأويل للقاسمي، المجلد الخامس، (٨/ ٣٧٠).

(٢) يقارن مع الكشاف (٤٢٥).

(٣) يُنظر: في ظلال القرآن، المجلد الثالث (١٠/ ١٦٠١، ١٦٠٧) باختصار وتصرف.

أنهم مؤمنون حقاً، لأن بذل المال للمسلمين أمارة صدق النية فيما بذل فيه، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شرط في كف القتال عنهم إذا آمنوا...

وقال الله في الآية بعدها: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١] وفرع على التوبة أنهم يصيرون إخواناً للمؤمنين، وذلك لأن المقام هنا لذكر عداوتهم مع المؤمنين جعلت توبتهم سبباً للأخوة مع المؤمنين، بخلاف مقام قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ حيث إن المعقب بالتوبة هنالك هو الأمر بقتالهم والترصد لهم فناسب أن يفرع على توبتهم عدم التعرض لهم بسوء، وقد حصل من مجموع ا لآيتين أن توبتهم توجب أمنهم وأخوتهم.

ومن لطائف الآيتين أن جعلت الأخوة مذكورة ثانياً لأنها أخص الفائدتين من توبتهم فكانت هذه الآية مؤكدة لأختها في أصل الحكم.

وقوله: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ خبر لمحذوف أي: فهم إخوانكم، وصيغ هذا الخبر بالجملة الاسمية للدلالة على أن إيمانهم يقتضي ثبات الأخوة ودوامها تنبيهاً على أنهم يعودون كالمؤمنين السابقين من قبل في أصل الأخوة الدينية.

والإخوان جمع أخ في الحقيقة والمجاز، وأطلقت الأخوة هنا على المودة والصداقة[(١)].

سادساً: من فضل الصلاة أنها عبادة تشترك فيها جميع المخلوقات لله رب العالمين:

وردت آيات مكية كثيرة وأخرى مدنية تثبت أن جميع من في السموات، والأرض من الدواب والملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، والجبال، والطير..

كلها تسجد لله، وهي في عبادة دائمة وصلاة مستمرة من غير فتور ولا استكبار، وبكل طاعة وخضوع لأمر الله تعالى، ودون ملل ولا سآمة، وفي هذا دلالة على فضل الصلاة حيث إنها عبادة اشترك في أدائها أو أداء جزء منها خلق الله أجمعين، ومن الآيات الواردة في ذلك:

١- ما جاء عن الملائكة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

(١) يُنظر: التحرير والتنوير (١٠/ ١١٦-١٢٨) باختصار وتصرف.

وجاء في الحديث: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصف الأول ويتراصون في الصف)[1].

ويقول تعالى عنهم وعن صلاتهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء)[2].

٢- ويقول الله عن سجود المخلوقات وصلاتها لله رب العالمين:

أ- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥].

ب- ويقول عز شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩].

جـ- ويقول جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

د- ويقول تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

هـ- ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

اشتملت هذه الآيات وغيرها من الآيات الواردة في القرآن على سجود وصلاة كل شيء لله تعالى، إذ يقول الله تعالى: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ونص على بعض المخلوقات لما فيه من الدلالات الظاهرة على وحدانية الله «كالظل» ولأن بعضه قد عبد من دون الله كالشمس والقمر.

وأرجح الأقوال في كيفية صلاة وسجود هذه المخلوقات أن صلاة كل شيء مما

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة..، رقم (١١٩) (١/ ٣٢٢).

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها، رقم (٥٢٢) (١/ ٣٧١).

يختص به حسب حاله، ويجمعهم طاعة الله والخشوع له طوعاً أو كرهاً كما أخبر الله عن السموات والأرض في آية أخرى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] [(١)].

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٢٦٦).

الفصل الثالث
خصائص الصلاة

إن المتأمل والمتدبر للآيات الواردة عن الصلاة لفظاً، أو معنى يستطيع أن يستنبط خصائص خص الله بها الصلاة دون سائر فرائضه.

وقد ظهر لي شيء من هذه الخصائص العظيمة أحاول شرحه وبيانه في هذا الفصل:

أولاً: من أظهر خصائص الصلاة أنها دين الله الذي يدين به أهل السموات والأرض، وهي مفتاح شرائع الأنبياء، ولم يبعث نبيٌ إلا بالصلاة.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً ومن أشهرها ما يلي:

١- قوله تعالى في سورة الأنبياء المكية: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن نجاة إبراهيم ولوط عليهما السلام، وأن الله وهب لإبراهيم إسحاق ويعقوب نافلة، وجعلهم صالحين قائمين بحقوقه وحقوق عباده.. ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله[(١)].

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يعني إقامة شرائع الدين بين الناس من المعاملات والعبادات.. والمقصود أن يفعلوا هم ويفعل قومهم الخيرات حتى تكون الخيرات مفعولة للناس كلهم.

وتخصيص ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنها لأن بالصلاة صلاح النفس إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين، وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام.

ثم خصهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى كما

---

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٤٧٦).

دل عليه فعل الكون المفيد تمكن الوصف، ودلت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبة النبوة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف فختم الآية بقوله: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[(١)].

٢- وفي دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام الذي حكاه الله عنه في سورة «إبراهيم» حيث يقول الله عنه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] حيث ينبع هذا الدعاء عن حرص الخليل عليه السلام أن يجعل الله من ذريته موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه، فأجاب الله دعاءه وأخرج من ذرية إسماعيل عليه السلام، حبيبه محمداً ﷺ ودعا ذريته إلى الدين، وإلى ملة إبراهيم فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة[(٢)].

وفي ختام الآية بقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ ما يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات، وإقامة الطاعات، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات[(٣)].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

في الآية الأولى يندد الله بأهل الكتاب الذين تفرقوا بعد أن جاءتهم البينة على ألسنة أنبيائهم فجحدوا هذه البينة وكذلك جحدوا بينة النبي ﷺ لما جاءهم.. والحال أنهم ﴿وَمَآ

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١١٠-١١١) باختصار وتصرف، ويقارن.

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٣٨١).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، المجلد التاسع (١٨/ ٣٦٠).

أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حيث أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم، أمروا بالإذعان والخضوع، وتنقية الدين من الشرك، متبعين إبراهيم عليه السلام، أو على مثاله.

حُنَفَآءَ الحنيف هو المائل، وسمي إبراهيم به لانحرافه عن وثنية الناس كافة.

وقوله: وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ أي الإتيان بها لإحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة، فإن ذلك ليس من الصلاة في شيء.. وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ أي بصرفها في مصارفها التي عينها الله تعالى وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ أي الكتب القيمة، أو دين الأمة المستقيمة.

ومعنى الآية: «إن أهل الكتاب قد افترقوا، ولعنت كل فرقة أختها، وكان افتراقهم في العقائد والأحكام وفروع الشريعة مع أنهم لم يؤمروا، ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى، وأن يخشعوا لله في صلاتهم، وأن يصلوا عباد الله بزكاتهم.

فإذا كان هذا هو الأصل الذي يرجع إليه في الأوامر فما كان عليهم إلا أن يجعلوه نصب أعينهم، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويحلوا به كل ما يعترض أمامهم من المشكلات.

ومتى تحكَّم الإخلاص في الأنفس تَسلَّط الإنصاف عليها، فسادت فيها الوحدة ولم تطرق طرقها الفرقة، هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب»(١).

ثانياً: فرضها بدون واسطة:

١- لما تجلى الله لكليمه موسى عليه السلام وناداه إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ [طه: ١٢-١٤].

نادى الله موسى وقال له: إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ، وأمره بخلع نعليه لأن الحفوة تواضع وأدب ولذلك طاف السلف حافين، ثم علل ذلك بقوله: إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى

(١) محاسن التأويل (٩/ ٤٥٥-٤٥٦).

وهو تعليل للأمر باحترام البقعة[(١)].

ثم قال له: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ أي اصطفيتك للنبوة والرسالة ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ للذي يوحى إليك من الأمر والنهي ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ لا معبود غيري فخصني بالعبادة والتوحيد ولا تشرك بعبادتي أحداً، ثم قال له: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ من عطف الخاص على العام لفضله، ولتذكرني وتكون ذاكراً لي فإن ذكر الله كما ينبغي عبارة عن الاشتغال بعبادته باللسان والجنان والأركان، والصلاة جامعة لها[(٢)].

ويعلق سيد قطب رحمه الله على قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ وما بعدها فيقول: «يلخص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة:

الاعتقاد بالواحدانية، والتوجه بالعبادة، والإيمان بالساعة، وهي أسس رسالة الله الواحدة:

فأما الألوهية الواحدة فهي قوام العقيدة، والله في ندائه لموسى عليه السلام يؤكدها بكل المؤكدات بالإثبات المؤكد ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الأولى لإثبات الألوهية لله، والثانية لنفيها عن سواه.. وعلى الألوهية تترتب العبادة، والعبادة تشمل التوجه لله في كل نشاط الحياة، ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر، لأنها تتمخض لهذه الغاية، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى، وتتهيأ بها النفس لهذا الغرض وحده وتتجمع للاتصال بالله»[(٣)].

ويقول البقاعي: «.. ثم خص من بين العبادات معدن الأنس والخلوة، وآية الخضوع والمراقبة وروح الدين فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي التي أضاعها خلوف السوء إشارة إلى أنها المقصود بالذات من الدين لأنها أعلى شرائعه لأنها حاملة على المراقبة بما فيها من دوام الذكر والإعراض عن كل سوء وذلك معنى ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ وذلك أنسب

---

(١) يقارن مع تفسير البيضاوي (٢/ ٦٤٠).

(٢) يُنظر: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل البروسوي اختصار محمد علي الصابوي (٢/ ٤٢٧) بتصرف بسيط.

(٣) في ظلال القرآن، المجلد الرابع، (١٦/ ٢٣٣١).

الأشياء لمقام الجلال بل هي الجامعة لمظهريْ الجمال والجلال»[1].

٢- أما المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام فقد تكلم وليداً وصرح بأن الله أوصاه بالصلاة وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

فالله سبحانه وتعالى أوصى عيسى عليه السلام بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي أجلها الزكاة مدة حياته، وتكلم بهذا الكلام وهو في المهد صبيٌّ، فخاطبهم بوصف العبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً أو ابناً للآلهة تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى عليه السلام فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي قضى أن يؤتيني الكتاب ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فأخبرهم بأنه عبدالله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله فيَّ من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر والدعوة إلى الله بالقول والفعل، فكل من جالسه أو اجتمع به نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

ثم قال عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي فأنا متمثل لوصية ربي عامل عليها منفذ لها[2].

٣- وأما على نبينا محمد ﷺ فكل العبادات فرضت على الأمة بطريق الوحي بواسطة جبريل عليه السلام، إلا الصلاة ففرضت بدون واسطة بل بالإسراء بالرسول ﷺ نفسه، ونزل عن الإسراء سورة سميت به مطلعها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وفي هذه السورة المكية يمجد الله تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره ﴿ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ يعني محمداً صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَيْلًا﴾ أي في جنح الليل ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ من مسجد مكة ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي هو «إيلياء»، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (٤٤١-٤٤٢) بتصرف.

الخليل عليه السلام ولذا جُمعوا له هنالك كلهم فأمَّهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨](١).

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء وذكر تفاصيل ما رأى وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلى السموات حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين صلاة، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم عليه السلام حتى صارت خمساً في الفعل وخمسين في الأجر والثواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل(٢).

يقول القرطبي رحمه الله: «وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج به إلى السماء وذلك منصوص في الصحيح وغيره... ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال فعلم النبي ﷺ الصلاة ومواقيتها... وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح، ولا يعرفون غير ذلك عملاً ونقلاً مستفيضاً، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها»(٣).

ثالثاً: من خصائص الصلاة أن الله عز وجل سماها إيماناً:

بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، يقول ابن تيمية: «يعني صلاتكم إلى بيت المقدس لأن الصلاة تصدق عمله وقوله وتحصل طمأنينة القلب واستقراره إلى الحق، ولا يصح أن يكون المراد به مجرد تصديقهم بفرض الصلاة لأن هذه الآية نزلت فيمن صلى إلى بيت المقدس ومات ولم يدرك الصلاة إلى الكعبة، ولو كان مجرد

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٠٨٢).

(٢) يُنظر حديث أنس في الإسراء بطوله في: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء (١/ ٩١-٩٣) وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١/ ١٤٨-١٤٩).

(٣) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، المجلد الخامس (١٠/ ٥٥١-٥٥٢) باختصار.

التصديق لشركهم في ذلك كل الناس وفي يوم القيامة فإنهم مصدقون بأن الصلاة إلى بيت المقدس إذ ذاك كانت حقاً ولم يتأسفوا على تصديقهم بفرض معين لم يترك كما لم يتأسفوا على ترك تصديقهم بالحج وغيره من الفرائض ولم يكن اعتماد تصديقهم بالصلاة فقط أولى من تصديقهم بجميع ما جاء به الرسول»[(١)].

ويقول ابن عطية: «وسمى الصلاة إيماناً لما كانت صادرة عن الإيمان والتصديق في وقت بيت المقدس وفي وقت التحويل، ولما كان الإيمان قطباً عليه تدور الأعمال، وكان ثابتاً في حال التوجه هنا وهنا ذكره إذ هو الأصل الذي به يرجع في الصلاة وغيرها إلى الأمر والنهي، ولئلا تندرج في اسم الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس فذكر المعنى الذي هو ملاك الأمر، وأيضاً فسميت إيماناً إذ هي من شعب الإيمان»[(٢)].

رابعاً: **من خصائص الصلاة في القرآن الكريم أنها مقرونة بالتصديق** في آيات كثيرة من كتاب الله منها:

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١-٣٢].

ففي هذه الآيات يخبر الله عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً بالحق بقلبه، غير مصدق به، متولياً عن العمل بقالبه فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً[(٣)].

وهذه الآيات مرتبطة بقوله تعالى في أول السورة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٣-٦].

يقول البقاعي: «ولما ذكر كراهته للآخرة ذكر أن سبب إفساده ما آتاه الله من قوى العلم والعمل بتعطيلها عن الخير واستعمالها في الشر فقال مبيناً عمل العبد الموافق، والآبق عاطفاً على ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ﴾ الذي معناه جحد البعث: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي هذا الإنسان الرسول فيما أخبره بما كان يعمل من الأعمال الخبيثة.. وحذف المفعول لأنه أبلغ في التعميم.

ولما ذكر أصل الدين أتبعه فروعه دلالة على أن الكافر مخاطب بها فقال: ﴿وَلَا

(١) يُنظر: شرح العمدة لابن تيمية (٤/ ٨٧).
(٢) المحرر الوجيز (١٤١).
(٣) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (١٩٤٤).

صَلَّىٰ أي ما أمر به من فرض وغيره، فلا تمسك بحبل الخالق ولا وصل إلى حبل الخلائق على حد ما شرع له، ولما نفى عنه أفعال الخير أثبت له أفعال الشر فقال: وَلَٰكِن أي فعل ضد التصديق بأن كَذَّبَ أي بما آتاه الله وَتَوَلَّىٰ أي وفعل ضد الصلاة التي هي صلة بين المخلوق والخالق، فاجتهد في خلاف ما تدعو إليه فطرته الأولى المستقيمة من الإعراض عن الطاعة من الصلاة وغيرها حتى صار له ذلك ديدناً، فصارت الطاعة لا تخطر له بعد ذلك على بال لموت الفطرة الأولى وحياة النفس الأمارة بالسوء، وليس هذا بتكرار لأنه لا يلزم من عدم التصديق التكذيب»[(١)].

ومن الآيات التي قرنت فيها الصلاة بالتصديق قوله تعالى في سورة الأنعام المكية: وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ [الأنعام: ٩٢].

وشاهدنا من هذه الآية قوله تعالى: وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ والمراد أن الإيمان بالآخرة والتصديق بها كما يحمل الرجل على الإيمان بالنبوة فكذلك يحمله على المحافظة على الصلوات، وليس لقائل أن يقول: الإيمان بالآخرة يحمل على كل الطاعات فما الفائدة في تخصيص الصلاة بالذكر؟

لأن المقصود منه التنبيه على أن الصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله وأعظمها خطراً، ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام: (من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر)[(٢)].

فلما اختص الصلاة بهذا النوع من التشريف، لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام[(٣)].

خامساً: من خصائص الصلاة أن الله عز وجل أوجبها على كل حال، ولم يعذر بها مريضاً ولا خائفاً ولا مسافراً ولا منكسراً ولا غير ذلك، بل وقع التخفيف تارة في شرائطها، وتارة في عددها،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المجلد الحادي والعشرون (٢٩/ ١١١-١١٢).

(٢) ذكر ابن حجر أن البزار أخرجه من حديث أبي الدرداء بهذا اللفظ، وروي مرسلاً وموصولاً والمرسل أشبه بالصواب. التلخيص الحبير (٢/ ٢٩٣-٣٩٤).

وذكره الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٦) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون إلا محمد بن أبي داود فإني لم أجد من ترجمه، وقد ذكر ابن حبان في الثقات: محمد بن أبي داود البغدادي فلا أدري هو هذا أم لا»..

(٣) يُنظر: مفاتيح الغيب (٦/ ٤٣٣) باختصار وتصرف.

وتارة في أفعالها ولم تسقط مع ثبات العقل(١).

والذي يدل على هذه الخصيصة الآيات الواردة في سورة النساء، من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠١-١٠٣].

ففي الآية الأولى ذهب الجمهور إلى أن الآية عنى بها تشريع صلاة السفر، وأن معنى قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ هو قصر الكمية، وذلك بأن تجعل الرباعية ثنائية، قالوا: وحكمها للمسافر في حال الأمن كحكمها في حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقاً، فعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن النبي ﷺ خرج من المدينة لا يخاف إلا الله رب العالمين فصلى ركعتين)(٢).

وعن حارثة بن وهب قال: (صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين)(٣).

وعن أنس قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين، ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً)(٤).

وحينئذ فقوله تعالى في الآية ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ خرج مخرج الغالب حال نزول الآية إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة في مبدئها مخوفة، بل كانوا ما ينهضون إلا إلى غزو عام أو سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله.

قالوا: ومما يدل على أن المراد بالآية صلاة السفر ما رواه يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب، قلت له: قوله تعالى ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .. وقد أمن الناس؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما

---

(١) يُنظر: شرح العمدة (٤/ ٩).

(٢) أخرجه الترمذي، رقم (٥٤٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في المجتبى (١٤٣٤) وفي الكبرى (١٨٩٣) وأحمد (١٨٥٥) و(٣٣٢٤) والطبراني في الكبير (١١٢٦٨) والبيهقي (٥٤٨٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب تقصير الصلاة، باب الصلاة بمنى، رقم (١٠٨٣) (١/ ٣٤٠) وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب قصر الصلاة بمنى، رقم (٦٩٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب تقصير الصلاة، باب الصلاة بمنى، رقم (١٠٨١) (١/ ٣٤٠) وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب قصر الصلاة بمنى، رقم (٦٩٣).

عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال: (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته)[(١)].

إلى غير ذلك من الأحاديث والروايات التي تدل على أن القصر المذكور في الآية هو القصر في عدد الركعات، وأن ذلك كان مفهوماً عندهم من معنى الآية[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس.. وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة لأن الصلاة تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا ذكر ما ينافيه.

ومما يدل على أفضلية القصر على الإتمام في السفر أمران:

أحدهما، ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره.

والآخر: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد.

والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته[(٣)].

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ فتعلق بمفهومه من خص صلاة الخوف بحضرة الرسول ﷺ لفضل الجماعة، وعامة الفقهاء على أنه تعالى علم الرسول ﷺ كيفيتها ليأتم به الأئمة بعده فإنهم نوابٌ عنه فيكون حضورهم كحضوره[(٤)].

«وصلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة ثلاثية كالمغرب، وتارة ثنائية كالصبح، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالاً وركباناً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة، ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة»[(٥)].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٦).

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز (٤٧٣-٤٧٥) ومحاسن التأويل، المجلد الثالث (٥/ ٣٠٥-٣٠٦) وغيرهما.

(٣) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (١٦٠-١٦١).

(٤) تفسير البيضاوي (١/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٥٢٦).

وتدل هذه الآية على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما، أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء، وحذر مهاجمتهم فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والآخر: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها[1].

ثم إن الله عذر من له عذر من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه لكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

فلله أعظم حمد وثناء على ما منَّ به على المؤمنين وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات..

وفي قوله تعالى في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ تظهر خصيصة الصلاة وأنها فرض محدد الأوقات لا يجوز إخراجها عن وقتها في شيء من الأحوال، وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة وأنها واجبة الأداء حال المسايفة والاضطراب في المعركة، وتعليل للأمر بالإيتاء بها كيفما كان[2].

سادساً: من خصائص الصلاة في القرآن الكريم أن الله عز شأنه اشترط لها أكمل الأحوال من:

الطهارة، والزينة باللباس، واستقبال القبلة مما لم يشترط في غيرها من العبادات مما يهيئ لها جواً من الإجلال والتعظيم في نفوس المؤمنين..

ففي الطهارة الحسية والمعنوية أمر القرآن بالتطهر قبل الصلاة فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ

---

(١) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (١٦١).

(٢) يقارن مع تفسير البيضاوي (١/ ٢٣٨).

﴿بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ويؤخذ من هذه الآية أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة في الفرض والنفل، وفرض الكفاية وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء كسجود التلاوة والشكر، ولكن من تيسير الله تعالى فيما شرعه لنا من الأحكام لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر فجاء في نفس الآية التي أوجبت الطهارة جواز التيمم عند عدم الماء لجميع الأحداث كلها الحدث الأكبر والأصغر، بل ونجاسة البدن لأن الله تعالى جعلها بدلاً عن طهارة الماء وأطلق في الآية ولم يقيد..

ولعل من حِكم اشتراط الطهارة الظاهرة بالماء أو التراب تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح، ويورد الاهتمام ويوقظ النفس ويهيئها لاستقبال الصلاة وما فيها من نور وسكينة وكذا فإن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى[(١)].

وجاء **اشتراط اللباس وستر العورة** في قوله تعالى في سورة مكية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

وهذه الآية وإن نزلت في أناس من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال بالنهار والنساء بالليل، إلا أنه أخذ منها العلماء كمجاهد وغيره وجوب ستر العورة في الصلاة والتزين بأجمل الثياب في الجُمع والأعياد، وأن ذلك من السنة التي حافظ عليها النبي ﷺ، وأن من الزينة الطيب، والمشط وأخذ أحسن هيئة للصلاة[(٢)].

أما **تخصيص الصلاة باشتراط استقبال القبلة** ففي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ولا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة من كل أفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (١٨٥-١٨٧).
(٢) يُنظر: معالم التنزيل (٤٦١) وزاد المسير (٤٩١) والكشاف (٣٦١) ويقارن.

بجهتها فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى، وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها[1].

سابعاً: من خصائص الصلاة أن الله عز وجل استعمل فيها جميع أعضاء الإنسان من القلب واللسان وسائر الجوارح وليس ذلك لغيرها[2].

«وذلك لأن الصلاة ليست حركات رياضية، ونظاماً رتيباً خشبياً جامداً لا روح فيه ولا حياة، ولا نظاماً عسكرياً، لا إرادة فيه ولا خيار، إنما هو عمل يشترك فيه الجسم والعقل والقلب، ولكل منها نصيب غير منقوص، وكل فيها ممثل تمثيلاً حكيماً عادلاً فللجسم: قيام، وركوع، وسجود، وانتصاب وانحناء.

وللسان: تلاوة وتسبيح.

وللعقل: تفكر، وتدبر، وتفهم، وتفقه.

وللقلب: خشوع ورقة والتذاذ»[3].

ومن الآيات الدالة على أعمال الجسد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩﴾ [الحج: ٧٧].

وعن القيام يقول تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ونص القرآن على أن الصلاة لا بد أن تكون عن تعقل وشعور فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣].

ولا شك أن الخمر محرم على الإطلاق في جميع الأوقات وهو الحكم الذي استقر عليه القرآن إلا أنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة ولهذا ينهى الله عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد فإنه لا يمكّن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول..

(١) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٥٦٣).
(٢) يُنظر: شرح العمدة (٤/ ٩٠).
(٣) يُنظر: الأركان الأربعة لأبي الحسن الندوي (٣١).

ويؤخذ من الآية أيضاً منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره كمدافعة الأخبثين، والتوق لطعام ونحوه[(١)].

أما استعمال القلب وحضوره في الصلاة فجاء الحث عليه في آيات كثيرة أثنى الله تعالى فيها على الخاشعين والخائفين والطامعين في دعائهم وصلاتهم لربهم فقال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

ويقول سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

ثامناً: **من خصائص الصلاة في القرآن الأمر بالاستعانة بها مع الصبر**:

لم يأت في القرآن أمر من الله بالاستعانة بعد الاستعانة بالله، إلا الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، وذلك في آيتين فقط في سورة البقرة:

الأولى في بني إسرائيل وهي قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

والأخرى: أمر لهذه الأمة وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والمعنى: استعينوا على حوائجكم إلى الله بالجمع بين الصبر والصلاة وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة محتملين لمشاقها وما يجب فيها من إخلاص القلب، وحفظ النيات، ودفع الوساوس ومراعاة الآداب والاحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي الله جبار السموات ليسأل فك الرقاب عن سخطه وعذابه[(٢)].

---

(١) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (١٤٤) ويقارن.

(٢) يُنظر: الكشاف (٧٤).

والمحافظة على الصلاة وأمر الأهل بها يحتاج إلى صبر كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

والمعنى: حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به فيكون أمراً بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها..

وقوله: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي على الصلاة بإقامتها بحدودها وأركانها وخشوعها فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع[(١)].

وقد بيّن النبي ﷺ هذه الخاصية بقوله وفعله فكان يقول لبلال رضي الله عنه: (أقم الصلاة أرحنا بها)[(٢)]، وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[(٣)].

ولا زالت الاستعانة بالصلاة دأب الصالحين والدعاة والمصلحين والمجاهدين في كل عصر وفي كل طبقة «وقد كانوا يأخذون لكفاحهم بالنهار ولأشغالهم التي تتطلب قوة خارقة للعادة وصبراً لا نفاذ له زاداً ووقوداً من عبادتهم في الليل ومن يقظتهم في الأسحار»[(٤)].

---

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٤٦٦).

(٢) سنن أبي داود (٤/ ٢٩٦) ومسند الإمام أحمد (٥/ ٣٦٤).

(٣) تقديم تخريجه صفحة (٢٤).

(٤) يُنظر: الأركان الأربعة (٨٢).

الفصل الرابع
ثمرات الصلاة وآثارها على النفس والأخلاق

إن ثمرات وآثار الصلاة على النفس والأخلاق كثيرة جداً ويحتاج الكلام فيها إلى نظر وتأمل طويل في النصوص القرآنية الواردة في الصلاة.

وسأحاول إيراد أهم ما ظهر لي من ثمرات وفوائد وآثار على النفس والأخلاق:

أولاً: الفلاح في الدنيا والآخرة:

الفلاح هو الظفر وإدراك بغية، وهو ضربان: دنيوي وأخروي.

فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز.

وفلاح أخروي: وهو بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل[(١)].

وفي سورة الأعلى المكية وهي تعد السورة الثامنة في النزول يقول عز وجل:

١- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

والمعنى: «قد فاز بكل مراد من أعمل نفسه في تطهيرها من فاسد الاعتقادات والأخلاق والأقوال والأفعال، والأموال، وتنمية أعمالها القلبية والقالبية وصدقة أموالها.. ولما كان أعظم الأعمال المزكية، الذكر والصلاة قال تعالى: ﴿وَذَكَرَ﴾ أي بالقلب واللسان ﴿ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ أي صفات المحسن إليه، فإنه إذا ذكر الصفة سُر بها فأفاض باطنه على ظاهره ذكر اللفظ الدال عليها، وإذا ذكر ذلك اللفظ وهو الاسم الدال عليها انطبع في قلبه ذكر المسمى ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أي الصلاة الشرعية لأنها أعظم الذكر، فهي أعظم عبادات البدن كما أن الزكاة أعظم عبادات المال.

ومن فعل ذلك استراح من داء الإعجاب وما يتبعه من النقائص الموجبة لسوء الانقلاب، وكان متخلقاً بما ذكر من أخلاق الله في أول السورة من التخلي عن النقائص بالتزكية، والتحلي بالكمالات بالذكر والصلاة لأنه لعظمته لا يتأهل لذكره إلا من واظب على ذكر اسمه فلا يشقى فلا يصْلَى النار الكبرى بوعد لا خلف فيه»[(٢)].

وقد جمعت أنواع الخير في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فإن الفلاح نجاح المرء فيما يطمع إليه

(١) المفردات (٦٤٤).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٠/ ٤٠٣).

فهو يجمع معنى الفوز والنفع، وذلك هو الظفر بالمبتغى في الخير.

والإثبات بفعل المضي في قوله ﴿أَفۡلَحَ﴾ للتنبيه على المحقق وقوعه من الآخرة، واقترانه بحرف ﴿قَدۡ﴾ لتحقيقه وتثنيته كما في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩](١).

٢- وفي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥، لقمان: ٥].

عقب الله بهذه الآية في سورتين إحداهما مكية، والأخرى مدنية بعد ذكره لصفات المؤمنين المهتدين بهدى القرآن ووصفهم بأنهم ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مع صفات أخرى.

ومعنى الآية -كما يقول ابن جرير-: «أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديد الله إياهم وتوفيقه لهم، وتأويل قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله، من الفوز بالثواب والخلود في الجنان، والنجاة مما أعده الله لأعدائه من العقاب»(٢).

«وفي تكرير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح فجعلت كل واحدة من الأثرتين من تميزهم بها عن غيرهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها»(٣).

ولما كان الفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب حصر الفلاح فيهم لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبيل الشقاء والهلاك والخسارة التي تفضي بسالكها إلى الهلاك(٤).

٣- وفي سورة «المؤمنون» المكية خص الله عز وجل الفلاح لفئة خاصة من المصلين الذين خشعوا في صلاتهم، وحافظوا عليها.. فقال عز شأنه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] ثم قال بعد وصفهم بعدة صفات: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير (٣/ ٢٨٧).
(٢) جامع البيان (١/ ٨٣).
(٣) الكشاف (٤٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢٤).

و ﴿قَدْ﴾ حرف تأكيد، وقال المحققون: ﴿قَدْ﴾ تقرب الماضي من الحال يدل على أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال، وهو أبلغ من تجريد ذكر الفعل(١).

وأصل الخشوع في اللغة: الخضوع والتواضع، وفي المراد بالخشوع في الصلاة أربعة أقوال:

أحدها: أنه النظر إلى موضع السجود.

والثاني: أنه ترك الالتفات في الصلاة، وأن تلين كنفك للرجل المسلم.

والثالث: أنه السكون في الصلاة.

والرابع: أنه الخوف(٢).

ولعل الخشوع في الصلاة أعم من ذلك كله ويكون بجمع الهمة والإعراض عما سواها، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر(٣).

«وسر الصلاة وروحها ولبها هو إقبال العبد على الله بكليته فيها، فكما أنه لا ينبغي أن يصرف وجهه عن القبلة إلى غيرها فيها، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربه إلى غيره فيه، بل يجعل الكعبة -التي هي بيت الله- قبلة وجهه وبدنه، ورب البيت تبارك وتعالى قبلة قلبه وروحه، وعلى حسب إقبال العبد على الله في صلاته يكون إقبال الله عليه، وإذا أعرض أعرض الله عنه، وكما تدين تدان.

والإقبال في الصلاة ثلاثة منازل:

إقبال العبد على قلبه فيحفظه ويصلحه من أمراض الشهوات والوساوس والخطرات المبطلة لثواب صلاته أو المنقصة لها.

والثاني: إقباله على الله بمراقبته فيها حتى يعبده كأنه يراه.

والثالث: إقباله على معاني كلام الله، وتفاصيله ليعطي الصلاة حقها من الخشوع والطمأنينة»(٤).

وهنا نكتة في إضافة الصلاة للمؤمنين في قوله: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ وذلك «لأن الصلاة

---

(١) معالم التنزيل (٨٧٧).
(٢) يُنظر: زاد المسير (٩٦٩) باختصار.
(٣) يقارن مع معالم التنزيل (٨٧٨).
(٤) أسرار الصلاة لابن القيم (١١٥، ١١٦) ويُنظر بعدها كلاماً جميلاً في كيفية الإقبال على الله في كل جزء من أجزاء الصلاة.

دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده، وهي عدته وذخيرته فهي صلاته، وأما المصلى له فغني متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها»[(١)].

والصفة الثانية للحصول على الفلاح هي المحافظة على الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وتساءل الزمخشري كعادته: فإن قلتَ: كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخراً؟ ثم أجاب بكلام جميل ممتع فقال: «قلت: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم، وآخراً بالمحافظة عليها، وذلك أن لا يسهو عنها ويؤدوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها، وأيضاً: فقد وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي: صلاة كانت، وجمعت آخراً: لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة، وصلاة الجمعة، والعيدين، والجنازة، والاستسقاء، والكسوف، والخسوف، وصلاة الضحى، والتهجد، وصلاة التسبيح، وصلاة الحاجة، وغيرها من النوافل»[(٢)].

٤- وفي قوله تعالى في السجدة الثانية من سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

علق الله تعالى الفلاح على الصلاة، وخص منها الركوع، والسجود لفضلها وركنيتها، ثم أمرهم بعبادته، وبفعل الخير عموماً.. لكي يفوزوا بالمطلوب المرغوب، وينجوا من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الله، والسعي في نفع عبيده، فمن وفق لذلك فله القدح المعلى من السعادة والنجاح والفلاح[(٣)].

يقول الطاهر ابن عاشور: «والمراد بالركوع والسجود الصلوات، وتخصيصهما بالذكر من بين أعمال الصلاة لأنهما أعظم أركان الصلاة إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية، وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ تنبيه على أن الصلاة عماد الدين... والرجاء المستفاد من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحد الموجب للفلاح فيما حدد الله

(١) الكشاف (٧٠٣).
(٢) المرجع السابق (٧٠٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤٩٦) بتصرف.

تعالى، فهذه حقيقة الرجاء، وأما ما يستلزمه الرجاء من تردد الراجي في حصول المرجو فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلة على تحيل الشك على الله تعالى»[(١)].

ثانياً: من ثمراتها الاستقامة على الصراط المستقيم:

إن خلق الاستقامة من كمال الإيمان، وحسن الإسلام، بها ينال الإنسان الكرامات ويصل إلى أعلى المقامات، وهي دليل اليقين ومرضاة رب العالمين، وصاحبها يثق به الناس ويحبون معاشرته، وإذا استقام القلب استقامت الجوارح.. وعرف بعضهم الاستقامة بقوله: «أن يجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي، وقيل: الاستقامة ضد الاعوجاج، وهي مرور العبد في طريق العبودية بإرشاد الشرع والعقل»[(٢)].

وقال الماوردي: «الاستقامة أن يجمع بين فعل الطاعات واجتناب المعاصي لأن التكليف يشتمل على أمر بطاعة يبعث على الرغبة، ونهي عن معصية يدعو إلى الرهبة»[(٣)].

ولعل من الأسرار والحِكم التي تؤكد أهمية الاستقامة وحاجة المؤمن إليها دائماً جعل قراءة الفاتحة ركناً من أركان الصلاة في كل ركعة من ركعات الصلاة لما فيها من الدعاء العظيم ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ما يدل على أن من أعظم الثمرات التي يجنيها المصلي انتهاؤه عن الفحشاء والمنكر فتحصل له الاستقامة على الدين..

ويرى (الزمخشري) أن الصلاة تكون لطفاً في ترك المعاصي فكأنها ناهية عنها.. ثم قال: «والصلاة المستحق بها الثواب أن يدخل فيها مقدماً للتوبة النصوح، متقياً لله لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح.. وعلى كل حال إن المراعي للصلاة لا بد أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

(٢) التعريفات (١٩) بتصرف بسيط.

(٣) النكت والعيون للماوردي (٥/ ١٧٩-١٨٠).

ممن لا يراعيها»[(١)].

وذكر الرازي في تفسيره وجوهاً أربعة أوضح فيها كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر فتتحقق بذلك الاستقامة على الصراط المستقيم في الدنيا ثم يجوز صاحبها الصراط في الآخرة بتوفيق الله له فقال: «الصلاة تنهى من وجوه:

الأول: هو أن من كان يخدم ملكاً عظيم الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة ويرى عبداً من عباده قد طرده طرداً لا يتصور قبوله، وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله، يستحيل من ذلك المقرب عرفاً أن يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صار عبداً له، وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

الثاني: هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات، وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر، فإذا لبس واحدٌ منهم ثوب ديباج مذهباً يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء عرفاً، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدي الله واضع يمينه على شماله على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيبة، ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم فإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر، ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع.

الثالث: من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا في ذلك الموضع، فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يُترك، فكذلك العبد إذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين إذ صار من أصحاب اليمين، فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال، وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعني من صلى عصمه الله عن الفحشاء

(١) الكشاف (٨٢٠) باختصار.

والمنكر.

الرابع: وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقي والمنادي والمتعيش لا يبالي بما فعل من الأفعال يأكل في دكان الهراس، والرواس ويجلس مع أحباش الناس.

فإذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله، فإذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾ [العلق: ١٩].

فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلاً عن الكبائر»[(١)].

ثالثاً: من ثمرات الصلاة تكفير الصغائر من السيئات:

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

في هذه الآية يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر، وصلاتا الظهر والعصر، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ﴾ ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء ويتناول ذلك قيام الليل فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ أي فهذه الصلوات الخمس وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات وهي -مع أنها حسنات- تقرب إلى الله وتوجب الثواب، فإنها تذهب ا لسيئات وتمحوها والمراد بذلك: الصغائر كما قيدتها الآية الأخرى وهي قوله عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وكذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله: (والصلوات الخمس

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٠٣-٤٠٤).

والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر)(١).

وسبب نزول هذه الآية يوضح أنها عامة للناس كافة فعن ابن مسعود رضي الله عنه (أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك لـه، فنزلـت هـذه الآيـة فقال الرجل: ألي هذه الآية؟ فقال ﷺ: لمن عمل بها من أمتي)(٢).

وهناك رواية عن عثمان بن عفان رضي الله عنه تؤكد ذلك وتوضحه حيث يقول رضي الله عنه: (توضأ رسول الله ﷺ ثم قال: من توضأ وضوئي هذا ثم صلى الظهر غفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح، ومن صلى العصر غفر له ما بينها وبين صلاة الظهر، ومن صلى المغرب غفر له ما بينها وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر لـه ما بينها وبين صلاة المغرب، ثم لعله أن يبيت ليلته يتمرغ، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينه وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات)(٣).

«وإذهاب السيئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها ويشمل أيضاً محو إثمها إذا وقعت ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها فضلاً من الله على عباده الصالحين»(٤).

وقد أشار القرآن أيضاً إلى أن هذا التكفير للسيئات والمحو للخطايا حظي به من قبلنا من أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢].

رابعاً: من ثمرات الصلاة سعة الرزق وزيادة الفضل في الدنيا والآخرة:

يقول تعالى في سورة فاطر المكية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٢٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، رقم (٥٢٦) (٨/ ٢٦٨-٢٦٩) وصحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، رقم (٢٧٦٣) (٤/ ٢١١٥).

(٣) يُنظر: جامع البيان (١٥/ ٥١٢) ورواه أحمد في المسند رقم (٥١٣) وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٩٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٠).

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

وفي قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ بيان للثمرة وللجزاء الحاصل لمن أقاموا الصلاة وذلك بأن يوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، قال ابن عباس: يعني سوى الثواب مما لم تر عين، ولم تسمع أذن ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ قال الخطابي: الشكور هو الذي يشكر اليسير من الطاعة، فيثيب عليه الكثير من الثواب، ويعطي الجزيل من النعمة، ويرضى باليسير من الشكر، ومعنى الشكر المضاف إليه: الرضى بيسير الطاعة من العبد والقبول له وإعظام الثواب عليه[1].

«والتوفية: جعل الشيء وافياً أي تاماً لا نقيصة فيه ولا غبن، وأسجل عليهم الفضل بأنه يزيدهم على ما تستحقه أعمالهم ثواباً من فضله، أي كرمه وهو مضاعفة الحسنات الواردة في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: ٢٦١]»[2].

وجاء في القرآن الكريم أن الله ضمن الرزق الواسع الطيب المقرون بالتوفيق والعاقبة الحسنة للمقيمي الصلاة والمحافظين عليها والآمرين بها أهلهم وذويهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وذلك أن النفس بطبيعتها ميالة إلى الدنيا، مرهونة بالحاضر من فاني العطايا، وكان تخليها عن ذلك هو الموصل إلى حريتها المؤذن بعلو همتها قال تعالى مؤكداً صعوبة ذلك: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ والمعنى: لا تمد عينيك معجباً ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والممتعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتع بها -بقطع النظر عن الآخرة- القوم

(١) معالم التنزيل (١٠٧١) وزاد المسير (١١٦٢) ويقارن.
(٢) يُنظر: التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٧، ٣٠٨).

الظالمون، ثم تذهب سريعاً وتمضي جميعاً.. ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ .

والمعنى: ورزق ربك العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [1].

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يأمر أهله بالصلاة وأن يستنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، وأن يصطبر هو على فعلها ثم ختم الآية بقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، وقال الثوري: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي لا نكلفك الطلب[2].

يقول (الزمخشري) في معنى الآية: «أي: وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم، ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة فإن رزقك مكفيٌّ من عندنا ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ففرغ بالك لأمر الآخرة.. وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية ثم ينادي: الصلاة الصلاة رحمكم الله.

وعن بكر بن عبدالله المزني: كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله»[3].

ثم قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٤٦٥-٤٦٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١٢٣٠).
(٣) الكشاف (٦٧١).

ديننا قد طاب)[1].

وفي سورة النور أثنى الله على الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن عملهم ذلك ناتج عن خوفهم من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.. ثم ختم الله الآيات بقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨].

والمراد بـ ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن كقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وقال الرازي: «أي يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ما عملوا، وفيه وجوه:

الأول: المراد «بالأحسن» الحسنات أجمع، وهي الطاعات فرضها ونفلها.

قال مقاتل: إنما ذكر الأحسن تنبيهاً على أنه لا يجازيهم على مساوئ أعمالهم بل يغفرها لهم.

الثاني: أنه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ما عملوا على الواحد عشراً إلى سبعمائة.. أما قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ فالمعنى أنه تعالى يجزيهم بأحسن الأعمال ولا يقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ما ذكره تعالى في سائر الآيات من التضعيف.

.. ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ نبه به على كمال قدرته وكمال جوده، ونفاذ مشيئته وسعة إحسانه، فكأنه سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة، ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف، فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم»[2].

وفي آخر آية من سورة الجمعة المدنية، حين سمع بعض الصحابة رضوان الله عليهم عن قدوم تجارة والرسول ﷺ يخطب، ظنوا أن فيها رزقاً فانفضوا فأنزل الله آيات تبين لهم أن الصلاة خير مما انفضوا إليه، وختم الآية بأن الله خير الرازقين، وكأن في هذا إشارة

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٢٣١) والحديث في صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٥٩٧-٥٩٨) باختصار بسيط.

إلى أن الرزق الذي في الصلاة هو الرزق الواسع(١)، فقال تعـالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١] والمعنى: أن ما عند الله من الثواب على الصلاة والثبات مع النبي ﷺ خير من اللهو ومن التجارة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه موجد الأرزاق فإياه فاسألوا، ومنه فاطلبوا فهو موجود على الدوام لا يخيب من سأله لأنه أكرم الأكرمين، يرزق من يؤمن به ويعبده، ومن يكفر به ويجحده، فهو يعطي من سأل، ويبتدئ من لا يسأل(٢).

خامساً: الصلاة من أكبر الأسباب الموجبة لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

جاءت هذه الآية في أواخر سورة البقرة وأدخلت بين آيات الربا وذلك «لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه خصوصاً إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق ينافي تعاطي الربا الذي هو ظلم لهم وإساءة عليهم»(٣).

قال القرطبي: «... وخص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمنها عمل الصالحات تشريفاً لهما وتنبيهاً على قدرهما إذ هما رأس الأعمال، الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال»(٤).

وقال أبو حيان: «مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة، وذلك أنه لما ذكر حال آكل الربا، وحال من عاد بعد مجيء الموعظة، وأنه كافر أثيم، ذكر ضد هؤلاء ليبين فرق ما بين الحالين»(٥).

ولهذا قال الطبري في تفسيره: «وهذا خبر من الله عز وجل بأن الذين آمنوا يعني الذين صدقوا بالله وبرسوله وبما جاء به من عند ربهم من تحريم الربا وآكله وغير ذلك من شرائع دينه، وعملوا الصالحات التي أمرهم الله عز وجل بها والتي ندبهم إليها،

---

(١) الصلاة في القرآن الكريم د. فهد الرومي (٤٠).
(٢) يقارن بين زاد المسير (١٤٣٧) ومعالم التنزيل (١٣١٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٩٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣١١).
(٥) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٨٨).

وأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأدوها بسننها، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم بعد الذي سلف منهم من أكل الربا قبل مجيء الموعظة منه من عند ربهم ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ يعني ثواب ذلك من أعمالهم وإيمانهم وصدقتهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوم حاجتهم إليه في معادهم، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يومئذ من عقابه على ما كان سلف منهم في جاهليتهم وكفرهم قبل مجيئهم موعظة من ربهم من أكل ما كانوا أكلوا من الربا بما كان من إنابتهم وتوبتهم إلى الله عز وجل من ذلك عند مجيئهم الموعظة من ربهم»[1].

سادساً: من ثمرات الصلاة أنها علاج للهلع الذي جُبلت عليه النفس البشرية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

جاءت هذه الآيات من سورة المعارج بعد آيات صورت الهول العظيم من مشاهد ذلك اليوم، أعني يوم القيامة وذكرت شيئاً من العذاب ثم اتجهت إلى تصوير حقيقة النفس البشرية في مواجهة الخير والشر في حالتي إيمانها وخلوها من الإيمان[2]، والمراد بالإنسان جنس الإنسان لا فرد معين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]، وقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

و«هلوع: فعول مثال مبالغة للاتصاف بالهلع، والهلع لفظ غامض من غوامض اللغة قد تساءل العلماء عنه، ونقل الزمخشري عن ثعلب لما سأله محمد بن عبدالله بن طاهر عن الهلع قال: قد فسره الله ولا يكون تفسير أبين من تفسيره وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس[3] والذي استظهره ابن عاشور من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه، وأما الجزع فمن آثار الهلع، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشره، وبعضهم بالضجر، وبعضهم بالشح، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبن عند اللقاء.. ومعنى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أن الهلع طبيعة كامنة فيه تظهر عند ابتداء شعوره

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢١).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٩٨).

(٣) يُنظر: الكشاف (١١٤٠).

بالمنافع والمضار فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعها البشرية.. وهو كناية بالخلق عن تمكن ذلك الخلق منه وغلبته على نفسه، والمعنى: أن من مقتضى تركيب الإدراك البشري أن يحدث فيه الهلع»[(١)].

وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي يجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من مال أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه الله ولا يشكر الله على نعمه وبره فيجزع في الضراء ويمنع في السراء[(٢)].

«وصورة الإنسان -عند خواء قلبه من الإيمان- كما يرسمها القرآن صورة عجيبة في دقتها وتعبيرها الكامل عن الملامح الأصيلة في هذا المخلوق، والتي لا يعصمه منها ولا يرفعه عنها إلا العنصر الإيماني، الذي يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التي تمسك به من الجزع عند ملاقاة الشر، ومن الشح عند امتلاك الخير... لكأنما الآيات هذه كل كلمة لمسة من ريشة مبدعة تضع خطاً في ملامح هذا الإنسان. حتى إذا اكتملت الآيات الثلاث القصار المعدودة الكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة وانتفض من خلالها الإنسان بسماته وملامحه الثابتة. هلوعاً.. جزوعاً عند مس الشر، يتألم للذعته، ويجزع لوقعه، ويحسب أنه دائم لا كاشف له. ويظن اللحظة الحاضرة سرمداً مضروباً عليه، ويحبس نفسه بأوهامه في قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به، فلا يتصور أن هناك فرجاً، ولا يتوقع من الله تغييراً، ومن ثم يأكله الجزع، ويمزقه الهلع. ذلك أنه لا يأوي إلى ركن ركين يشد من عزمه. ويعلق به رجاءه وأمله.. منوعاً للخير إذا قدر عليه يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره ويحتجنه لشخصه، ويصبح أسير ما ملك منه مستعبداً للحرص عليه! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه، وهو منقطع عنه خاوي القلب من الشعور به.. فهو هلوع في الحالتين.. هلوع من الشر. هلوع على الخير.. وهي صورة بائسة للإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان»[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦٧-١٦٨) باختصار وتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٢١).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٩٩).

إن الهلع ضعف في النفس، وخوف في القلب يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر.. إن الجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمّارة فأخذ بأنفاسه، وضيق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسلك فانحصار القلب وضيقه يجعله يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله. فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله، رق وصارت فيه الرأفة والرحمة، فتراه رحيماً رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها، والطير في وكره فضلاً عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله تعالى[(١)].

وقد أوضح القرآن الكريم علاج هذه الأمور القلبية وأوضح بجلاء لا ريب فيه أن الصلاة تقي صاحبها هذه المشاعر القلبية حيث استثنى الله المصلين ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

ومعناه: «إلا المؤمنون الذين أمر الآخرة أوكد عليهم من أمر الدنيا.. فإنهم يقل فيهم لأنهم يجاهدونه بالتقوى، وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ بالإفراد، وقرأ الحسن ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمۡ﴾ بالجمع، وقوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ مرابطون قائمون لا يخلون في وقت من الأوقات بها فيتركونها، وهذا في المكتوبة، وأما النافلة فالدوام عليها هو الإكثار منها بحسب الطاقة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه)[(٢)]، وقال ابن مسعود: الدوام: صلاتها لوقتها، وتركها كفر، وقال عقبة بن عامر: ﴿دَآئِمُونَ﴾ يقرون في صلاتهم ولا يلتفتون يميناً وشمالاً ومنه الماء الدائم»[(٣)].

وبعد أن وصف الله المصلين بصفات ثمانٍ هي من أشعار المسلمين إطناباً في الثناء عليهم لأن مقام الثناء مقام إطناب قال في آخرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

---

(١) الروح لابن القيم (٢٢٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد و المداومة على العمل، رقم (٦٤٦٢) (٤/ ١٨٤) وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم، رقم (٢١٦، ٧٨٢).

(٣) المحرر الوجيز (١٨٩٨) بتصرف بسيط.

وفيها ثناء عليهم بعنايتهم بالصلاة من أن يعتريها شيء يخل بكمالها، لأن مادة المفاعلة هنا للمبالغة في الحفظ مثل: عافاه الله، وقاتله الله، فالمحافظة راجعة إلى استكمال أركان الصلاة وشروطها وأوقاتها، وإيثار الفعل المضارع لإفادة تجدد ذلك الحفاظ وعدم التهاون به، وبذلك تعلم أن هذه الجملة ليست مجرد تأكيد لجملة ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين(1).

ويعلق صاحب الظلال رحمه الله على المداومة على الصلاة والمحافظة عليها قائلاً:

«والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان، هي وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد ومظهر العبودية الخالصة التي يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة. وصفة الدوام التي يخصصها بها هنا.. تعطي صورة الاستقرار والاستطراد، فهي صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل وهي صلة بالله مستمرة غير منقطعة.. لملاحظة صفة الاطمئنان والاستقرار والثبات على الاتصال بالله، كما ينبغي من الاحترام لهذا الاتصال فليس هو لعبة توصل أو تقطع حسب المزاج!

وكما بدأت سمات النفوس المؤمنة بالصلاة، ختمها كذلك بالصلاة، والمحافظة صفة غير صفة الدوام التي ذكرت في صدر هذه الصفات.. تتحقق بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها وفرائضها، وفي سننها، وفي هيئتها، وفي الروح التي تؤدى بها، فلا يضيعونها إهمالاً وكسلاً، ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها.. وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحي بالاحتفال والاهتمام»(2).

سابعاً: من الآثار التي تكتسبها النفس من الصلاة طمأنينة القلب وسكينة النفس:

الطمأنينة أثر من آثار هداية القلب، وهي ركن من أركان الصلاة لا تتم إلا بها، وقد أثنى الله على النفوس المطمئنة ورضي عنها، وهي سبب من أسباب سعادة الإنسان ودليل فلاحه، وطريق موصل إلى الجنة، وهي دليل اليقين وصحة القلب، والطمأنينة

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٧٣-١٧٤) باختصار وتصرف.

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٩٩، ٣٧٠٢) باختصار وتصرف.

دليل اتصاف المرء بالحياء، وكفى بالحياء خلقاً حميداً، وهي عند الموت دليل رضا الله عز وجل، وبشرى لصاحبها بدخول الجنة[1].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والصلاة من أرفع أنواع الذكر، وقد سبق بيان إطلاق «الذكر» على الصلاة في أكثر من آية[2].

بل إن الحكمة من الصلاة كما سبق بيانه هي إقامة ذكر الله في الأرض كما قال الله لكليمه موسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤].

ومعنى طمأنينة القلوب أي «يزول قلقها واضطرابها وتحضرها أفراحها ولذاتها»[3].

وعن قتادة في قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ قال: هشت إليه واستأنست به.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ قال: تسكن القلوب[4].

ويقول ابن كثير: أي تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي هو حقيق بذلك[5].

والصلاة التي تثمر الطمأنينة لا بد من أن تكون بحضور قلب وخشوع نفس واستحضار لجلال الله وإكرامه وإلا فلا طمأنينة «ومن لم يطمئن بذكر الله فليس له قلب فضلاً عن أن يكون في قلبه عقل بل هو من الجمادات»[6].

والطمأنينة والسكينة الحاصلة للمصلي هي ثمرة الإقبال على الله في الصلاة ليحصل إقبال الله سبحانه على العبد «وفي الإقبال على الله في الصلاة جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال، وجميع ثمرات الأعمال في الإقبال على الله فيها، ولهذا لم يقل النبي ﷺ

(١) نضرة النعيم (٧/ ٢٧١٢).
(٢) كما في سورة البقرة، الآية (٢٣٩) وسورة ص، الآية (٣٢) وسوة الجمعة، الآية (٩) وغيرها كثير.
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٧٢).
(٤) الدر المنثور (٤/ ٦٤٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (١٠١٢).
(٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٠/ ٣٣٧).

جعلت قرة عيني في الصوم، ولا في الحج والعمرة، ولا في شيء من الأعمال، وإنما قال: (جعلت قرة عيني في الصلاة)[1]، وتأمل قوله: (وجعلت قرة عيني في الصلاة) ولم يقل (بالصلاة) إعلاماً منه بأن عينه لا تقر إلا بدخوله كما تقر عين المحب بملابسته لمحبوبه.. فقرة العين بالدخول في الشيء أتم وأكمل من قرة العين به قبل الدخول فيه»[2].

والقلب إذا توجه إلى الله في الصلاة صار قابلاً للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وإيجاده، وإذا توجه إلى عالم الأجسام اشتاق إلى التصرف فيها.. والقلب كلما توجه إلى عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرف فيها، أما إذا توجه القلب إلى مطالعة فضل الله حصل فيه أنوار رضا الله عنه وعن إقباله فهناك يكون ساكناً فلهذا السبب قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ويقول بعض القدماء: إن الإكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهباً باقياً على كر الدهور والأزمان صابراً على الذوبان الحاصل بالنار، وأكسير جلال الله إذا وقع في القلب أولى أن يقلبه جوهراً باقياً نورانياً لا يقبل التغير والتبدل[3].

وما أجمل تفريق الفيروزآبادي بين الطمأنينة والسكينة حيث يقول:

«الطمأنينة والسكينة كل منهما تستلزم الأخرى، لكن استلزام الطمأنينة السكينة أقوى من العكس، ثم إن الطمأنينة أعم من السكينة وهي على درجات: طمأنينة القلب بذكر الله، وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء، والطمأنينة: سكون أمن فيه استراحة أنس. والسكينة تكون حيناً بعد حين، والطمأنينة لا تفارق صاحبها وكأنها نهاية السكينة»[4].

ولا يزال المصلي في طمأنينة وسكينة حتى إذا جاء وقت السياق والموت أو يوم القيامة خوطبت روحه بخطاب

---

(١) الحديث عن أنس بن مالك رواه النسائي في الكبرى (٨٨٨٧) والمجتبى (٧/ ٦١) وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩) وابن سعد (١/ ٣٩٨) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٢١) والطبراني في الأوسط (٥٢٠٣) وفي الصغير (٧٤١) وأبو يعلى (٣٤٨٢) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ١٦٠)، وقال عنه الذهبي في الميزان (٣/ ٢٥٥): «إسناده قوي» وقال ابن حجر في الفتح (٣/ ١١٥): «صح عنه» وفي (١١/ ٣٤٥): «بسند صحيح» وقال في تلخيص الحبير (٣/ ١١٦): «إسناده حسن» قال محقق أسرار الصلاة: «قلت: هذا هو الراجح أن السند حسن لوجود بعض الاختلاف فيه والله أعلم».

(٢) أسرار الصلاة (١٢٢، ١٢٣).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ٢٤٤) باختصار وتصرف.

(٤) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٥١٧).

جميل إكراماً لها ورضاً عنها ونوديت بقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

ومعنى المطمئنة هنا: «الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة، أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك، ويشهد للتفسير الأول قراءة أبي بن كعب: يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة»(١).

ويقول ابن كثير: «وأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿رَاضِيَةٗ﴾ أي في نفسها ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ أي: قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاها ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي في جملتهم ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره، وعند قيامه من قبره وكذلك هاهنا»(٢).

ثامناً: من أعظم ثمرات الصلاة اكتساب رحمة الله عز وجل، ومغفرته، وثنائه وكرامته وبركته، وكذا استغفار الملائكة ودعاؤهم ومن ثم الخروج من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ يقول مجاهد: هو أن لا ينساه أبداً.

وقال ابن السائب: بالصلوات الخمس.

وقال مقاتل بن حيان: هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ قال أبو عبيدة: الأصيل ما بين العصر إلى الليل.

وجمهور المفسرين على أن المراد بالتسبيح هنا هو الصلاة، واتفق هذا الجمهور على أن

---

(١) الكشاف (١٢٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٩٩٥).

المراد بالتسبيح بكرة: صلاة الفجر، وأما صلاة الأصيل، فمنهم من خصها بالعصر، ومنهم من قال: إنها الظهر والعصر، ومنهم من أدخل المغرب والعشاء مع الظهر والعصر.

وقال مجاهد: التسبيح هنا باللسان، وهو قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

وسواء قلنا: إن المراد بالتسبيح هو باللسان، أو إنه الصلاة .. فإن الصلاة كما هو معلوم من أعظم أنواع الذكر، وهي مشتملة على التسبيح والحمد والدعاء والخضوع والخشوع والتذلل لله والرغبة إليه والرهبة منه مما يجعل المقيم لها من أفضل الذاكرين لله ذكراً كثيراً.. وتفيد الآيات أن الثمرة الحاصلة لهذا الذاكر هي صلاة الله وصلاة ملائكته.. وتدور أقوال المفسرين للصلاة من الله على أن المراد بها: رحمته كما قاله الحسن.

وقال سعيد بن جبير: مغفرته، وقال أبو العالية: ثناؤه، وقال سفيان: كرامته، وقال أبو عبيدة: بركته(٢).

وفي الآية «إشعار القلوب برحمة الله ورعايته، وعنايته بأمر الخلق، وإرادة الخير لهم، وهو الغني عنهم، وهم الفقراء المحاويج لرعايته وفضله.. وتعالى الله، وجلت نعمته وعظم فضله، وتضاعفت منته، وهو يذكر هؤلاء العباد الضعاف المحاويج الفانين الذين لا حول لهم ولا قوة، ولا بقاء لهم ولا قرار، يذكرهم، ويعني بهم، ويصلي عليهم هو وملائكته ويذكرهم بالخير في الملأ الأعلى، فيتجاوب الوجود كله بذكرهم كما قال رسول الله ﷺ: (يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)(٣).

ألا إنها لعظيمة لا يكاد الإدراك أن يتصورها، وهو يعلم أن هذه الأرض ومن عليها وما عليها إن هي إلا ذرة صغيرة زهيدة بالقياس إلى تلك الأفلاك الهائلة، وما الأفلاك ومن فيها وما فيها إلا بعض ملك الله الذي قال له كن فكان..

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

ونور الله واحد متصل شامل، وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف، وما يخرج الناس

(١) يُنظر: زاد المسير (١١٣٠) بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير (١١٣٠) ويُنظر: المحرر الوجيز (١٥١٦).
(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥) (٤/ ٣٨٤).

من نور الله إلا ليعيشوا في ظلمة من الظلمات، أو في الظلمات مجتمعة، وما ينقذهم من الظلام إلا نور الله الذي يشرق في قلوبهم، ويغمر أرواحهم، ويهديهم إلى فطرتهم وهي فطرة هذا الوجود، ورحمة الله بهم، وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تتفتح قلوبهم للإيمان[(١)].

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ بشارة لجميع المؤمنين، وإشارة إلى أن قوله تعالى: ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ غير مختص بالسامعين وقت الوحي.

ثم قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ لما بين تعالى عنايته في الأولى بين عنايته في الآخرة، وذكر السلام لأنه هو الدليل على الخيرات فإن من لقي غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما، وإن لم يسلم دل على المنافاة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي يوم القيامة، وذلك لأن الإنسان في دنياه غير مقبل بكليته على الله، كيف وهو حال نومه غافل عنه وفي أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه، وأما في الآخرة لا شغل لأحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

والإعداد للإكرام لا للحاجة، وهذا فإن الملك إذا قيل له: فلان واصل، وأراد إكرامه يهيئ له بيتاً وأنواعاً من الإكرام ولا يقول بأنه إذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه، فكذلك الله لكمال الإكرام أعد للذاكر أجراً كريماً من غير طلبه بخلاف الدنيا فإنه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر.

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ مناسب لحالهم لأنهم لما ذكروا الله في دنياهم حصل لهم معرفة، ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغي بصفات الجلال ونعوت الكمال، والله يعلم حالهم في الدنيا فأحسن إليهم بالرحمة، والمتعارفان إذا التقيا وكان أحدهما شفيقاً بالآخر، والآخر معظماً له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما إلا السلام، وأنواع الإكرام[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٧٢).

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب (١٢/ ٦٠١-٦٠٢) باختصار وتصرف.

الفصل الخامس
الآثار المترتبة على ترك الصلاة

جاء حديث القرآن عن ترك الصلاة، وجزائه، والآثار المترتبة عليه في عدة سور مكية، وأخرى مدنية.. وبأساليب متنوعة وطرق متعددة.

وقد حاولت جمع الآيات في ذلك وتصنيفها حسب النزول، ومن ثم الكلام عن كل آية وبيان الطريقة التي عالجت بها قضية ترك الصلاة والآثار المترتبة على ذلك.

أولاً: **في سورة القلم يقول تعالى**: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

والمعنى القريب لهاتين الآيتين أنه «إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل، والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده، ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة، التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه فحينئذ يُدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعاً، واختياراً، ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود وتكون ظهورهم كصياصي البقر لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم فإنهم كانوا يُدْعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته، وهم سالمون، لا علة لهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم، وسوء مآلهم، فإن الله سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة، وفي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي ويوجب التدارك مدة الإمكان»(١).

واستدل جمهور أهل العلم بهاتين الآيتين وسياقهما على كفر تارك الصلاة وقالوا: «وجه الدلالة من الآية أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحكمه، ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين، فقال: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ وأنهم يُدعون إلى السجود لربهم تبارك وتعالى فيحال بينهم وبينه، فلا

(١) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (٨١٦).

يستطيعون السجود مع المسلمين عقوبة لهم على ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا، وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين الذين تبقى ظهورهم -إذا سجد المسلمون- كصياصي البقر ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود كما أذن للمسلمين»[(١)].

والآية قبل هاتين الآيتين تخاطب المشركين فيقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [القلم: ٤١].

ويتحداهم الله أن يدعوا شركاءهم هؤلاء إن كانوا صادقين ولكن متى يدعونهم؟

ثم تأتي هاتان الآيتان اللتان معنا فيقفهم وجهاً لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا بشركائهم المزعومين.. وهذا اليوم حقيقة حاضرة في علم الله لا تتقيد في علمه بزمن، واستحضارها للمخاطبين على هذا النحو يجعل وقعها عميقاً حياً حاضراً في النفوس على طريقة القرآن الكريم[(٢)].

ولما كانت الصلاة أجل العبادة التي هي الخضوع، الذي يعبر عنه بالسجود وهو آيتها وأمارة ما اشتمل عليه الباطن منها وعلامتها فيأتونها وهم قادرون عليها ذكّرهم يوماً يريدونها فيه فلا يتأتى لهم تنديماً لهم وزيادة تحسير لأن ظهورهم وأعضاءهم تكون طبقاً واحداً لا تتثنى، فكلما أرادوا أن يسجدوا انقلبوا على أقفائهم[(٣)].

والسجود الذي يُدعون إليه: سجود الضراعة والخضوع لأجل الخلاص من هول الموقف، وعدم استطاعتهم السجود لسلب الله منهم الاستطاعة على السجود ليعلموا أنهم لا رجاء لهم في النجاة، والذي يدعوهم إلى السجود الملائكة الموكلون بالمحشر بأمر الله تعالى كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ إلى قوله: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨]، أو يدعو بعضهم بعضاً بإلهام من الله تعالى[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ نسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها وإلا فالأعضاء أيضاً ذليلة متواضعة، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ﴾ تلحقهم وتغشاهم، فإن الرهق غشيان الشيء، فتغشاهم ذلة شديدة تخزيهم[(٥)].

---

(١) يُنظر: الصلاة وحكم تاركها للإمام ابن قيم الجوزية (٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٦٧-٣٦٦٨).

(٣) يُنظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٣٢٣-٣٢٤) ويقارن.

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩٩).

(٥) يقارن مع تنوير الأذهان (٤/ ٣٨٥).

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ إما أن يكون المراد بها دعوة التكليف، أو بدعوة الله صريحاً مثل قوله: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩﴾ [النجم: ٦٢]، أو ضمناً مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النور: ٥٦]؛ لأن الدعوة إلى الصلاة دعوة إلى السجود، .. ومن أعظم الدعوة إلى السجود أذان المؤذنين وإقامتهم، فإن قولهم «حي على الصلاة» دعوة للأمر به، فطوبى لمن أجاب دعوتهم بطوع لا بإكراه؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١].

﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي أصحاء في الدنيا، سلمت أعضاؤهم ومفاصلهم من الآفات والعلل متمكنون من أداء السجدة أقوى تمكن، وفي هذه الآية وعيد لمن ترك الصلاة المفروضة، أو تخلف عن الجماعة المشروعة(١).

وجاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أن هذا الوعيد أيضاً يشمل من كان يصلي في الدنيا رياءً وسمعة فقد أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً)(٢).

ثانياً: في سورة المدثر جاء قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٣].

يخبر الله عز وجل أن كل نفس مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها إما خلصها وإما أوبقها، فهي موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب، إلا أصحاب اليمين فإنهم لم يرتهنوا بل أطلقوا وفرحوا، ولا يرتهنون بذنوبهم.. وهم أهل الجنة الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وقال مقاتل: هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، فصاروا مسلمين أصحاب الحق وأهل الإيمان، وأعطوا كتبهم بأيمانهم(٣).

(١) يقارن مع زاد المسير (١٤٦٤) وتنوير الأذهان (٤/ ٣٨٥).
(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، رقم (٤٩١٩) ويُنظر: الدر المنثور (١٤/ ٦٤٢).
(٣) يقارن مع الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٧٣، ٧٤).

وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي في جنات قد حصل لهم فيها جميع مطلوباتهم وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة أن سألوا عن المجرمين: أي حالٍ وصلوا إليها؟ وهل وجدوا ما وعدهم الله؟[(١)]

فإن كان السؤال على حقيقته، والاستفهام مستعملاً في أصل معناه كان الباعث على السؤال: إما نسيان ما كانوا علموه في الدنيا من أسباب الثواب والعقاب فيبقى عموم ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الراجع إلى أصحاب اليمين وعموم المجرمين على ظاهره، فكل من أصحاب اليمين يشرف على المجرمين من أعالي الجنة فيسألهم عن سبب ولوجهم النار فيحصل جوابهم، وذلك إلهام من الله ليحمده أهل الجنة على ما أخذوا به من أسباب نجاتهم مما أصاب المجرمين ويفرحوا بذلك.

وإما أن يكون سؤالاً موجهاً من بعض أصحاب اليمين إلى ناس كانوا يظنونهم من أهل الجنة فرأوهم في النار من المنافقين أو المرتدين بعد موت أصحابهم، فيكون المراد بأصحاب اليمين بعضهم، وبالمجرمين بعضهم، وهذا مثل ما في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٧-٢٨]، وقوله فيها: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥١-٥٥].

وإن كان السؤال ليس على حقيقته، وكان الاستفهام مستعملاً في التنديم أو التوبيخ فعموم أصحاب اليمين وعموم المجرمين على حقيقته[(٢)].

وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي ذنب استحققتموها؟ ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾.

لم يذكروا شيئاً من الأعمال كان سبباً في دخولهم النار قبل تركهم الصلاة فهم لم يكونوا من المؤمنين ولم يكونوا يعتقدوا بفرضيتها عليهم، وترك الصلاة من أصول الخطايا التي تحرم صاحبها من التقرب إلى الله، فهؤلاء المجرمين ذكروا علة دخولهم النار بإفساد قوتهم العملية في التعظيم لأمر الله، وأنهم لم يتحلوا بفضيلتين، ولم يتخلوا عن

---

(١) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (٨٣١).

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٦-٣٢٧).

رذيلتين.. وفي البداءة بالصلاة تنبيه على أنه يجب على العاقل المبادرة إلى ما يأمره به الصادق لأنه المصدق لحسن الاعتقاد، والمبادرة إلى التلبس بالعمل أسهل من المبادرة إلى التلبس بالعلم لأن العمل له صورة وحقيقة ومطلق التصوير أسهل من التحقيق.. وفيه حث على المسابقة إلى الأعمال الصالحة.. وإيذان بأن من أدمن ترك الأعمال قاده إلى الانسلاخ من حسن الاعتقاد وورطه في الضلال.

وفي قولهم: ﴿لَمۡ نَكُ﴾ وحذفوا النون دلالة على ما هم فيه من الضيق عن النطق حتى بحرف لا يمكن الاغتناء عنه، ودلالة على أنه لم يكن لهم نوع طبع جيد يحثهم على الكون في عداد الصالحين، وكان ذلك مشيراً إلى عظيم ما هم فيه من الدواهي الشاغلة بضد ما فيه أهل الجنة من الفراغ الحامل لهم على السؤال عن أحوال غيرهم.

وفي قولهم: ﴿مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ أي صلاة يعتد بها، وفي هذا تنبيه على أن رسوخ القدم في الصلاة مانع من مثل حالهم، وعلى أن الصلاة أعظم الأعمال، وأن الحساب بها يقدم على غيرها[(١)].

وفي الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة مستحق حظاً من سقر على مقدار إضاعته، وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيئاته، وظواهره وسرائره[(٢)].

ويعلق ابن القيم رحمه الله على إجابة المجرمين عن سؤال أصحاب اليمين بكلام فقهي دقيق خلص به إلى كفر تارك الصلاة فقال:

«فلا يخلو إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال هو الذي سلكهم في سقر وجعلهم من المجرمين، أو مجموعها، فإن كان كل واحد منها مستقلاً بذلك، فالدلالة ظاهرة، وإن كان مجموع الأمور الأربعة، فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم وعقوبتهم وإلا فكل واحد منها مقتضٍ للعقوبة، إذ لا يجوز أن يضم ما لا تأثير له في العقوبة إلى ما هو مستقل بها، ومن المعلوم أن ترك الصلاة، وما ذكر معه ليس شرطاً في العقوبة على التكذيب بيوم الدين، بل هو وحده كافٍ في العقوبة، فدل على أن كل وصف ذكر معه كذلك، إذ لا يمكن قائلاً أن يقول: لا يعذب إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة، فإذا

---

(١) يُنظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٧٣-٧٥) باختصار وتصرف.
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٨).

كان كل واحد منها موجباً للإجرام، وقد جعل الله سبحانه المجرمين ضد المسلمين، كان تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر وقد قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧،٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] فجعل المجرمين ضد المؤمنين المسلمين»[(١)].

ويقول صاحب (الظلال) يرحمه الله في تفسير هذه الآيات:

«وفي ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها، ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها، ويعلن أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها، مرهونة بأعمالها وأوزارها.. فكل فرد يحمل همَّ نفسه وتبعتها، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها يتقدم بها أو يتأخر، ويكرمها أو يهينها، فهي رهينة بما تكسب، مقيدة بما تفعل، وقد بين الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة.. وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت المقيدة بما فعلت، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال وإرسالهم من القيد، وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير.. وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها، وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة، يلمس قلوب المجرمين المكذبين وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين، الذي يعترفون فيه.. بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا، ولا يبالونهم، في موقف الكرامة والاستعلاء يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف.. ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين.. وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة، وأنهم فيه قائمون.. وتطوى صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى.. ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ وهي كناية عن الإيمان كله، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة، وتجعلها رمز الإيمان ودليله، يدل إنكارها على الكفر، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين»[(٢)].

(١) يُنظر: الصلاة وحكم تاركها (٣٨).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٦١) باختصار وتصرف بسيط.

ثالثاً: **في سورة الماعون يقول تعالى**: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

جاءت هذه الآيات بعد أن وصف الله المكذب بالدين بصفتين:

أولاهما: أن يحتقر الضعفاء ويتكبر عليهم.

وثانيتهما: أن يبخل بماله على الفقراء والمحاويج، أو يبخل بسعيه لدى الأغنياء ليساعدوا أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة ويقوم لهم بكفاف العيش.

وسواء أكان هذا المحتقر للحقوق، البخيل بالمال والسعي لدى غيره مصلياً أو غير مصل فهو في وصف المكذبين، ولا تخرجه صلاته منهم، لأن المصدق بشيء لا تطاوعه نفسه على الخروج مما صدّق به، فلو صدق بالدين حقاً لصار منكسراً متواضعاً لا يتكبر على الفقراء، ولا ينهر المساكين ولا يزجرهم، فمن لم يفعل شيئاً من ذلك فهو مراءٍ في عمله كاذب في دعواه.. ومن ثم قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1].

إن لفظ «ويل» في القرآن الكريم إنما يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

إن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر هي البعيدة عن الرياء والسهو، والذي يقدم على إيذاء اليتيم ويترك الحض على طعام المسكين مقصر في الشفقة على خلق الله، وسهوه في الصلاة تقصير فيما يرجع إلى التعظيم لأمر الله، فلما وقع التقصير في الأمرين فقد كملت شقاوته، فلهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ﴾[2].

وسواء قلنا: إن المقصود بالمصلين هنا هم الساهون عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية كما قاله مسروق وأبو الضحى، وإما ساهون عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكل من اتصف بشيء

(١) يقارن مع تفسير المراغي (١٠/ ٢٤٩).

(٢) يقارن مع مفاتيح الغيب (١٦/ ٦٦٥) بتصرف واختصار.

من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم نصيبه منها وكمل له النفاق العملي[1]، وكان حكمه حكم التارك لها غير المقيم لها كما أمر الله.

ويقول صاحب (التحرير والتنوير): «موقع الفاء صريح في اتصال ما بعدها بما قبلها من الكلام على معنى التفريع والترتيب والتسبب، فيجيء على القول أن السورة مكية بأجمعها أن يكون المراد بالمصلين عين المراد بالذي يكذب بالدين، ويدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، فقوله: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار كأنه قيل: فويل له على سهوه عن الصلاة، وعلى الرياء، وعلى منع الماعون...

فوصفهم بالمصلين إذن تهكم، والمراد عدمه، أي الذين لا يصلون، أي ليسوا بمسلمين كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٤]، وقرينة التهكم وصفهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ...

وعلى القول بأنها مدنية أو أن هذه الآية وما بعدها مدنية، يكون المراد بالمصلين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ المنافقين.. فتكون الفاء في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ من هذه الجملة لربطها بما قبلها لأن الله أراد ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض»[2].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ :

قال القرطبي: «أي يُري الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تقية، كالفاسق يُرى أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال: إنه يصلي، وحقيقة الرياء: طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس.

وأولها: تحسين السمت وهو من أجزاء النبوة، ويريد بذلك الجاه والثناء.

وثانيها: الرياء بالثياب القصار والخشنة ليأخذ بذلك هيئة الزهد في الدنيا.

وثالثها: الرياء بالقول وإظهار التسخط على أهل الدنيا وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة.

ورابعها: الرياء بإظهار الصلاة والصدقة أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس»[3].

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٢٠٣٥) باختصار وتصرف.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٦٧) باختصار بسيط.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٣٩) ويُنظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٩٨٤).

«إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى.

ولقد يقول الإنسان بلسانه أنه مسلم وأنه مصدق بهذا الدين وقضاياه، وقد يصلي، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة، ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق تظل بعيدة عنه ويظل بعيداً عنها، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها، وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان، ومهما تعبد الإنسان.

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها لكي تحقق ذاتها في عمل صالح، فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً، وهذا ما تقرره سورة الماعون نصاً.

«إن الآيات الثلاث الأولى من هذه السورة تبين أن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية والمحتاجين إلى الرعاية والحماية، والله لا يريد من الناس كلمات إنما يريد منهم أعمالاً تصدقها، وإلا فهي هباء لا وزن لها عنده ولا اعتبار.

ثم تأتي بقية السورة فيها دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون. إنهم أولئك الذين يصلون ولكنهم لا يقيمون الصلاة، الذين يؤدون حركات الصلاة وينطقون بأدعيتها، ولكن قلوبهم لا تعيش معها ولا تعيش بها، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات، إنهم يصلون رياءً للناس لا إخلاصاً لله.. والمطلوب إقامة الصلاة لا مجرد أدائها، وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده فيها.

ومن هنا لا تنشيء الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين.. فهم يمنعون الماعون، يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم في البشرية، يمنعون الماعون عن عباد الله، ولو كانوا يقيمون الصلاة حقاً لله ما منعوا العون عن عباده.

إننا أمام نص قرآني ينذر مصلين بالويل لأنهم لم يقيموا الصلاة حقاً إنما أدوا حركات لا روح فيها، ولم يتجردوا فيها لله إنما أدوها رياءً ولم تترك الصلاة أثرها في

قلوبهم وأعمالهم فهي إذن هباء بل هي إذن معصية تنتظر سوء الجزاء»[(١)].

يقول ابن القيم: «والوعيد بالويل اطرد في القرآن للكفار كقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٧-٩]، وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢] إلا في موضعين وهما: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] و ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] فعلق الويل بالتطفيف، وبالهمز واللمز، وهذا لا يكفر به بمجرده، فويل تارك الصلاة إما أن يكون ملحقاً بويل الكفار أو بويل الفساق، فإلحاقه بويل الكفار أولى لوجهين: أحدهما: أنه قد صح عن سعد بن أبي وقاص في هذه الآية أنه قال: لو تركوها لكانوا كفاراً ولكن ضيعوا وقتها. الثاني: ما سنذكره من الأدلة على كفره»[(٢)].

رابعاً: **في سورتي القيامة والمرسلات المكيتين** بيان أن أول خصال الكافر عدم الصلاة، وعدم الاستجابة إذا دعي لها.

أ- قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٠-٣١].

يقول ابن كثير: «هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً بقلبه متولياً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً ولهذا قال بعدها: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي جذلاً أشراً بطراً كسلاناً لا همة له ولا عمل كما قال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]»[(٣)].

فهذا الكافر لم يصدق بالله ووحدانيته بل اتخذ الشركاء والأنداد وجحد كتبه التي أنزلها على أنبيائه، وما صلى وأدى فرائضه التي أوجبها الله عليه، بل أعرض وتولى عن الطاعة، وليته اقتصر على الإعراض والتولي عن الطاعة بل هو قد ذهب إلى أهله جذلان فرحاً يمشي الخيلاء، متبختراً معجباً بما فعل[(٤)].

(١) يُنظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٨٥-٣٩٨٦) باختصار وتصرف.
(٢) يُنظر: الصلاة وحكم تاركها (٤٠).
(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٩٤٤).
(٤) يقارن مع تفسير المراغي (١٠/١٥٦).

قال الإمام محمد بن نصر المروزي: «وقال الله تعالى فيما يوبخ به الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ ولم يضم إلى التصديق شيئاً غير الصلاة ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فالكذب ضد التصديق والتولي ترك الصلاة وغيرها من الفرائض ثم أوعده وعيداً بعد وعيد فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ »[1].

وقال القرطبي في بيان معنى ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾: «تهديد بعد تهديد ووعيد بعد وعيد أي: فهو وعيد أربعة لأربعة، كما روي أنها نزلت في أبي جهل الجاهل بربه فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: لا صدق رسولي، ولا وقف بين يديَّ فصلى، ولكن كذب رسولي، وتولى عن التصلية بين يدي، فترك التصديق خصله، والتكذيب خصله، وترك الصلاة خصله، والتولي عن الله تعالى خصله، فجاء بالوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة.. قال قتادة: أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر فأخذ النبي ﷺ بيده فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئاً إني لأعز من مشى بين جبليها، فلما كان يوم بدر أشرف على المسلمين فقال: لا يعبد الله بعد هذا اليوم أبداً فضرب الله عنقه وقتله شر قتلة. وقيل معناه: الويل لك، وقال الأصمعي: ﴿أَوْلَىٰ﴾ في كلام العرب معناه: مقاربة الهلاك كأنه يقول: قد وليت الهلاك، قد دانيت الهلاك، وأصله من الوَلْيِ وهو القرب»[2].

قال الرازي: «واعلم أن الآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقها بترك الإيمان، وقال عن معنى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ أي بُعداً لك في أمر دنياك وبُعداً لك في أمر أخراك»[3].

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في أبي جهل فإنها تعم كل من كان على شاكلته، وقد قال بعض المفسرين: إن الكاف في قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ خطاب للإنسان المصرح به غير مرة في الآيات السابقة بطريق الغيبة، إظهاراً وإضماراً، وعدل هنا عن طريق الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات لمواجهة الإنسان بالدعاء لأن المواجهة أوقع في التوبيخ.. وقوله: ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ تأكيد لـ ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ جيء فيه بفاء التعقيب للدلالة على أنه يدعى عليه

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (٤٥).

(٢) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ٩٧-٩٨) باختصار.

(٣) مفاتيح الغيب (١٦/ ٤٤، ٤٦) باختصار.

بأن يعقبه المكروه ويعقب بدعاء آخر[(١)].

ب- قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٧-٤٩].

جاءت هذه الآيات من سورة المرسلات المكية جميعها على الراجح من أقوال أهل العلم[(٢)]، وجاء قوله تعالى قبلها: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

وهذا تهديد ووعيد للمكذبين وأنهم وإن أكلوا في الدنيا، وشربوا وتمتعوا باللذات وغفلوا عن القربات فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون فتنقطع عنهم اللذات وتبقى عليهم التبعات، ومن إجرامهم أنهم إذا مروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات وقيل لهم: ﴿ٱرۡكَعُواْ﴾ امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا، وأي تكذيب يزيد على هذا؟!!

ثم قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسد عنهم أبواب التوفيق ويحرمون كل خير[(٣)].

وفي قول جمهور المفسرين أن الآيات تحكي حال كفار قريش في الدنيا كان رسول الله ﷺ يدعوهم ولا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة[(٤)].

والركوع في هذه الآية لم يرد إلا مرة واحدة في القرآن المكي وفي سورة المرسلات[(٥)].

وذكر ابن كثير أن الخطاب في هذه الآيات للمكذبين بيوم الدين، وأن أمرهم بالأكل والتمتع أمر تهديد ووعيد، فهم يأكلون مدة قليلة قريبة قصيرة ثم يساقون إلى نار جهنم، وقال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي: «إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه»[(٦)].

ويقول ابن العربي رحمه الله: «هذه الآية حجة على وجوب الركوع، وإنزاله ركناً في

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٣).
(٢) معاني الركوع والسجود في القرآن المجيد لإبراهيم الدوسري (٩٧).
(٣) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٨٣٨).
(٤) المحرر الوجيز (١٩٣٧).
(٥) يُنظر: معاني الركوع والسجود في القرآن المجيد (١١١).
(٦) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٩٥٢).

الصلاة وقد انعقد الإجماع عليه، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة، وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يُدعون إلى السجود كشفاً لحال الناس في الدنيا، فمن كان يسجد لله تمكن من السجود، ومن كان يسجد رئاءً لغيره صار ظهره طبقاً واحداً»[(١)].

ولعل السر في إطلاق الركوع على الصلاة هنا، فهو وإن كان جزءاً من الصلاة كما هو معلوم إلا أن الركوع من علامات الخضوع والطاعة، ولأنه خاص بصلاة المسلمين، ولأن بعض العرب نفر من الدين من أجله وقالوا: لا ننحني[(٢)].

إن هذه الآيات تنعى على المشركين مخالفتهم المسلمين في الأعمال الدالة على الإيمان الباطن فهو كناية عن عدم إيمانهم لأن الصلاة عماد الدين ولذلك عبر عن المشركين بـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾.

والمعنى: وإذا قيل لهم آمنوا واركعوا لا يؤمنون ولا يركعون، كما كنى عن عدم الإيمان لما حكى عنهم في الآخرة ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾.

وهذا كله تهديد بجزاء السوء في يوم الفصل[(٣)].

واستدل ابن القيم رحمه الله بهذه الآيات على كفر تارك الصلاة فقال: «ثم توعدهم على ترك الركوع، وهو الصلاة إذا دعوا إليها، ولا يقال: إنما توعدهم على التكذيب، فإنه سبحانه وتعالى إنما أخبر عن تركهم لها، وعليه وقع الوعيد على أنا نقول: لا يصر على ترك الصلاة إصراراً مستمراً من يصدق بأن الله أمر بها أصلاً، فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصدقاً تصديقاً جازماً: أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب، وهو مع ذلك مصر على تركها، هذا من المستحيل قطعاً، فلا يحافظ على تركها مصدق بفرضها أبداً، فإن الإيمان يأمر صاحبه بها،

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٩٠٢).
(٢) وهم وفد ثقيف، ويُنظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ١٨٦) ويقارن.
(٣) يقارن مع التحرير والتنوير (٣/ ٤٤٦، ٤٤٧) باختصار.

فحيث لم يكن في قلبه ما يأمره بها، فليس في قلبه شيء من الإيمان»[(١)].

خامساً: **في سورة مريم المكية جاء التنديد بالذرية التي أضاعت الصلاة، واتبعت الشهوات**:

فقال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ﴾ [مريم: ٥٨] حيث ذكر الله تعالى هؤلاء الأنبياء وهم المخلصون المتبعون لمراضي ربهم المنيبون إليه، والذين أنعم الله عليهم بما خصهم به من مزيد القرب منه، وعظيم المنزلة لديه وهداهم إلى سبيل الرشاد، ورفع ذكرهم بين العباد.. كانوا إذا تتلى عليهم أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه خروا له سجداً استكانة له وتذللاً وخضوعاً لأمره وانقياداً له، وهم باكون خشية منه وحذراً من عقابه[(٢)].

وهذه الآية من مواضع سجود القرآن المروية عن النبي ﷺ اقتداء بأولئك الأنبياء في السجود عند تلاوة القرآن، فهم سجدوا كثيراً عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم، ونحن نسجد اقتداءً بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا وأثنت على سجودهم قصداً للتشبه بهم قدر الطاقة نحن متلبسون بذكر صنيعهم، وقد سجد النبي ﷺ عند هذه الآية وسن ذلك لأمته[(٣)].

فلما ذكر الله تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ذكر أنه ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ أي قرون أخر ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع، لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فهؤلاء سيلقون غياً أي خساراً يوم القيامة[(٤)].

---

(١) يُنظر: الصلاة وحكم تاركها (٤٤، ٤٥).

(٢) يقارن مع تفسير المراغي (٦/ ٦٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣٣-١٣٤)، ويُنظر: الدر المنثور (١٠/ ٩٦) ذكر روايات في السجود عن عمر وعائشة رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١١٩٣).

«والخلْف -بسكون اللام- عقب السوء، وهو هنا يشمل جميع الأمم التي ضلت لأنها راجعة في النسب إلى إدريس جد نوح، إذ هم من ذرية نوح، ومن يرجع أيضاً إلى إبراهيم، فمنهم من يدلي إليه من نسل إسماعيل وهم العرب، ومنهم من يدلي إليه من نسل يعقوب وهم بنو إسرائيل، ولفظ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ يشمل طبقات وقروناً كثيرة، ليس قيداً لأن الخلف لا يكون إلا من بعد أصله، وإنما ذكر لاستحضار ذهاب الصالحين.

و«الإضاعة» مجاز في التفريط بتشبيهه بإهمال العرض النفيس، فرطوا في عبادة الله، واتبعوا شهواتهم فلم يخالفوا ما تميل إليه أنفسهم مما هو فساد.

وهذان وصفان جامعان لأصناف الكفر والفسوق، فالشرك إضاعة للصلاة لأنه انصراف عن الخضوع لله تعالى، فالمشركون أضاعوا الصلاة قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ والشرك: اتباع للشهوات، لأن المشركين اتبعوا عبادة الأصنام لمجرد الشهوة من غير دليل، وهؤلاء هم المقصود هنا. وغير المشركين كاليهود والنصارى فرطوا في صلوات، واتبعوا شهوات ابتدعوها ويشمل ذلك كله اسم الغي.

و«الغي» الضلال، ويطلق على الشر، كما أطلق ضده وهو الرشد على الخير في قوله تعالى: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ فيجوز أن يكون المعنى فسوف يلقون جزاء غيهم.

وحرف «سوف» دال على أن لقاءهم الغي متكرر في أزمنة المستقبل مبالغة في وعيدهم وتحذيراً لهم من الإصرار على ذلك»[(١)].

وفي الآية ذم ونص على أن إضاعة الصلاة من الكبائر التي يوبق بها صاحبها.. ومن معاني إضاعتها الواردة عن السلف: إضاعة كفر وجحد بها، أو إضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها، وأنها إذا صُليت مخلّى بها لا تصح ولا تجزئ لقوله ﷺ للرجل الذي صلى وجاء فسلم عليه: (ارجع فصل فإنك لم تصل -ثلاث مرات)[(٢)]، وقال حذيفة رضي الله عنه لرجل يصلي فطفف: منذ كم تصلي هذه الصلاة؟ فقال: منذ أربعين عاماً، قال: ما صليت، ولو مت وأنت تصلي هذه الصلاة لمت على غير فطرة محمد ﷺ ثم قال: (إن

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣٤-١٣٥) باختصار.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٧).

الرجل ليخفف الصلاة ويتم ويحسن)[(١)].

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل - يعني صلبه - في الركوع والسجود)[(٢)].

وجملة القول إن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه، ولا دين لمن لا صلاة له[(٣)].

إن الخلف إذا أضاعوا الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر، والتي هي طهرة الأبدان، وعصمة الأديان، وأعظم الأعمال، بتركها أو تأخيرها عن وقتها، والإخلال بحدودها.. أظلمت قلوبهم فأعرضوا عن داعي العقل، واتبعوا بغاية جهدهم الشهوات التي توجب العار في الدنيا، والنار في الآخرة، فلا يزالون في عمى عن طريق الرشاد لا يستطيعون إليه سبيلاً، ويستدرجهم الله بالنعم حتى يأخذهم على غرة[(٤)].

واستدل ابن القيم رحمه الله بهذه الآية على كفر تارك الصلاة فقال -بعد أن ذكر بعض الآثار التي تفسر الغي على أنه بئر في أسفل جهنم، أو أنه وادٍ يسيل دماً وقيحاً-: «فوجه الدلالة من الآية أن الله سبحانه جعل هذا المكان من النار لمن أضاع الصلاة، واتبع الشهوات، ولو كان مع عصاة المسلمين لكانوا في الطبقة العليا من طبقات النار، ولم يكونوا في هذا المكان الذي هو في أسفلها فإن هذا ليس من أمكنة أهل الإسلام، بل من أمكنة الكفار، وفي الآية دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلو كان مضيع الصلاة مؤمناً، لم يشترط في توبته الإيمان، وأنه يكون تحصيلاً للحاصل»[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إذا لم يتم السجود، رقم (٨٠٨).

(٢) سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء فيمن لا يقيم صلبه في الركوع والسجود، رقم (٢٦٥) وقال عنه: «حسن صحيح» وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم (٢٦٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ١١٢، ١١٣) باختصار وتصرف.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ٢٢٤-٢٢٥) باختصار وتصرف.

(٥) يُنظر: الصلاة وحكم تاركها (٤٠، ٤١).

سادساً: في القرآن المدني جاء قوله تعالى في سورتيْ النساء، والتوبة:

حيث يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع الأعمال، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى بما أظهروه من الإيمان، وأبطنوه من الكفر.

ظنوا أنه يروج على الله، ولا يعلمه ولا يبديه لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها خداع لأنفسهم. وأي خداع أعظم ممن يسعى سعياً يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟!!.

ويدل بمجرده على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورآها حسنة، وظنها من العقل والمكر.

أ- فقال تعالى عنهم في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

فمن صفاتهم أنهم إذا قاموا إلى الصلاة التي هي أكبر الطاعات العملية قاموا متثاقلين لها، متبرمين من فعلها. والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله، وإلى ما عنده، عادمة للإيمان لم يصدر منهم الكسل، وهم بذلك ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم مراءاة الناس. يقصدون رؤية الناس، وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله، فلهذا ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى، وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته(١).

إن سبب الكسل من المنافقين هو استثقال الصلاة في الحال، ولا يرجون بها ثواباً ولا من تركها عقاباً، فكان الداعي للترك قوياً من هذه الوجوه، والداعي إلى الفعل ليس إلا خوف الناس، والداعي إلى الفعل متى كان كذلك وقع الفعل على وجه الكسل والفتور، وإذا قلنا: إن المراد بذكر الله الصلاة، فيكون المعنى: إن المنافقين لا يصلون إلا قليلاً، لأنه متى لم يكن معهم أحد لم يصلوا، وإذا كانوا مع الناس، فعند دخول وقت الصلاة، يتكلفون حتى يصيروا غائبين عن أعين الناس، وكذلك إذا كانوا في صلاتهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهو الذي يظهر مثل التكبيرات، أما الذي يخفى مثل القراءة

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (١٧٣، ١٧٤).

والتسبيحات فهم لا يذكرونها.. ومع كل هذا لا يذكرون الله في جميع الأوقات سواء كان ذلك الوقت وقت الصلاة أو لم يكن وقت الصلاة إلا قليلاً نادراً[(١)].

ب- وجاء في سورة التوبة قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وهذه الآية عطف على جملة ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ في قوله تعالى قبلها: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣]، لأن هذا بيان للتعليل لعدم قبول نفقاتهم بزيادة ذكر سببين آخرين مانعين من قبول أعمالهم هما من آثار الكفر والفسوق وهما:

١- إنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى.

٢- وإنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون.

والكفر وإن كان وحده كافياً في عدم القبول، إلا أن ذكر هذين السببين إشارة إلى تمكن الكفر من قلوبهم وإلى مذمتهم بالنفاق الدال على الجبن والتردد، فذكر الكفر بيان لذكر الفسوق، وذكر التكاسل عن الصلاة لإظهار أنهم متهاونون بأعظم عبادة فكيف يكون إنفاقهم عن إخلاص ورغبة، وذكر الكراهية في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه العبادة المتحدث عنها[(٢)].

إن المخادعة التي يقوم بها المنافقون سيجازيهم الله على خداعهم، وسمى الله ذلك مخادعة مشاكلة للفظ الأول، ونظيره: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [آل عمران: ٥٤].

«ولا شك أن الله تعالى لا يخادَع، فإنه العالِم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله وأن أمرهم يروج عنده كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] ومعنى ﴿وَهُوَ

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٤٩٦، ٤٩٧) بتصرف.
(٢) يُنظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٧).

خَٰدِعُهُمۡ أي: هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك في القيامة كما قال تعالى: يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ إلى قوله: هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ [الحديد: ١٣-١٥]»[(١)].

إن سنة الله في عاقبة أمر المنافقين في العاجل والآجل تأتي على غير ما يحبون بلفظ مأخوذ من المخادعة، إذ إنهم بمخادعتهم للرسول ﷺ والمؤمنين يسيرون في طريق يضلون فيه وينتهون إلى الخزي والوبال من حيث هم يطلبون السلامة والنجاة، فمخادعتهم لأنفسهم بسوء اختيارهم لها هو مخادعة الله لهم، إذ جرت سنته تعالى فيمن يعمل مثل عملهم أن يلاقي الخزي في الدنيا والنكال في الآخرة، وهكذا حال المنافقين في كل أمة وملة يخادعون ويكذبون ويكيدون ويغشون، ويتولون أعداء أمتهم يبتغون بذلك يداً عندهم يمتون بها إليهم إذا دالت دولتهم.. إنهم مذبذبون، ومضطربون مائلون تارة إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين لا يخلصون إلى أحد الفريقين لأنهم طلاب منافع، ولا يدرون لمن تكون العاقبة؟ ولهذا قال عنهم وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا أي ومن قضت سنته أن يكون ضالاً عن الحق موغلاً في الباطل بما قدم من عمل، وتخلق به من خلق، فلن تجد له سبيلاً للهداية باجتهادك والمبالغة في إقناعه بالحجة والدليل، فإن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول[(٢)].

إن القلوب المؤمنة لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله، لأنها تعرف أن الله سبحانه -لا يُخدع- وهو يعلم السر وأخفى وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخادع الله لا بد أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير. ومن ثم تشمئز وتستصغر وتحتقر هؤلاء المخادعين. إن من خداع الله لهم أن يستدرجهم ويتركهم في غيهم لا يقرعهم بمصيبة تنبههم، ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم.. تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا.. فالقوارع والمحن كثيراً ما تكون رحمة من الله حين تصيب العباد فتردهم سريعاً عن الخطأ، أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون..

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٥٤٤).

(٢) يُنظر: تفسير المراغي (٥/ ١٨٧-١٨٨) باختصار وتصرف.

وكثيراً ما تكون العافية والنعمة استدراجاً من الله للمذنبين الغاوين، لأنهم بلغوا من الإثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير، حتى ينتهوا إلى شر مصير.

إن المنافقين لا يقومون إلى الصلاة بحرارة الشوق إلى لقاء الله والوقوف بين يديه والاتصال به، والاستمداد منه.. إنما هم يقومون يراؤون الناس، ومن ثم يقومون كسالى كالذي يؤدي عملاً ثقيلاً أو يسخر سخرة شاقة، وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلاً فهم لا يتذكرون الله إنما يتذكرون الناس. وهذه صورة كريهة في حس المؤمنين تثير في نفوسهم الاحتقار والاشمئزاز، ومن شأن هذا الشعور أن يباعد بينهم وبين المنافقين، وأن يوهن العلائق الشخصية والمصلحية للبت بين المؤمنين والمنافقين[(١)].

إن من علامات النفاق التخلف عن صلاتيْ العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح وقت الغلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار)[(٢)].

ومن علامات النفاق السهو عن الصلاة واللهو عنها، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً)[(٣)].

إن الذي يؤدي الصلاة مظهراً بلا حقيقة، ولا يقيمها إقامة واستقامة ولا باعث له من أعماق ضميره لأدائها إنما يدفع لها دفعاً، فيأتيها كسلان خبيث النفس متهاوناً بها لا يذكر الله فيها إلا قليلاً، يقضي أغلب وقته في حديث الدنيا.. لا شك أنه تارك للصلاة غير مؤدٍ لها.

سابعاً: في سورة «المنافقون» جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٨٣-٧٨٤) باختصار وتصرف.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل العشاء في جماعة، رقم (٦٢٦) وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (٦٥١).

(٣) تقدم تخريجه ص (٢١).

أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ [المنافقون: ٩].

روي عن الضحاك وعطاء بن أبي رباح ومقاتل وغيرهم أن المراد بذكر الله هنا هو الصلوات الخمس المفروضة(١).

وفي الآية أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، ونهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، مخبراً لهم بأنه من اِلْتَهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة(٢).

جاء هذا الأمر من الله بعد أن حكى مقال المنافقين من أنهم الأعزاء، وأن المؤمنين هم الأذلاء اغتراراً بما لهم من مال ونسب، وأن ذلك هو الذي صدهم عن طاعة الله، وجعلهم يعرضون عن الإيمان بالله إيماناً حقاً، ويؤدون فرائضه، ويقومون بما يقربهم من رضوانه، ثم أردف ذلك بنهي المؤمنين أن يكونوا مثلهم في ذلك، بل عليهم أن يلهجوا بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، ويؤدوا ما فرض عليهم من العبادات ولا يشغلهم عن ذلك زخرف هذه الحياة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

فما طلب من المؤمنين أن يكونوا ماديين يتكالبون على جمع حطام الدنيا كما يفعل اليهود، ولا أن يكونوا روحانيين يجردون أنفسهم من لذات هذه الحياة ويتبتلون إلى ربهم كما يفعل النصارى، كما يرشد إلى هذه قوله تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ [الأعراف: ٣٢]، وقوله تعالى: ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ [الأعراف: ٣١].

إن من تلهى بالدنيا وشغلته عن حقوق الله فقد باء بغضب من ربه، وخسرت تجارته إذ باع خالداً باقياً واشترى فانياً زائلاً(٣).

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالاً يلهي عن ذكر الله لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد، ولأنها كما تشغل عن ذكر الله بصرف الوقت

---

(١) يُنظر: زاد المسير (١٤٤٠) والدر المنثور (١٤/ ٥٠٩) وتعظيم قدر الصلاة (٤٣).

(٢) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (١٨٧٩).

(٣) يقارن مع تفسير المراغي (٢٨/ ١١٥-١١٦).

في كسبها ونمائها، تشغل عن ذكره أيضاً بالتفكير في كنزها بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها، وذكر الأولاد «إدماج» لأن الاشتغال بالأولاد والشفقة عليهم وتدبير شؤونهم وقضاء الأوقات في التأنس بهم من شأنه أن ينسي عن تذكر أمر الله ونهيه في أوقات كثيرة، فالشغل بهذين أكثر من الشغل بغيرهما[1].

واستدل ابن القيم وغيره من أهل العلم بهذه الآية على كفر تارك الصلاة وقالوا: «ووجه الاستدلال بالآية أن الله حكم بالخسران المطلق لمن ألهاه ماله وولده عن الصلاة، والخسران المطلق لا يحصل إلا للكفار، فإن المسلم ولو خسر بذنوبه ومعاصيه، فآخر أمره إلى الربح، يوضحه أنه سبحانه وتعالى أكد خسران تارك الصلاة في هذه الآية بأنواع من التأكيد:

الأول: إتيانه به بلفظ الاسم الدال على ثبوت الخسران ولزومه دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

الثاني: تصدير الاسم بالألف واللام المؤدية لحصول كمال المسمى لهم فإنك إذا قلت: زيد العالم الصالح، أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له بخلاف قولك عالم صالح.

الثالث: إتيانه سبحانه بالمبتدأ والخبر معرفتين، وذلك من علامات انحصار الخبر في المبتدأ كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال: ٤] ونظائره.

الرابع: إدخال ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر، وهو يفيد مع الفصل فائدتين أخريين: قوة الإسناد، واختصاص المسند إليه بالمسند كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]»[2].

إن الأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفاً أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية. وقد منحه الأموال

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥١) بتصرف.

(٢) الصلاة وحكم تاركها (٤٢، ٤٣).

والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان. ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر.. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ .. وأول ما يخسرونه هو هذه السمة: سمة الإنسان. فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنساناً، ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء مهما يملك من مال ومن أولاد[1].

وعلى المؤمن أن يفهم أن من شغله ما يهمه من أمر دينه الذي أمره سبحانه به، ونهاه عن إضاعته وتوعده عليها، كفاه سبحانه أمر دنياه الذي ضمنه له ونهاه أن يجعله أكبر همه وتوعده على ذلك، فما ذكر الله إلا من وجده في جميع أموره ديناً ودنيا وتوجه إليه في جميع نوائبه، وأقبل عليه بكل همومه، وبذل نفسه له بذل من يعلم أنه مملوك مربوب، وأمّر ربه على نفسه واتخذه وكيلاً فاستراح من المخاوف، ولم يمل إلى شيء من المطامع فصار حراً[2].

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨٠).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ٩٣) بتصرف بسيط.

الفصل السادس
الأعمال الصالحة التي قرنت مع الأمر بالصلاة

إن المتدبر للآيات الواردة في الصلاة يلاحظ أنها قرنت بأعمال صالحة كثيرة، منها ما هو عام كالعبادة، وعمل الصالحات، والإيمان بالغيب، والتقوى، وفعل الخيرات.. ومنها ما هو أخص من ذلك، كالزكاة، والصبر، والجهاد، والاعتصام بالله، والتمسك بالكتاب، وتلاوته، والوفاء بالعهد، والإحسان إلى الوالدين وذي القربى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. والتوكل والتوبة والإنابة والاستغفار.

ومن هذه الأعمال ما قرن بها في آية واحدة، ومنها ما جاء في آيات سابقة أو لاحقة غير أني سألتزم بإحصاء الأعمال الصالحة المقترنة بها في آية واحدة، وقد أتعرض لبعض الصفات الواردة في السباق واللحاق ولكن من غير حصر لأن ذلك يطول.

أولاً: عبادة الله:

قرنت الصلاة بعبادة الله في خمس آيات، ثنتان منها مكية، ولعل تخصيص الصلاة بعد الأمر بالعبادة وهي داخلة فيها قطعاً لبيان فضلها وشرفها، ولتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح(١).

أ- من أوائل الآيات نزولاً في ذلك قوله تعالى في سورة طه المكية: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

بين سبحانه في هذه الآية أهم ما أوحاه إلى موسى عليه السلام وهو أن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ أي وإذا كنت أنا الإله حقاً ولا معبود سواي فخصني بالعبادة والانقياد والتذلل في جميع ما كلفتك به، وأدِّ الصلاة على الوجه الذي أمرتك به مقومة الأركان مستوفاة الشروط لتذكرني فيها وتدعوني دعاءً خالصاً لا يشوبه إشراك ولا توجه إلى سواي(٢).

ب- في قوله تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٥٢).

(٢) يقارن مع تفسير المراغي (٦/ ٩٩، ١٠٠).

أمرٌ من الله لنبيه محمد ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أي أخلِصْ له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمر الله تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد، والنية، والعزم على الإخلاص لله تعالى[(١)].

ونقل الألوسي عن الزجاج معنى ﴿وَنُسُكِى﴾ عبادتي كلها، وقال في معنى: ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ أي ما يقارن حياتي وموتي من الإيمان والعمل الصالح، وهو مناسب لقوله تعالى بعدها: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي في عبادتي، أو فيها وفي الإحياء والإماتة[(٢)].

جـ- أكد الله الأمر بالإخلاص في سورة البينة المدنية بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

يؤنب الله ويوبخ أهل الكتاب على ما صاروا إليه من الافتراق في أصول دينهم وفروعه مع أنهم لم يؤمروا في كتبهم إلا بما يصلح دينهم ودنياهم، وما يجلب لهم السعادة في معاشهم ومعادهم، من إخلاص لله في السر والعلن، وتخليص أعمالهم من الشرك واتباع ملة إبراهيم عليه السلام الذي مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله.. والمراد هنا من إقامة الصلاة الإتيان بها مع إحضار القلب لهيبة المعبود ليعتاد الخضوع له.. ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي هذا الذي ذكر من إخلاص العبادة للخالق والميل عن الشرك مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هو الدين الذي جاء في الكتب القيمة[(٣)].

وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ لفضلهما وشرفهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧٤٢).

(٢) يُنظر: روح المعاني للألوسي (٤/ ٣١٢) بتصرف.

(٣) يقارن مع تفسير المراغي (٣٠/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (٨٦١).

«والتعبير بالفعل المسند للمجهول مفيد معنيين: أي: ما أمروا في كتابهم إلا بما جاء به الإسلام. فالمعنى: وما أمروا في التوراة والإنجيل إلا أن يعبدوا الله مخلصين إلخ، فإن التوراة أكدت على اليهود تجنب عبادة الأصنام، وأمرت بالصلاة، وأمرت بالزكاة أمراً مؤكداً مكرراً، وتلك هي أصول دين الإسلام قبل أن يفرض صوم رمضان والحج، والإنجيل لم يخالف ا لتوراة، أو المعنى: وما أمروا في الإسلام إلا بمثل ما أمرهم به كتابهم فلا معذرة لهم في الإعراض عن الإسلام على كلا التقديرين»(١).

د- في سورة الحج قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧].

حيث يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة ويخص منها الركوع والسجود لفضلها وركنيتها ثم يأمر بعبادته التي هي قرة العيون وسلوة القلب المحزون، وأن ربوبيته، وإحسانه على العباد يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة.. وعلق تعالى الفلاح على ذلك، وهو الفوز بالمطلوب المرغوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ولا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده(٢).

هـ- في سورة التوبة وهي من أواخر المدني نزولاً يقول تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وفي الآية نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة، والخلال الجليلة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش. ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال، فمن أخص الأقوال الحمد فلهذا قال: ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع وهو المراد بالسياحة ههنا ولهذا قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾.. وكذا: الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٨٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٩٦) بتصرف، ويُنظر: روح المعاني (٩/ ١٩٧).

الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

ثانياً: الإيمان وأركانه:

اقترن الأمر بالصلاة مع الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالغيب في أربع سور مكية، ومثلها مدنية.

أ- السور المكية:

١- في سورة فاطر يقول تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

والمعنى القريب للآية أنه في يوم القيامة يجازى كل أحد بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد، وإن استغاثت نفس مثقلة بالخطايا والذنوب بمن يحمل عنها بعض أوزارها، فإنه لا يحمل قريب عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه بل يوم القيامة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد ولو على والديه وأقاربه[(١)].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾.

أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة والموعظة وينتفعون بها وهم أهل الخشية لله بالغيب الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب وهم أهل إقامة الصلاة بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، ولعل السر في اقتران خشية الله بالغيب مع إقامة الصلاة هو أن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب.. ثم ناسب أن يأتي بعد ذلك قوله تعالى ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ﴾ أي من زكى نفسه بالتنقي من العيوب، كالرياء والكبر والكذب والغش والخداع والنفاق ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلى بالأخلاق الجميلة من الصدق والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، وغيرهما من مساوئ الأخلاق فإن تزكيتها يعود نفعها إليه،

(١) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (٦٣٣) وتفسير القرآن العظيم (١٥٥٣).

ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء، لأن إلى الله المصير فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها[(١)].

٢- في سورة النمل وهي بعد سورة فاطر نزولاً جاء قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ بعد أن بين أن آيات القرآن هدى وبشرى للمؤمنين بين صفة المؤمنين وهم الذين يقيمون الصلاة فرضها ونفلها، ويأتون بأفعالها الظاهرة والباطنة، ويؤتون الزكاة المفروضة.. ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ أي قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين وهو العلم التام والواصل إلى القلب الداعي إلى العمل، ومن اليقين بالآخرة الإيمان بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار والصراط والميزان وكل ما يكون في تلك الدار.

«وهذه الجملة استئناف جيء به للقصد إلى تأكيد ما وصف المؤمنون به من حيث إن الإيقان بالآخرة يستلزم الخوف المستلزم لتحمل مشاق التكليف فلا بد من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وقد أقيم الضمير فيه مقام اسم الإشارة المفيد لاكتساب الخلافة بالحكم باعتبار السوابق فكأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم المؤمنون بالآخرة»[(٢)].

٣- ومثل الآية السابقة بالنص قوله في سورة لقمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤].

جاءت هذه الآية بعد بيان أن آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين.

والمحسنون هم الفاعلون للحسنات وأعلاها الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك خصت هذه الثلاث بالذكر بعد إطلاق المحسنين لأنها أفضل الحسنات وإن كان المحسنون يأتون بها وبغيرها.

إن اليقين بالآخرة ملاك التقوى والخشية، وهو الذي يوجب الحذر والفكرة فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب.. واليقين هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال أو بعد شك سابق ولا يكون شك إلا في أمر ذي نظر فيكون أخص من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٣٤).

(٢) يُنظر: روح المعاني (١٠/ ١٥٣) ويقارن مع الكشاف (٧٧٥).

الإيمان، ومن العلم. والتعبير عن إيمانهم بالآخرة بمادة «الإيقان» لأن هاته المادة، تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طريق الاستدلال لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها كان الإيمان بها جديراً بمادة الإيقان بناءً على أنه أخص من الإيمان فلإيثاره هنا خصوصية مناسبة لبلاغة القرآن(١).

٤- رابع الآيات المكية التي قرن فيها الإيمان باليوم الآخر مع الصلاة هي قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

إن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبي والكتاب ويحافظ على الطاعة، وتخصيص الصلاة بالذكر هنا لأنها عماد الدين وعلم الإيمان(٢).

ومن المحافظة على الصلاة حفظ أركانها وحدودها وشروطها وآدابها ومكملاتها والمداومة عليها ولا يقوم بذلك إلا من آمن بالآخرة وانقاد قلبه وجوارحه لمراضي الله تعالى.

وفي هذه الآية قرن مع الإيمان بالآخرة الإيمان بالكتاب، فإن كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن(٣).

ب- السور المدنية:

١- جاء في سورة البقرة قوله تعالى في أولها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣، ٤].

والذي يعنينا هنا أنه عد من أول صفات المتقين الإيمان بالغيب ثم إقامة الصلاة ثم النفقة مما رزقهم الله، ثم الإيمان بالكتب والإيقان بالآخرة، ثم ختم الصفات بأنهم على هدى من ربهم وهم المفلحون في الدنيا والآخرة.

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير (٢١/ ١٤١) (١/ ٢٤٠) باختصار وتصرف.
(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٣١٢) بتصرف.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧٠٥).

«وإذا علمنا أن الإيمان بالغيب أصل لا يقوم الإيمان بدونه فلا عجب أن تكون الصلاة ركن لا يقوم الإسلام بدونه»[(١)].

إن حقيقة الإيمان هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله.. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به أو أخبر به رسوله سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتد إليه عقله وفهمه.. ويدخل في الإيمان بالغيب الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها وما أخبرت به الرسل من ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها..

واشتملت الآية الثانية أيضاً الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ من القرآن والسنة فالمتقون المصلون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ﷺ، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله.. وكذلك يؤمنون بجميع الكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه كتبهم خصوصاً التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بالكتب السماوية كلها وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

وفي قوله: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الآخرة اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل[(٢)].

وقد قرن الله في موضع آخر من سورة البقرة الإيمان بالله وباليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين مع أعمال صالحة أخرى -يأتي الكلام عليها في حينه- مع الصلاة.. وعد جميع هذه الأعمال من البر فقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ...... وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي موضع ثالث من السورة نفسها قرن الإيمان والعمل الصالح بإقامة الصلاة

---

(١) الصلاة في القرآن. د فهد الرومي (٤١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٣، ٢٤) باختصار وتصرف.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

والإيمان والعمل الصالح يعم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلا أنه عطفهما عليهما لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة[١].

٢- في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

جاءت هذه الآية بعد أن بين الله سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم، وأطلق القول في ذلك، وكان هذا يوهم أنه شامل لكل أفرادهم، جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم وهم الراسخون في العلم منهم مثل: عبدالله بن سلام ومخيريق، وأسيد وثعلبة ابنيْ سعيه وغيرهم ممن فارقوا يهود وأسلموا[٢].

والراسخ حقيقته، الثابت القدم في المشي لا يتزلزل، واستعير للتمكن من الوصف مثل العلم فلا تغره الشبه، والراسخ في العلم بعيد عن التكلف وعن التعنت، فليس بينه وبين الحق حاجب فهم يعرفون دلائل صدق الأنبياء ولا يسألونهم خوارق العادات، وعطف ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ على ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ ثناء عليهم بأنهم لم يسألوا نبيهم أن يريهم الآيات الخوارق للعادة فهم يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ من القرآن وكفاهم به آية، وبما أنزل من قبله على الرسل، ولا يعادون رسل الله تعصباً وحمية[٣].

ثم قال: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ أي وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان إذ إقامتها بإتمام أركانها علامة كمال الإيمان واطمئنان النفس.

﴿وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ مثل المقيمين الصلاة في

(١) تفسير البيضاوي (١/١٤٨).

(٢) يُنظر: معالم التنزيل (٣٥٠) والمحرر الوجيز (٤٩٨).

(٣) التحرير والتنوير (٦/٢٨، ٢٩) بتصرف.

استحقاق المدح بالتبع، إذ إقامتها تستدعي الزكاة، فإن الذي يقيمها على الوجه الذي طلبه الدين لا يمنع الزكاة(١).

وفي الآية تقديم الإيمان بالأنبياء والكتب، وما يصدقه من اتباع الشرائع على وصفهم بالإيمان بالله وباليوم الآخر لأنه المقصود بالآية في هذا السياق(٢).

ثم ختم الآية بأن هؤلاء الذين وصفوا بما ذكر كله سنعطيهم أجراً عظيماً لا يدرك وصفه إلا علام الغيوب لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان والعمل الصالح والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة(٣).

٣- في سورة المائدة يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به وذكر ما عاقبهم به وكان هذا الميثاق الذي واثقهم به هو إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً والمداومة عليها، وإيتاء الزكاة لمستحقيها وقرن معهما الإيمان برسل الله جميعهم والذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ مع تعظيمهم وتأدية ما يجب لهم من الاحترام والطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

وفي السورة نفسها قرن الإيمان مع إقامة الصلاة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

جاءت هذه الآية بعد أن نهى الله عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين، أخبر في هذه الآية من يجب ويتعين توليه وذكر فائدة ذلك ومصلحته وأن ولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان لله ولياً فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله، كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم

(١) تفسير المراغي (٦/ ١٩) بتصرف.
(٢) يقارن مع تفسير البيضاوي (١/ ٢٥٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٧٧).

الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق وبذلوا الزكاة لمستحقيها منهم[(١)].

٤- في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وصف الله عمار المساجد الحقيقيين بأنهم هم الذين آمنوا بالله ورسوله وأقاموا الصلاة الواجبة والمستحبة، وآتوا الزكاة، وصفهم بخشية الله التي هي أصل كل خير، ثم قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ و«عسى» كما هو معلوم من الله واجبة، وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا عنده خشية لله فهذا ليس من عمار مساجد الله ولا من أهلها الذين هم أهلها وإن زعم ذلك وادعاه[(٢)].

ثالثاً: الزكاة:

قرنت الزكاة مع الصلاة في سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم؛ ستة منها في سور مكية، وموضع واحد في سورة مختلف فيها والراجح أنه نزل بالمدينة، وعشرون موضعاً في سور مدنية.

أ- المواضع التي نزلت بمكة:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

يبين الله في الآية الأولى أن مما تكلم به عيسى عليه السلام في المهد أن الله أوصاه بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة مدة حياته.

وفي الآية الثانية: أن نبي الله إسماعيل عليه السلام كان مقيماً لأمر الله على أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٩٨) باختصار.

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٢٩١).

إلى العبيد، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

وبهذا يتبين أن الصلاة والزكاة من العبادات التي شرعها الله على من قبلنا من الأمم[1].

٣- قال تعالى في سورة النمل: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

قال الألوسي: «صفة مادحة للمؤمنين، وكنى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن عمل الصالحات مطلقاً وخصّا على ما قيل: أمّا العبادة البدنية والمالية، والظاهر حمل الزكاة على الزكاة المفروضة، وتعقب بأن السورة مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة. وقيل: كان في مكة زكاة مفروضة إلا أنها لم تكن كالزكاة المفروضة بالمدينة فلتحمل في الآية عليها.. وقيل: الزكاة هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق، وهو خلاف المشهور في الزكاة المقرونة بالصلاة ويبعده تعليق الإيتاء بها»[2].

ووصف المؤمنين بالموصول لتمييزهم عن غيرهم لأنهم عرفوا يومئذ بإقامة الصلاة وإعطاء الصدقات للفقراء والمساكين، وعرف الكفار بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦-٧]، ولأن في الصلة إيماء إلى وجه بناء الإخبار عنهم بأنهم على هدى من ربهم ومفلحون، والزكاة: الصدقة لأنها تزكي النفس أو تزكي المال، أي تزيده بركة، والمراد بالزكاة هنا الصدقة مطلقاً، أو صدقة واجبة كانت على المسلمين، وهي مواساة بعضهم بعضاً كما دل عليه قوله في صفة المشركين: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧-١٨].

وأما الزكاة المقدرة بالنصب والمقادير الواجبة على أموال الأغنياء فإنها فرضت بعد الهجرة فليست مرادة هنا لأن هذه الآية مكية[3].

٤- وبنص الآية السابقة جاء قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤].

---

(١) روح المعاني (٨/ ٤٠٨، ٤٢٢).

(٢) روح المعاني (١٠/ ١٥٣) ويُنظر: المحرر الوجيز (١٤١٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢١٩) بتصرف بسيط.

وفي هذه الآية وصف للمحسنين بالعلم التام وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل وخص من العمل عملين فاضلين هما: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. وعدّ بعض المفسرين هذه الآية مدنية بحجة أن الزكاة فرضت بالمدينة، وردّه البيضاوي على تسليم ذلك بأن فرضها بالمدينة لا ينافي تشريعها بمكة على غير إيجاب.. والمحققون يمنعون أن تكون الصلاة والزكاة فرضتا بالمدينة، فأما الصلاة فلا ريب في أنها فرضت على الجملة بمكة، وأما الزكاة ففرضت بمكة دون تعيين أنصباء ومقادير، ثم عينت الأنصباء والمقادير بالمدينة[1].

٥- وفي سورة الأنبياء جاء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

جاءت الآية لتؤكد أن من صلح ليكون قدوة في دين الله كالأنبياء مثلاً، فالهداية محتومة عليه ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها، وأول ذلك أن يهتدي بنفسه لأن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل[2].

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل للخيرات كلها من حقوق الله وحقوق العباد، وعطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن من كملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه.. وهؤلاء الأئمة كانوا مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم فاتصفوا بما أمر الله به الخلق والذي خلقهم لأجله[3].

٦- وفي سورة «المؤمنون» قرن فعل الزكاة مع الخشوع في الصلاة في الأوصاف التي وصف الله بها المؤمنين المفلحين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤].

«إن الخشوع هو التذلل مع خوف وسكون للجوارح، وعن مجاهد: أنه غض البصر

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٣٧) بتصرف، ويُنظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٨١٦).
(٢) الكشاف (٦٨٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤٧٦) بتصرف بسيط.

وخفض الجناح، وعن علي: ترك الالتفات.. وقال الضحاك: وضع اليمين على الشمال، ومن الخشوع ترك العبث بثيابه أو شيء من جسده، وفي تقديم وصفهم بالخشوع على سائر ما ذكر بعد ما لا يخفى من التنويه بشأن الخشوع.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالزكاة المعنى المصدري -أعني التزكية- لأنه الذي يتعلق به فعلهم، وأما المعنى الثاني وهو القدر الذي يخرجه المزكي فلا يكون نفسه مفعولاً لهم، فلا بد إذا أريد من تقدير مضاف أي لأداء الزكاة فاعلون، أو تضمين ﴿فَٰعِلُونَ﴾ معنى مؤدون، وبذلك فسره بعضهم إلا أنه تعقب بأنه لا يقال فعلت الزكاة أي أديتها، وإذا أريد المعنى الأول أدى وصفهم بفعل التزكية إلى أداء العين بطريق الكناية التي هي أبلغ.. ووصفهم بأنهم عن اللغو معرضون بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنهم لم يألوا جهداً بالعبادة البدنية والمالية، وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة، وإلا فأكثر ما تذكر هاتان العبادتان في القرآن معاً بلا فاصل.. واختار الراغب: أن الزكاة بمعنى الطهارة، واللام للتعليل، والمعنى: والذين يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله تعالى، أو ليزكوا أنفسهم»[(١)].

أما **الموضع المختلف** فيه فهو قوله تعالى في آخر آية من سورة المزمل المكية: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال جمهور المفسرين: نزل صدر السورة بمكة، ونزل: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ إلى آخرها بالمدينة أي بعد نزولها بسنين[(٢)].

وهو الراجح والظاهر، ومما يؤيد ذلك في نظري أن فيها الأمر بإيتاء الزكاة كما سيأتي في السور المدنية، وليس كما هو ملاحظ في السور المكية أنها لم تورد الزكاة بصيغة الأمر الدال على الوجوب، ولكنها أوردتها في صورة خبرية باعتبارها وصفاً أساسياً «للمؤمنين»، و«المتقين»، و«المحسنين»، «الذين يؤتون الزكاة»، أو «الذين هم للزكاة فاعلون»، «وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة»، «وأوصاني بالصلاة والزكاة».

وقوله في هذه الآية: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تذكير بأن الصلوات الواجبة هي التي تحرصون على إقامتها وعدم التفريط فيها.. وعطف ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تتميم لأن الغالب

---

(١) روح المعاني (٩/ ٢٠٦-٢٠٨) باختصار وتصرف، ويُنظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٦٩٦).

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز (١٩١١) والجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٩) وروح المعاني (١٥/ ١١٢).

أنه لم يخل ذكر الصلاة من ذكر الزكاة معها حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها[(١)].

ب- المواضع التي نزلت بالمدينة:

في سورة البقرة قرنت الزكاة بالصلاة في خمسة مواضع:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

جاءت هذه الآية في سياق أمر بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله التي أنعمها عليهم وأن يفوا بعهد الله وذلك بالإيمان والطاعة.. ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة «يعني صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة، أمرهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بها، والزكاة: من زكا الزرع إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم، أو من الزكاة بمعنى: الطهارة فإنها تطهر المال من الخبث والنفس من البخل»[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

«والآية إخبار في معنى النهي كما تقول: تذهب إلى فلان، تقول له كذا، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، كأنه سارع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه»[(٣)].

وفي الآية دليل على قسوة بني إسرائيل وأن كل أمر أمروا به، استعصوا فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة والعهود الموثقة.. وقد أخذ الله عليهم الميثاق بعبادته والإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس حسناً.. ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة «يريد بهما ما فرض عليهم في ملتهم»[(٤)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٧) بتصرف واختصار.

(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٦٣).

(٣) الكشاف (٨٤).

(٤) تفسير البيضاوي (١/ ٧٨).

جاءت هذه الآية بعد أن أخبر الله عن حسد كثير من أهل الكتاب وأنهم بلغت بهم الحال ودوا لو يردوا المؤمنين كفاراً وسعوا في ذلك وعملوا المكايد؛ فأمر الله المسلمين بمقابلة من أساء إليهم بالعفو عنهم والصفح حتى يأتي الله بأمره.. ثم أتى بعد ذلك.. أتى الله بأمره إياهم بالجهاد فشفى الله أنفس المؤمنين منهم فقتلوا من قتلوا واسترقوا من استرقوا وأجْلوا من أجلوا..

وفي الآية التي معنا هنا أمرهم الله بالاشتغال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل كل القربات ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير فإنه لا يضيع عند الله بل يجدونه عنده وافراً موفراً قد حفظه[1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآية من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سراً أو علانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان خيراً وبالإساءة مثلها، وهذا الكلام وإن خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً، وذلك أنه أعلم القومَ أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدّوا في طاعته وليحذروا معصيته[2].

٤- قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ .... وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

في هذه الآية قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

والآية خطاب لأهل الكتاب الذين أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حولت، وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فردّ الله عليهم، وخطابٌ للمسلمين أيضاً بأن البر ليس مقصوراً على أمر القبلة ولكن البر الذي ينبغي أن يهتم به بر من آمن بالله[3].

والمقصود هنا بإقامة الصلاة إتمام أفعالها في أوقاتها بركوعها وسجودها، وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي.

وقد جاء في الآية الأمر بإيتاء المال، ثم قفاه بإيتاء الزكاة فدل ذلك على أن في المال حقاً سوى الزكاة، قال الزمخشري: «يحتمل ذلك، وعن الشعبي: إن في المال حقاً سوى الزكاة وتلا هذه الآية، ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة أو يكون حثاً على

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٤) بتصرف بسيط.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١٨٥).
(٣) تفسير البيضاوي (١/ ١٠٧).

نوافل الصدقات والمبارّ»[(١)].

ولهذا قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنية الرذيلة.. ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال»[(٢)].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

جاءت هذه الآية وسط آيتين.. آية قبلها يخبر الله فيها أنه يمحق الربا ويذهبه بالكلية من يد صاحبه ويربي الصدقات، وآية بعدها يأمر الله عباده فيها بتقواه والبعد عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن مرضاته فيتركوا التعامل بالربا مع الناس.

وفي هذه الآية يمدح الله المؤمنين بربهم المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعد لهم من الكرامة وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون[(٣)].

٦- وفي سورة الأحزاب جاء قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

في الآية أمر لنساء النبي ﷺ بالقرار في البيوت لأنه أسلم وأحفظ، ولا يكثرن الخروج متجملات متطيبات كعادة أهل الجاهلية الأولى الذين لا علم عندهم ولا دين، ثم أمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين يحتاجها ويضطر إليهما كل أحد لأنهما أكبر العبادات وأجل الطاعات، ثم أمرهن بالطاعة عموماً ثم بين سبب الأمر بذلك وهو أن الله يريد بذلك أن يذهب عنهم الأذى والشر والخبث حتى يكن طاهرات مطهرات.

وفي أمر نساء النبي ﷺ بهذه الأوامر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله وهن قائمات بها يقول الطاهر: «أريد بهذه الأوامر الدوام عليها لأنهن متلبسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أن المقربين والصالحين لا ترتفع درجاتهم عند الله

---

(١) الكشاف (١٠٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٣٢) باختصار.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٣٧).

تعالى عن حق توجه التكليف عليهم، وفي هذا مقمع لبعض المتصوفين الزاعمين أن الأولياء إذا بلغوا المراتب العليا من الولاية سقطت عنهم التكاليف الشرعية.. وخص الصلاة والزكاة بالأمر ثم جاء الأمر عاماً بالطاعة لأن هاتين الطاعتين، البدنية والمالية، هما أصل سائر الطاعات فمن اعتنى بهما حق العناية جرتاه إلى ما وراءهما، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]»[(١)].

٧- وفي سورة النساء قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

هناك قولان فيمن نزلت فيه هذه الآية:

أحدهما: إنها نزلت في نفر من المهاجرين، كانوا يحبون أن يؤذن لهم في قتال المشركين وهم بمكة قبل أن يفرض القتال، فنهوا عن ذلك، فلما أذن لهم فيه كرهه بعضهم.

والقول الثاني: إنها نزلت واصفة أحوال قوم كانوا في الزمان المتقدم فحُذِرت هذه الأمة من مثل حالهم.. وكأنه يومئ إلى قصة الذين قالوا: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ ولهذا قال مجاهد: هي في اليهود[(٢)].

ولا شك أن هناك أوقاتاً لا يشرع فيها القتال مع قلة العدد والعُدة وكثرة الأعداء، لأن ذلك يؤدي إلى اضمحلال الإسلام وذلك مثل ما كان المسلمون في مكة قبل الهجرة، وفي هذه الأحوال يؤمر المسلمون بالصلاة والزكاة لما فيها من مواساة الفقراء.. وهذا هو اللائق مع التسليم لأمر الله والصبر على أوامره.. وإن من يستعجل القتال قبل وقته المناسب فإن الغالب عليه أن لا يصبر عليه وقت حلوله، ولا ينوء بحمله، بل يكون قليل الصبر[(٣)].

٨- وفي السورة نفسها جاء قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ .... وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٣).

(٢) يُنظر: زاد المسير (٣٠١) باختصار وتصرف، وتفسير القرآن العظيم (٥٠٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٥٢) بتصرف.

وقد سبق قريباً تفسير الآية(١)، والذي يعنينا هنا أنه قرن إيتاء الزكاة مع إقامة الصلاة حيث أثنى الله على من قام بهما.. وعدتا من أوصاف الراسخين في العلم.

٩- وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقد سبق الكلام عن هذه الآية(٢)، وجيء بها هنا لبيان اقتران إقامة الصلاة مع إيتاء الزكاة، وأنهما الملة القائمة العادلة، وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان(٣).

١٠- وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

جاءت هذه الآية بعد أن ذكر الله عز شأنه نوره لعباده وهدايته إياهم على أتم الوجوه وبين حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية.. وهي أنهم رجال ينزهون الله ويقدسونه في أول النهار وآخره لا تشغلهم الدنيا وزخرفها ولا بيوعهم وتجاراتهم عن ذكر ربهم وهو خالقهم ورازقهم إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم، فما عندهم ينفد، وما عند الله باق، ويؤدون الصلاة في مواقيتها على الوجه الذي رسمه الدين، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم تطهيراً لأنفسهم من الأرجاس.. ذلك لأنهم يخافون عقاب يوم تضطرب فيه الأفئدة من الهول والفزع، وتشخص فيه القلوب والأبصار من الهلع والحيرة والرعب والخوف(٤).

وهاهنا لطيفة وهي أنه قرن إيتاء الزكاة مع إقام الصلاة، مع أنها لم تكن مما يفعل في المساجد وذلك لكونها «قرينة لا تفارق إقامة الصلاة في عامة المواضع، مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد.. وكذلك خوفهم ليس مقصوراً على كونهم في المساجد»(٥).

(١) صفحة (١٢٤).
(٢) صفحة (١١٨).
(٣) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (٢٠٢٠).
(٤) تفسير المراغي (٦/ ١١١).
(٥) روح المعاني (٩/ ٣٧٠).

١١- وقوله سبحانه في سورة النور: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وقد سبق الكلام عن هذه الآية، والذي يعنينا هنا أنه اقترن الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. وهما داخلان في الأمر بعدهما بطاعة الرسول وخصهما لفضلهما وعظم شأنهما ثم جعل ذلك من أسباب رحمة الله سبحانه.

وقرن إيتاء الزكاة مع الأمر بإقامة الصلاة في آيتين من سورة الحج هما:

١٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

١٣- وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ﴾ .... ﴿فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الحج: ٧٨].

وسيأتي الكلام عنهما قريباً[1].

١٤- وفي سورة المجادلة قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

جاءت هذه الآية بعد آية يأمر الله تعالى فيها المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة الرسول ﷺ تأديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ ولتحصل لهم الطهارة من الأدناس التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على العلم والخير فلا يبالي بالصدقة، ثم لما رأى تعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها من إقامة الصلاة بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها، ويؤتوا الزكاة المفروضة إلى مستحقيها.. وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن

(١) صفحة (١٤٥-١٤٦).

قام بهما على الوجه الشرعي فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر[(١)].

وقرنت الصلاة مع الزكاة في آيتين من سورة المائدة سبق الكلام عليهما قريباً[(٢)]، هما:

١٥- قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢].

١٦- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وفي سورة التوبة قرنت الزكاة بالصلاة في أربعة مواضع هي:

١٧- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

١٨- وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

وسيأتي الكلام عن هاتين الآيتين في الفصل الثاني من الباب الرابع وهو بعنوان: «**المشركون وحالهم مع الصلاة**».

والذي يعنينا هنا أن الله اشترط في الآية الأولى إقامة الصلاة مع إيتاء الزكاة لتخلية سبيل المشركين والإمساك عن قتلهم؛ وفي الآية الثانية جعلهما شرطاً للأخوة في الدين.. وذلك بعد توبتهم من الشرك.

١٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٨٦) باختصار وتصرف.

(٢) يُنظر صفحة (١٢٥).

وقد سبق قريباً الكلام عن الآية[(١)].

٢٠- وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

جاءت هذه الآية بعد أن ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فذكر أول صفاتهم وأنهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في الصحيح: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه)[(٢)]، وفي الصحيح أيضاً: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[(٣)].

وعد من صفاتهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهما أكبر العبادات التي تحقق طاعة الله والإحسان إلى خلقه، فناسب أن يقرنها في هذه الآية الكريمة وهذا السياق من السورة.

رابعاً: الإنفاق من رزق الله:

قرنت الصلاة مع الإنفاق من رزق الله في سبعة مواضع ثلاثة منها مكية هي:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

٣- وقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

والملاحظ على الآيات أن الآيتين الأولى والثانية جاء ذكر الإنفاق في سياق المدح للمؤمنين الذين اتصفوا بهذه الصفات ومن ضمنها أنهم أنفقوا مما رزقهم الله سراً

---

(١) صفحة (١٢٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، رقم (٢٤٤٦) وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١١) وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٦).

وعلانية، أما الآية الثالثة فجاءت بصيغة الأمر بما فيه صلاح العباد وأن ينتهزوا الفرصة قبل أن لا يمكنهم ذلك.

والإنفاق هنا في هذه الآيات أعم من الزكاة المفروضة لأنه أمر بالإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً سراً وعلانية والإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب[(١)].

ولهذا قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إنها تشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها[(٢)].

وفي كون الإنفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يسرفوا، ولم يبسطوا أيديهم كل البسط، ومقام التمدح مشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب، وقيل: جيء بـ«من» لذلك[(٣)].

«والمراد بالإنفاق حيثما أتى في القرآن هو الصدقات واجبها ومستحبها، وما ورد الإنفاق في السور المكية إلا والمراد به الصدقات المستحبة إذ لم تكن الزكاة قد فرضت أيامئذ على أنه قد تكون الصدقة مفروضة دون نصب ولا تحديد ثم حددت بالنصب والمقادير، وجيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بفعل المضي- لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه، وامتثال الذي كلفوا يقتضي- أنهم مداومون عليه، وفي تقديم السر إشارة إلى أنه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه، وذكر العلانية للإشارة إلى أنهم لا يصدهم مرأى المشركين عن الإنفاق فهم قد أعلنوا بالإيمان وشرائعه حب من حب أو كره من كره»[(٤)].

والذي يؤكد أن أصل الصدقة قد فرض في مكة وإن كان تأخر فرض الزكاة ذات النصب إلى المدينة على قول جمهور المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥][(٥)].

قوله تعالى: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي نصيب معلوم يصلون به رحماً، أو يقرون به ضيفاً، أو

(١) تفسير القرآن العظيم (١٥٥٥، ١٦٧٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٠).
(٣) روح المعاني (١١/ ٣٦٥).
(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٧) باختصار.
(٥) وهذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فقرنت المداومة على الصلاة ولكن ليس في آية واحدة.

يحملون به كلاً، أو يعينون به محروماً وليس بالزكاة، قاله ابن عباس[1].

وفي السور المدنية قرنت الصلاة بالإنفاق في أربع آيات هي:

٤- قولـــه تعـــالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

٥- وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣].

٦- وقوله تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

٧- وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥].

المقصود بالإنفاق في الآيات السابقة هو الإنفـاق ممـا أعطـى الله ورزق. فـإن هـذه الأموال ودائع يوشك أن يفارقها ابن آدم.. والمختار عند جمهور المفسرين وعـلى رأسـهم ابن جرير أن الآيات عامة في الزكاة والنفقات اللازمة على الأهل والعيـال وغـيرهم مـن القرابات وغير ذلك، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال ابن كثير: «كثيراً ما يقرن الله تعـالى بـين الصـلاة والإنفـاق مـن الأمـوال فـإن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهـال إليـه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق، وهو الإحسـان إلى المخلـوقين بـالنفع المتعـدي إلـيهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليـك، ثـم الأجانـب، فكـل مـن النفقـات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ »[2].

وفي آية سورة البقرة جمع بين الإيمان بالغيب وهو عقد القلب، وبين الصـلاة وهـي فعل البدن وبين الصدقة وهو تكليف يتعلق بالمال، ولعل الحكمـة في ذلـك أنـه لـيس في التكليف قسم رابع إذ ما عدا هذه الأقسام فهو ممتزج بـين اثنـين مـنهما كـالحج والصـوم ونحوهما[3].

وجاءت آية سورة الأنفال في سياق صفات الكاملين في الإيمان حيث إنهـم حققـوا

---

(١) زاد المسير (١٣٤٨) ويُنظر: التفسير الكبير (١٥/ ٧٢٩).
(٢) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٨٦، ٨١٩، ١٠١١، ١٢٧٥) ويقارن.
(٣) زاد المسير (٣٩).

إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة والصدقة[(١)].

أما آية سورة الرعد فجاءت بعد وصف أولي الألباب بالوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق «خص بالذكر أشياء مما دخل في العهد والميثاق تشريفاً لها فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأنها في الوصلة بالله كالميثاق في الوصلة بالموثق له وقال: ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ وخفف بالبعض فقال: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ لأن الإنفاق من أعظم سبب يوصل إلى المقاصد، فهذا إنفاق في المال، وتلك[(٢)] إنفاق من القوى، وقال: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارة إلى استواء الحالتين تنبيهاً على الإخلاص، ويجوز أن يكون المراد بالسر ما ينبغي فيه الإسرار كالنوافل، وبالعلانية ما يندب إلى إظهاره كالواجب إلا أن يمنع مانع»[(٣)].

وفي آية سورة الحج التي جاءت في سياق الحج وما يحصل فيه من المشاق قال تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عبر بالوصف دون الفعل إشارة إلى أنه لا يقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل إلا الأراسخ في حبها، فهم لما تمكن من حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كأنهم دائماً في صلاة، ولما كان ما يحصل في الحج من زيادة النفقة ربما كان مقعداً عنه رغّب بالنفقة فيه ومدحهم بالإنفاق إحساناً إلى خلق الله وامتثالاً لأمره[(٤)].

خامساً: إقراض الله:

قرن الأمر بإقامة الصلاة مع إقراض الله قرضاً حسناً في آيتين، هما:

١- قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠].

الآية الأولى جاءت في سياق أخذ الميثاق على بني إسرائيل، والآية الثانية في سياق التخفيف على هذه الأمة من وجوب قيام الليل، وفي كلتا الآيتين عطف الإقراض على

(١) يقارن مع تفسير البيضاوي (١/ ٣٧٦).
(٢) يقصد الصلاة.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٠/ ٣٣٠).
(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣/ ٤٩) بتصرف.

الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. وأصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه.. ووجه تسمية الصدقة قرضاً لأن الله سيجازي عليها يوم القيامة ويستحق المقرض لله الثواب والعوض عليه من الله، فأما اليهود فإنهم جهلوا هذا فقالوا: أيستقرض الله منا؟ وأما المسلمون فوثقوا بوعد الله وبادروا إلى معاملته.. والقرض الحسن: هو ما كان خالصاً لله، حلالاً، يخرج عن طيب نفس من خيار ماله محتسباً ثوابه عند الله ولا يتبعه مناً ولا أذى[(١)].

ويأتي الأمر بالإقراض بعد الأمر بالزكاة ليشمل سائر الإنفاقات في سبل الخيرات أو زيادة تأكيد على إخراج الزكاة بأحسن وجه مع الترغيب فيه بالعوض وأنه لا يضيع شيء عند الله مما يقدمه العبد لنفسه[(٢)].

سادساً: الصبر:

اقترن الصبر بالصلاة في سبعة مواضع، اثنان منها في سور مكية، وهما:

١- قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

٢- وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

والملاحظ على هاتين الآيتين أنه قدم الأمر بالصلاة على الأمر بالصبر، ولعل ذلك لحاجة إقامة الصلاة إلى الاصطبار «وقد استخدم القرآن هنا صيغة الافتعال من الصبر «اصطبر» مكان الصيغة المعتادة «اصبر» لأن الافتعال يدل على المبالغة في الفعل فزيادة المبنى تدل في العادة على زيادة المعنى، وما ذاك إلا لأن الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها.. والعبودية شاقة على النفس مطلقاً، ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد»[(٣)].

«وفي أمر الرسول ﷺ بالاصطبار عليها أمر بالمداومة.. وفيه إشارة إلى أن العبادة في

---

(١) زاد المسير (١٥) بتصرف.

(٢) يقارن مع تفسير البيضاوي (١/ ١١٠٧).

(٣) الصبر في القرآن الكريم ليوسف القرضاوي (٤٦) باختصار وتصرف.

رعايتها حق الرعاية مشقة على النفس.. والخطاب عام شامل للأهل وإن كان في صورة الخاص.. وقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ﴾ دفع لما عسى أن يخطر ببال أحد من أن المداومة على الصلاة ربما تضر بأمر المعاش، فكأنه قيل داوموا على الصلاة غير مشتغلين بأمر المعاش عنها إذ لا نكلفكم رزق أنفسكم إذ نحن نرزقكم.. والآية مشعرة أن الصلاة مطلقاً تكون سبباً لادرار الرزق وكشف الهم»[1].

وفي وصية لقمان لما منع ابنه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصاً، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت.

ثم إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، مما عزمه الله وأمر به لأنه من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة[2].

أما المواضع الخمسة التي قرن بها الصبر في السور المدنية فثلاثة منها في سورة البقرة وهي:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

٢- وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

أما الآية الأولى فجاءت في سياق أمر بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم فيفوا بعهدهم، فأمرهم الله في هذه الآية بأن يستعينوا على الوفاء بعهده الذي عاهدوه عليه من طاعته واتباع أمره وترك ما تهواه أنفسهم من الرياسة وحب الدنيا إلى ما يكرهونه من التسليم لأمر الله واتباع رسوله محمد ﷺ بالصبر، والصلاة كأنهم لما أمروا بها شق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عوجلوا بذلك.. وقوله تعالى:

---

(١) روح المعاني (٨/ ٥٩٢) باختصار.
(٢) يقارن مع مفاتيح الغيب (١٢/ ٥١٠) والجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٨٨).

وَإِنَّهَا الضمير للصلاة، وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر(١).

والآية الثانية جاءت بعد أن أمر الله عباده بالشكر حيث شرع سبحانه في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها.

ولعل تذييل الآية الأولى بقوله: وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ تناسب حال بني إسرائيل الذين خوطبوا بها لقلة خشوعهم لأن من لم يخشع تثقل عليه حيث لا يعتقد في فعلها ثواباً ولا في تركها عقاباً فيصعب عليه فعلها، أما الخاشع فلما اعتقد في فعلها أعظم المنافع وفي تركها أعظم المضار لم يثقل ذلك عليه لما يعتقد في فعله من الثواب والفوز العظيم بالنعيم المقيم والخلاص من العذاب الأليم(٢).

والآية الثانية صدرت بندائهم بالإيمان، وذيلت بقوله: إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ يعني بالنصر والاستجابة لهم كما قال تعالى: فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ [البقرة: ١٣٧] فكأنه تعالى ضمن لهم إذا هم استعانوا على طاعاته بالصبر والصلاة أن يزيدهم توفيقاً وتسديداً وألطافاً كما قال تعالى: وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ [مريم: ٧٦].

والصبر هو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمل مشاق العبادات وتجنب المحظورات.

والاستعانة بالصلاة يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتي فيها من قراءة فيتدبر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.. لذلك نرى أهل الخير عند النوائب متفقين على الفزع إلى الصلاة(٣).

وفي الآية الثالثة استقراء بديع يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم لخصال جمعت الفضائل الفردية والاجتماعية الناشيء عنها صلاح أفراد المجتمع.. فبدأ

(١) محاسن التأويل للقاسمي (١/ ٣٣٢) ويُنظر: جامع البيان (١/ ٢٥٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٢/ ٧٢) باختصار وتصرف.
(٣) مفاتيح الغيب (٢/ ٥٣٥-٥٣٦) بتصرف واختصار.

بالإيمان وإقام الصلاة وهما منبع الفضائل الفردية لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها.. وختمها بالصبر في البأساء والضراء، وحين البأس، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة.. ودلت الآية على أن المسلمين تحقق فيهم معنى البر، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم لأنهم لم يفوا بالعهد ولم يصبروا.. وفيها أيضاً تعريض بالمشركين إذ لم يؤمنوا ولم يقيموا الصلاة[(١)].

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

قدم ذكر الصبر على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى طلباً لرضا الله لا لجزاء وسمعة ونحوهما على إقامة الصلاة المفروضة، والإنفاق مما رزقهم الله سراً وعلانية، وعلى رد الإساءة بالإحسان حتى يستحقوا عقبى الدار.. لأن ذلك الصبر الذي يقصد به وجه الله هو الصبر النافع المعين على امتثال المأمورات، والكف عن المنهيات التي عُددت قبل الآية وبعدها.

٥- وكذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥].

حيث عد الصبر ثاني صفات المخبتين وهم الخاضعون لربهم المستسلمون لأمره المتواضعون لعباده، فأول صفاتهم خوف الله وتعظيمه فيتركوا المحرمات لخوفهم ووجلهم من الله تعالى وحده ثم هم الصابرون على ما أصابهم من البأساء والضراء وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك بل صبروا ابتغاء وجه ربهم محتسبين ثوابه مرتقبين أجره.

سابعاً: الجهاد بمعناه العام:

وأعني بمعناه العام الجهاد بالمال واللسان والنفس، والجهاد أعم من قتال الكفار فيأتي قبله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للنفس والأهل والولد وللمجتمع وللناس كافة وبذل الجهد كله في ذلك.. وقد اقترن في القرآن بالصلاة في ستة مواضع.

١- ففي قوله تعالى في سياق وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٣٢) باختصار.

وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ [لقمان: ١٧]، وهذه الآية مكية.. وقد جاء الأمر فيها بأن يجاهد الإنسان نفسه أولاً بإقامة الصلاة فيكمل نفسه، ثم يسعى في تكميل غيره، وهذه أول درجات الجهاد فيأمر بالمعروف بعد العلم به، وينهى عن المنكر.. وهو بهذا قد يتعرض إلى أن يبتلى إذا أمر ونهى، ولما في ذلك من مشقة على النفس، لذا عليه أن يصبر على ما أصابه فإن ذلك من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

وفي القرآن المدني جاء قوله تعالى:

٢- أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ [النساء: ٧٧].

في الآية توجيه إلى عدم الاستعجال في القتال، والتروي فيه حتى ولو زاد أذى الذين يدعونهم والاشتغال بما أمروا، وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تنبيه على أن الجهاد مع النفس مقدم، ولما يتمكن المسلم من الانقياد لأمر الله تعالى بالجود بالمال لا يكاد يتأتى منه الجود بالنفس، والجود بالنفس غاية الجود.. فهذه مرحلة من الجهاد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى يجب أن يتمكن فيها المسلم حتى يستطيع أن يجاهد بنفسه بعد ذلك.

٣- وفي سورة الحج جاء قوله تعالى: ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ [الحج: ٤١].

جاءت هذه الآية في سياق الآيات التي أذن الله فيها للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله، ووعدهم بالنصر والتمكين، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم.. فبشرهم الله بنصره المؤكد بقوله: وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج: ٤٠]، ثم قال تعالى: ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وهم الذين حقق الله لهم النصر وثبت لهم الأمر عليهم أن لا يبطروا ولا يغتروا بل يستمروا على عبادة الله وتوثيق الصلة به، ويتجهوا إليه طائعين مستسلمين بإقامة الصلاة.

وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من

الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خلة الجماعة وكفوا الضعاف فيها والمحاويج، ثم قال: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فدعوا إلى الخير والصلاح، ودفعوا إليه الناس، ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فقاوموا الشر والفساد.. وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه(١).

٤- وفي آخر آية من سورة الحج نفسها جاء قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

الجهاد بصيغة المفاعلة حقيقة عرفية في قتال أعداء المسلمين في الدين لأجل إعلاء كلمة الإسلام، أو للدفع عنه كما فسره النبي ﷺ (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)(٢).

والحق بمعنى: الخالص، أي الجهاد الذي لا يشوبه تقصير، والآية أمر بالجهاد ولعلها أول آية جاءت في الأمر بالجهاد لأن السورة بعضها مكي وبعضها مدني(٣).

والجهاد: بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، وعليه فالجهاد في الله حق جهاده هو: القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ وغير ذلك(٤).

وجاء الأمر بالصلاة قبل الجهاد وبعده، فقبل هذه الآية جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧].

خاطبهم وناداهم بنداء الإيمان وأمرهم بالصلاة وهي رأس العبادة وطلبها منهم

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٥-٢٤٢٨) باختصار.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠) وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٧-٣٤٧-٣٤٨) باختصار.

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤٩٦).

بأعظم ركنين فيها وهما الركوع والسجود.. وأمرهم بعبادته وفعل الخير من القربات كصلة الأرحام وعيادة المرضى ونحو ذلك من معالي الأخلاق.. ووعدهم على ذلك بالفلاح والفوز بالمطلوب.. فبدأ بخاص ثم بعام ثم بأعم[(١)].

ثم جاء الأمر بالصلاة في آخر الآية التي بدئ فيها الأمر بالجهاد فقال سبحانه: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

وهذا الأمر جاء مترتباً على أنهم أصبحوا خير الناس بكونهم شهداء على الناس بأن رسلهم بلّغتهم رسالات ربهم، وشهداء للرسل أنهم بَلّغوا أممهم.

فعليهم أن يشكروا الله بإقامة الصلاة التي هي زكاة للقلوب وصلة لهم بربهم، وإيتاء الزكاة التي هي طهرة للأبدان وصلة لما بينهم وبين الإخوان.

ويرى بعض المعاصرين أن السر في اقتران الصلاة بالجهاد أن الإنسان تعتريه في هذه الحياة شوائبها ويصيبه من درنها فهو بحاجة إلى تطهير نفسه وقلبه فكانت الصلاة طهارة للقلب ولكن نفسه الأمارة بالسوء تصده عن تطهيرها فيجاهدها حتى ينتصر عليها فإذا حقق ذلك فإن عليه -وهو المؤمن الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه- أن يوسع نطاق الجهاد فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ثم إن عليه وعلى إخوانه المسلمين أن يوسعوا نطاق الجهاد فيدعوا الكفار والمشركين إلى الإسلام ويجاهدوهم على ذلك، فناسب أن يأمر بالصلاة لتطهير النفس وبالجهاد لتطهير الآخرين، وبالزكاة لتطهير المال[(٢)].

٥- وفي سورة التوبة أكد الله ولاية المؤمنين بعضهم لبعض في المحبة والموالاة، والانتماء والنصرة.. وقدم من صفاتهم أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.. وهم أول من يمتثل لما يأمر ويجتنب عن ما ينهى مع ملازمتهم لطاعة الله ورسوله على الدوام وختم الآية بأن الله سيدخلهم جميعاً في رحمته ويشملهم بإحسانه فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣/ ١٠٠) بتصرف.

(٢) الصلاة في القرآن الكريم د. فهد الرومي (٤٤).

٦- وفي موضع آخر من سورة التوبة اقترن ذكر الجهاد مع صفة الإكثار من الصلاة في آيتين متتاليتين وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

ففي الآية الأولى يخبر الله أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم بالجنة على أن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه لإعلاء كلمته وإظهار دينه.

وفي الآية الثانية وصفهم بعدة صفات: من ملازمة التوبة، والعبودية لله بالاستمرار على طاعته، الحامدون له في السراء والضراء واليسر والعسر، السائحون بمعناها الواسع من كثرة الصيام، أو السياحة في طلب العلم، أو السفر في القربات كالحج والعمرة والجهاد وطلب العلم وصلة الأقارب.. ثم وصفهم بصفة الإكثار من الصلاة بقوله: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ ثم وصفهم بأنهم آمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر، مع حفظهم لجميع حدود ما أنزل الله على رسوله وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً[(١)].

ثامناً: التمسك بالكتاب وتلاوته:

قرن الله عز وجل بين التمسك بالكتاب وتلاوته مع إقامة الصلاة في ثلاث آيات في ثلاث سور مكية وهي:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

٣- وقوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إن من صفة العقلاء حقيقة أن يتمسكوا بالكتاب علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من

---

(١) يُنظر: تفسير البيضاوي (١/ ٤٢٣) وتيسير الكريم الرحمن (٣١٠) ويقارن.

الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم، ويعلمون ما فيه من الأوامر التي هي قرة العيون، وسرور القلوب وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.. ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً ولهذا خصها بالذكر لفضلها وشرفها وكونها ميزان الأعمال، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

وفي الآية الأولى وسياقها دلالة على وعيد المعرضين عن الكتاب ووعد من تمسك به تنبيهاً لنا وتحذيراً عن سلوك طريقتهم، وتدل على أن الاستغفار باللسان، وتمني المغفرة لا ينفع حتى يكون معها التوبة والعمل[1].

وفي تذييلها بقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ دلالة على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم[2].

وفي آية القراء من سورة فاطر كما يقول مطرف[3] رحمه الله دلالة على أن المداومة على قراءة كتاب الله تعالى بتدبر تعين على اتباعه والعمل به، ولهذا فسر بعضهم معنى ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾: يتبعونه فيعملون بما فيه، وكأنه جعل يتلو من تلاه إذا اتبعه، أو حمل التلاوة المعروفة على العمل لأنها ليس فيها كثير نفع دونه[4].

ومجيء هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] تأكيد على أن من خشية الله العلم والعمل بكتابه تعالى بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة في السر والعلن رجاء ثواب الله وطمعاً في رحمته وغفرانه.

وفي الآية الثالثة يأمر الله نبيه ﷺ بالمداومة على تلاوة ما أوحي إليه تقرباً إلى الله تعالى بتلاوته وتذكراً لما في تضاعيفه من المعاني، وتذكيراً للناس وحملاً لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق.. وأمره بالمداومة على إقامة الصلاة .. وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره ﷺ بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها علل بقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢١٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٧١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١٥٥٥).
(٤) يقارن مع روح المعاني (١١/ ٣٦٥).

وَٱلۡمُنكَرِۗ (١).

إن تلاوة الكتاب مرة بعد مرة للنفس أو للغير في كل زمان ومكان فوائد عظيمة يلتذ بها القلب ويرق لها ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع، وكذلك نفس القارئ يلتذ كثيراً بالكلمة الطيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت في القلب وأنفذ حتى يكاد يبكي من رقته دماً ولو أورثه البكاء عمى، ولهذا جاء اقتران الأمر بالتلاوة وإقامة الصلاة(٢).

تاسعاً: **طاعة الله والرسول ﷺ**:

إن طاعة الله ورسوله ﷺ حصن حصين من أخطار المعاصي والذنوب، وعلامة على صلاح العبد واستقامته، تثمر محبة الله ورضاه، وتورث هداية القلب والفوز بالجنة والنجاة من النار، بها تدفع النقم وتجلب النعم، وهي دليل اليقين وعلامة التصديق بالدين، وهي صمام أمن للبيوت وعمارة لها.

وقد جاءت مقترنة بإقامة الصلاة في ثلاث آيات مدنية:

١- أمر الله بها نساء نبيه ﷺ بعد أن نهاهن عن الشر وأمرهن بالخير من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. أمرهن بطاعة الله ورسوله فيما يأتين وما يذرن.. لأن هذه الطاعة يريد الله بها أن يذهب عنهن السوء والفحشاء ويطهرهن من دنس الفسق والفجور الذي يعلق بأرباب الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٢- وأمر الله أصحاب نبيه ﷺ بطاعة الله ورسوله بعد أن تاب عليهم وعفا عنهم من تقديم الصدقات عند مناجاة رسول الله ﷺ أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، أمرهم بالإخلاص في طاعة الله ورسوله وامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الشرع فقال تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

---

(١) يقارن مع روح المعاني (١٠/ ٣٦٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٠٢) بتصرف.

٣- وأثنى على المؤمنين والمؤمنات على المحبة والموالاة التي بينهم وحبهم لبعضهم بعضاً وأمرهم للمعروف ونهيهم عن المنكر فيما بينهم.. ثم أثنى عليهم بأنهم ملازمون لطاعة الله ورسوله على الدوام فقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١].

عاشراً: خشية الله والاستجابة له والاعتصام به:

إن خشية الله تورث الاستجابة له ومن ثم الاعتصام به سبحانه، وقد قرنت بالصلاة في خمس آيات، ثنتان منها مكية:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [فاطر: ١٨].

والمعنى: يخشون ربهم غائبين عن عذابه، أو يخشون عذابه غائباً عنهم، وقيل: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في السر، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من أصحابه، فكانت عادتهم المستمرة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها مناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً، يعني: إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون المتمردين وأهل العناد[(١)].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ٣٨].

نزلت في الأنصار، دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن أطاعوه، وأتموا الصلوات الخمس، وكانوا يتشاورون في أمورهم فلا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم في الأمور[(٢)].

إن الانقياد لطاعة الله وتلبية دعوته وقصد رضوانه تثمر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فلذلك عطفها عليها وقرنها بها.

٣- والإخبات لله، ووجل القلب عند ذكره من علامات الخشية وقد بشر المخبتين وأثنى عليهم وعلى صبرهم ومداومتهم على إقامة الصلاة والإنفاق من فضله فقال

---

(١) يقارن مع الكشاف (٨٨٤).
(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ٩٥٠).

تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

٤- ومن علامات عمار المساجد أنهم لا يخشون أحداً إلا الله، قصروا خشيتهم على ربهم فكفوا عن محارمه ولم يقصروا بحقوقه الواجبة وذلك بعد إيمانهم به وتوحيده وقيامهم بأمهات العبادات البدنية والمالية وهي الصلاة والزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

٥- وختم الله سورة الحج بقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] حيث دعاهم إلى الاعتصام بالله، وحقيقة الاعتصام: اجتماع المسلمين على الاستعانة بالله والوثوق به وعدم التفرق عنه، والاجتماع على التمسك بعهده على عباده، وهو الإيمان والطاعة، أو الكتاب والسنة(١) وهو مناسب لأول الآية لما فيها من أمر بالجهاد.

حادي عشر: الإنابة والتقوى:

الإنابة: إخراج القلب من ظلمات الشبهات، وقيل: الإنابة الرجوع من الكل إلى من له الكل، وقيل: الرجوع من الغفلة إلى الذكر، ومن الوحشة إلى الأنس.

وقال الكفوي: الإنابة الرجوع من كل شيء إلى الله تعالى.

وقال ابن القيم: الإنابة الإسراع إلى مرضاة الله مع الرجوع إليه في كل وقت، وإخلاص العمل له(٢).

والإنابة دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، ومن الأعمال التي يرزق بسببها العبد خشية الله، وطريق موصل إلى الجنة، والمنيب حسن الظن بربه سليم النية حسن الطوية.

والتقوى هي حفظ النفس عما يؤثم، وقيل: هي امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه بفعل كل مأمور به وترك كل منهي عنه حسب الطاقة.

قال الحليمي: حقيقة التقوى فعل المأمور به والمندوب إليه واجتناب المنهي عنه

---

(١) نضرة النعيم (٢/ ٤١٠) والكشاف (١٨٦).

(٢) نضرة النعيم (٣/ ٥٤٠) باختصار.

والمكروه والمنزه عنه، لأن المراد من التقوى وقاية العبد نفسه من النار.. ولا يقيها إلا بذلك[1].

وقد أحب الله المتقين، لهذا فهو معهم بالعون والنصر، يخرجهم من الهم والمحن، ويمدهم بالرزق الواسع في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة بعد النجاة من العذاب والعقوبة، وقد شهد الله بالصدق للمتقين ورفعهم على سائر خلقه وكفر ذنوبهم وأعظم أجرهم.

وقد قرن الله بين الإنابة والتقوى وإقامة الصلاة في آية واحدة فقال تعالى:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

وهذه الآية تفسير لإقامة الوجه للدين كما أمر الله في الآية قبلها.

فإن الإنابة إنابة القلب، وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى، ويلزم من ذلك عمل البدن بمقتضى ما في القلب فشمل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة فلذلك قال: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فهذا إعانتها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ فهذا حثها على الإنابة. وخص من المنهيات أصلها والذي لا يقبل معه عمل وهو الشرك فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لكون الشرك مضاداً للإنابة التي روحها الإخلاص من كل وجه[2].

وفي سورة أخرى جاء الأمر بالتقوى بعد الأمر بالصلاة في قوله تعالى:

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢] وكأن التقوى لا يستغني عنها المرء قبل الصلاة وبعد الصلاة.

ثاني عشر: فعل الخيرات:

قرن الأمر بفعل الخيرات مع الصلاة في وحي الله وأمره إلى أئمة الهدى من الرسل والأنبياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٠٨٠) بتصرف.
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٩٠).

ومن آكد الخيرات بعد الصلاة الإحسان إلى الوالدين، وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين، وبقية المحاويج.

ولهذا كان مما أخذ الله به العهد والميثاق على بني إسرائيل، وقرن وقدّم الأمر به قبل إقامة الصلاة فقال تعالى:

٢- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

٣- وكذا في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٤- ومثله في سجدة الحج الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧].

ومكارم الأخلاق من الدفع بالكلام الحسن، أو وصل من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم.. من فعل الخيرات التي حث عليها القرآن.. لذا قرنت مع الصلاة في:

٥- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

الباب الثالث

الصلاة فريضة الله على خلقه أجمعين

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: الصلاة فريضة إلهية على سائر الأنبياء والأمم.

الفصل الثاني: فرض الصلاة وتطور تشريعها على الرسول محمد ﷺ.

الفصل الثالث: جميع من في الكون في صلاة دائمة وعبادة مستمرة.

الفصل الأول
الصلاة فريضة إلهية على سائر الأنبياء والأمم

سبق وأن تكلمت في الفصل الأول من الباب الثاني وهو بعنوان "**أهمية الصلاة وعظم شأنها**" عن أهم مظاهر تعظيم القرآن لقدر الصلاة أنه التأكيد على فرضها على جميع الأنبياء والرسل السابقين، تكلمت عن ذلك بشكل مجمل وموجز، كما ذكرت أيضاً في الفصل الثالث من نفس الباب وهو بعنوان "**خصائص الصلاة**" أن أظهر خصائص الصلاة أنها دين الله الذي يدين به أهل السماوات والأرض، وأنها مفتاح شرائع الأنبياء، ولم يبعث نبي إلا بالصلاة.. وذكرت ثلاث آيات في ذلك.

وفي هذا الفصل سأتتبع جميع الآيات الدالة على أن الصلاة عبادة قديمة جداً لم تخل شريعة منها، وأن الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام دعوا أممهم لإقامتها بعد أن فرضها الله عليهم.

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها إلى قسمين: فمنهم من هدى الله، فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً، ومنهم من حقت عليه الضلالة فاتبع سبيل الغي.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] تأكيد وتقرير لهذه الحقيقة، فكل الرسل مع كتبهم خلاصة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة، والفطرة شاهدة بذلك، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد[(١)].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٧٠) وتفسير القرآن العظيم (١٢٣٥).

والصلاة أكبر العبادات وأظهرها وأعظمها، وهي الأساس الذي يقوم عليه الدين، وهي أم العبادات البدنية والقلبية.. ولا عبادة لمن لا صلاة له.. ولا هدى لمن لم يقم بها ويقيمها.

وقد أرشد الله عبده ورسوله، وصفيه وخليله، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى بناء بيت يصبح أول مسجد لعموم الناس يعبدون الله فيه.

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

٤- وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

٥- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

في الآية الأولى تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.. فالله عز وجل أرشد، وسلم، وأذن لإبراهيم عليه السلام في بنائه، واستدل بالآية كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: (يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: بيت المقدس، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة)[١].

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي ابنه على اسمي وحدي، وطهره من الشرك كما قال مجاهد وقتادة، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، والطواف أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ في الصلاة ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت[٢].

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب (واذكر عبدنا داود...)، رقم (٣٤٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٢٧٠) باختصار.

إن هذا البيت أنشئ من أجل عبادة الله الواحد، وخُصص للطائفين به، والقائمين لله فيه.. أنشئ لهم لا لمن يشركون بالله ويتوجهون بالعبادة إلى سواه.

وفي الآية الثانية تأكيد لعظمة البيت الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد المرسلين وإمامهم.. وفيه الحرم الذي من دخله كان آمناً قدراً، مُؤمَّناً شرعاً وديناً[(١)].

إن الإتجاه للكعبة هو الأصل، فهي أول بيت وضع في الأرض للعبادة، وخصص لها مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود وجعله مباركاً، وجعله هدى للعالمين، يجدون عنده الهدى بدين الله ملة إبراهيم.. فهذا البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة وجعل له هذه الكرامة، فهو بيت إبراهيم، والإسلام ملة إبراهيم، فبيته هو أولى بيت بأن يتجه إليه المسلمون وهو مثابة الأمان في الأرض، وفيه هدى للناس، بما أنه مثابة هذا الدين[(٢)].

وفي الآية الثالثة استهلال لفضيلة القبلة الإسلامية.. والمراد من الجعل في الآية إما الجعل التكويني لأن ذلك قدره الله وأوجد أسبابه فاستقر ذلك بين أهل الجاهلية، ويسرهم إلى تعظيمه، وإما الجعل أن أمر الله إبراهيم بذلك فأبلغه ابنه إسماعيل وبثه في ذريته فتلقاه أعقابهم تلقي الأمور المسلمة فدام ذلك الأمن في العصور والأجيال من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن أغنى الله عنه بما شرع من أحكام الأمن في الإسلام في كل مكان وتم مراد الله تعالى[(٣)].

ومقام إبراهيم يطلق على الكعبة، لأن إبراهيم كان يقوم عندها يعبد الله تعالى ويدعو إلى توحيده.. ويطلق على الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه الكعبة ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار، وهذا الحجر يعرف إلى اليوم بالمقام، وقد ركع النبي ﷺ في موضعه ركعتين بعد طواف القدوم فكان الركوع عنده من

(١) تيسير الكريم الرحمن (١١١).
(٢) في ظلال القرآن (١/ ٤٣٥) باختصار وتصرف.
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٧٠٧-٧١٢) باختصار وتصرف.

سنة الفراغ من الطواف.

والطائفون، والعاكفون، والراكعون، والساجدون هم أصناف المتعبدين في البيت من طواف واعتكاف، وصلاة وهم أصناف المتلبسين بتلك الصفات سواء انفردت بعض الطوائف ببعض هذه الصفات أو اجتمعت الصفات في طائفة أو طوائف، وذلك كله في الكعبة قبل وضع المسجد الحرام، وهؤلاء هم إسماعيل، وأبناؤه وأصهاره من جرهم وكل من آمن بدين الحنيفية من جيرانهم[(١)].

ثم إن إبراهيم عليه السلام دعا الله أن يجعل هذا البلد آمناً، فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدراً، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمته قدراً ما هو معلوم حتى إنه لم يرده ظالم بسوء علانية إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا لنفسه ولبنيه بالإيمان، بأن يجعله وإياهم جانباً بعيداً عن عبادة الأصنام والإلمام بها، قال تعالى:

٦- وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ

[إبراهيم: ٣٥].

ومن دعائه أيضاً في السورة نفسها ما جاء في قوله تعالى:

٧- رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

[إبراهيم: ٣٧].

أي: يا رب إني أسكنت بعض ذريتي وهم أولاد إسماعيل عليه السلام بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ وهو وادي مكة عند بيتك الذي حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ما حوله حرماً لمكانه.

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ أي إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ويعمروه بذكرك وعبادتك، واجعل قلوب بعض الناس تهوي إليهم، وارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك من أنواع الثمار بأن تجبى إليهم ذلك من شاسع الأقطار، وقد استجاب الله عز وجل ذلك كما جاء في قوله تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٠٧-٧١٢) باختصار وتصرف.

﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ أي رجاء أن يشكروا تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء واجبات العبودية، وفي الآية إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وتحصيل الطاعات، وفي دعائه عليه السلام مراعاة للأدب والمحافظة على الضراعة وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة، ومن ثم منَّ الله عليه بالقبول وإعطاء المسؤول، ولا بدع في ذلك فهو خليل الرحمن وأبو الأنبياء جميعاً[(١)].

ومن دعائه المبارك أيضاً وفي السورة نفسها ما جاء في قوله تعالى:

٨- ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وهذا دعاء منه عليه السلام في أمر كان مثابراً عليه متمسكاً به، وهو إقامة الصلاة، ومتى دعا الإنسان في مثل هذا فإنما المقصد إدامة ذلك الأمر والاستمرار عليه[(٢)].

و«من» في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ ابتدائية وليست للتبعيض لأن الخليل عليه السلام لا يسأل الله إلا أكمل ما يحبه لنفسه ولذريته، وقيل: إن «من» للتبعيض بناء على أن الله أعلمه بأن يكون من ذريته فريق يقيمون الصلاة وفريق لا يقيمونها، أي لا يؤمنون، وهذا وجه ضعيف لأنه يقتضي أن يكون الدعاء تحصيلاً لحاصل، وهو بعيد، وكيف وقد قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ ولم يقل: ومن بني.

ودعاؤه بتقبل دعائه ضراعة بعد ضراعة[(٣)].

ثم إن الله استجاب دعاءه عليه السلام فوهب له إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية ومن ذريته سيد الأولين والآخرين ﷺ، ووهب له أيضاً إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام الذي كانت منه أيضاً أمة عظيمة.. وكلاً من هذه الذرية جعلهم صالحين قائمين بحقوقه سبحانه، وحقوق عباده، ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا وكانوا

---

(١) تفسير المراغي (٥/ ١٦٠-١٦١) باختصار، ويُنظر: مفاتيح الغيب (٩/ ٣٦٠).

(٢) المحرر الوجيز (١٠٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٤) ويُنظر: الكشاف (٥٥٤).

بآيات الله يوقنون[1].

٩- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وفي قوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها، وأول ذلك أن يهتدي بنفسه، لأن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهتدي أميل[2].

«والآية ظاهرة في أنه كان في الأمم السالفة صلاة وزكاة، وهو مما تضافرت عليه النصوص إلا أنهما ليستا كالصلاة والزكاة المفروضتين على هذه الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية»[3].

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يشمل إقامة شرائع الدين بين الناس من العبادات والمعاملات.. ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أنه أوحى إليهم الأمر بذلك كما هو بين، وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام.. ثم خصهم بذكر مآل نوابه متميزين على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى كما دل عليه فعل الكون المفيد تمكن الوصف، ودلت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبة النبوة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] وقال تعالى في الثناء على إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣][4].

وسار إسماعيل عليه السلام على ملة أبيه إبراهيم عليه السلام فقد ذكره الله في القرآن وأمر رسوله محمداً ﷺ بذكره، ووصفه بصدق الوعد، فهو لا يعد وعداً إلا وفى به:

١٠- قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٧٦) بتصرف.

(٢) الكشاف (٦٨٣).

(٣) روح المعاني (٩/ ٦٩).

(٤) يُنظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١١٠) باختصار وتصرف.

لقد كان إسماعيل عليه السلام هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم عليه السلام. ووفاؤه بالوعد شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وفّى بذلك ومكّن أباه من الذبح الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة التي هي أكبر منن الله على عبده، وجعله من الطبقة العليا من الخلق.. وكان عليه السلام مقيماً لأمر الله على أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه، وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.. وبسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين فرضي الله عنه، ورضي هو عن ربه(١).

أما نسل إبراهيم عليه السلام من إسحاق عليه السلام، فقد أخذ الله عليهم الميثاق بإقامة الصلاة والمحافظة عليها بعد أن فرضها على أنبيائهم عليهم السلام:

١١- قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

بين الله في كلامه لموسى عليه السلام أن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإذا كان كذلك أنه الإله الحق ولا معبود سواه فيجب أن يخص بالعبادة والتذلل والانقياد.. وأول ذلك إقامة الصلاة على الوجه الذي أمر الله به مقومة الأركان مستوفاة الشرائط.. وذلك لتحقيق ذكر الله ودعائه دعاءً خالصاً لا يشوبه إشراك ولا توجه إلى سوى الله الواحد.

وقوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ الظاهر أنه متعلق بأقم: أي أقم الصلاة لتذكرني فيها لاشتمالها على الأذكار، وروي ذلك عن مجاهد، وقريب منه ما قيل أي: لتكون لي ذاكراً غير ناسٍ فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به، وفرق بينهما بأن المراد بالإقامة على الأول تعديل الأركان، وعلى الثاني: الإدامة وجعلت الصلاة في الأول مكاناً للذكر ومقره وعلته، وعلى الثاني جعلت إقامة الصلاة هي: إدامتها علة لإدامة الذكر كأنه قيل: أدم الصلاة لتستعين بها على استغراق فكرك

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٥) بتصرف.

وهمك في الذكر[١].

ولقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن لا يعبدوا إلا الله، وأن يقيموا الصلاة مع أمور أخرى، جاء ذلك في آيتين مدنيتين هما:

١٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

١٣- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢].

والميثاق الذي أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام[٢]، وقد يكون أخذ عليهم في التوراة[٣].

ولما كان الخطاب لبني إسرائيل فالمراد بالصلاة التي كانوا يصلونها، والزكاة التي كانوا يخرجونها[٤].

وأخذ الميثاق عليهم نوع آخر من النعم التي خصهم الله بها، وذلك لأن التكليف بهذه الأشياء الواردة في الآيات موصل إلى أعظم النعم وهو الجنة، والموصل إلى النعمة نعمة، فهذا التكليف لا محالة من النعم.. كما أن هذا الميثاق يدل على تمام ما لا بد منه في الدين، لأنه تعالى لما أمر بعبادته ونهى عن عبادة غيره.. وهذا الأمر لا شك أنه مسبوق بالعلم بذاته سبحانه وجميع ما يجب ويجوز ويستحيل عليه، وبالعلم بوحدانيته وبراءته عن الأنداد والأضداد والبراءة عن الصاحبة والأولاد ومسبوق أيضاً بالعلم بكيفية تلك العبادة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي والرسالة[٥].

وإظهار الاسم الجليل في الآيتين لتربية المهابة، وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب في نقضه مع ما فيه من رعاية الاستئناف المستدعي للانقطاع عما قبله[٦].

---

(١) روح المعاني (٨/ ٤٨٥).
(٢) المحرر الوجيز (١٠٦).
(٣) زاد المسير (٧٢) ويُنظر: روح المعاني (١/ ٣٠٧).
(٤) محاسن التأويل (١/ ٣٨١).
(٥) مفاتيح الغيب (٢/ ٢٢٥-٢٢٧) باختصار وتصرف.
(٦) روح المعاني (٣/ ٢٥٨).

إن ميثاق الله مع بني إسرائيل الذي أخذه عليهم في ظل الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه.. قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله، هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضاً، فتنكروا لها وأنكروها.. لقد تضمن ميثاق الله معهم ألا يعبدوا إلا الله.. القاعدة الأولى للتوحيد المطلق، وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى، واليتامى والمساكين، وتضمن خطاب الناس بالحسنى وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كذلك تضمن فريضة الصلاة، وفريضة الزكاة.. وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه.. ومن هنا تتقرر حقيقة وحدة دين الله، وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله[1].

ومن أنبياء بني إسرائيل الذين أقاموا الصلاة وجددوا الدعوة لها في بني إسرائيل داود وابنه سليمان وزكريا وعيسى عليهم السلام، ويدل على ذلك:

١٤- قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩﴾ [ص: ٢٤].

إن داود عليه السلام كان كثير القراءة والصلاة، فلما ابتلي في حادثة، فأرسل الله إليه ملكين فاختصما إليه في نازلة قد وقع هو في نحوها، ومن ثَمَّ شعر وعلم أنه هو المراد ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩﴾ أي رجع إلى رضا ربه بالاستغفار والصلاة.

قال الزمخشري: «.. ويجوز أن يكون استغفر الله لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة فيكون المعنى: وخر للسجود راكعاً أي مصلياً لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة»[2].

وقال الألوسي: «ومن فسر ﴿وَخَرَّۤ رَاكِعٗا﴾ بِخَرَّ للسجود مصلياً ذهب إلى أن ما وقع من داود عليه السلام صلاة مشتملة على السجود وكانت للاستغفار، وقد جاء في شريعتنا مشروعية صلاة ركعتين عند التوبة، لكن لم نقف في خبر على ما يشعر بحمل ما هنا على صلاة داود عليه السلام لذلك وإنما وقفنا على أنه سجد ﴿وَأَنَابَ۩﴾ أي رجع إلى الله تعالى بالتوبة»[3].

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٨٧) بتصرف.

(٢) الكشاف (٩٢٤).

(٣) روح المعاني (١٢/ ١٧٧).

وعلى كل حال فداود عليه السلام كان من المقيمي الصلاة والداعين إليها.

أما ابنه سليمان عليه السلام فكان محافظاً على الصلاة داعياً لها بكتبه ورسائله، فلما أخبره الهدهد أنه رأى قوماً يسجدون لغير الله، أرسل إليهم كتاباً يدعوهم إلى الإسلام وإخلاص العبادة لله تعالى[(١)].

وقد أثنى الله عليه بأنه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ لأنه اتصف بما يوجب المدح وهو أنه ﴿أَوَّابٌ﴾ أي رجّاع إلى الله في جميع أحواله بالتأله والإنابة والمحبة والذكر والدعاء والتضرع والاجتهاد في مرضاة الله وتقديمها على كل شيء.. ولهذا لما عرضت الخيل الجياد الصافنات وكان لها منظر رائق وجمال معجب.. فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب فألهته عن صلاة المساء وذكره.. فقال ندماً على ما مضى منه وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: آثرت حب الخير الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد به: الخيل، ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: غابت عن عينيه.. ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ فردوها ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها[(٢)].

١٥- قال تعالى عن ذلك: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٠-٣٣].

ومما يدل على مشروعية الصلاة في المسجد أو في موقف الإمام منه وهو «المحراب» في شريعة بني إسرائيل ما جاء في مناداة الملائكة لزكريا عليه السلام وهو قائم يصلي..

١٦- قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وعن ثابت قال: الصلاة خدمة الله في الأرض ولو علم الله شيئاً أفضل من الصلاة ما قال: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى﴾، وقال السدي: المحراب: المصلى[(٣)].

والسياق يرشح أن يكون المحراب في بيته عليه السلام، واتخاذ المحاريب في البيوت سنة قديمة.

---

(١) دل على ذلك الآيات الواردة في سورة النمل (٢٠-٣١).

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٦٥٨).

(٣) يُنظر: الدر المنثور (٣/ ٥٢٧).

قال الألوسي: «ثم اعلم أن الصلاة في المحاريب المشهورة الموجودة الآن في مساجد المسلمين قد كرهها جماعة من الأئمة، وإلى ذلك ذهب علي رضي الله عنه، وإبراهيم رحمه الله فيما أخرجه عنهما ابن أبي شيبة، وهي من البدع التي لم تكن في العصر الأول، فعن أبي موسى الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى)، وعن عبدالله بن أبي الجعد قال: كان أصحاب محمد ﷺ يقولون: (إن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المساجد)»[(١)].

وحديث أبي موسى الجهني ضعفه الألباني[(٢)].

قال الراغب: «ومحراب المسجد قيل: سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى، وقيل: سمي بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريباً من أشغال الدنيا ومن توزع الخواطر، وقيل: الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس، ثم لما اتخذت المساجد سمي صدره به، وقيل: بل المحراب أصله في المسجد، وهو اسم خص به صدر المجلس فسمي صدر البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد، وكأن هذا أصح، قال عز وجل: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ [سبأ: ١٣]»[(٣)].

ومريم عليها السلام، أمر الله الملائكة أن يخبروها باصطفاء الله لها واختيارها لكثرة عبادتها، وزهادتها، وشرفها، وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين.. ثم أمرها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدأب في العمل لها، لما يريد الله تعالى بها من الأمر الذي قضاه وقدره مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولداً من غير أب[(٤)].

١٧- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

قال البيضاوي: «أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها،

(١) روح المعاني (٢/ ١٤١).
(٢) يُنظر: السلسلة الضعيفة، رقم (٤٤٨) وقبله: الدر المنثور (٣/ ٥٢٨).
(٣) يُنظر: المفردات (٢٢٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣٦٥) باختصار وتصرف.

وقدم السجود على الركوع، إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن «اركعي» بالراكعين بأن من ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين.. وقيل: المراد بالقنوت: إدامة الطاعة.. وبالسجود: الصلاة، وبالركوع: الخشوع والإخبات»[(١)].

وابنها عيسى عليه السلام تكلم في المهد صبياً:

١٨- قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

خاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً أو ابناً للآلهة تعالى الله عن قول النصارى.. ثم قال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي قضى أن يؤتيني الكتاب، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فأخبرهم بأنه عبدالله، وأن الله علمه الكتاب وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان فالبركة جعلها الله فيَّ في تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

ثم قال: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة مدة حياتي، فأنا ممتثل لوصية ربي عامل عليها منفذ لها، وأوصاني أيضاً أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان وأقوم بما ينبغي لها لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.. ولم يجعلني متكبراً على الله مترفعاً على عباده.. ولم يجعلني شقياً في دنياي وأخراي بل جعلني مطيعاً له خاشعاً متذللاً متواضعاً لعباد الله سعيداً في الدنيا والآخرة أنا ومن اتبعن[(٢)].

ومن أنبياء العرب الذين دعوا قومهم إلى عبادة الله شعيب عليه الصلاة والسلام «فقد كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم «مدين» التي هي قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط،

---

(١) تفسير البيضاوي (١/ ١٦٤).

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٤٤١-٤٤٢).

وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل»[(١)].

١٩- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

وقد جرت سنة الأنبياء أن يبدءوا بالدعوة إلى التوحيد لأنه جذر شجرة الإيمان، ثم يتبعونه بالأهم فالأهم فيما يرون لدى أقوامهم، ولهذا ثنى بالنهي عن نقص الكيل والميزان لأن أهل مدين اعتادوا ذلك.. ثم دعاهم إلى إيفاء الكيل والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم وعدم الفساد في الأرض بتعطيل مصالح الدنيا وأمور الدين وأخلاق النفس وصفاتها، فردوا عليه:

٢٠- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

قالوا ذلك على وجه التهكم والاستبعاد لإجابتهم له.. أي: أصلاتك التي هي من نتاج الوسوسة وفعل المجانين تأمرك بأن نترك ما سار عليه آباؤنا جيلاً إثر جيل من عبادة الأوثان والأصنام، وإنما جعلوه مأموراً مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله وغيرها من الشرائع، لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه بل بوحي من ربه ويبلغهم أنه مأمور بذلك، وإسناد الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك حتى إنهم كانوا إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فكانت هي من بين الشعائر ضحكة لهم..

ثم أتبعوا ذلك بما يدل على السخرية والهزء فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي أنت ذو الجهالة والسفاهة في الرأي والغواية في الفعل بهوس الصلاة، لكنهم عكسوا القضية تهكماً واستهزاء كما يقال للبخيل: لو رآك حاتم لاقتدى بك في سخائك[(٢)].

وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم، وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه، إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (١/ ٢٤١).
(٢) تفسير المراغي (٤/ ٧٢، ٧٣) باختصار.

في أموالهم ما يشاءون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله أو سرقتها بالمكاييل، والموازين؟ وهو عليه السلام من له الحلم والوقار خلق، والرشد له سجية، فلا يصدر عنه إلا رشد، ولا يأمر إلا برشد، ولا ينهى إلا عن غي[1].

ومن المصلين الذاكرين الذين تعرفوا على الله في الرخاء فعرفهم في الشدة يونس بن متى عليه السلام.

٢١- قال تعالى عنه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وجمهور المفسرين على أن المعنى: أنه لولا ما تقدم منه قبل التقام الحوت له من العبادة والتسبيح والصلاة لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة، ولكنه كان كثير الصلاة في الرخاء فنجاه الله تعالى بذلك[2].

قال ابن جرير: «فلولا أنه كان من المصلين لله قبل البلاء الذي ابتلي به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت.. لبقي في بطنه إلى يوم القيامة يوم يبعث الله فيه خلقه محبوساً، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء فأنقذه ونجاه»[3].

وقد دعا إلى الصلاة أهل الفهم والعقل والحكمة من أتباع الأنبياء وأوصوا بها أبناءهم وطلابهم.. ومن أولئك لقمان رحمه الله تعالى.

٢٢- قال تعالى على لسانه في سياق وصيته لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

إنها الوصية الثالثة من لقمان لابنه حيث نهاه عن الشرك بالله ثم أوصاه بوالديه وخص الأم لما حملته وأرضعته.. ثم أمر بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ذلك.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٤٣) بتصرف بسيط.
(٢) زاد المسير (١١٩٧) وروح المعاني (١٢/ ١٣٨).
(٣) جامع البيان (٢٣/ ١٠٣).

ٱلرَّحۡمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

جاءت هذه الآية بعد ذكر جملة من الأنبياء المكرمين، وخواص المرسلين وذكر فضائلهم ومراتبهم.. ذكر أنه أنعم عليهم نعمة لا تلحق، ومنة لا تسبق.. فهي تشمل جميع من ذكرهم ومن لم يذكرهم، من ذرية آدم، وممن حمل مع نوح عليهما السلام، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل عليهما السلام.. فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم كانوا من المقيمي الصلاة، ومن الخاضعين لله والخاشعين له ولا سيما عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب، وصفات علام الغيوب والإخبار باليوم الآخر والوعد والوعيد.. ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩﴾ خضعوا لآيات الله وخشعوا لها وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم بالبكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه «الرحمن» دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة[1].

٢٤- وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

٢٥- وقوله تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

جاءت هذه الآيات من سورة الأعراف في سياق قصة آدم عليه السلام.. وقد جاء في هذه القصة أربع مرات النداء بـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، ويجوز أن يكون مما خاطب الله بني آدم في ابتداء عهدهم بعمران الأرض على لسان أبيهم أو بطريق من طرق الإعلام الإلهي، ولو بالإلهام، لما تنشأ به في نفوسهم هذه الحقائق، فابتدأ فأعلمهم بمنته عليهم أن أنزل لهم لباساً يواري سوآتهم ويتجملون به بمناسبة ما قضى الله عليهم من تعري أبويهم حين بدت لهما سوآتهما، ثم بتحذيرهم من كيد الشيطان وفتنته بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ثم بأن أمرهم بأخذ اللباس وهو زينة الإنسان عند مواضع العبادة لله تعالى

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٤٤٥).

بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[(١)].

أي استروا عوراتكم عند الصلاة كلها فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً، ويحتمل أن المراد بالزينة ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها.. وقال قبل ذلك: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

أي: توجهوا إلى الله واجتهدوا في تكميل العبادات خصوصاً الصلاة، أقيموها ظاهراً وباطناً ونقوها من كل نقص ومفسد[(٢)].

«وإقامة الوجوه تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى في مواضع عبادته، بحال المتهيء لمشاهدة أمر مهم حين يوجه وجهه إلى صوبه، لا يلتفت يمنة ولا يسرة فلذلك التوجه المحض يطلق عليه إقامة لأنه جعل الوجه قائماً، أي غير متغاض ولا متوان في التوجه.. والمعنى: إن الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد لأن ذلك هو تعظيم المعبود ومكان العبادة، ولم يأمر بتعظيمه ولا تعظيم مساجده بما سوى ذلك مثل التعري، وإشراك الله بغيره في العبادة مناف لها أيضاً.. فالنهي عن التعري مقصود هنا لشمول اللفظ إياه، ولدلالة السياق عليه بتكرير الامتنان والأمر باللباس: ابتداءً من قوله: ﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ إلى هذه الآية التي معنا..

ومعنى ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ عند كل مكان متخذ لعبادة الله تعالى، واسم المسجد منقول في الإسلام للمكان المعين المحدود المتخذ للصلاة..

وهذا الأمر وإن كان المقصود به المشركين لأنهم المتصفون بضده، فللمؤمنين من بني آدم منه حظ الدوام عليه، كما كان للمشركين حظ الإعراض عنه والتفريط فيه»[(٣)].

٢٦- وفي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٤٨].

جاءت هذه الآية وسط الآيات التي تتحدث عن القبلة وأحكامها، وقال جمهور المفسرين في معناها: إن لكل أهل دين وملة وجهة يتوجه إليها في عبادته.

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٧٢) باختصار.

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٢٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٨٧-٨٨) باختصار وتصرف.

قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكلٍ قبلة يرضونها، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة الموقنون للقبلة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي نحو هذا[(١)].

وفي هذا دليل على أن الأمم السابقة كانت تتوجه إلى قبلة في صلاتها.

(١) زاد المسير (٩٤) ومعالم التنزيل (٧٢) وتفسير البيضاوي (١/ ٩٩) وتفسير القرآن العظيم (٢٢٠) وغيرها.

الفصل الثاني
فرض الصلاة وتطور تشريعها على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين

مر تشريع الصلاة في الإسلام بمراحل كما هو العهد في بعض تشريعاته، وقد حاولت دراسة الآيات والسور حسب ترتيب نزولها على المشهور من أقوال أهل العلم فكانت نتيجة الدراسة كالتالي:

أولاً: وجوب قيام الليل على النبي ﷺ وتأسي المؤمنين به في ذلك:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ١-٧].

تعد هذه السورة ثالث سورة أنزلت من القرآن الكريم على النبي ﷺ بعد سورتيْ العلق، والقلم.

ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير، وقبل ذلك ما ثبت في السنة النبوية الشريفة أن الصلاة فرضت ليلة الإسراء عندما عرج بالنبي ﷺ وذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (ففرض الله على أمتي خمسين صلاة) إلى آخر الحديث[(١)].

والذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة، بعد البعثة، قبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين[(٢)].

وتذكر كتب السيرة «أن من أوائل ما نزل الأمر بالصلاة.. قال مقاتل بن سليمان: فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً، وكذلك أصحابه ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا؟ فقيل: إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»، وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد بن حارثة: (أن رسول الله

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٦٣).

(٢) يُنظر: سيد ولد آدم ﷺ لعبدالفتاح راوه (٨١) والرحيق المختوم للمباركفوري (١٥٥).

ﷺ في أول ما أوحي إليه أتاه جبريل فعلمه الوضوء، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه)، وقد روى ابن ماجه عن الزهري معناه، وروي نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس، وفي حديث ابن عباس: (وكان ذلك من أول الفريضة)[(١)].

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعلياً يصليان مرة فكلمهما في ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات، وكذا أسلم زيد بن حارثة رضي الله عنه وكان أول ذكر أسلم، وصلى بعد علي بن أبي طالب[(٢)].

وروى الإمام أحمد والدارقطني والحاكم مرفوعاً أنه عليه الصلاة والسلام قال: (أتاني جبريل في أول ما أوحى الله فعلمني الوضوء والصلاة)[(٣)].

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد، ثم فرض الله من قيام الليل ما ذكره في سورة المزمل، ثم نسخه بما في آخرها، ثم نسخه بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة»[(٤)].

وفي الآيات التي معنا من سورة المزمل ينادي فيها الله عبده ورسوله نداء تلطف وارتفاق، وذلك أنه إذا نودي المُنادى بوصف هيئته من لبسة أو جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته..

والمزمل: اسم فاعل من تزمل، إذا تلفف بثوبه كالمقرور أو مريد النوم.. وهذا التزمل الذي أشارت إليه الآية قال الزهري وجمهور المفسرين: إنه التزمل الذي جرى في قول النبي ﷺ: (زملوني زملوني) حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات [العلق: ١-٥]، كما في حديث عروة عن عائشة في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري[(٥)].

وقيل: هو تزمل للاستعداد للصلاة فنودي بذلك، وهذا مروي عن قتادة وغيره.

---

(١) يُنظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٧٩) ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي (٨٨) والرحيق المختوم (٨٧)، ويُنظر: سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في النضح بعد الوضوء (١/ ١٥٧).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٠).

(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٧٩) برقم (٧٦) وذكره في الأحاديث الصحيحة، رقم (٨٣٩).

(٤) يُنظر: سيد ولد آدم ﷺ (٦٣).

(٥) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣).

وقال عكرمة: معناه زملت هذا الأمر فقم به يريد أمر النبوة فيكون قوله تعالى: ﴿ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مع قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ تحريضاً على استفراغ جهده في القيام بأمر التبليغ في جميع الأزمان من ليل ونهار إلا قليلاً من الليل وهو ما يضطر إليه من الهجوع فيه..

وإذا كانت سورة المزمل قد أنزلت قبل سورة المدثر كان ذلك دالاً على أن الله تعالى بعد أن ابتدأ رسوله بالوحي بصدر سورة «اقرأ»، ثم أنزل عليه سورة القلم لدحض مقالة المشركين فيه التي دبرها الوليد بن المغيرة أن يقولوا: إنه مجنون، أنزل عليه التلطف به على تزمّله بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين فأمره الله أن يدفع ذلك عنه بقيام الليل..

ونداء النبي ﷺ بوصف «المزمل» باعتبار حالته وقت ندائه، وليس المزمل معدوداً من أسماء النبي ﷺ، قال السهيلي: ولم يعرف به، وذهب بعض الناس إلى عده من أسمائه[(١)].

وفي الآية تنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة[(٢)].

والدلائل تقوي أن قيام الليل كان حتماً وفرضاً، على النبي ﷺ وعلى أمته وذلك أن الندب والحض لا يقع على بعض الليل دون بعض، لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتٌ دون وقت، وجاء التوقيت عن عائشة رضي الله عنها كما في صحيح مسلم وغيره عن عائشة واللفظ لمسلم: قال سعد بن هشام بن عامر: (فانطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين: أنبئيني عن خلق النبي ﷺ، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق النبي ﷺ كان القرآن، فهممت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت، ثم قلت: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألست تقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام النبي ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٥-٢٥٨) باختصار وتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣١).

التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة)[١].

وعن ابن عباس: لما أنزل الله أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة.

وقال سعيد بن جبير: مكث النبي ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزل بعد عشر سنين: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ فخفف الله عنهم[٢].

«وقيام الليل لقب في اصطلاح القرآن والسنة للصلاة فيه، ما عدا صلاة المغرب والعشاء ورواتبهما. «ويرى بعض المفسرين أن الوجوب خاص بالرسول ﷺ لأن الخطاب موجه إليه وحده.. وأما قيام الليل للمسلمين فهم اقتدوا فيه بالرسول ﷺ».

«ولعل حكمة هذا القيام الذي فرض على الرسول ﷺ في صدر رسالته هو أن تزداد به سريرته زكاءً يقوي استعداده لتلقي الوحي حتى لا يخرجه الوحي كما ضغطه عند نزوله كما ورد في حديث البخاري: (فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾) الحديث[٣]، ويدل على هذه الحكمة قوله تعالى عقبه: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾.

وقد كان النبي ﷺ يتحنث في غار حراء قبيل بعثته بإلهام من الله تعالى فالذي ألهمه ذلك قبل أن يوحى إليه يجدر بأن يأمره به بعد أن أوحى إليه فلا يبقى فترة من الزمن غير متعبد لعبادة.. ولهذا كان الراجح أن قيام الليل فرض على النبي ﷺ وعلى أمته قبل فرض الصلوات الخمس.

وقد استمر وجوب قيام الليل على رسول الله ﷺ بعد فرض الصلوات الخمس تعظيماً لشأنه بكثرة الإقبال على مناجاة ربه في وقت فراغه من تبليغ الوحي وتدبير شؤون المسلمين، وهو وقت الليل كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] أي زيادة قرب لك».

والأمر متوجه إلى قيام نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لا حرج عليه في ذلك[٤].

ثم أمر ﷺ بترتيل القرآن يعني قراءته على تمهل وتَبيُّن لأنه يكون عوناً على فهم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم (٧٤٦) (١/ ٥١٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٨-٢٥٩) باختصار وتصرف.

القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة: (كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها)[(١)]، وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» يمد «بسم الله»، ويمد «الرحمن» ويمد «الرحيم»[(٢)].

والترتيل: جعل الشيء مرتلاً، أي: مفرقاً، وأصله من قولهم: ثغر مرتل، وهو المفلج الأسنان، أي المفرق بين أسنانه تفريقاً قليلاً، بحيث لا تكون النواجذ متلاصقة، وأريد بترتيل القرآن ترتيل قراءته، أي التمهل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحة مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع.. وفائدة هذا أن يرسخ حفظه ويتلقاه السامعون فيعلق بحوافظهم، ويتدبر قارئه وسامعه معانيه كي لا يسبق لفظ اللسان عمل الفهم، قال قائل لابن مسعود: قرأت المفصل في ليلة، فقال عبدالله: (هذًّا كهذِّ الشعر) لأنهم كانوا إذا أنشدوا القصيدة أسرعوا ليظهر ميزان بحرها، وتتعاقب قوافيها على الأسماع، والهذ: إسراع القطع[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

أي: سنوحي إليك، وعبر بالإلقاء عليه لقوله: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وهو القرآن العظيم فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ فإنه عليه الصلاة والسلام مأمور بتحملها وتحميلها للأمة.. وقد يكون ثقله أنه رصين لإحكام مبانيه ومتانة معانيه والمراد أنه راجح على ما عداه لفظاً ومعنى، لكن تجوز بالثقيل عن الراجح لأن الراجح من شأنه أن يكون كذلك، ومنه قولهم: كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف.

وقيل: معناه أنه ثقيل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر.

وقيل: ثقيل في الميزان لكثرة ثواب قارئه.

وقيل: يثقل عليه ﷺ والوحي به بواسطة الملك فإنه كان يوحى إليه عليه الصلاة والسلام على أنحاء منها: أن لا يتمثل له الملك ويخاطبه، بل يعرض له كالغشي لشدة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائماً وقاعداً... رقم (٧٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٩٢٩)، والحديث في صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مدة القراءة، رقم (٥٠٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٠) باختصار.

انجذاب روحه الشريفة للملأ الأعلى بحيث يسمع ما يوحى به إليه ويشاهده دون من معه، وفي هذه الحالة كان يحس في بدنه ثقلاً حتى كادت فخذه ﷺ أن ترض فخذ زيد بن ثابت وقد كانت عليها وهو يوحى إليه.

والتهجد يعد النفس لأن تعالج ثقله أياً كان[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِىَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾:

«تعليل لتخصيص زمن الليل بالقيام فيه.. والمعنى: أن في قيام الليل تزكية وتصفية لسرك وارتقاءً بك إلى المراقي الملكية.. والمقصود: الصلاة الناشئة في الليل فإن الصلاة تشتمل على أفعال وأقوال وهي قيام.. ووصف الصلاة بالناشئة لأنها أنشأها المصلي فنشأت بعد هدأة الليل فأشبهت السحابة التي تنشأ من الأفق بعد صحو، وإذا كانت الصلاة بعد نوم فمعنى النشء فيها أقوى، ولذلك فسرتها عائشة بالقيام بعد النوم، وفسرها ابن عباس بصلاة الليل كلها، وعن علي بن الحسين: أنها ما بين المغرب والعشاء، وإيثار لفظ «ناشئة» في هذه الآية دون غيره من نحو «قيام»، أو «تهجد» لأجل ما يحتمله من هذه المعاني ليأخذ الناس فيه بالاجتهاد.

«والوطء»: أصله وضع الرجل على الأرض، فهو مستعار لمعنى يناسب أن يكون شأناً للظلام بالليل.. فهو مستعار لتمكن المصلي من الصلاة في الليل بتفرغه لها وهدوء باله من الأشغال النهارية تمكن الواطئ على الأرض فهو أمكن للفعل، والمعنى: أشد وقعاً.. ويجوز أن يكون الوطء مستعاراً لحالة صلاة الليل وأثرها في المصلي، أي أشد أثر خير في نفسه وأرسخ خيراً وثواباً وبهذا فسره قتادة.

«والأقوم»: الأفضل في التقوى الذي هو عدم الاعوجاج والالتواء.

«وقيلا»: القول، وأريد به قراءة القرآن، والمعنى: أن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر، قال ابن عباس: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أدنى من أن يفقهوا القرآن، وقال قتادة: أحفظ للقراءة، وقال ابن زيد: أقوم قراءة لفراغه من الدنيا»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾:

(١) يُنظر: روح المعاني (١٥/ ١١٦) باختصار وتصرف، وزاد المسير (١٤٨٣) ويقارن.
(٢) يُنظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٢، ٢٦٣) وزاد المسير (١٤٨٣) باختصار.

أي تقلباً وتصرفاً في مهماتك واشتغالاً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فعليك بها في الليل.. وقيل: إن لك في النهار فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك، وقيل: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه.. وفيه تأكيد للاحتفاظ به بأنه إن فات لا بد من تداركه بالنهار ففيه متسع لذلك وفيه تلويح إلى معنى ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢].

وحاصل المعنى: قم الليل لأن قيامه أشد وقعاً وأرسخ قولاً، لأن النهار زمن فيه شغل عظيم لا يترك لك خلوة بنفسك، وشغل النبي ﷺ في النهار بالدعوة إلى الله، وإبلاغ القرآن وتعليم الدين ومحاجة المشركين، وافتقاد المؤمنين المستضعفين فعبر عن جميع ذلك بالسبح الطويل، وبين أن يكون تلطفاً واعتذاراً عن تكليفه بقيام الليل، وفيه إرشاد إلى أن النهار ظرف واسع لإيقاع ما عسى أن يكلفه قيام الليل من فتور بالنهار لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يصلي في النهار من أول البعثة قبل فرض الصلوات الخمس كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩-١٠].

وفي سورة الجن أن استماعهم القرآن كان في صلاة النبي ﷺ بأصحابه في نخلة في طريقهم إلى عكاظ، ويظهر أن يكون كل هذا مقصوداً لأنه مما تسمح به دلالة كلمة ﴿سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ وهي من بليغ الإيجاز[(١)].

ثانياً: نزول سورة «الصلاة»:

وهي سورة الفاتحة، وهذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منزلة ديباجة الخطبة أو الكتاب مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن، وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال، وهذه السورة مكية باتفاق الجمهور، وقال بعضهم: إنها أول سورة نزلت، واستدلوا بما روي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: (إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً فقد والله خشيت أن يكون أمراً)..وجاء في هذه الرواية أنه لما خلا ناداه: يا محمد قل: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: قل لا إله إلا الله[(٢)].

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٤) باختصار.

(٢) يُنظر: الدر المنثور (١/ ٧)، وعزا المحقق الرواية إلى ابن أبي شيبة (١٤/ ٢٩٢) والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٥٨) =

«والصحيح أنه نزل قبلها ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ و ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ وسورة المزمل وسورة المدثر، وعليه فهي السورة الخامسة نزولاً كما عدت في رواية جابر بن زيد.. وقال بعضهم: هي أول سورة نزلت كاملة أي غير منجمة»[(١)].

قال ابن عطية:«قال ابن عباس، وموسى بن جعفر عن أبيه، وعلي بن الحسين، وقتادة، وأبو العالية، ومحمد بن يحيى بن حبان: إنها مكية، ويؤيد هذا أن في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ الحجر مكية بإجماع، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة وما حفظ أنه كان قط في الإسلام صلاة بغير ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ »[(٢)].

ومن أشهر أسمائها «الصلاة» لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل) قال رسول الله ﷺ: (اقرءوا يقول العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيقول الله: حمدني عبدي، ويقول العبد: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيقول الله: أثنى عليَّ عبدي، ويقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيقول الله: مجدني عبدي، ويقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فيقول الله: هذا بيني وبين عبدي، أولها لي وآخرها لعبدي وله ما سأل، ويقول العبد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فيقول الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[(٣)].

قال ابن كثير: «وفي الحديث السابق أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك، كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس، وهكذا قال في هذا الحديث: (قسمت الصلاة..) ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظم القراءة في

= واللفظ له، والواحدي (١١، ١٢)، وعزاه ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٣) إلى أبي نعيم في الدلائل.

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٣٥) باختصار.

(٢) المحرر الوجيز (٣٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٥) (٣٨-٤١) ويُنظر: الدر المنثور (١/ ٢٦).

الصلاة، وأنها من أكبر أركانها.. كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] والمراد صلاة الفجر كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: (من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار) فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء..

وعليه فتتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وجمهور العلماء»[(١)].

قال البغوي: «سميت فاتحة الكتاب لأن الله افتتح بها القرآن وسميت أم القرآن، وأم الكتاب لأنها أصل القرآن، منها بدئ القرآن، وأم الشيء أصله، وقيل: لأنها مقدمة وإمام لما يتلوها من السور يبدأ بكتابتها في المصحف، وبقراءتها في الصلاة، والسبع المثاني لأنها سبع آيات باتفاق العلماء، ولأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة»[(٢)].

وأسماؤها كثيرة وفضائلها أكثر، وقد وردت أحاديث كثيرة جداً في فضلها وأحكامها وفوائدها ويطول الكلام بذكر شيء منها، يقول الرازي: «ويمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة»[(٣)]، ناهيك عما يمكن أن يستنبط بالفكر والتدبر.

إن هذه السورة الكريمة قد اشتملت -وهي سبع آيات- على حمد الله تعالى وتمجيده، والثناء عليه: بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له، وتوحيده بالألوهية، تبارك وتعالى وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم -وهو الدين القويم- وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥٧) باختصار وتصرف، ويُنظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٢٠-١٢٥) فقد أسهب في ذلك رحمه الله.

(٢) معالم التنزيل (٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١/ ٢٦).

والضالون[(١)].

إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي وكليات المشاعر والتوجهات ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها.. إن المسلم يردد هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع، سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على الحد الأدنى وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن، وإلى غير حد إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلاً غير الفرائض والسنن، ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة لما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ من حديث عبادة بن الصامت: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[(٢)].

وسورة الفاتحة مشتملة على مقاصد القرآن على سبيل الإجمال ثم فصل ما أجملته بعد وبيان هذا أن القرآن اشتمل على التوحيد، وعلى وعد من أخذ به بحسن المثوبة ووعيد من تجافى عنه وتركه بسيء العقوبة، وعلى العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس، وعلى سبيل السعادة الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة، وعلى القصص الحاوي أخبار المهتدين الذين وقفوا عند الحدود التي سنها الله لعباده، وفيها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، والضالين الذين تعدوا الحدود ونبذوا أحكام الشرائع وراءهم ظهرياً، وقد حوت الفاتحة هذه المعاني جملة:

١- فالتوحيد: يرشد إليه قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأنه يدل على أن كل ثناء وحمد يصدر عن نعمة فهو له، ولن يكون هذا إلا إذا كان عز اسمه مصدر النعم التي تستوجب الحمد، وأهمها نعمة الإيجاد والتربية، وذلك صريح قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقد استكمله بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وبذلك اجتث جذور الشرك التي كانت فاشية في جميع الأمم، وهي اتخاذ أولياء من دون الله يستعان بهم على قضاء الحاجات ويتقرب بهم إلى الله زلفى.

٢- والوعد والوعيد يتضمنها قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إذ الدين هو الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧٥).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٢١)، والحديث في صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها...، رقم (٧٥٦) (١/ ٢٤٧) وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٤).

٣- والعبادة تؤخذ من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٤- وطريق السعادة يدل عليه قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إذ معناه أنه لا تتم السعادة إلا بالسير على ذلك الصراط القويم فمن خالفه وانحرف عنه كان في شقاء مقيم.

٥- والقصص والأخبار يهدي إليها قوله: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو يرشد إلى أن هناك أمماً قد مضت وشرع الله شرائع لهديها فاتبعتها وسارت على نهجها، فعلينا أن نحذو حذوها ونسير على سننها.

٦- وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يدل على أن غير المنعم عليهم صنفان:

أ- صنف خرج عن الحق بعد علمه به، وأعرض عنه بعد أن استبان له، ورضي بما ورثه عن الآباء والأجداد وهؤلاء هم المغضوب عليهم.

ب- وصنف لم يعرف الحق أبداً أو عرفه على وجه مضطرب مهوش، فهو في عماية تلبس الحق بالباطل وتبعد عن الجادة الموصلة إلى الصراط السوي، وهؤلاء هم الضالون[(١)].

ثالثاً: نسخ استيعاب نصف الليل أو دونه بقليل على النبي ﷺ وعلى المؤمنين الذين تأسوا به وأقرهم على ذلك:

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ إلى آخر الآية [المزمل: ٢٠].

سبق وأن نقلت في «أولاً» ما صح عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وما روي عن ابن عباس رضي الله عنه وابن جبير أن هذه الآية فيها نسخ وتخفيف للوجوب الذي جاء في صدر السورة.. غير أن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: إن ذلك كان بعد سنة، أما ابن جبير فقال: إن التخفيف جاء بعد عشر سنين.. أي أن الآية مدنية، ويكون ذلك بعد الإسراء وفرض الصلوات الخمس.

وروى ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنت أجعل لرسول الله ﷺ

(١) تفسير المراغي (١/ ٢٣، ٢٤) ويُنظر محاسن التأويل (١/ ٢٥٩) فقد نقل عن الشيخ محمد عبده كلاماً طويلاً مشابهاً لهذا.

حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع به الناس فاجتمعوا، فخرج كالمغضب -وكان بهم رحيماً- فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فقال: يا أيها الناس: اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما دمتم عليه، ونزل القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الآية، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم، فردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل)[1].

وعلق ابن كثير رحمه الله على هذه الرواية بقوله: «ورواه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف، والحديث في الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة، وهذا السياق قد يوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة، وليس كذلك وإنما هي مكية، وقوله في هذا السياق أن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر غريب»[2].

وقال القاسمي: «وبمثل هذه الرواية يستدل على أن مراد السلف بقولهم: «ونزلت الآية» الاستشهاد بها في قضية تنطبق عليها»[3].

وصريح هذه الآية ينادي على أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل قبل نزولها، وأن طائفة من أصحابه كانوا يقومون عملاً بالأمر الذي في أول السورة.. فتعين أن هذه الآية نزلت للتخفيف عنهم جميعاً لقوله فيها: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ فهي ناسخة للأمر الذي في أول السورة، يقول ابن عاشور: «والمشهور الموثوق به أن صدر السورة نزل بمكة، ولا يغتر بما رواه الطبري عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن عائشة مما يوهم أن صدر السورة نزل بالمدينة ومثله ما روي عن النخعي من التزمل بمرط لعائشة»[4].

وقال ابن حجر: «ذهب بعضهم إلى أن صلاة الليل كانت مفروضة، ثم نسخت بقيام بعض الليل مطلقاً، ثم نسخ بالخمس، وأنكره المروزي، وذهب بعضهم إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة»[5].

ويؤكد السيوطي النسخ فيقول: «قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ هو منسوخ بعد

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٢٥)، ويُنظر: الدر المنثور (١٥/ ٣٦)، ويُنظر: صحيح البخاري، رقم (٥٨٦١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١٩٣١) ويُنظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٣).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٥٧) ويُنظر تعليق القرطبي على رواية عائشة في جامعه (١٠/ ٣٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٨، ٢٧٩).
(٥) فتح الباري (١/ ٤٦٥).

أن كان واجباً، بآخر السورة، وقيل: محكم، فاستدل به على ندب قيام الليل، واستدل به طائفة على وجوبه على الأمة أيضاً، ولكن ليس الليل كله بل صلاة ما فيه، وعليه الحسن وابن سيرين»[1].

ويعلق القاسمي على من قال إن الأمر محكم وإنه للندب بأنه يرى أن آخر السورة تعليم لهم الرفق بأنفسهم، لأنه تاب عليهم باليسر، ورفع عنهم الآصار، وفي ذلك ما يدل على حرصهم وعنايتهم بالمندوب حتى أفضى الحال إلى الرفق بهم، ويدل على حرصهم ما جاء في أثر عائشة رضي الله عنها من ربطهم الحبل للتعلق به استعانة على قراءة القرآن وكثرة تلاوته[2].

إن افتتاح الآية التي معنا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ يشعر بالثناء على النبي ﷺ لوفائه بحق القيام الذي أمر به، وأنه كان ينبسط إليه ويهتم به لم يقتصر على القدر المعين فيه النصف أو أنقص منه قليلاً أو زائد عليه بل أخذ بالأقصى، وذلك ما يقرب من ثلثي الليل كما هو شأن أولي العزم كما قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] أنه قضى أقصى الأجلين وهو العشر السنون[3].

وقد جاء في الحديث: (أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تورمت قدماه)[4]، ولم تزل تكثر بعد الهجرة أشغال النبي ﷺ بتدبير مصالح المسلمين، وحماية المدينة، وتجهيز الجيوش، ونحو ذلك، فلم تبق في نهاره من السعة ما كان له فيه أيام مقامه بمكة فظهرت حكمة الله في التخفيف عن رسوله ﷺ من قيام الليل الواجب منه والرغيبة.. وإيثار المضارع في قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾ للدلالة على استمرار ذلك العلم وتجدده إيذان بأنه بمحمل الرضى منه[5].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

أي: ولا يعلم مقادير الليل والنهار إلا الله، وأما أنتم فلن تستطيعوا ضبط

---

(١) يُنظر: الإكليل (٢/ ٢٧٦) ويُنظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٧، ٤٨) حيث ذكر أقوالاً أخرى مفصلة.

(٢) يُنظر: محاسن التأويل (٩/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم (٢٦٨٤).

(٤) يُنظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح، باب ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ...، رقم (٤٨٣٦) وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (٢٨١٩).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٠) باختصار.

الأوقات، ولا إحصاء الساعات فتاب عليكم بالترخيص في ترك القيام المقدر وعفا عنكم ورفع هذه المشقة.. قال مقاتل وغيره: لما نزلت: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ شق ذلك عليهم وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ فانتفخت أقدامهم، وامتقعت ألوانهم فرحمهم الله وخفف عنهم فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، تاب عليهم ورجع بهم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى يسر[(١)].

ثم إن الله طلب منهم أن يصلوا ما تيسر من الليل بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي: في صلاة الليل بلا تقدير، أو المراد: ولا تتجاوزوا ما قدره لكم رحمة بأنفسكم، كي لا يشق عليكم.. ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل، أو نعس فليسترح ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة[(٢)].

ثم ذكر تعالى في الآية أعذاراً أخرى تسوغ هذا التخفيف ونسخ تحديد الوقت في قيام الليل وهي مراعاة أحوال طرأت على المسلمين من ضروب ما تدعو إليه حالة الجماعة الإسلامية، وذكر من ذلك ثلاثة أضرب هي أصول الأعذار:

الأول: أعذار اختلال الصحة وقد شملها قوله تعالى: ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾.

الثاني: الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش في تجارة، وصناعة، وحراثة، وغير ذلك، وقد أشار إليها قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، وفضل الله هو الرزق.

الثالث: أعمال لمصالح الأمة، وأشار إليه بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، ويدخل في ذلك حراسة الثغور، والرباط بها، وتدبير الجيوش، وما يرجع إلى نشر دعوة الإسلام من إيفاد الوفود وبعث السفراء، وهذا كله من شؤون الأمة على الإجمال.

وإذا كانت هذه الآية مما نزل بمكة ففيها بشارة بأن أمر المسلمين صائر إلى استقلال ونصرة على أعدائهم فيقاتلون في سبيل الله.

قال ابن كثير: «هذه الآية، بل السورة كلها مكية، ولم يكن القتال شرع بعد فهي من

---

(١) تفسير المراغي (١٠/ ١٢٠) ويُنظر مفاتيح الغيب (٣٠/ ١٨٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٢٨) ويُنظر: محاسن التأويل (٩/ ٢٥٧).

أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة»[(١)].

هذا وإن كانت مدنية فهو عذر لهم بها ابتدأوا فيه من السرايا، والغزوات وأصحاب الأعذار هؤلاء لا يستطيعون القيام بالليل، فإذا لم يناموا في الليل تتوالى عليهم أسباب المشقة، ويظهر عليهم آثار الجهد وفي هذا إيماء إلى أنه لا فرق بين الجهاد في قتال العدو، والجهاد في التجارة لنفع المسلمين، وقد كان بعض الصحابة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة والسفر للتجر حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، يعني أن الله ما ذكر هذين السببين لنسخ تحديد القيام إلا تنويهاً بهما لأن في غيرهما من الأعذار ما هو أشبه بالمرض، ودقائق القرآن ولطائفه لا تنحصر[(٢)].

ثم قال تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ أي من القرآن من غير تحمل المشاق، ولا تحرجوا أنفسكم، لأنه تعالى يريد بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر، وهذا التكرار للأمر تأكيد له[(٣)].

ثم أمر العباد بعبادتين هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين.

ثم قال: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ والقرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيب، وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل، وقال عمر بن الخطاب: هو النفقة في سبيل الله[(٤)].

ومن القرض الحسن بذل المال في سبيل الخيرات على أحسن وجه، كأن يكون من أطيب المال، وإعطاؤه للمستحق من غير تأخير، واتقاء المن والأذى.

وسر الأمر «بالحسن» أن القرض لما كان يعطى بنية الأخذ، لا يبالي بأي شيء، وأي مقدار يعطى منه، فأشير إلى إيثار المقام الأرفع، ولكونه محقق الرجوع إليه دل التعبير به على تحقق العوض هنا[(٥)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٩٣٣).

(٢) يقارن بين تفسير المراغي (١٠/ ١٢١) والتحرير والتنوير (٢٩/ ٢٨٥، ٢٨٧) وبين ما ذكر هنا.

(٣) المحرر الوجيز (١٩١٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٥١).

(٥) محاسن التأويل (٩/ ٢٥٩).

ثم حث على عموم الخير وأفعاله فقال تعالى:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخير يقابله أضعاف، أضعاف الدنيا وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذات والشهوات.. وإن الخير والبر في الدنيا مادة الخير والبر في دار القرار أو بذره وأصله وأساسه.

وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص.. فأمر بتوقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته فإنه هالك[(١)].

إن هذه الآية لمسة الرحمة، والود والتيسير، والطمأنينة تجيء بعد زمن من الدعوة إلى القيام، ولقد خفف الله عن المسلمين فجعل قيام الليل لهم تطوعاً لا فريضة، أما رسول الله ﷺ فقد مضى على نهجه مع ربه لا يقل قيامه عن ثلث الليل يناجي ربه، في خلوة من الليل وهدأة، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة، وزاد الجهاد، على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه، فقد كان قلبه ﷺ دائماً مشغولاً بذكر الله متبتلاً لمولاه، وقد فرغ قلبه من كل شيء إلا من ربه، على ثقل ما يحمل على عاتقه وعلى مشقة ما يعاني من الأعباء الثقال ﷺ.

إن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها والاتصال بالله وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه، والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى، وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة، واستقبال إشعاعاته، وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهظ، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول ﷺ وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٢٨).

الطريق المنير[١].

رابعاً: نزول آيات في سور مكية فيها حث للرسول ﷺ على الصبر والصلاة والأمر بها:

وهي خمس آيات هي:-

١- قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

كان المشركون يعيبون النبي ﷺ ويلمزونه بأمور منها أنه إنما اتبعه الضعفاء ولم يتبعه السادة الكبراء، ولو كان ما جاء به الدين صحيحاً لكان أنصاره من ذوي الرأي والمكانة بين عشائرهم، ولهذا تخلف عن الإسلام سادتهم وكبراؤهم حسداً له ﷺ ولقومه الأدنين..، ومما كانوا يلمزونه به ﷺ أنهم لما رأوا أبناءه يموتون قالوا: انقطع ذكر محمد وصار أبتر، يحسبون ذلك عيباً فيلمزونه به ويحاولون تنفير الناس من اتباعه. وكان المشركون إذا رأوا شدة نزلت بالمؤمنين طاروا بها فرحاً وانتظروا أن تدول الدولة عليهم وتذهب ريحهم، فتعود إليهم مكانتهم التي زعزعها الدين الجديد.. فجاءت سورة الكوثر لتؤكد لرسوله ﷺ أن ما يرجف به المشركون وهمٌ لا حقيقة له ولتمحص نفوس الذين لم تصلب قناتهم ولترد كيد المشركين في نحورهم ولتعلمهم أن الرسول ﷺ منتصر لا محالة وأن أتباعه هم المفلحون[٢].

والمعنى القريب للسورة: أن الله يمتن على رسوله ﷺ بأنه أعطاه الخير الكثير من القرآن والحكمة والنبوة والدين الحق وما فيه سعادة الدارين، ويدخل في هذا الخير الكثير النهر الذي أعطيه النبي ﷺ في الجنة كما صحت به الأحاديث والآثار الكثيرة[٣].

ثم قال له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

أي اجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك، وما هو نسك لك لله أيضاً، فإنه هو الذي رباك وأسبغ عليك نعمه دون سواه كما قال تعالى آمراً له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وبعد أن بشر الله رسوله ﷺ بأعظم البشارة وطالبه بشكره على ذلك، وكان من تمام النعمة أن يصبح عدوه مقهوراً ذليلاً أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي إن

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٤٥، ٣٧٤٩) باختصار.

(٢) يُنظر: تفسير المراغي (١٠/ ٢٥٢) باختصار ويقارن مع محاسن التأويل (٩/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: جامع البيان (٣٠/ ٣٢١) وتفسير القرآن العظيم (٢٠٣٧-٢٠٣٩) وغيرهما.

مبغضك كائناً من كان هو المقطوع ذكره من خيريْ الدنيا والآخرة، وأما أنت فستبقى ذريتك ويبقى حسن صيتك، وآثار فضلك إلى يوم القيامة، لأنه ﷺ هو الكامل حقاً الذي له الكمال الممكن للمخلوق من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع(١).

٢- قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩-٤٠](٢).

يأمر الله النبي ﷺ بالصبر على ما يقوله المشركون من التكذيب بما أخبرهم به من البعث وبالرسالة، وقد جمع ذلك كله الموصول وهو ﴿مَا يَقُولُونَ﴾ وضمير ﴿يَقُولُونَ﴾ عائد إلى المشركين الذين هم المقصود من هذه المواعظ والنذر، ثم عطف عليها قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ ... ، ولعل وجه العطف أن المشركين كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ والمؤمنين إذا قاموا إلى الصلاة مثل قصة إلقاء عقبة بن أبي معيط سلا الجزور على ظهر النبي ﷺ حين سجد في المسجد الحرام في حجر الكعبة فأقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

وكذا قصة أبي جهل التي قال الله فيها: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [العلق: ٩-١٩].

فالمراد من التسبيح: الصلاة، وهو من أسماء الصلاة، قال ابن عطية: «سبح» معناه: صل بإجماع من المتأولين(٣).

والباء في ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ يرجح كون المراد بالتسبيح الصلاة لأن الصلاة تقرأ في كل ركعة منها «الفاتحة» وهي حمد لله تعالى فالباء للملابسة(٤).

يقول ابن كثير: «كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٨٦٥) وتفسير المراغي (١٠/ ٢٥٤).
(٢) وقريب منها الآية (١٣٠) من سورة طه.
(٣) المحرر الوجيز (١٧٥٨).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٧).

بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب»[1].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي: فصل له كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هو التسبيح بعد الصلاة، كما رواه مجاهد عن ابن عباس[2].

إن سورة «ق» فيها عرض لصفحات من كتاب الكون في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٦-٧] ..ثم بعدها بآيات عديدة جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨]، فأضاف هذه الحقيقة الجديدة إلى جانب اللمسة الأولى حقيقة ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾، وهي توحي بيسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل، فكيف بإحياء الموتى وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير؟ ثم عقب عليها كذلك بإيحاء جديد وظل جديد:

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

إن طلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذي يعقب الغروب كلها ظواهر مرتبطة بالسماوات والأرض وهو يربط إليها التسبيح والحمد والسجود، ويتحدث في ظلالها عن الصبر على ما يقولون من إنكار للبعث وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة، فإذا جو جديد.. جو الصبر والحمد والتسبيح والسجود، موصولاً كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود، تثور في الحس كلما نظر إلى السماوات والأرض، وكلما رأى مطلع الشمس، أو مقدم الليل، وكلما سجد لله في شروق أو غروب[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ

(١) تفسير القرآن العظيم (١٧٦١).
(٢) زاد المسير (١٣٤٥).
(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٦٧).

وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ [الأعراف: ٢٠٥-٢٠٦].

الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، وفي هذه الآيات التي ختم الله بها سورة الأعراف، وجاءت أول سجدة في القرآن.. يأمر الله عبده ورسوله محمداً ﷺ أصلاً، وغيره تبعاً بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصاً خالياً.. متضرعاً بلسانه مكرراً لأنواع الذكر، وخفية في قلبه بأن يكون خائفاً من الله وجل القلب منه، خوفاً أن يكون عمله غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ أي كن متوسطاً لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً.. وذلك أول النهار وآخره لأن هذين الوقتين فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خيريْ الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمن كل السعادة في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به، وهذا من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار خصوصاً طرفي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً متذللاً، ساكناً، متواطئاً عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار وإقبال على الدعاء والذكر، بإحضار قلب، وعدم غفلة فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عباداً مستجيبين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة ليعلم بني آدم أن الله لا يريد أن يستكثر بعبادتهم من قلة، ولا يتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفعهم وأن يربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملوا(١).

«ولما في الآية من التعريض شرع السجود عندها إرغاماً لمن أبى ممن عرض به.. وقد جاء الأمر بالسجدة لآية أمر فيها بالسجود امتثالاً للأمر، وحكي فيها استنكاف الكفار عنه مخالفة لهم، أو حكي فيها سجود نحو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأسياً بهم»(٢).

يقول ابن كثير في تفسيره لهاتين الآيتين: «يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٢٧٧).
(٢) روح المعاني (٥/ ١٤٤).

ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ [ق: ٣٩]، وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس وهذه الآية مكية.. وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا [الإسراء: ١١٠].. فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله، وسبوا من جاء به، فأمره تعالى ألا يجهر به لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يُسمعهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار، وكذا قال في هذه الآية الكريمة»(١).

إن العبادة والذكر عنصر أساسي في منهج هذا الدين، إنه ليس منهج معرفة نظرية، وجدل لاهوتي، إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشري، وللواقع البشري جذوره وركائزه في نفوس الناس وفي أوضاعهم سواء، وتغيير هذا الواقع الجاهلي إلى الواقع الرباني الذي يريده الله للناس وفق منهجه مسألة شاقة عسيرة تحتاج إلى جهد طويل، وإلى صبر عميق، وطاقة صاحب الدعوة محدودة، ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاد يستمده من ربه، إنه ليس العلم وحده، وليست المعرفة وحدها، إنما هي العبادة لله والاستمداد منه.. هي الزاد، وهي السند، وهي العون في الطريق الشاق الطويل(٢).

٤- وقوله تعالى في سورة الفرقان: وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا [الفرقان: ٦٤]:

حيث جاء هذا الوصف لعباد الرحمن من أوائل وأهم صفاتهم أنهم يكثرون من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم متذللين له، روي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا قال: هذا وصف نهارهم ثم إذا قرأ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا قال: هذا وصف ليلهم، والبيتوتة أن يدركك الليل نمت أو لم تنم، لِرَبِّهِمْ متعلق بما بعده وقدم للفاصلة والتخصيص، والقيام جمع قائم.. والمعنى: أي يبيتون لربهم ساجدين وقائمين لربهم سبحانه، أي يحيون الليل كلاً أو بعضاً بالصلاة.. وقيل: من قرأ شيئاً من القرآن بالليل في صلاة فقد بات ساجداً وقائماً.. وقيل: من شفع وأوتر بعد أن صلى العشاء فقد دخل في عموم الآية.

وبالجملة: في الآية حض على قيام الليل في الصلاة، وقدم السجود على القيام ولم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨١٥).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٨).

يعكس وإن كان متأخراً في الفعل لأجل الفواصل ولأنه أقرب ما يكون العبد من ربه سبحانه[1].

إن قيام الليل وسيلة لتغذية الروح.. وأكثر القرآن من الحث عليه، والترغيب فيه، ومدح أصحابه حتى كأنه ملحق بالفرائض وتابع لها، ولذلك سمي نافلة، وكان رسول الله ﷺ لا يتركه في حضر، وسفر، وإن المتتبع لأخبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم، والذي يطالع دواوين الحديث، وكتب السيرة والتاريخ يظهر له أن قيام الليل كان متفشياً منتشراً فيهم حتى أصبح شعاراً لهم، وقد وصفوا أمام «هرقل» وقادته بأنهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان.. ويصفهم الحسن البصري بقوله:

«إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدقوا بها، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوماً كأنهم رأي عين، ما كانوا بأهل جدل ولا باطل، ولكنهم جاءهم أمر عن الله فصدقوا به، فنعتهم الله في القرآن أحسن نعت قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ ..إلى أن يقول: ثم ذكر ليلهم خير ليل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ ينتصبون لله على أقدامهم ويفترشون وجوههم سجداً لربهم، تجري دموعهم على خدودهم فرقاً من ربهم»[2].

٥- ثم قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

يأمر الله نبيه ﷺ بأن يأمر أهل بيته والتابعين له بإقامة الصلاة لتجذب قلوبهم إلى خشية الله مع اصطباره هو على أدائها، لترسخ بالصبر عليها ملكة الثبات على العبادة والخشوع والمراقبة التي ينتج عنها كل خير.. ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته، ولا يعود على الآمر بها نفع ما، لتعاليه وتنزهه سبحانه بقوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ أي: لا نسألك مالاً، بل نكلفك عملاً ببدنك نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً.. ومعنى ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ أي نحن نعطيك المال ونكسبك ولا

---

(١) روح المعاني (١٠/ ٤٤) باختصار.

(٢) الأركان الأربعة لأبي الحسن الندوي (٨١، ٨٢) باختصار.

نسألكه[(١)].

والمعنى: أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة، ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

ولا تدل الآية بمنطوقها ولا مفهومها على القعود عن الكسب، وليس فيها مستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعي المأمور به، وقد قال تعالى في وصف المتقين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين.. وكذا ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي والعاقبة الحسنة من عمل كل عامل لأهل التقوى والخشية من الله، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً[(٢)].

إن أول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم، وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله، فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة، و ما أروح الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله.. مع اصطباره على إقامتها كاملة، وعلى تحقيق آثارها، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذه هي آثارها الصحيحة، وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك[(٣)].

خامساً: فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

أسري برسول الله ﷺ بجسده وروحه يقظة على الصحيح من المسجد الحرام صحبة جبريل عليه السلام راكباً على البراق، فنزل بيت المقدس وربط البراق عند باب المسجد، ودخله فصلى في قبلته ركعتين[(٤)]، ثم عرج تلك الليلة من بيت المقدس إلى

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٣٦) ويُنظر: تفسير المراغي (٦/ ١٦٧).
(٢) محاسن التأويل (٧/ ١٧٦) باختصار وتصرف ويقارن مع مفاتيح الغيب (١١/ ٧٤).
(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٥٧) باختصار وتصرف.
(٤) تفسير القرآن العظيم (١١٠٢).

السماوات واحدة بعد واحدة فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى وإبراهيم ثم جاوز منزلتيهما حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، ورأى البيت المعمور، وغير ذلك من آيات الله الكبرى، وأدناه الجبار، وقربه وكلمه، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة ثم خففها إلى خمس رحمة منه تعالى ولطفاً بعباده، وصلى بالأنبياء جماعة ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس من ليلته[(١)].

واختلف في تحديد زمنه على أقوال شتى:

١- فقيل: كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة، اختاره الطبري.

٢- وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووي والقرطبي.

٣- وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة عشر من النبوة.

٤- وقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهراً أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة.

٥- وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة.

٦- وقيل: قبل الهجرة بسنة أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

ورُدت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء.

أما الأقوال الثلاثة الباقية فهي متقاربة ولا يوجد شيء يرجح واحداً منها غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً[(٢)].

إن آية الإسراء صريحة في ثبوت الإسراء بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس ليلاً، والمعراج ثابت بصحيح السنة، وقد روى ابن كثير وغيره من المفسرين أحاديث الإسراء والمعراج بطولها وتعدد طرقها ورواياتها وأنها تواترت عن أنس بن مالك، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبدالرحمن بن قرط،

(١) سيد ولد آدم (٨١-٨٧) باختصار وتصرف.

(٢) يُنظر: زاد المعاد (٢/ ١٣٠) ومختصر سيرة الرسول (١٤٨، ١٤٩) ويقارن مع الرحيق المختوم (١٥٥).

وأبي حية، وأبي ليلى الأنصاريين، وعبدالله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين.. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، وحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض عليه الزنادقة الملحدون(١).

وسأثبت هنا طرفاً لحديث الإسراء والمعراج مما رواه البخاري في كتاب الصلاة: «.. قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ: ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعني فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعته فقال: هي خمس، وهي خمسون، لا يبدل القول لديَّ، فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك، فقلت: استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»(٢).

إن في ذكر معجزة الإسراء في هذه الآية وافتتاح السورة بها رمزاً إلهياً إلى أن الله أعطى محمداً ﷺ من الفضائل أفضل مما أعطى من قبله، وأنه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت، فمن أجل ذلك أحله بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تأريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام في أن أصل تأسيسه في عهد إبراهيم.. فأحل الله به محمداً ﷺ بعد أن هجر وخرب إيماءً إلى أن أمته تجدد مجده.. وأن الله مكنه من حرمي النبوة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معموراً حين نزول هذه السورة وإنما عمرت كنائس حوله، وأن بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى،

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٠٨٣-١١٠٤) ساق فيه مجموع الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها وكذا الدر المنثور (٩/ ١٣٨-٢٤٤) فقد استوعب جميع ما روي في الإسراء والمعراج.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء عن أنس بن مالك عن أبي ذر، رقم (٣٤٩).

فكان إفسادهم سبباً في تسلط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى، وفي ذلك رمز إلى أن إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته[(١)].

والافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمن ما يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأن خبراً عجيباً يستقبله السامعون دالاً على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه.. ولما كان هذا الكلام من جانب الله تعالى، والتسبيح صادراً منه كان المعنى تعجيب السامعين.. والأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى، ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلاً للشك في قدرة الله وللإشراك به كان من شأنه أن ينطق المتأمل بتسبيح الله تعالى، أي تنزيهه عن العجز.

والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى، ويفيد أن حديث الإسراء أمر فشا بين القوم فقد آمن به المسلمون وأكبره المشركون.

وفي ذلك إدماج لرفعة قدر محمد ﷺ وإثبات أنه رسول من الله، وأنه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قبل لهم بإنكاره، فقد كان إسراؤه إطلاعاً له على غائب من الأرض وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام[(٢)].

والإسراء: سير الليل، يقال: سريت مسرى وسُرى، وأسريت إسراء[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ قال العلماء: لو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية.. وذلك لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسم العبودية، تواضعاً للإلهية[(٤)].

وفي ذكر صفة العبودية هنا لتقريرها وتوكيدها في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التي لم يبلغها بشر، وذلك كي لا تُنسى هذه الصفة، ولا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية كما التبسا في العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام، بسبب ما لابس مولده ووفاته وبسبب الآيات التي أعطيت له؛ فاتخذها بعضهم سبباً للخلط بين مقام

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٧، ٨) باختصار وتصرف.
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٩، ١١) باختصار.
(٣) الصحاح (٦/ ٢٣٧٦).
(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٩٢).

العبودية ومقام الألوهية.. وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة من قريب أو من بعيد[(١)].

«وإنما أسري به ﷺ ليلاً لمزيد الاحتفال به فإن الليل وقت الخلوة والاختصاص ومجالسة الملوك ولا يكاد يدعو الملك لحضرته ليلاً إلا من هو خاص عنده، وقد أكرم الله تعالى فيه قوماً من أنبيائه عليهم السلام بأنواع الكرامات، وهو كالأصل للنهار، والاهتداء فيه للمقصد أبلغ من الاهتداء في النهار، وقالوا: إن المسافر يقطع في الليل ما لا يقطع في النهار.. وأيضاً أسري به ليلاً ليكون ما يعرج إليه من عالم النور المحض أبعد عن الشبه بما يعرج منه من عالم الظلمة، وذلك أبلغ في الإعجاب»[(٢)].

وليس هناك محلٌ لذلك الجدل الطويل الذي ثار قديماً، والذي يثور حديثاً حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة الرسول ﷺ -والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم، وبين أن تكون رؤيا في المنام أو رؤية في اليقظة.. المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة، ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئاً، وكونها كشفاً وتجلية للرسول ﷺ- عن أمكنة بعيدة، وعوالم بعيدة في لحظة خاطفة قصيرة.

والذين يدركون شيئاً من طبيعة القدرة الإلهية، ومن طبيعة النبوة لا يستغربون من الواقعة شيئاً، فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة، حسب ما اعتاده، وما رآه، والمعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله.

أما طبيعة النبوة فهي اتصال بالملأ الأعلى -على غير قياس أو عادة لبقية البشر- وهذه التجلية لمكان بعيد، أو عالم بعيد، والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى والتلقي عنه، وقد صدق أبو بكر رضي الله عنه وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول: إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء[(٣)].

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١١).
(٢) روح المعاني (٨/ ١٢).
(٣) جاء هذا في رواية أم هانئ لقصة الإسراء. يُنظر: الدر المنثور (٩/ ١٨٩) ويُنظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٩٩).

تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلى محمد خاتم النبيين ﷺ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى.

ووصف المسجد الأقصى بأنه ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ وصف يرسم البركة حافةً بالمسجد، فائضة عليه، وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل: باركناه، أو باركنا فيه وذلك من دقائق التعبير القرآني العجيب.

والإسراء آية صاحبتها آيات: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش الرسول ﷺ أياً كانت صورتها وكيفيتها آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري والاستعدادات اللدنية التي يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة في أشخاص المختارين من هذا الجنس الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة.. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ ..يسمع ويرى كل ما لطف ودق، وخفي على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار.

والسياق ينتقل في آية الإسراء من صيغة التسبيح لله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا﴾ إلى صيغة التقرير من الله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ إلى صيغة الوصف لله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ وفقاً لدقائق الدلالات التعبيرية بميزان دقيق حساس، فالتسبيح يرتفع موجهاً إلى ذات الله سبحانه، وتقرير القصد من الإسراء يجيء منه تعالى نصاً، والوصف بالسمع والبصر يجيء في صورة الخبر الثابت لذاته الإلهية، وتجتمع هذه الصيغ المختلفة في الآية الواحدة لتؤدي دلالاتها بدقة كاملة[(١)].

إن الصلوات الخمس التي فرضت في ليلة الإسراء فرضت ركعتين ركعتين، ثم زيد

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٠-٢٢١٢) باختصار وتصرف، ويُنظر: التحرير والتنوير (١٥/ ١٥).

في صلاة الحضر بعد الهجرة فأكملت أربعاً للمقيم وأقرت صلاة المسافر وتركت صلاة الفجر لطول القراءة، والمغرب لأنها وتر النهار(١).

روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين قالت: (فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر)(٢).

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن الله فرض الصلاة على لسان نبيكم ﷺ على المسافر ركعتين وعلى المقيم أربعاً، وفي الخوف ركعة)(٣).

قال ابن حجر بعد أن ذكر من قال: إن حديث عائشة أم المؤمنين معارض بحديث ابن عباس وبأمور أخرى: «والذي يظهر لي -وبه تجتمع الأدلة السابقة- أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت بعد الهجرة إلا الصبح، كما روى البيهقي من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: (فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتين ركعتين، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة واطمأن زِيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة وصلاة المغرب لأنها وتر النهار)(٤)، ثم بعد أن استقر فرض الرباعية، خفف منها في السفر عند نزول قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١]، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير في شرح المسند أن قصر الصلاة كان في السنة الرابعة من الهجرة، وهو مأخوذ مما ذكره غيره أن نزول آية الخوف كان فيها، وقيل: كان قصر الصلاة في ربيع الآخر من السنة الثانية، ذكره الدولابي، وأورده السهيلي بلفظ: «بعد الهجرة بعام أو نحوه»، وقيل: بعد الهجرة بأربعين يوماً، فعلى هذا المراد بقول عائشة: (فأقرت صلاة السفر) أي باعتبار ما آل إليه الأمر من التخفيف»(٥).

وقال القرطبي: «وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت، فلا خلاف بين أهل

---

(١) سيد ولد آدم (٨٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، رقم (٣٥٠) وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، برقم (٦٨٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٥، ٦٨٧).

(٤) سنن البيهقي (٣/ ١٤٥) ومسند أحمد (٤٣/ ١١٧-١٦٧) وقال محققو المسند: إسناده ضعيف. يُنظر: الدر المنثور (٤/ ٦٥٨).

(٥) فتح الباري (١/ ٤٦٤-٤٦٥).

العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج به إلى السماء وذلك منصوص في الصحيح وغيره، وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت، فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين..، وعن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين.. ثم قال: ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلم النبي ﷺ الصلاة ومواقيتها.. وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملاً ونقلاً مستفيضاً، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٥٢٢).

الفصل الثالث
جميع من في الكون في صلاة دائمة وعبادة مستمرة

سبق وأن ذكرت في الفصل الثاني من الباب الأول وهو بعنوان **وجوه ونظائر الصلاة في القرآن الكريم**: «الوجه العشرون» أنه أطلق لفظ الصلاة في القرآن بمعنى صلاة جميع المخلوقات، وتكلمت باختصار عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

كما تكلمت في الفصل الثاني من الباب الثاني وهو بعنوان **الحكمة من الصلاة وفضائلها** وذكرت أن من فضائلها أنها عبادة تشترك فيها جميع المخلوقات لله رب العالمين، وتكلمت عن الآيات الواردة في ذلك ولكن باختصار شديد جداً ووعدت ببسط الكلام في هذا الفصل.

وإنه لمن المتعذر حصر الآيات الدالة على عبادة جميع من في الكون لله تعالى وتفسيرها لأنه يدخل فيها آيات الحمد، والركوع، والسجود، والقنوت، والتسبيح، والتسخير، والعبادة والذكر عامة غير أني سأتكلم عن سبع آيات لها علاقة قوية بموضوع الصلاة، وهذه الآيات ثلاث منها مكية، وأربع مدنية على الصحيح.

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

تثبت الآية أن الملائكة لا يتكبرون ولا ينقطعون عن طاعة الله والصلاة له والخضوع وتنزيهه عن السوء بقول: سبحان الله، والإكثار من السجود له، ويروى أن سبب نزول الآية أن كفار مكة قالوا: أنسجد لما تأمرنا؟ فنزلت هذه الآية تخبر أن الملائكة وهم أكبر شأناً لا يتكبرون عن عبادة الله[(١)].

«وقد تضمنت الآية الإخبار عن الملائكة بثلاثة أخبار:

أولها: عدم الاستكبار الذي هو أجل أنواع العبادة إذ هو الحامل على الطاعة كما أن ضده حامل على المعصية.

---
(١) زاد المسير (٥٣٨).

ثانيها: التسبيح الذي هو التنزيه عن كل ما لا يليق.

ثالثها: تخصيصه سبحانه بالسجود.

ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار وكانت على قسمين قلبية وجسمانية، أشار إلى القلبية بالتنزيه وإلى الجسمانية بالسجود وهو الحال الذي يكون العبد به عند ربه كالملائكة قرباً وزلفى»[(١)].

وجاءت هذه الآية بعد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال لئلا يكونوا من الغافلين.. فمدح الله الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون.. وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله.. وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعيها السجود بالإجماع[(٢)].

وفي هذه الآية يضرب الله مثلاً بالذين عنده من الملائكة المقربين الذين لا ينزغ في أنفسهم شيطان، فليس له في تركيب طبيعتهم مكان، ولا تستبد بهم نزوة، ولا تغلبهم شهوة، ومع هذا فهم دائبون على تسبيح الله وذكره لا يستكبرون عن عبادته ولا يقصرون، ولَلإنسان أحوج منهم إلى الذكر والعبادة والتسبيح، وطريقه شاق وطبيعته قابلة لنزغ الشيطان، وقابلة للغفلة المردية، وجهده محدود، لولا هذا الزاد في الطريق الكؤود[(٣)].

إن السجود جزء من الصلاة، والملائكة لهم صلاة كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦] يعني المصلون[(٤)].

٢- قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

جاءت هذه الآية في سياق تنزيه الله عز وجل عن أن يكون معه آلهة كما يفتري المشركون، فهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد.. وأنه لو كان معه آلهة تعبد لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون لديه الوسيلة.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٢١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨١٥) باختصار.

(٣) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٨).

(٤) زاد المسير (١١٩٩).

جاءت هذه الآية لتبين عظمة ملك الله وكبير سلطانه:

فالسماوات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات، من ناطق وجامد، تنزهه وتعظمه عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وألوهيته، كما قال القائل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والمكلف العاقل يسبح ربه إما بالقول كقوله: سبحان الله، وإما بدلالة أحواله على توحيده وتقديسه، وغير العاقل يسبح بالطريق الثاني، فهي تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وتنزهه عن الحدوث سبحانه[1].

قال ابن عطية في معنى الآية: ينزهه عن هذه المقالة التي لكم، والإشراك الذي أنتم بسبيله السماوات السبع والأرض، ثم أعاد على السماوات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح، وقوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي ينزه الله ويمجده.

واختلف أهل العلم في هذا التسبيح:

فقالت فرقة: هو تجوز، ومعناه أن كل شيء تبدو فيه صنعة الصانع الدالة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر.

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ لفظ عموم، ومعناه الخصوص في كل حي ونامٍ، وليس ذلك في الجمادات البحتة، فمن ذلك قول عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوان لا تسبح.

وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهونه، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه[2].

وهذا هو الصحيح ويستدل له من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٧-١٨].

(١) تفسير المراغي (٥/٥١) بتصرف.

(٢) المحرر الوجيز (١١٤٦) باختصار، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (١١١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠].

وبقوله ﷺ: (لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)[1].

وثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)[2].

وفي صحيح مسلم، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن)[3].

وقال القرطبي بعد أن ساق أخباراً وآثاراً عن الصحابة وغيرهم: «والأخبار في هذا المعنى كثيرة.. وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيء من ذلك، فكل شيء يسبح للعموم، وكذا قال النخعي وغيره: هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب.. فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأي تخصيص لداود عليه السلام، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح.. وقد نصت السنة على مادل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء، فالقول به أولى والله أعلم»[4].

ويقول صاحب الظلال رحمه الله: «ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهداً فريداً تحت عرش الله ، يتوجه كله إلى الله، يسبح له ويجد الوسيلة إليه.. وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الكون كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال.

وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر ، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء.. ومعها سكان السماء..

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء عن أبي سعيد الخدري، رقم (٦٠٩) (١٣٤).
(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٩).
(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم (٢٢٧٧) (٤/ ١٧٨٢).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٦٠٠-٦٠١) باختصار، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (١١١٩).

كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه.

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً، وكلما همت رجله أن تطأ شيئاً.. سمعه يسبح لله، وينبض بالحياة ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ يسبح بطريقته ولغته ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين، ولأنكم لم تتسمعوا بقلوبكم، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير وتتوجه بها إلى خالق النواميس، ومدبر هذا الكون الكبير.

وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح، ويتوجه بالتسبيح فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود، النابضة في كل متحرك وساكن، وفي كل شيء في هذا الوجود.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وذكر الحلم والغفران هنا بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب المسبح بحمد الله، بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب له البنات، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه، والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر، ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾»[(١)].

٣- وفي سورة النحل جاء التعبير عن صلاة ما في الكون بالسجود فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٤٨-٥٠].

حيث يخبر الله عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشياً، فإنه ساجد بظله لله تعالى، قال مجاهد وغيره: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل وهم صاغرون.. وسجود كل شيء فيه، فالجبال سجودها فيها، وأمواج البحر صلاته، ونزلهم

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٣١).

منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم.. وكذا الملائكة تسجد لله تواضعاً غير مستكبرين عن عبادته.. وهم خائفون من الرب جل جلاله مثابرين على طاعته تعالى، وامتثال أوامره وترك زواجره[1].

«وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان:

١- سجود اضطرار، ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر، وحيوان ناطق وغيره.

٢- سجود اختيار، يختص بأوليائه وعباده المؤمنين والملائكة وغيرهم من المخلوقات»[2].

إن معظم ما اشتملت عليه سورة النحل المكية إكثارُ متنوع الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية، والأدلّة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته، وأدلةُ إثبات رسالة محمد ﷺ.. وكذا التذكير بخلق السماوات والأرض، وما في السماء من شمس وقمر ونجوم، وما في الأرض من ناس وحيوان ونبات وبحار وجبال ، وأعراض الليل والنهار[3]، فلما نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة، جاء الانتقال إلى دلالة أن حال الأجسام التي على الأرض كلها مشعرة بخضوعها لله تعالى خضوعاً مقارناً لوجودها وتقلبها آناً فآناً علم بذلك من علمه وجهله من جهله، وأنبأ عنه لسان الحال بالنسبة لما لا علم له، وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي خلقاً ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى، وذلك في أشد الأعراض ملازمة للذوات، ومطابقة لأشكالها وهو الظل.

وتفيؤ الظلال: تنقلها من جهات بعد شروق الشمس وبعد زوالها فتارة يكون عن يمين الشخص، وتارة عن شماله إذا استقبل جهة ما ثم استدبرها، وفي هذا إيضاح للحالة العجيبة للظل، وليس المراد خصوص اليمين والشمال بل كذلك الأمام والخلف.. وأفرد اليمين لأن المراد به جنس الجهة كما يقال المشرق، وجمع الشمائل مراداً به تعدد جنس جهة الشمال بتعدد أصحابها.. وهذا تفنن.

(١) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (١٠٦٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣٩٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٩٤) باختصار.

وهذا التفيؤ يقارنه السجود لله، وهذا سجود قسري.

ثم ذكر الله سجوداً آخر بعضه اختيار وفي بعضه شبه اختيار.. وفي الآية تعريض بالمشركين إذ يسجدون للأصنام.. إذ كل ما يدب على الأرض من غير الإنسان يسجد لله من غير استكبار.

ومعنى سجود الدواب لله أن الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب، وتطلب الدفع عن نفسها من المتغلب ومن العوارض بالمدافعة أو بالتوقّي، ونحو ذلك من الملائمات، فحالها بذلك كحال شاكر تتيسر تلك الملائمات لها ، وإنما تيسيرها لها ممن فطرها، وقد تصحب أحوال تنعّمها حركات تشبه إيماء الشاكر المقارب للسجود، ولعل من حركاتها ما لا يشعر به الناس لخفائه وجهلهم بأوقاته.. أو يراد (بالسماوات) الأجواء فيراد بما فيها الطيُور والفراش[(١)].

وفي الآيات دعوة للإنسان لمشاركة الوجود في عبادة الله وتسبيحه، فليس إلا الإنسان هو الذي يستكبر ويمكر وكل ما حوله يحمد ويسبح، والكون بنواميسه وظواهره يوحي بالإيمان، ويوحي بالخشوع، ومشهد الظلال تمتد وتتراجع، تثبت وتتمايل، مشهد موح لمن يفتح قلبه، ويوقظ حسه ويتجاوب مع الكون حوله، والسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود -وهو أقصى مظاهر الخضوع- ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة، وهي حركة لطيفة خفية ذات دبيب في المشاعر وئيد عميق، ويرسم المخلوقات داخرة أي خاضعة خاشعة طائعة، ويضم إليها ما في السماوات وما في الأرض من دابة، ويضيف إلى الحشد الكوني.. الملائكة فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب، ومعهم الملائكة في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره، والمنكرون المستكبرون من بني الإنسان وحدهم شواذ في هذا المقام العجيب[(٢)].

وفي القرآن المدني جاءت أربع آيات ثلاث منها بلفظ السجود لمن ما في السماوات والأرض، وظلالهم أجمل في إحداها وفصل في الثانية.. وخص في الثالثة النجم والشجر، وفي الآية الرابعة جاء التعبير بالتسبيح عن صلاة وعبادة من في السماوات والأرض،

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٦٨-١٧١) باختصار وتصرف.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٧٣) باختصار.

والآيات هي:

١- قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

٢- وقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

٣- وقوله تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

٤- وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

تثبت الآيات سجود وتسبيح وصلاة جميع المخلوقات لله تعالى رب العالمين، ولا شيء أدل من السجود على الطاعة والخضوع، وفي إخبار الله عن سجود هذه المخلوقات حث للناس على توحيده وطاعته والسجود له، ولهذا يسن ويستحب السجود عند آية الرعد، وآية الحج.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا﴾ يعني الملائكة والمؤمنين ﴿وَكَرْهًا﴾ يعني المنافقين والكافرين الذين أكرهوا بالسيف ﴿وَظِلَالُهُم﴾ يعني ظلال الساجدين طوعاً وكرهاً تسجد لله عز وجل طوعاً، قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره[(١)].

يقول الطاهر ابن عاشور: «...ومعنى سجود الظلال أن الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية، فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتى تكون الظلال واقعة على الأرض ووقوع الساجد، فإذا كان من الناس من يأبى السجود لله أو يتركه اشتغالاً عنه بالسجود للأصنام فقد جعل الله مثاله شاهداً على استحقاق الله السجود إليه شهادة رمزية، ولو جعل الله الشمس شمسين متقابلتين على السواء لانعدمت الظلال، ولو جعل وجه الأرض شفافاً أو لامعاً كالماء لم يظهر الظل بيّنا، فهذا من رموز الصنعة التي أوجدها الله وأدقها دقة بديعة، وجعل نظام

(١) معالم التنزيل (٦٧١) ويُنظر: روح المعاني (٧/ ١٢٠).

الموجودات الأرضية مهيئة لها في الخلقة لحكم مجتمعة، منها : أن تكون رموزاً دالة على انفراده تعالى بالإلهية، وعلى حاجة المخلوقات إليه، وجعل أكثرها من نوع الإنسان لأن نوعه مختص بالكفران دون الحيوان، والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي كيف جاء على نظام مطرد دال بعضه على بعض[(١)].

وفي الآية إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله وإرادته وتصريفه المكونات بأسرها من أهل الملأ الأعلى والأسفل، طائعين، وكارهين لا يقدرون أن يمتنعوا عليه، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال[(٢)].

إن هذه الآية جاءت في سياق ذكر الله فيه شيئاً من آياته كالبرق والرعد والسحاب الثقال تجري بأمر الله الواحد القهار، وإن الله يريها لعباده خوفاً وطمعاً.. والمشركون يجادلون في الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه ويعبدونهم من دون الله.. ويعلق صاحب الظلال على الآية بقوله: «وفي الوقت الذي يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء إذا كل من في الكون يعنو لله، وكلهم محكومون بإرادته، خاضعون لسنته، مسيرون وفق ناموسه، المؤمن منهم يخضع طاعة وإيماناً، وغير المؤمن يخضع أخذاً وإرغاماً فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه للحياة. ولأن الجو جو عبادة ودعاء، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية، ثم يضم إلى شخوص من في السماوات والأرض، ظلالهم كذلك، ظلالهم بالغدو في الصباح، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال، يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال، وهي في ذاتها حقيقة، فالظلال تبع للشخوص، ثم تلقي هذه الحقيقة ظلها على المشهد، فإذا هو عجب، وإذا السجود مزدوج: شخوص وظلال! وإذا الكون كله بما فيه شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء، كلها تسجد لله.. وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله!»[(٣)].

أما آية سورة الرحمن، فقد خصت النجم والشجر بأنها يسجدان.. والشجر

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١١١).
(٢) محاسن التأويل (٦/ ٢٧٧).
(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٥٢).

معروف وهو «ما قام على ساق، والنجم فسره ابن عباس بالنبات الذي لا ساق له واختاره ابن جرير، وفسره مجاهد بنجم السماء، واختاره ابن كثير، وجمع الزجاج بين التفسيرين فقال: ويجوز أن يكون النجم ههنا يعني به ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء يقال لكل ما طلع قد نجم»[(١)].

والمعنى القريب للآية أن نجوم السماء وأشجار الأرض، ما قام منها على ساق، وما لم يقم.. كلها تعرف ربها وتسجد له وتطيع وتخضع وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.. إن الزرع والشجر ينقادان لله فيما أراد بهما طبعاً كما ينقاد المكلف اختياراً، فما اختلاف ثمرها في الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعم والرائحة إلا انقياد للقدرة التي أرادت ذلك[(٢)].

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ وهو انتقال من الامتنان بما في السماء من المنافع إلى الامتنان بما في الأرض وجعل لفظ «النجم» واسطة الانتقال لصلاحيته لأنه يراد منه نجوم السماء وما يسمى نجماً من نبات الأرض.. والإخبار بسجود النجم والشجر أريد به الإيقاظ إلى ما في هذا من الدلالة على عظيم القدرة دلالة رمزية.. وأتى بالمسند فعلاً مضارعاً للدلالة على تجدد هذا السجود وتكرره.. وسجود نجوم السماء نزولها إلى جهات غروبها، وسجود نجم الأرض التصاقه بالتراب كالساجد، وسجود الشجر تطأطؤه بهبوب الرياح ودنو أغصانه للجانين لثماره والخابطين لورقه[(٣)].

وللرازي وجه لطيف في بيان معنى السجود هنا فقال:

«السجود: وضع الجبهة أو مقاديم الرأس على الأرض. والنجم والشجر في الحقيقة رؤوسها على الأرض وأرجلها في الهواء، لأن الرأس من الحيوان ما به شربه واغتذاؤه، وللنجم والشجر اغتذاؤهما وشربهما بأجذالهم، ولأن الرأس لا تبقى بدونه الحياة، والشجر والنجم لا يبقى شيء منهما ثابتاً غضاً عند وقوع الخلل في أصولها، ويبقى عند قطع فروعها وأعاليها، وإنما يقال للفروع رؤوس الأشجار، لأن الرأس في الإنسان هو

(١) يُنظر: معاني الركوع والسجود في القرآن المجيد (١٣).
(٢) تفسير المراغي (٢٧/ ١٠٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٣٦) باختصار وتصرف.

ما يلي جهة فوق فقيل لأعالي الأشجار رؤوس، إذا علمت هذا فالنجم والشجر رؤوسهما على الأرض دائماً فهو سجودهما بالشبه لا بطريق الحقيقة»[(١)].

«.. وفي الآية إشارة موحية إلى حقيقة هادية، أن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول، وخالقه المبدع، والنجم والشجر نموذجان منه يدلان على اتجاهه كله.. ولقد أدرك القلب البشري منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية في الكون كله، وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه، أدركها بالإلهام اللدني فيه، ولكنها كانت تغيم عليه، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيد بتجارب الحواس.. وتأمل هذه الحقيقة، ومتابعة الكون في عبادته وتسبيحه، مما يمنح القلب البشري متاعاً عجيباً، وهو يشعر بكل ما حوله حياً يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه وهو في وقفته بين أرواح الأشياء كلها وهي تدب فيها جميعاً، وتحيلها إخواناً له ورفقاء!

إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق»[(٢)].

أما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

فجاءت بعد أن وصف سبحانه قلوب المؤمنين بالنور والهداية، وقلوب الكافرين بالظلمة أردف ذلك ذكر دلائل التوحيد، وبدأ بطلب النظر والاعتبار كيف هدى الله تعالى كثيراً من أهل السماوات والأرض إلى تنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده؟ وبما ألهم الطير إلى أصواتها المعربة عن بهجتها بنعمة وجودها ورزقها الناشئين عن إمداد الله إياها بهما فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح الله وتنزيهه عن الشريك فأصواتها تسبيح بلسان الحال.

والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للنبي ﷺ، والمراد من يبلغ إليه، أو الخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب.. والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حال فريق من المشركين الذين هم من أصحاب العقول ومع ذلك فقد حرموا الهدى لما لم يجعله الله فيهم وقد جعل الهدى في العجماوات إذ جبلها على إدراك أثر نعمة الوجود والرزق.

والرؤية هنا بصرية لأن تسبيح العقلاء مشاهد لكل ذي بصر، وتسبيح الطير مشاهد

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ١٥٦).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٤٨-٣٤٤٩) باختصار.

باعتبار مسماه فما على الناظر إلا أن يعلم أن ذلك المسمى جدير باسم التسبيح[(١)].

قال الرازي: «ولا شبهة في أن المراد ألم تعلم، لأن التسبيح لا تتناوله الرؤية البصرية ويتناوله العلم بالقلب، وهذا الكلام وإن كان ظاهره استفهاماً فالمراد التقرير والبيان، فنبه تعالى على ما يلزم من تعظيمه بأن من في السماوات يسبح له وكذلك من في الأرض.. واعلم أنه إما أن يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الأشياء على كونه تعالى منزهاً عن النقائص موصوفاً بنعوت الجلال، وإما أن يكون المراد منه أن تنطق بالتسبيح وتتكلم به، وإما أن يكون المراد منه في حق البعض الدلالة على التنزيه وفي حق الباقين النطق باللسان.. والقسم الأول أقرب لأن هذه الأشياء مشتركة في أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته وإلهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيهاً على وجه التوسع..

ووجه تخصيصه بالعقلاء، لأن خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه لأن العجائب والغرائب في خلقهم أكثر وهي العقل، والنطق، والفهم..

ووجه اتصال قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ بما قبله أنه سبحانه لما ذكر أن أهل السماوات والأرض يسبحون ذكر أن الذين استقروا في الهواء الذي هو بين السماء والأرض وهو الطير يسبحون، وذلك لأن إعطاء الجرم الثقيل القوة التي يقوى بها على الوقوف في جو السماء صافة باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل على قدرة الله الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجوداً منها له سبحانه»[(٢)].

ومعنى: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ يجوز أن يكون: كل قد علم الله صلاته وتسبيحه، أي علم صلاة المصلي وتسبيح المسبح ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي لا يخفى عليه طاعتهم وتسبيحهم.. ويجوز أن يكون المعنى: قد علم كل مصل ومسبح صلاة نفسه وتسبيحه الذي كلفه[(٣)].

وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها. انظر إلى النحل كيف تبني بيوتها السداسية الأشكال

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٨-٢٦٠) باختصار وتصرف.
(٢) مفاتيح الغيب (١١/ ٦٠٣، ٦٠٤) باختصار وتصرف.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٥٦٨) وذكر احتمالات أخرى لا داعي لذكرها هنا.

التي لا يتمكن من بنائها فطاحل المهندسين إلا بدقيق الآلات، وإلى العنكبوت كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد الذباب.. وحال النمل في الذهاب إلى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضاً أمر عجيب.. إلى غير ذلك من طبائع الحيوان التي يصعب استقصاؤها، فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال إنها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه، وإن كانت غير عارفة بسائر الأمور التي يعرفها الناس(١).

إن القرآن الكريم يوجه الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله، وإلى من حوله من خلق الله في السماوات والأرض وهم يسبحون بحمده وتقواه، ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد في كل يوم يراه، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه، ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبح بحمد الله.. والإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسبيح ربه، وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة، وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجهاً كله إلى خالقه، مسبحاً بحمده، قائماً بصلاته، وإنه لكذلك في فطرته، وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه، وإن الإنسان ليدرك حين يشف -هذا المشهد ممثلاً في حسه كأنه يراه، وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح الله، وإنه ليشارك كل كائن في هذا الكون صلاته ونجواه.. كذلك كان محمد ﷺ إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه، وكذلك كان داود عليه السلام يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا التجاء إلا إليه ولا ملجأ من دونه ولا مفر من لقائه، ولا عاصم من عقابه، وإلى الله المصير(٢).

أما آية سورة الحج ففيها تفصيل أكثر وبيان أوسع للساجدين من خلق الله في ما بين السماوات والأرض ففيها ذكر الشمس والقمر، والنجوم والجبال، والشجر والدواب، وكثير من الناس، وكثير حق عليه العذاب.

جاءت هذه الآية بعد أن أبان الله أنه يقضي يوم القيامة بين المؤمنين واليهود، والصابئين من عبدة الملائكة، والنصارى، والمجوس عبدة النار، والذين أشركوا عباد الأوثان.. فالله سبحانه سيقضي يوم القيامة بإظهار المحق من المبطل وهو شهيد على

(١) مفاتيح الغيب (١١/٦٠٦) وذكر طرفاً من عجائب طبائع الحيوان فليراجع هناك.

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٥٢٢).

أقوالهم وأفعالهم.. أردف الله ذلك ببيان أنه ما كان ينبغي لهم أن يختلفوا ألا يرون أن جميع العوالم العلوية والسفلية كبيرها وصغيرها، شمسها وقمرها ونجومها وجبالها وحيوانها ونباتها -خاضعة لجبروته، مسخرة لقدرته، وقد كان في هذا مقنع لهم لو أرادوا، ولكن من يهنه الله ويكتب عليه الشقاء فلا يستطيع أحد أن يسعده فالله وحده هو القدير على الإشقاء والإسعاد[(١)].

والمعنى القريب للآية: ألم تعلم أيها المخاطب بهذا أن هذه الخلائق مسخرة لقدرة بارئها وجبروت منشئها، منقادة لإرادته طوعاً أو كرهاً؟ فهي مفتقرة في وجودها وبقائها إليه، فهو الذي أنشأها ورتبها وأكمل وجودها على النحو الذي أراده، والحكمة التي قدرها لها في البقاء.

وأفرد الشمس وما بعدها بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله، فعبدت الشمسَ حميرُ، والقمرَ كنانةُ، والشعرى لخمٌ، والثريا طي.. وعبد أكثرُ العرب الأصنام المنحوتة من الجبال، وعبدت غطفان العزى وهي سمرة وهي من الشجر المعروف[(٢)].

ويسجد لله أيضاً جميع الحيوانات بحسب اختلاف أنواعها، وكذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي وكثير منهم لا يسجدون فاستحقوا بذلك العذاب.

وقوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي ومن يهنه الله من خلقه فيكتب له الشقاء لسوء استعداده، فما له من مكرم يسعده، لأن الأمور كلها بيده، يوفق من يشاء لطاعته، ويخذل من يشاء لتدنيسه نفسه، واجتراحه للسيئات وارتكابه للآثام والمعاصي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ أي إن الله يفعل في خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته، وإكرام من أراد إكرامه، فهو لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون[(٣)].

قال أبو العالية الرياحي: «ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع

(١) تفسير المراغي (١٧/ ١٠٠).
(٢) روح المعاني (٩/ ١٢٥).
(٣) تفسير المراغي (١٧/ ١٠٠-١٠١) ويُنظر معالم التنزيل (٨٦١).

إلى مطلعه»[(١)].

وهذا سجود حقيقي كما قال القرطبي والألوسي[(٢)].

ويشهد له ما رواه أبو ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوماً: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها: ارتفعي، اصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها، فقال رسول الله ﷺ: أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨])[(٣)].

وإني أرى من المناسب أن أختم هذا الفصل بكلام جميل لأبي الحسن علي الحسني الندوي حيث يقول: «لقد ظلت الشمس مشرقة وهاجة منذ كان هذا الكون، تنشر النور وتمنح الحياة والحرارة، وظل القمر سراجاً منيراً ينير السبيل ويحدد الشهور والسنين، وقد انتصبت الجبال قائمة من آلاف السنين تبلغ رسالتها، ووقفت الأشجار على قدم وساق، وافرة الثمار، وارفة الظلال تعبد الرب وتخدم الإنسان –سيد هذا الكون، وانطلق الهواء يحمل رسالة الحياة لهذا الإنسان، وهبت الرياح لواقح تحمل أمانة الماء من جهة إلى جهة، وسارت السحب تحمل الأمطار وتحيي الأرض بعد موتها، وجرت الأنهار تروي ظمأ الإنسان وتسقي الزروع، وتثير دفائن الأرض ، ومشت الحيوانات والدواب على أربع كأنها في ركوع دائم تنقل الإنسان من مكان إلى مكان، وتحمل الأثقال، وله فيها دفء ومنافع، ومطاعم ومشارب، وزحفت كثير من الحيوانات على صدرها وبطنها فيها مآرب للإنسان.

فهذه المخلوقات التي لا عقل لها ولا قلب في عبادة دائمة، في طاعة وخضوع لأمر

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٢٦٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٤٥) وروح المعاني (١٧/ ١٣٠).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (٢٥٠) (١/ ١٣٨).
وأخرج البخاري نحوه في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩) (٤/ ٧٥).

الله تعالى، فلا عصيان ولا ثورة، ولا تمرد ولا جموح، ولا ملل ولا سآمة، ولا إضراب ولا انقطاع عن العمل، ولا راحة، ولا عطلة، فكأنها دائماً في السجود..

إن هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وعلى تنوع عباداتها في صلاة تتفق مع طبيعتها ووظيفتها، وفي حمد وتسبيح لا يفقههما إلا من فتح الله بصيرته ورفع عنه الحجاب»[(١)].

---

(١) الأركان الأربعة (١٩-٢٠).

الباب الرابع

أنواع المصلين وصفاتهم في القرآن الكريم

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول: الأنبياء والمؤمنون وحالهم مع الصلاة.

الفصل الثاني: المشركون وحالهم مع الصلاة.

الفصل الثالث: المنافقون وحالهم مع الصلاة.

الفصل الرابع: أهل الكتاب وحالهم مع الصلاة.

الفصل الأول
الأنبياء والمؤمنون وحالهم مع الصلاة

إن الدارس للآيات القرآنية الكريمة الواردة في شأن الصلاة يستطيع أن يستنبط كثيراً من الأحوال والصفات التي تميزت بها صلاة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمؤمنون من بعدهم ومنها:

أولاً: الإلتجاء إلى الله في أن يوفقهم وذريتهم لإقامة الصلاة:

هذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يلتجئ إلى الله فيقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١].

إن إبراهيم عليه السلام لما علم أن جميع أفعال العبد مخلوقة لله سواء منها ترك المنهيات أو فعل المأمورات لا يحصل للعبد إلا من الله عز وجل جاء في دعائه لنفسه وبنيه قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقوله أيضاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ﴾(١).

ودعاء إبراهيم عليه السلام هذا في أمر كان مثابراً عليه متمسكاً به، ومتى دعا الإنسان في مثل هذا فإنما المقصد إدامة ذلك الأمر واستمراره(٢).

إن من كمال عناية إبراهيم عليه السلام بإقامة الصلاة وأنها عماد الدين خصها بالذكر من بين سائر شعائره فقال قبل هذا الدعاء وكرر النداء: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي رب ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع مستسعدين بجوارك الكريم متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين رحمتك التي آثرت بها سكان حرمك، وقوله: ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معدلاً لها من أقمت العود إذا قومته، وأراد بهذا الدعاء الديمومة على ذلك، وجوز بعضهم أن يكون المعنى مواظباً عليها.

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٦٣) بتصرف.
(٢) المحرر الوجيز (١٠٥٩).

وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته عليه السلام لذريته أيضاً حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ للإشعار بأنه المقتدى في ذلك وذريته أتباع له فإن ذكرهم بطريق الاستطراد[1].

«ولعل سبب الدعاء لذريته هو أنها أحق بالشفقة والنصيحة .. قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايعوهم الخير.. في حين أن الدعاء للوالدين وتخصيصهما بطلب المغفرة والرحمة واجب يحتمه الشرع، ويقره العرف وتعززه مشاعر الوفاء للوالدين لما بذلاه في سبيل تنشئة ولدهما، وهذا ما أمر الله به تعالى نبيه الكريم ﷺ بدعائه لوالديه بقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤]»[2].

إن الالتجاء إلى الله ودعائه بالثبات على الإسلام وإقامة شعائره وإشراك الذرية في الدعاء سنة الأنبياء، غفل عنها كثير من الناس، وفي الدعاء سرعة الفرج وتفريج الكرب، وهو سلاح يُتقى به العدو وسوء القضاء، يجلب المصالح ويدفع المفاسد، فيه إلقاء الهم على الرب لحسن الظن بالقرب، وهو من أجل أنواع العبادة.. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠])[3].

ثانياً: إقامة الصلاة لله رب العالمين:

إن من دأب الأنبياء والمؤمنين إقامة الصلاة لله رب العالمين، قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ

(١) روح المعاني (٧/ ٢٢٤، ٢٢٩) باختصار وتصرف.

(٢) الدعاء في القرآن الكريم لمحمد محمود عبود زين (٧٠).

(٣) سنن أبي داود (١٤٧٩) وسنن الترمذي (٣٢٤٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، واللفظ له، وسنن ابن ماجه (٣٨٢٨)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الأربعة وصححه الترمذي. يُنظر: صحيح أبي داود، رقم (١٣١٢) والدر المنثور (١٣/ ٦٦، ٦٧).

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

إن من أخلص في صلاته ونسكه لله، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله وأقواله، ولهذا أمر النبي ﷺ به أمراً حتماً لا يخرج من التبعة إلا بامتثاله[١].

وفي الآية أمر من الله لرسوله ﷺ أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل، وإرادة وجهه وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل، ويحتمل أن يريد بهذه المقالة أن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله عز وجل يصرفه في جميع ذلك كيف يشاء، وأنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم[٢].

وجاء الثناء في القرآن على المؤمنين بإقامة الصلاة بصيغة الماضي والمضارع:

فالماضي بلفظ «أقاموا» جاء في سبع آيات.

والمضارع بلفظ «يقيمون» جاء في ست آيات.

وبلفظ واحد في «المقيمي الصلاة» و«المقيمين الصلاة».

وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، يقال: قام الشيء أي دام وثبت، وليس من القيام على الرِّجل، وإنما هو من قولك: قام الحق أي ظهر وثبت، قال الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال آخر:

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا ... حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقيل: يقيمون: يديمون، وأقامه أي أدامه[٣].

ويقال: أقمت الشيء إقامة إذا وفيت حقه، قال تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨] أي: توفوا حقها بالعلم والعمل، ومن معاني يقيمون

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٥) بتصرف.

(٢) المحرر الوجيز (٦٨١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٦٤).

الصلاة: يعدلون أركانها بأن يوقعوها مستجمعة للفرائض والواجبات مع الآداب والسنن، من أقام العود إذا قوّمه، أو يواظبون عليها ويداومون، أو يتشمرون لأدائها بلا فترة عنها ولا توان من قولهم: قام بالأمر وأقامه إذا جدَّ فيه، أو يؤدونها ويفعلونها، وعبر عن ذلك بالإقامة لأن القيام بعض أركانها[(١)].

ويقول ابن عاشور: «.. فإقامة الصلاة استعارة تبعية شبهت المواظبة على الصلوات والعناية بها بجعل الشيء قائماً، وأحسب أن تعليق هذا الفعل بالصلاة من مصطلحات القرآن، وقد جاء به القرآن في أوائل نزوله فقد ورد في سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي ثالثة السور نزولاً.. وقد عبر بالمضارع «يقيمون» ليصلح ذلك للذين أقاموا الصلاة فيما مضى وهم الذين آمنوا من قبل نزول الآية، والذين هم بصدد إقامة الصلاة وهم الذين يؤمنون عند نزول الآية، والذين سيهتدون إلى ذلك وهم الذين جاءوا من بعدهم إذ المضارع صالح لذلك كله لأن من فعل الصلاة في الماضي فهو يفعلها الآن وغداً، ومن لم يفعلها فهو إما يفعلها الآن أو غداً.. وجميع أقسام هذا النوع جعل القرآن هدى لهم، وقد حصل من إفادة المضارع التجدد تأكيد ما دل عليه مادة الإقامة من المواظبة والتكرار ليكون الثناء عليهم بالمواظبة على الصلاة أصرح»[(٢)].

وصيغة «يقيمون» تقتضي الدوام إلى الختم، وإدامة العمل إلى الختم تقتضي ظهوره عن فطرة أو جبلة، وأنه ليس عن تعمل ومراءاة، وعند ذلك يكون علماً على الجزاء، والصلاة الإقبال بالكلية على أمر، ومن لم يدم الصلاة ضعف إيمانه وران عليه كفره فلا إيمان لمن لا صلاة له.. والصلاة تعهد للإيمان وتكرار.. والتقوى أصل الإيمان، والصلاة ثمرته[(٣)].

وبتتبع الآيات التي أثنى الله فيها على المؤمنين بإقامة الصلاة بلفظ المضارع نجد أنها ست آيات وهي:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

---

(١) روح المعاني (١/ ١١٨) باختصار وتصرف، ويُنظر: مفاتيح الغيب (١/ ٣٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٣١-٢٣٢) بتصرف بسيط.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٨٢) باختصار وتصرف.

[البقرة: ٣].

جاءت في سياق وصف المتقين المهتدين بالكتاب وأنهم هم المفلحون لا غيرهم.

٢- وقولــه تعــالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

جاءت في سياق من يجب ويتعين توليه بأداة الحصر «إنما» التي تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين والتبري من ولاية غيرهم، وولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان لله ولياً فهو ولي لرسوله ﷺ، ومن تولى الله ورسوله، كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة، بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق وبذلوا الزكاة لمستحقيها وهم خاضعون لله ذليلون(١).

٣- وقولـه تعـالى في سـورة الأنفـال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣].

جاءت في سياق الحديث عن الإيمان الكامل وصفات الكاملين في الإيمان، وأنهم هم المؤمنون حقاً لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح التي هي المعيار عليها من الصلاة والصدقة(٢).

٤- وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

جاءت بعد أن ذكر الله أن المنافقين بعضهم من بعض، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ووصفهم بضد ما وصف المنافقين، وأكد أن رحمتهم لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع لأن الله غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده، حكيم يضع الأشياء في مواضعها(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٩٨) بتصرف بسيط.
(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٣٧٦).
(٣) تفسير البيضاوي (١/ ٤١٣).

٥، ٦- وفي سورتي النمل ولقمان المكيتين جاء قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣، ولقمان: ٤].

في سورة النمل جاءت في سياق وصف المؤمنين الذين اهتدوا بالقرآن وكان لهم بشرى، وبلغ بهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين وهو العلم التام والواصل إلى القلب الداعي إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها.. ثم حذرهم في الآية بعدها من أسباب العذاب وموجبات العقاب وهو عدم الإيمان بالآخرة الذي يكون سبباً في أن يخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

أما آية سورة لقمان فجاءت في سياق وصف المحسنين الذين كان القرآن هدى ورحمة لهم بتوفيق الله وعصمته لهم، لأنهم محسنون في عبادة ربهم ومحسنون إلى خلقه، قد جمعوا بين العلم التام والعمل في مرضاة الله فحصل لهم الهدى العظيم من ربهم الذي لم يزل يربيهم بالنعم ويدفع عنهم النقم فكانوا هم المفلحين الذين أدركوا رضا ربهم وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه وذلك لسلوكهم طريق الفلاح الذي لا طريق له غيرها[(١)].

وأثنى الله عليهم بلفظ الماضي «أقاموا» في سبع آيات:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن الربا وأن الله يمحقه، ويربي الصدقات، فبينت الآية بعد ذلك أن الذين صدقوا بما جاءهم من ربهم من الأوامر والنواهي، وعملوا ما تصلح به نفوسهم من الأعمال الصالحة كمواساة المحتاجين، والرحمة بالبائسين وإنظار المعسرين، وهذا من مستتبعات الإيمان الحقيقي المقرون بالإذعان، وأقاموا الصلاة التي تذكر المؤمن بالله فتزيد إيمانه لربه، ومراقبته له، فتسهل عليه طاعته في كل شيء، وآتوا الزكاة التي تطهر النفوس من رذيلة البخل، وتمرنها على أعمال البر، وخصهما بالذكر مع شمول الأعمال الصالحة لهما لأنهما أعظم أركان العبادات النفسية والبدنية.. وفي الآية تعريض بآكلي الربا وأنهم لو كانوا من الذين آمنوا وعملوا

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٩٥) بتصرف.

الصالحات لكفوا عن أكله[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والآية في سياق الحديث عن موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وأن الله أغدق عليهم من النعم، وقابلوها بالجحود والعصيان والاعتداء يوم السبت بالاصطياد فيه.. ثم بين الله أن الآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام.. ثم جاءت الآية بمدح عام للذين يتمسكون في أمور دينهم بما أنزل الله ويحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها بأن الله لا يضيع أجرهم بل يجزيهم على تمسكهم وصلاحهم أفضل وأكرم الجزاء.

إن العقلاء حقيقة هم الذين يتمسكون بالكتاب علماً وعملاً.. ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً ولهذا خصها بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الأعمال، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.. وهؤلاء المؤمنون عملهم كله إصلاح في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم مصلحين لأنفسهم ولغيرهم[2].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

جاءت في سياق صفات حميدة أخبر الله عنها ووصف بها السعداء الذين يعلمون أن ما أنزل على النبي ﷺ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً.. وأن من اتصف بهذه الصفات الحميدة لهم العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.. وذكر من صفاتهم أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان.. وهم يَصِلُون الأرحام ويحسنون إليهم وإلى الفقراء والمحاويج ويبذلون المعروف، ومن صفاتهم خشية الله فيما يأتون ويذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.. هذا مع صبرهم عن

---

(١) يقارن مع تفسير المراغي (٣/ ٦٧).

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٢٧١).

المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله عز وجل، ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه.. وذلك لأنهم أقاموا الصلاة بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، وأنفقوا على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وأقارب وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال في آناء الليل وأطراف النهار.. ومع ذلك يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً[(١)].

٤- وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

جاءت الآية في سياق وصف كل من نصر الدين من أجيال المسلمين، أي: إن مكناهم بالنصر الموعود به إن نصروا دين الله.. والكلام مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر، وذلك بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام فإنه بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى الله، فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم[(٢)].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

جاءت الآية في سياق بيان الله للناس أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته، لا تؤخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي والجار بالجار، والآية تثبت أنه لا يؤخذ أحد إلا بوزر، ولا يحمل أحد وزر أحد، ولو أن نفساً مثقلة بالذنوب دعت أحداً ولو كان ذا قربى ليحمل عنها أو يخفف عنها العذاب فإنه لا يحمل منه شيئاً لا طواعية ولا كرهاً، بل لكل امرئ شأن يغنيه.. وهذا الأمر مع كونه جلياً خالعاً للقلوب فكان بحيث يشتد تعجب السامع ممن يسمعه ولا يخشى الله فقال

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠١٠) باختصار وتصرف.

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٠) بتصرف بسيط.

تعالى مزيلاً لهذا العجب على سبيل النتيجة ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ أي تنذرهم إنذاراً يفيد الرجوع عن الغيّ فلاختصاصهم بالنفع كانوا كأنهم مختصون بالإنذار.. لأنهم يوقعون الخشية في الحال، ويواظبون عليها في الاستقبال ولأنهم أعقل الناس فيخافون من ربهم المحسن إليهم أن يقطع إحسانه عنهم.

إن أوفى الناس عقلاً وأعلاهم همة وأكرمهم عنصراً من كانت غيبته مثل حضوره، ولا يحتاج مع قول الداعي وما يظهر له من سمته وحسن فعله إلى آية يظهرها ولا خارقة يبرزها، وإنما إيمانه تصديقاً للداعي في إخباره بالأمر المغيب من غير كشف غطاء، وذلك حال كونهم غائبين عما دعوا إليه وخوفوا به، أو حال كونه غائباً عنهم، أو غائبين عمن يمكن مراءاته فهم مخلصون في خشيتهم سواء بحيث لا يطلع عليهم إلا الله.. ولما كانت الصلاة جامعة لخضوع الظاهر والباطن فكانت أشرف العبادات وكانت إقامتها بمعنى حفظ جميع حدودها في كل حال أدل الطاعات على الإخلاص، قال معبراً بالماضي لأن مواقيت الصلاة مضبوطة: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي دليلاً على خشيتهم في أوقاتها الخمسة، وما يتبع ذلك من السنن الرواتب[1].

٦- في سورة فاطر أيضاً جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

جاءت هذه الآية بعد أن بين الله سبحانه أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه.. ذكر الله حال العالمين بكتاب الله العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في السر والعلن، وأنهم يرجون ثواباً من ربهم كفاء أعمالهم بل أضعاف ذلك فضلاً من ربهم ورحمة، ويطمعون في غفران زلاتهم لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل[2].

إن الذين يجددون ويكررون تلاوة كتاب الله كل وقت مستمرون على ذلك محافظون عليه حتى يكون ذلك ديدنهم وشأنهم، وذلك لأنه لا ينبغي لعاقل أن يقبل على غيره لما له من صفات الجمال والجلال، ولا سيما في الصلاة ولهذا عبر بلفظ الماضي في

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٣٣-٣٥) باختصار وتصرف، ويُنظر: الكشاف (٨٨٤).
(٢) تفسير المراغي (٢٢/ ١٢٧).

قوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ليدل على المداومة على تحقيق ذلـك، وعـبر بالمضـارع في قولـه: ﴿يَتْلُونَ﴾ لأن إنزالها كان قبل تمام نزول القرآن كله، وتصريحاً بتكـرار الـتلاوة تعبـداً ودراسة لأن القرآن كما قال النبي ﷺ: (أشد تفلتـاً مـن الإبـل في عقلهـا)(١)، وفي إقامـة الصلاة والإنفاق عبر بالماضي حثاً على المبادرة إلى الفعل، وقد تحصّل من هـذا أنـه جعـل لفعل القلب الذي هو الخشية دليلاً باللسان، وآخر بالأركان وثالثاً بالأموال(٢).

٧- وفي قولــه تعــالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

جاء السياق في الحديث عن تحقير شأن الحياة الدنيا وزينتهـا ومـا فيهـا مـن الزهـو والنعيم الفاني، وأنه مهما حصل للعبد منها فعليه أن لا يغتر به فإنما هو متاع الحيـاة الـدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، وثواب الله خير من الدنيا وهو باق سرمدي، والعاقـل لا يقدم الفاني على الباقي.. ثم وصف الذين آمنوا وصـبروا عـلى تـرك المـلاذ في الـدنيا، وتوكلوا على ربهم ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات.. ومن خلقهـم وسجيتهم وطبعهم الصفح والعفو عن الناس، ولـيس الانتقـام مـنهم.. وهـم مـع هـذا مستجيبون لربهم باتباع رسوله وإطاعة أمره ولهذا أقاموا الصـلاة الـتي هـي مـن أعظـم العبادات لله التي تجمع القلـوب وتؤلفهـا فكـانوا لا يبرمـون أمـراً حتـى يتشـاوروا فيـه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها(٣).

وأثنى الله عز وجل على القائمين بأدائها كما أمروا بلفظ: «المقيمين الصلاة»

في ســــــورة النســــــاء في قوله تعــــالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

قال ابن عباس: هذا استثناء لمؤمني أهل الكتـاب، فالراسـخون مـنهم الثـابتون في العلم، وقيل: هم عبدالله بن سلام، ومن آمن معه، والذين آمنوا من أهـل الإنجيـل ممـن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعاهد القرآن وكراهة قول: نسيت آية كذا... ، رقم (٧٩١) (١/ ٢٦٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) يقارن مع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٥٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١٦٧٢) بتصرف واختصار.

قدم مع جعفر من الحبشة، والمؤمنون يعني أصحاب الرسول ﷺ[(١)].

والقول المعتمد في قوله: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: قول البصريين وهو: إنه نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، قالوا: إذا قلت مررت بزيد الكريم لك أن تجر الكريم لكونه صفة لزيد، ولك أن تنصبه على تقدير أعني، وإن شئت رفعت على تقدير هو الكريم، وعلى هذا يقال: جاءني قومك المطعمين في المحل والمغيثون في الشدائد، والتقدير: جاءني قومك أعني المطعمين في المحل وهم المغيثون في الشدائد، فكذا ههنا تقدير الآية: أعني المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة.

واختار الكسائي: أن «المقيمين» خفض بالعطف على ما في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ والمعنى: والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة، ثم عطف على قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والمراد بالمقيمين الصلاة الأنبياء وذلك لأنه لم يخل شرع أحد منهم من الصلاة، قال تعالى بعد أن ذكر أعداداً منهم: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقيل: المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم الصافون، وهم المسبحون، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون[(٢)].

قال الألوسي: «وصفوا أولاً بكونهم راسخين في علم الكتاب لا يعترضهم شك ولا تزلزلهم شبهة إيذاناً بأن ذلك موجب للإيمان وأن من عداهم إنما بقوا مصرين لعدم رسوخهم فيه، بل هم كريشة في بيداء الضلال تقلبهم زعازع الشكوك والأوهام، ثم بكونهم مؤمنين بجميع ما أنزل من الكتاب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم بكونهم عاملين بما فيها من الأحكام، واكتفى من بينها بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المستتبعين لسائر العبادات البدنية والمالية، ولما أن في إقامة الصلاة على وجهها انتصاباً بين يدي الحق جل جلاله، وانقطاعاً عن السوي، وتوجهاً إلى المولى كسا المقيمين حلة النصْب ليهون عليهم النَصَب، وقطعهم عن التبعية يشير إلى الاتصال بأعلى الرتب، ثم وصفهم بكونهم يؤمنون بالمبدأ والمعاد تحقيقاً لحيازتهم الإيمان بقطريه وإحاطتهم به من طرفيه أو تعريضاً بأن من عداهم من أهل الكتاب ليسوا مؤمنين بواحد منهما حقيقة

(١) زاد المسير (١٦٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٥٢٣، ٥٢٤) باختصار وتصرف.

لأنهم قد مزجوا الشهد سماً وغدوا عن اتباع الحق الصرف عمياً وصماً»[(١)].

وفي سورة الحج أمر تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يبشر بشارة على الإطلاق وهي أبلغ من المفسرة لأنها مرسلة مع نهاية التخيل.. عباده المؤمنين المتواضعين الخاشعين الذين لا يظلمون وإن ظلموا لم ينتصروا، المطمئنون بأمر الله تعالى.. وهم ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾[(٢)] فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥].

والآية يبين الله فيها علامات المخبتين المذعنين له بالعبودية، الخاضعين له بالطاعة المنيبين إليه بالتوبة، ومن علاماتهم أنهم إذا ذكر الله عرتهم رهبة من خشيته، وخوف من عقابه، وإذا أصابتهم مصيبة من النوائب والمحن في طاعة الله صبروا، وفزعوا إلى إقامة الصلاة في الأوقات المحددة لهم، وهم مع هذا ينفقون بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق في وجوه البر وعلى أهليهم وأقاربهم وعلى الخلق كافة، ومن ذلك إهداء الهدايا من الأضاحي وغيرها ويغالون في أثمانها[(٣)].

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالخفض على الإضافة.

وقرأ أبو عمرو: «الصلاة» بالنصب على توهم النون وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم، وأنشد سيبويه:

الحافظو عورة العشيرة لا يأتيهم من ورائنا نطف

وقرأ الأعمش: «والمقيمين الصلاة» بالنون والنصب في الصلاة.

وقرأ الضحاك: «المقيم الصلاة»[(٤)].

ثالثاً: الخشوع في الصلاة:

إن من أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الخشوع لله في جميع أحوالهم كما أثنى الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا

(١) روح المعاني (٣/ ١٩٠).
(٢) يقارن مع المحرر الوجيز (١٣١٢).
(٣) يقارن مع تفسير المراغي (١٧/ ١١٣).
(٤) يُنظر: المحرر الوجيز (١٣١٢) والجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٧٥) وروح المعاني (٩/ ١١٨).

خَٰشِعِينَ [الأنبياء: ٩٠]، فهم أسرع الخلق في عمل القربات وفعل الطاعات، يدعون الله رغبة فيما عنده ورهبة مما عنده، وفسر ابن عباس خشوعهم بقوله: مصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقاً، وروي عنه: متواضعين، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً، وقال الحسن وقتادة والضحاك: متذللين لله عز وجل.

وكل هذه الأقوال متقاربة كما يقول ابن كثير رحمه الله(١).

إن من مظاهر كمال معرفة الأنبياء لربهم مبادرتهم إلى فعل الخيرات ومنها الصلاة في أوقاتها الفاضلة ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها، ويسألون الله عز وجل الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بالله من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون لا غافلون لاهون، ولا مدلون.. وهم في حال من الخضوع والتذلل والتضرع(٢).

والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح به المرء، لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين:

أحدهما: الفزع إلى الله لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه.

الآخر: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الإثم(٣).

٢- وأثنى الله على الأنبياء جميعاً بأنهم إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم خشعوا فخروا لله سجداً وبكياً، قال تعالى عنهم:

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ [مريم: ٥٨].

وفي الآية دلالة على شكرهم نعم الله عليهم وتقريبه إياهم بالخضوع والسجود عند

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٢٥٠).
(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٤٧٩).
(٣) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٠٠).

تلاوة آياته وبالبكاء، والمراد به البكاء الناشيء عن انفعال النفس انفعالاً مختلطاً من التعظيم والخوف، وهذه الآية من مواضع سجود القرآن المروية عن النبي ﷺ اقتداء بأولئك الأنبياء في السجود عند تلاوة القرآن فهم سجدوا كثيراً عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم ونحن نسجد اقتداء بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا، وأثنت على سجودهم قصداً للتشبه بهم بقدر الطاقة حيث نحن متلبسون بذكر صنيعهم، وقد سجد النبي ﷺ عند هذه الآية وسن ذلك لأمته[(١)].

إن الأنبياء المكرمين، وخواص المرسلين لهم فضائل ومراتب حيث أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومنّة لا تسبق من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، فهم خير بيوت العالم، اصطفاهم الله واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم المتضمنة الإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه «الرحمن» دلالة على أن آياته من رحمته بعباده، وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة[(٢)].

٣- كما أثنى الله عز وجل على العلماء من ورثة الأنبياء بكاءهم وخشيتهم عند سماعهم لآيات الله.

يقول التيمي: إن من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفعه لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٥).

يقول ابن عطية: «هذه مبالغة في صفتهم، ومدح لهم وحض لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرتبة»[(١)].

إن العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن، وعرفوا أن الله سيبعث نبياً -يخرون لله سجداً شكراً له على إنجازه وعده بإرسال خاتم الأنبياء ﷺ- حين يتلى عليهم هذا القرآن، ويقولون في سجودهم: ننزه ربنا عن خلف الوعد إنه كان وعده آتياً لا محالة.. ويخرون للأذقان باكين من خشية الله، إذا يتلى عليهم، ويزيدهم ما فيه من العبر والمواعظ خشوعاً وخضوعاً لأمره وطاعته[(٢)].

والبكاء مستحب عند قراءة القرآن[(٣)]، وقد جاء في مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة منها:

ما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله تعالى، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى)[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا اجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم)[(٥)].

وأثنى الله عز وجل على الخاشعين والخاشعات من هذه الأمة، وأن الله سيجازيهم بالصفح عنهم وستر ذنوبهم، وأعد لهم أجراً عظيماً وهو الجنة وما فيها من النعيم

٤- فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ

---

(١) المحرر الوجيز (١١٧٢).

(٢) تفسير المراغي (١٥/ ١٠٨) بتصرف.

(٣) معالم التنزيل (٧٦٢).

(٤) سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم (١٦٣٩) وقال: «حسن غريب»، ويُنظر: صحيح سنن الترمذي، رقم (١٦٣٩).

(٥) صحيح سنن الترمذي، رقم (١٨٨١، ١٣٣٣) والنسائي، رقم (٣١٠٧، ٣١٠٨) والحاكم (٤/ ٢٦٠) والبيهقي في الشعب (٨٠٠، ٨٠١)، ويُنظر: الدر المنثور (٢/ ٥٢٥).

وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [الأحزاب: ٣٥].

بدأ تعالى بذكر «الإسلام» الذي يعم الإيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر «الإيمان» تخصيصاً له وتنبيهاً على أنه عظم الإسلام ودعامته، ثم «القنوت» وهو طاعة الله ورسوله ﷺ، ثم «الصدق» في المقال والفعال ثم «الصبر» عن الشهوات وعلى الطاعات في المنشط والمكره، وعلى الشدائد والمصائب ثم «الخشوع» في جميع أحوالهم خصوصاً في عباداتهم ولا سيما في صلواتهم، قال عطاء بن أبي رباح: من صلى فلم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله: وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ثم وصفهم وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ فرضاً ونفلاً، وكذا «الصيام» ووصفهم بـ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ عن الزنا ومقدماته وختم الصفات بصفة «الذكر» في أكثر الأوقات خصوصاً أوقات الأوراد المقيدة كالصباح والمساء أو بالصلوات المكتوبات، قال عطاء: من صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله تعالى: وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ [(١)].

إن هؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن فقد قام بالدين كله ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان، فجزاهم على عملهم مَّغْفِرَةً لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات وَأَجْرًا عَظِيمًا لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم[(٢)].

٥- وقد نوه الله في صدر سورة «المؤمنون» بذكر عباده المؤمنين وذكر فلاحهم وسعادتهم وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، فبدأ بوصفهم بالخشوع قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ [المؤمنون: ١-٢] والمعنى: فازوا وسعدوا ونجحوا وأدركوا

---

(١) المحرر الوجيز (١٥١٣) ومعالم التنزيل (١٠٤١) باختصار وتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦١٢).

كل ما يروم المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم في صلاتهم خاشعون وذلك بحضور القلب بين يدي الله تعالى مستحضراً لقربه سبحانه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته متأدباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أولها إلى آخرها فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، والصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزية مثاباً عليها فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها[1].

ومن أقوال السلف في معنى الخشوع:

عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والزهري: ﴿خَٰشِعُونَ﴾ خائفون ساكنون.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإبراهيم النخعي: الخشوع خشوع القلب.

وعن الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح.

وقال ابن كثير: والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[2].

إن الخشوع خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولا شك أن الخشوع لله يقتضي التقوى فهو سبب فلاح، وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة، وبالخشوع وخاصة إذا كان في حال الصلاة، لأن الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محله القلب فليس من أفعال الصلاة، ولكنه يتلبس به المصلي في حال صلاته، وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له، وهذا من أدب المعاملة مع الخالق تعالى وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٢٩٠).

ولهذا الاعتبار قدم هذا الوصف على بقية أوصاف المؤمنين وجعل مواليـاً للإيـمان فقد حصل الثناء عليهم بوصفين، وتقديم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ على ﴿خَٰشِعُونَ﴾ للاهتمام بالصلاة للإيذان بأن لهم تعلقاً شديداً بالصلاة، لأن شأن الإضافة أن تفيد شدة الاتصال بين المضاف والمضاف إليه لأنها على معنى لام الاختصاص.

فلو قيل: الذين إذا صلوا خشعوا فات هذا المعنى، وأيضاً لم يتأت وصفهم بكونهم خاشعين إلا بواسطة كلمة أخرى نحو: كانوا خاشعين.. فحصل الإيجاز ولم يفت الإعجاز[1].

٦- وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

الخطاب في الآية لبني إسرائيل أولاً ثم بعد ذلك خطاباً للمؤمنين بمحمد ﷺ، وفي الآية أمر من الله للمخاطبين أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر عن معصية الله حتى يتركوها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطوها، وترك ما يحبون من الدنيا والدخول فيما تستثقله طباعهم من قبول دين محمد ﷺ بالصبر أي بحبس النفس عن اللذات، فإنهم إذا كلفوا أنفسهم ذلك مرنت عليه وخف عليها ثم إذا ضممتم الصلاة إلى ذلك تم الأمر، لأن المشتغل بالصلاة لا بد وأن يكون مشتغلاً بذكر الله عز وجل وذكر جلاله وقهره، وذكر رحمته وفضله، فإذا تذكّر رحمته صار مائلاً إلى طاعته، وإذا تذكر عقابه ترك معصيته فيسهل عند ذلك اشتغاله بالطاعة وتركه للمعصية.

وقد يكون المراد من الصبر ههنا الصوم لأن الصائم صابر عن الطعام والشراب، ومن حبس نفسه عن قضاء شهوة البطن والفرج زالت عنه كدورات حب الدنيا، فإذا انضاف إليه الصلاة استنار القلب بأنوار معرفة الله تعالى، وإنما قدم الصوم على الصلاة لأن تأثير الصوم في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي، والنفي مقدم على الإثبات، ولأن الصلاة تمنع عن الاشتغال بالدنيا وتخشع القلب ويحصل بسببها تلاوة الكتاب، والوقوف على ما فيه من الوعد والوعيد والمواعظ والآداب الجميلة، وذكر مصير الخلق إلى دار الثواب أو دار العقاب، فيهون على الإنسان حينئذ ترك الرياسة

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٩، ١٠) باختصار وتصرف.

وينقطع عن المخلوقين ويتجه إلى قبلة الخالق[(١)].

وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الراجح أن الضمير عائد إلى الصلاة فيكون المعنى: إن الصلاة شاقة إلا على الخاشعين فإنها سهلة عليهم، لأن الخشوع وخشية الله، ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحاً صدره، لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه، ذلك لأن الخشوع فيه خضوع للقلب وطمأنينة وسكون لله تعالى وانكسار بين يديه ذلاً وافتقاراً وإيماناً به وبلقائه[(٢)].

وقد يقول قائل: إذا كانت الصلاة شاقة وثقيلة على غير الخاشعين، سهلة على الخاشعين فيجب أن يكون ثوابهم أكثر وثواب الخاشع أقل؟

ويرد الرازي على ذلك: «بأنه منكر من القول وليس المراد أن الذي يلحقهم من التعب أكثر مما يلحق الخاشع وكيف يكون ذلك والخاشع يستعمل عند الصلاة جوارحه وقلبه وسمعه وبصره ولا يغفل عن تدبر ما يأتي به من الذكر والتذلل والخشوع وإذا تذكر الوعيد لم يخل من حسرة وغم، وإذا ذكر الوعد فكمثل ذلك، وإذا كان هذا فعل الخاشع فالثقل عليه بفعل الصلاة أعظم، وإنما المراد: وإنها لثقيلة على من لم يخشع أنه من حيث لا يعتقد في فعلها ثواباً وفي تركها عقاباً فيصعب عليه فعلها.

إن الملحد إذ لم يعتقد في فعلها منفعة ثقل عليه فعلها لأن الاشتغال بها لا فائدة فيه يثقل على الطبع، أما الموحد فلما اعتقد في فعلها أعظم المنافع وفي تركها أعظم المضار لم يثقل ذلك عليه لما يعتقد في فعله من الثواب والفوز العظيم بالنعيم المقيم، والخلاص من العذاب الأليم»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ وصف للخاشعين بأنهم الذين يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد

---

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٧٠، ٧١) باختصار وتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣٤) بتصرف.

(٣) مفاتيح الغيب (٢/ ٧٢) باختصار، ويُنظر: الكشاف (٧٥).

والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات[(١)].

وفي وصف الله تعالى الخاشعين بأنهم الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون، وهي صلة لها مزيد اتصال بمعنى الخشوع، ففيها معنى التفسير للخاشعين ومعنى بيان منشأ خشوعهم، فدل على أن المراد من الظن هنا الاعتقاد الجازم، وإطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير جداً[(٢)].

وعبر بالظن للإشارة إلى أن من ظن اللقاء لا تشق عليه الصلاة، فما ظنك بمن يتيقنه؟ ومن ثم كان الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ[(٣)].

إن ملاقاة الرب مسبب عن الموت فأطلق المسبب وأراد السبب، وذلك أنه يقال لمن مات إنه لقي ربه.. والصلاة كبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون الموت كل لحظة، وذلك لأن كل من كان متوقعاً للموت في كل لحظة فإنه لا يفارق قلبه الخشوع، فهم يبادرون إلى التوبة، لأن خوف الموت مما يقوي دواعي التوبة، ولأنه مع خشوعه لا بد في كل حال من أن لا يأمن تقصيراً جرى منه فيلزمه التلافي[(٤)].

رابعاً: المحافظة والمداومة على الصلاة:

المداومة والمحافظة على الصلاة من أبرز صفات الأنبياء والمؤمنين، وقد أثنى الله عليهم بهذه الصفة في أربع آيات من القرآن في ثلاث سور مكية، ثلاث منها بلفظ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ وآية واحدة بلفظ ﴿دَآئِمُونَ﴾.

١- قال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

جاءت الآية بعد أن شنع الله على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فذكر الله أنه أنزل الكتاب على موسى عليه السلام وأنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ، ومعنى الآية أي: وهذا القرآن كتاب عظيم القدر أنزلناه على خاتم رسلنا كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى، وقد باركنا فيه فجعلناه كثير الخير،

(١) تفسير القرآن العظيم (١٢٧).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٨٠).
(٣) تفسير المراغي (١/ ١٠٧) ويُنظر: روح المعاني (١/ ٢٥١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢/ ٧٣) بتصرف واختصار.

دائم البركة والمنفعة يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية، ومصدقاً لما تقدمه من كتب الأنبياء قبله.. وأنزلناه أيضاً لتنذر به عذاب الله وبأسه أهل مكة ومن حولهم من ديار العرب بل ومن سائر البلدان ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد إلى الله في الآخرة ويصدق بالثواب والعقاب فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك ويقر به سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم لأنهم يجدون فيه أكمل الهداية إلى السعادة العظمى في تلك الدار.. وفي هذا تصريح بسبب إعراض أهل مكة عن هذا الكتاب وتنبيه إلى أنهم لما لم يعتقدوا في البعث والجزاء امتنعوا عن قبول هذا الدين وأنكروا نبوة محمد ﷺ.

ثم وصف الله المؤمنين بالآخرة وبالقرآن بأنهم ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يداومون عليها ويحفظون أوقاتها وأركانها وحدودها وشروطها وآدابها ومكملاتها.

وخصها بالذكر من بين سائر العبادات لأنها عماد الدين، وأسس العبادات المقوية للإيمان وكمال الإذعان، والمحافظة عليها تدعو إلى القيام بسائر العبادات المفروضة وترك جميع المحرمات ومحاسبة النفس على لذاتها وشهواتها[(١)].

إن من آمن بالآخرة آمن بالقرآن، ومن لم يؤمن به فليس إيمانه بالآخرة حقيقة ولا يعتد به.. ثم إنه أراد المؤمنين الذين يحافظون على الصلوات[(٢)].

إن الإخبار عن المؤمنين بأنهم يؤمنون بالقرآن تعريضاً بأنهم غير مقصودين بالإنذار فيعلم أنهم أحقاء بضده وهو البشارة وزادهم ثناء بقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ إيذاناً بكمال إيمانهم وصدقه إذ كانت الصلاة هي العمل المختص بالمسلمين، فإن الحج كان يفعله المسلمون والمشركون، ولم يكن الحج مشروعاً للمسلمين في مدة نزول هذه السورة[(٣)].

إن الإيمان بالآخرة كما يحمل الرجل على الإيمان بالنبوة فكذلك يحمله على المحافظة على الصلوات، ولقائل أن يقول: الإيمان بالآخرة يحمل على كل الطاعات، فما الفائدة من تخصيص الصلاة بالذكر؟ لأن المقصود منه التنبيه على أن الصلاة أشرف العبادات بعد

(١) يقارن مع تفسير المراغي (٧/ ١٩٠) وتيسير الكريم الرحمن (٢٢٦).
(٢) زاد المسير (٥٤) ويُنظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٣٧).
(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٣٧٣).

الإيمان بالله وأعظمها خطراً، ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة كما قال ﷺ: (من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر)[1]، فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام[2].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

ختم الله بهذه الآية صفات المؤمنين المفلحين، حيث بدأها بوصفهم بالخشوع في صلاتهم وختمها بوصفهم أنهم يداومون على حفظها ويراعون أوقاتها، وكرر ذلك ليبين أن المحافظة عليها واجبة كما أن الخشوع فيها واجب[3].

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿صَلَوَٰتِهِمْ﴾ على الجمع، وقرأ حمزة والكسائي «صلاتهم» على التوحيد، وهو اسم جنس، فهو بمعنى الجمع[4].

قال ابن كثير: «أي يواظبون على مواقيتها كما قال ابن مسعود: (سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)[5]، وفي مستدرك الحاكم قال: (الصلاة في أول وقتها)[6].

وقال ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة: يعني مواقيت الصلاة.

وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة وختمها بالصلاة فدل على أفضليتها»[7].

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٦٥).

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب (٦/ ٤٣٥) بتصرف بسيط.

(٣) معالم التنزيل (٨٧٨).

(٤) زاد المسير (٩٧٠) والمحرر الوجيز (١٣٢٤).

(٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧) وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

(٦) المستدرك (١/ ٢٨٧) رقم (٦٧٧، ٦٧٨).

(٧) تفسير القرآن العظيم (١٢٩١).

وفي الآية ثناء من الله على المؤمنين بالمحافظة على الصلوات، أي بعدم إضاعتها أو إضاعة بعضها، والمحافظة مستعملة في المبالغة في الحفظ إذ ليست المفاعلة هنا حقيقية..وجيء بالصلوات بصيغة الجمع للإشارة إلى المحافظة على أعدادها كلها تنصيصاً على العموم.

وإنما ذكر هذا مع ما تقدم من قوله ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ لأن ذكر الصلاة هناك جاء تبعاً للخشوع فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار في الذهن لأنها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات، وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويهاً بها ورداً للعجز على الصدر تحسيناً للكلام الذي ذكرت فيه تلك الصفات لتزداد النفس قبولاً لسماعها ووعيها فتتأسى بها[1].

٣، ٤- وفي سورة المعارج جاء قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] في أول الصفات ثم جاء في آخرها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

في الآية الأولى: قرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ بالإفراد، وقرأ الحسن «على صلواتهم» بالجمع ومعنى ﴿دَآئِمُونَ﴾ كما قال جمهور المفسرين: مرابطون قائمون لا يخلون في وقت من الأوقات بها فيتركونها، وهذا في المكتوبة، وأما النافلة فالدوام عليها هو الإكثار منها بحسب الطاقة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه)[2].

وقال ابن مسعود: الدوام صلاتها لوقتها، وتركها كفر.

وقال عقبة بن عامر: ﴿دَآئِمُونَ﴾ يقرون في صلاتهم ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ومنه الماء الدائم أي الساكن الراكد[3].

قال القرطبي: «الدوام خلاف المحافظة، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ١٨، ١٩) باختصار وتصرف.
(٢) تقدم تخريجه صفحة (٨٧).
(٣) المحرر الوجيز (١٨٩٨) وزاد المسير (١٤٧٣) ويُنظر: معالم التنزيل (١٣٤٨) وتفسير القرآن العظيم (١٩١٩).

لا يُخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها»[1].

وكأنه لما كان ما يراعى في إتمام الصلاة وتكميلها مما يتفاوت بحسب الأوقات جيء بالمضارع الدال على التجدد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾، وقيل: إن الإتيان به مع تقديم ﴿هُمۡ﴾ لمزيد الاعتناء بهذا الحكم لما أن أمر التقوى في مثل ذلك أقوى منه في مثل «هم محافظون».. واعتبر هذا هنا دون ما في وصفهم بالمداومة لأن المراعاة المذكورة كثيراً ما يغفل عنها.. وفي افتتاح الأوصاف بما يتعلق بالصلاة واختتامها به دلالة على شرفها وعلو قدرها لأنها معراج المؤمنين، ومناجاة رب العالمين ولذا جعلت قرة عين سيد المرسلين ﷺ[2].

إن من مداومة المؤمنين على الصلاة أن لا يتركوها في وقت من الأوقات، ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه، وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة وتارة بأمور لاحقة بها وتارة بأمور متراخية عنها.

أما الأمور السابقة فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلق القلب بدخول أوقاتها، ومتعلق بالوضوء، وستر العورة وطلب القبلة، ووجدان الثوب والمكان الطاهريْن، والإتيان بالصلاة في الجماعة، وفي المساجد المباركة، وأن يجتهد قبل الدخول في الصلاة في تفريغ القلب عن الوساوس، والالتفات إلى ما سوى الله تعالى، وأن يبالغ في الاحتراز من الرياء والسمعة.

وأما الأمور المقارنة فهو أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة، فاهماً للأذكار، مطلعاً على حكم الصلاة.

وأما الأمور المتراخية فهي أن لا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٤٩٦) ويُنظر: الكشاف (١١٤٠).
(٢) يقارن مع روح المعاني (١٥/ ٧٢).

وأن يحترز كل الاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي[(١)].

خامساً: أمر الأولاد والأهل بالصلاة:

ومن صفات الأنبياء والمؤمنين من بعدهم أنهم يقيمون أمر الله على أهلهم وأولادهم فيأمرونهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ومن ذلك حثهم ومتابعتهم لهم أمر الصلاة لما فيها من الإخلاص لله، وقد أثنى الله على إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بذلك فقال عز وجل عنه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

وهذا من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة حيث كان عليه السلام مثابراً على طاعة ربه آمراً بها أهله، وفسر بعضهم الأهل بقومه خاصة، وقيل: أهله جميع أمته[(٢)].

وفي الآية أن إسماعيل عليه السلام اشتغل بالأهم وهو أن يبدأ الرجل بعد تكميل نفسه بتكميل من هو أقرب الناس إليه وكذلك قصد إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوة يؤتسى بهم، ويحكى أنه عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة ليلاً والصدقة نهاراً[(٣)].

والأقربون أحق بالتصدق عليهم، فالإحسان الديني أولى.. وفي الآية أن من حق الصالح أن لا يألو نصحاً للأجانب فضلاً عن الأقارب والمتصلين به، وأن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك[(٤)].

قال الرازي: «والأقرب في الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة، هذا إذا حمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة فإن حمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله أي من كان في داره في ذلك الوقت بذلك وكان نظره لهم في الدين يغلب

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٧٢٨).

(٢) معالم التنزيل (٨٠٤) وزاد المسير (٨٨٨) والمحرر الوجيز (١٢٣٢).

(٣) روح المعاني (٨/ ٤٢٢) ويُنظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٦٢٩).

(٤) الكشاف (٦٤٠).

على شفقته عليهم في الدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس»[١].

إن البدء بالأهل في الأمر بالصلاح والعبادة لأنهم أولى من سائر الناس كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وأمره بأن يتأسى بجده إسماعيل عليه السلام فقال له: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

أي: حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به فيكون أمراً بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

واصطبر أنت على الصلاة بإقامتها بحدودها، وأركانها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك أو الصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع[٢].

وأمر الله المؤمنين بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ [التحريم: ٦].

أي مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح على وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء)[٣].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرت)[٤].

وكان الصحابة رضي الله عنهم ومنهم عمر بن الخطاب إذا قاموا من الليل أيقظوا

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ٤٧٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٦٦).

(٣) سنن أبي داود (٢/ ٣٣) رقم (١٣٠٨) وسنن النسائي (٣/ ٢٠٥) وسنن ابن ماجه (١/ ٤٢٤) رقم (١٣٣٦). قال الألباني: «حسن صحيح». صحيح سنن أبي داود (١/ ٣٥٨) رقم (١٣٠٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٢٣١)، والحديث صححه الألباني وقال: أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم. يُنظر: صحيح الجامع وزيادته، رقم (٣٣٠) (١/ ١٥١).

أهلهم.

وفي قصة لقمان أنه حث ابنه على إقامة الصلاة فقال تعالى عنه:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: ١٧].

إن لقمان آتاه الله الحكمة فاستطاع أن يوفق العمل بالعلم. فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة، فشكر الله على ما أنعم عليه في نفسه، فجعله الله واعظاً لغيره وذلك لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكملاً لغيره.. فذكر الله لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليُعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب فإن إرشاد الولد أمر معتاد، وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فهو التوفيق بعينه.

ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الشرك.. فلما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة: وهي العبادة لوجه الله مخلصاً، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت[(١)].

إن الآباء من أشفق الناس على أبنائهم وأكثرهم حباً لهم فهم حقيقون أن يمنحوهم أفضل ما يعرفون، ويرشدوهم إلى ما ينفعهم في الآخرة والأولى، فيأمروهم بأداء الصلاة كاملة على النحو المرضي لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها في السراء والضراء.

سادساً: عمارة المساجد بالصلاة فيها وغير ذلك من عمارتها:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

شهد الله تعالى بالإيمان لعمار المساجد، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ

(١) مفاتيح الغيب (١٢/٥٠٦-٥١٠) باختصار وتصرف.

ٱلۡأٓخِرِ ﴾[(١)].

و ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مواضع عبادته بالسجود والركوع التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ: «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسسه خليل الرحمن على هذا[(٢)].

وعمرُ المساجد: العبادة فيها لأنها إنما وضعت للعبادة فعمرها بمن يحل فيها من المتعبدين ومن ذلك اشتقت العمرة، وأن من آمن بالله واليوم الآخر هم الأحقاء بأن يعمروا المساجد، ومجيء صيغة القصر فيها مؤذن بأن المقصود إقصاء فرق أخرى عن أن يعمروا مساجد الله، غير المشركين الذين كان إقصاؤهم بالصريح فتعين أن يكون المراد من الموصول وصلته خصوص المسلمين، لأن مجموع الصفات المذكورة في الصلة لا يثبت لغيرهم، فاليهود والنصارى آمنوا بالله واليوم الآخر لكنهم لم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة، لأن المقصود بالصلاة والزكاة العبادتان المعهودتان بهذين الاسمين والمفروضتان في الإسلام،.. واستغنى عن ذكر الإيمان برسوله محمد ﷺ بما يدل عليه من آثار شريعته وهو الإيمان باليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقصر خشيتهم على التعلق بجانب الله تعالى بصيغة القصر ليس المراد منه أنهم لا يخافون شيئاً غير الله فإنهم قد يخافون الأسد ويخافون العدو، ولكن معناه إذا تردد الحال بين خشيتهم الله وخشيتهم غيره قدموا خشية الله على خشية غيره، فالقصر إضافي باعتبار تعارض خشيتين[(٣)].

والعمارة تتناول رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها مما لم تبن له المساجد من حديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث[(٤)].

وعمارة المساجد قسمان: إما بلزومها وكثرة إتيانها، يقال: فلان يعمر مجلس فلان إذا

---

(١) مسند أحمد (١٨/ ١٩٤، ٢٥١) وسنن الترمذي، رقم (٢٦١٧) وقال: «هذا حديث غريب حسن»، وسنن ابن ماجه، رقم (٨٠٢) ومستدرك الحاكم (١/ ٢١٢) وقال: «هذه ترجمة للمصريين لم يختلفوا في صحتها وصدق رواتها، غير أن شيخيْ الصحيح لم يخرجاه»، وقال الذهبي: «دراج كثير المناكير» وصحيح ابن حبان، رقم (١٧٢١) وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، رقم (٢٦١٧) وضعيف سنن ابن ماجه، رقم (٨٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٤٠، ١٤٢) باختصار وتصرف.

(٤) الكشاف (٤٢٦).

كثر غشيانه إياه، وإما بالعمارة المعروفة في البناء.. والمشتغل بعمارة المسجد لا بد أن يكون موصوفاً بصفات أربع:

الأولى: الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن المسجد عبارة عن الموضع الذي يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمناً بالله امتنع أن يبني موضعاً يعبد الله فيه أو لأن الاشتغال بعبادة الله إنما تفيد يوم القيامة، فمن أنكر القيامة لم يعبد الله.

الثانية: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وذلك أن المقصود الأعظم من بناء المساجد إقامة الصلوات، فالإنسان ما لم يكن مقراً بوجوب الصلوات امتنع أن يقدم على بناء المساجد.

الثالثة: إيتاء الزكاة.

إن اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في عمارة المسجد كأنه يدل على أن المراد من عمارة المسجد الحضور فيه، وذلك لأن الإنسان إذا كان مقيماً للصلاة فإنه يحضر في المسجد فتحصل عمارة المسجد، وإذا كان مؤتياً للزكاة فإنه يحضر في المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد به.

الرابعة: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ المعنى أنه يبني المسجد ويعمره لا لأجل الرياء والسمعة وأن يقال فلان يبني مسجداً ولكنه يبنيه لمجرد طلب رضوان الله تعالى وتقوية دين الله[(١)].

إن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وابنه إسماعيل عليهما السلام هما أول من عهد الله لهما عمارة المسجد الحرام للطائفين فيه والمصلين وتطهيره من الأوثان والأقذار، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

في الآية الأولى أضاف الله البيت إلى نفسه تشريفاً للبيت، وهي إضافة مخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك، وقوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ ظاهره أهل الطواف، ويشمل الغرباء الطارئين على مكة، ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ يشمل أهل البلد المقيمين، والمجاورين، الملازمي

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٥٩٦-٥٩٩) باختصار وتصرف.

البيت إرادة وجه الله العظيم.. ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلون، وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى، وكل مقيم عند بيت الله إرادة ذات الله فلا يخلو من إحدى هذه الرتب الثلاث: إما أن يكون في صلاة أو طواف، فإن كان في شغل من دنياه فحال العكوف على مجاورة البيت لا يفارقه[1].

وفي الآية الثانية: وطأ، وهيأ، وجعل، وبيَّن مكان البيت لإبراهيم عليه السلام، ثم عهد إليه بعدم الشرك، وتطهيره للعبادة.. وعبر بلفظ «القائمين» بدلاً من «العاكفين» في الآية الأولى.. وهي بمعنى: المقيمين فيه[2].

وفي سورة النور أثنى الله على من حصلت لهم الهداية، واستنارت قلوبهم بنور الله الذي هداهم له ووفقهم له بأنهم عمروا المساجد بالتعظيم والتطهير عن الأنجاس وعن اللغو من الأقوال، ونزهوا الله وقدسوه فيها أول النهار وآخره ولم تشغلهم وتلههم أعمالهم في البيع والشراء عن إقامة الصلاة لمواقيتها، إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم فما عندهم ينفد وما عند الله باق.. قال تعالى عنهم:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

ولعل إفراد «إقام الصلاة» وهي داخلة في ذكر الله لبيان أنهم يذكرون الله قبل الصلاة وفي الصلاة[3].

سابعاً: كثرة صلاتهم بالليل والنهار:

أخبر الله تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ووصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، كما وصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ

---

(١) المحرر الوجيز (١٣٢) باختصار.

(٢) يقارن مع معالم التنزيل (٨٦٤).

(٣) مفاتيح الغيب (١١/٥٩٦).

لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا [الفتح: ٢٩].

في الآية وصف للرسول ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار بأكمل الصفات وأجل الأحوال فهم جادون ومجتهدون في نصرتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم ير الكفار منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم وانكسروا، وهم مع ذلك رحماء بينهم متحابون متراحمون، متعاطفون كالجسد الواحد يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه.. أما معاملتهم مع خالقهم فإنك تراهم ركعاً سجداً، ومقصودهم بلوغ رضا ربهم والوصول إلى ثوابه، وقد أثرت العبادة من كثرتها وحسنها في وجوههم حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم استنارت بالجلال ظواهرهم[(١)].

إن كثرة الصلاة تورث السمت الحسن، وتحسن الوجوه، وكما قال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

والصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم[(٢)].

والخطاب في تَرَىٰهُمْ لغير معين بل لكل من تتأتى رؤيته إياهم، أي يراهم الرائي، وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك، أي تراهم كلما شئت أن تراهم ركعاً سجداً، وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس وهي الصلوات مفروضها ونافلتها، وأنهم يتطلبون بذلك رضى الله ورضوانه، وفي سوق هذا في مساق الثناء إيماء إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه[(٣)].

«إن إرادة التكريم من الله للرسول ﷺ وأصحابه واضحة في وصف هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة: تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا .. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم، فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٣٩).
(٢) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (١٧٤١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٠٥).

حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً.

أما بواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه، ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه وينشغلون به.

أما أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم، ونضحها على سماتهم فهي سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف، وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله: ﴿مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ .. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ [المزمل: ٢٠] ما يدل على سرعة استجابة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لقوله تعالى في أول السورة: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٢-٤]، وامتثل الرسول ﷺ ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] أمر النبي ﷺ بأن يختار على الهجود، التهجد، وعلى التزمل، التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة في الله لا جرم أن رسول الله ﷺ قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر وأقبلوا على إحياء لياليهم، ورفضوا له الرقاد والدعة وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم وظهرت السيمى في وجوههم وترامى أمرهم إلى حدٍ رحمهم له ربهم فخفف عنهم[(٢)].

إن الرسول ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان يدخلون دخولاً أولياً في عباد الرحمن

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٣٢) باختصار وتصرف، ويُنظر: المحرر الوجيز (١٧٣٩).

(٢) الكشاف (١١٥٠).

الذين رحمهم الله ونعتهم بأكمل الصفات التي جاء ذكرها في سورة الفرقان ومنها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤] أي يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له، ويروى عن الحسن أنه إذا قرأ هذه الآية قال: هذا وصف ليلهم بعد أن وصف نهارهم.. فهم علماء حكماء بالنهار أصحاب وقار وعفة، يمشون بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين، لا يسفهون، وإن سُفه عليهم حلموا، وقالوا سداداً من القول يسلمون فيه من الإثم[(١)].

يقال لمن أدرك الليل: بات، نام أو لم ينم، والمعنى: يبيتون لربهم بالليل في الصلاة، سجداً على وجوههم، وقياماً على أقدامهم، وفي الآية وصف لهم بإحياء الليل، وبأكثره، يقال: فلان يظل صائماً ويبيت قائماً.. وفي الآية حث على قيام الليل بالصلاة[(٢)] وذلك لأن العبادة بالليل أخص وأبعد عن الرياء.

وفي قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم لما أن ذلك هو الذي يستتبع أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله[(٣)].

إن من طاعة أولياء الله لربهم وإيمانهم به أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله ويسبحوه بقلوبهم ويؤمنون بآياته وإذا تليت عليهم استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً وخروا خاضعين، قال تعالى عنهم:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٦].

أي ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى فيدعونه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ودفع مضارهما، جامعين بين الوصفين خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في

---

(١) معالم التنزيل (٩٣١) بتصرف.

(٢) يقارن مع الكشاف (٧٥١) والمحرر الوجيز (١٣٩٠).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٤٥٤).

قبولها، خوفاً من عذاب الله وطمعاً في ثوابه[(١)].

وعن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾)[(٢)].

وفي سورة الذاريات ذكر الله في وصف المتقين الذين سينعمون في الجنات والعيون أنهم كانوا محسنين قبل ذلك في الدنيا، ثم بين إحسانهم في العمل بقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨] والمعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل، والهجوع: النوم الخفيف.

ودلت الآية على أنهم كانوا يهجعون قليلاً من الليل وذلك اقتداءً بأمر الله تعالى نبيه بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ وقد كان النبي ﷺ يأمرهم بذلك كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: (أن رسول الله ﷺ قال له: ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قال: نعم، قال: لا تفعل، إنك إن فعلت ذلك نقهت النفس وهجمت العين، وقال له: قم ونم، فإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً)[(٣)].

وفي قوله: ﴿كَانُواْ﴾ ما يدل على أن ذلك كان سنة متقررة عند أهل الإيمان والتقوى، وفي لفظ الهجوع تذكير بالحالة التي تميل إليها النفوس فتغلبها وتصرفها عن ذكر الله تعالى، والتصريح بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ للتذكير بأنهم تركوا النوم في الوقت الذي من شأنه استدعاء النفوس للنوم فيه زيادة في تصوير جلال قيامهم الليل وإلا فإن قوله: «كانوا قليلاً ما يهجعون» يفيد أنه من الليل، وتقييد الهجوع بالقليل للإشارة إلى أنهم لا يستكملون منتهى حقيقة الهجوع بل يأخذون منه قليلاً.

---

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٦٠٣)، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٤٧٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٦/ ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٦١) وابن جرير (١٨/ ٦١٤) والحاكم (٢/ ٤١٢) وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٩)، ويُنظر: الدر المنثور (١١/ ٦٩٣).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب حق الأهل في الصوم، رقم (١٩٧٧)، وباب صوم داود عليه السلام، رقم (١٩٧٩) وصحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت حقاً أو لم يفطر العيدين، رقم (١١٥٩) وغيرهما.

ثم أتبع ذلك بأنهم يستغفرون في السحر، أي فإذا آذن الليل بالانصرام سألوا الله أن يغفر لهم بعد أن قدموا من التهجد ما يرجون أن يزلفهم إلى رضى الله تعالى.

وهذا دل على أن هجوعهم الذي يكون في خلال الليل قبل السحر، فأما في السحر فهم يتهجدون، ولذلك فسر ابن عمر ومجاهد الاستغفار: بالصلاة في السحر، وهذا نظير قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ وليس المقصود طلب الغفران بمجرد اللسان ولو كان المستغفر في مضجعه إذ لا تظهر حينئذ مزية لتقييد الاستغفار بالكون في الأسحار. وخص هذا الوقت لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان فيه فصلاتهم واستغفارهم فيه أعجب من صلاتهم في أجزاء الليل الأخرى.

وجمع الأسحار باعتبار تكرر قيامهم في كل سحر[(١)].

إن المكثرين من الصلاة آناء الليل هم العلماء حقيقة لأنهم عملوا بعلمهم ولأنهم عبدوا الله خوفاً من النار ورجاء في الجنة.. وهم لا يستوون حقيقة مع الكافر الجاحد الناسي لربه.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

القانت: هو المتعبد لله في ساعات الليل أوله ووسطه وآخره كما قال الحسن.

إن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أولاً بـ«القانت» ثم نفى المساواة بينه وبين غيره، ليكون تأكيداً له، وتصريحاً بأن غير العامل كأن ليس بعالم.

وإنما كان المطيع هو العالم، لأن العلم هو الذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم، فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه، وأما المرتسم في حيز التخيل، بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه فليس بعلم، إنما هو تصوري وتخيل عارض لا يلبث بل يزول سريعاً، لا يغذو القلب ولا يسمن ولا يغني من جوع.. ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يتعظ بهذا الذكر أصحاب العقول الصافية عن قشر التخيل والوهم،

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٨-٣٥٠) باختصار وتصرف.

لتحققها بالعلم الراسخ الذي يتأثر به الظاهر، وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه(١).

وقد وصف الله المؤمنين الصادقين في إيمانهم البالغين فيه حد الكمال الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بجنته بصفات تسع، الخامسة والسادسة منها تدل على كثرة صلاتهم بالليل والنهار فرضاً ونفلاً، قال تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وإنما جعل ذكر الركوع والسجود كناية عن الصلاة لأن سائر أشكال المصلي موافق للعادة وهو قيامه وقعوده، والذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود، وبه يتبين الفضل بين المصلي وغيره، ويمكن أن يقال: القيام أول مراتب التواضع لله تعالى، والركوع وسطها، والسجود غايتها، فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتها على غاية التواضع والعبودية تنبيهاً على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم(٢).

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ١٦٩-١٧٠) باختصار.

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ١٨٩).

الفصل الثاني
المشركون وحالهم مع الصلاة

إن المتأمل لآيات القرآن الكريم الواردة في الصلاة لفظاً أو معنى يجد أن عدداً منها تعرض لذكر صلاةٍ للمشركين باطلة من الأمم السابقة أو ممن عاصروا الرسول ﷺ، وهناك آيات تتحدث عن دعوتهم للصلاة، وموقفهم من هذه الدعوة، وكذا موقفهم من صلاة النبي ﷺ والمؤمنين معه، كما وصف القرآن صلاتهم البدعية وادعاؤهم عمارة المسجد الحرام، وهناك آيات بينت اشتراط إقامة الصلاة لصحة توبة المشركين، ودخولهم في الأخوة في الدين، إلى غير ذلك.

وسأحاول إلقاء الضوء على تلك الآيات مبيناً الأسلوب الذي اتبعه القرآن:

أولاً: صلاة المشركين السابقين:

١- قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

جاءت هذه الآية في سياق قصة هدهد سليمان عليه السلام عن بلقيس ملكة سبأ، وكانت هي وقومها يعبدون الشمس، وكانوا من الصابئة، وقيل: إنهم مجوس، وقيل غير ذلك[١].

والمعنى: أنه وجدها وقومها في ضلال مبين، فهم يعبدون الشمس ويصلون لها، ويَدَعُون رب الشمس وخالق الكون المحيط بكل شيء علماً، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم فظنوا حسناً ما ليس بحسن، وصدهم عن الطريق القويم الذي بعث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده[٢]، وفي صفة صلاتهم:

نقل ابن كثير عن علماء التاريخ في وصف عرش بلقيس وأنه سرير عظيم في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه، وقد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساءً[٣].

(١) المحرر الوجيز (١٤١٨) والتحرير والتنوير (١٩/ ٢٥١).
(٢) تفسير المراغي (٧/ ١٣٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١٣٩٤).

إنهم مشركون عبدوا الشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فرأوا ما هم عليه هو الحق.. ومن كان كذلك لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

إن الشمس والقمر من الآيات الدالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته وسعة سلطانه، ورحمته بعباده وأنه الله وحده لا شريك له.. ومع أنه لا تستقيم معايش العباد، ولا أبدانهم، ولا أبدان حيواناتهم، إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده فإنهما مدبَران مخلوقان مسخران.. وقد نهى الله عن السجود لهما وأمر بالسجود لمن خلقهن وأمر بعبادته وحده سبحانه لأنه الخالق العظيم، وترك عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمها وكثرت مصالحها، فإن ذلك ليس منها وإنما هو من خالقها تبارك وتعالى فيجب أن يخص هو بالعبادة وإخلاص الدين له[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

إن ظلال المشركين تسجد لله كرهاً بكرة وعشياً كما أخبر عن ذلك بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥].

إن من عظمة الله وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء أن يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين أول النهار وآخره كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

قال مجاهد: ظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره، وقال ابن عباس: يسجد ظل الكافر حين يفيء عن يمينه وشماله، وقيل: إن الكافر إذا سجد لصنمه فإن ظله يسجد لله حينئذ[(٢)].

وقال ابن عطية: «وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل على حسب ما هو في اللغة.. فإنه ما من كافر إلا ويلحقه من التذلل والاستكانة بقدرة الله أنواع أكثر من أن تحصى بحسب رزاياه واعتباراته».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٩٥) بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٠٠٨، ١٠٦٤).

قال الزجاج: والكافر إن كفر بقلبه ولسانه وقصده فنفس جسمه وعظمه ولحمه وجميع الشجر والحيوان خاضعة لله ساجدة»[(١)].

ثانياً: دعوة القرآن المشركين للصلاة:

تنوعت أساليب القرآن في دعوة المشركين للصلاة، فتارة بذكر ضلال من قبلهم من المشركين كما سبق في «أولاً»، وتارة بذكر سجود وصلاة جميع من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وتارة بتذكيرهم بما كان عليه أبوهم إبراهيم عليه السلام حيث حكى الله قصته في سورة الأنعام المكية وأنه ناظر قومه فتبرأ من الشرك وبين بطلان إلهية الأجرام العلوية كالشمس والقمر وغيرها مما يعبد من دون الله، وأقام على ذلك البرهان وحاجهم في ذلك، وكان يقول عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وفي السورة نفسها أمر الله نبيه ﷺ أن يخاطبهم ويدعوهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

حيث أمر الله نبيه ﷺ أن يعلن ويبين ما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة، وهو الذي عليه الأنبياء والمرسلون جميعاً خصوصاً إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم.. ثم خصص من ذلك أشرف العبادات وهي الصلاة والذبح لشرف هاتين العبادتين و فضلهما ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له.

وفي السورة نفسها المكية أيضاً دعاهم إلى الصلاة بأن أمر نبيه ﷺ أن يذكر لهم أنه ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله ﷺ وما عداه فهو ضلال وردى وهلاك: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧١-٧٢].

إن أهم ما في هذا الهدى هو الانقياد لتوحيد الله والاستسلام لأوامره ونواهيه

(١) المحرر الوجيز (١٠٣٦، ١٠٩٨) ويُنظر: معاني القرآن (٣/ ٢٠٢).

والدخول تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد وأكمل تربية أوصلها إليهم، كما أمرنا الله أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها وأمرنا بأن نتقي الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه لأنه هو الذي يجمع الناس ليوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها[(١)].

وقريب من الآية السابقة ما جاء في سورة يونس المكية حيث أمر الله نبيه ﷺ أن يكون من المؤمنين ولا يكن من المشركين وذلك بأن يخلص في عبادته لله وحده حنيفاً، ومن أهم مظاهر العبادة الاستقامة في الدين والاستمرار فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح، ومن معاني إقامة الوجه للدين استقبال القبلة في الصلاة[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٤-١٠٥].

ومن أسلوب القرآن في دعوة المشركين للصلاة تذكيرهم بمآلهم يوم القيامة وندمهم على عدم استجابتهم لهذا الدين، وعدم أدائهم للصلاة:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

أخبر الله أنهم سيدعون للسجود يوم القيامة، فتصير أصلابهم كصياصي البقر فلا يستطيعون السجود لله وأبصارهم ذليلة وذلك بسبب إجرامهم وتكبرهم في الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، فهم لما دُعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فسجد له المؤمنون لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه عكس السجود كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون[(٣)].

وكذا قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾

(١) يقارن بين معالم التنزيل (٤٢٦) وتيسير الكريم الرحمن (٢٢٣).
(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٤٤٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١٩٠٨) ويقارن مع معالم التنزيل (١٣٣٩).

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٧].

يذكر الله تعالى المشركين بأنهم سيعترفون يوم القيامة بعد أن يرتهنوا بسوء أعمالهم وتحق عليهم كلمة العذاب بأنهم لم يكونوا من المصلين، وفي نفي الصلاة يدخل الإيمان بالله تعالى والمعرفة به والخشوع له والعبادة، والصلاة تنتظم معظم الدين وأوامر الله تعالى وواجبات العقائد(١).

ثالثاً: موقف المشركين من الدعوة إلى الصلاة ومن المصلين:

من أبرز مواقف المشركين موقف أبي جهل من صلاة الرسول ﷺ عند البيت وأخبر الله عنه بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠].

قال ابن كثير: نزلت في أبي جهل، لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولاً فقال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريقة المستقيمة في فعله أو ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ بقوله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته، ولهذا قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء(٢).

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: (لو فعل لأخذته الملائكة عياناً)(٣).

وعن ابن عباس قال: (كان النبي ﷺ يصلي عند المقام فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال أبو جهل: إنك لتعلم أن ما بها رجلٌ أكثر نادياً مني، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته الزبانية)(٤).

---

(١) المحرر الوجيز (١٩٢١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٠١١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾، رقم (٤٩٥٨) ويُنظر: الدر المنثور (١٥/ ٥٢٧).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٤/ ٢٩٨) ومسند أحمد (٤/ ١٦٤) وسنن الترمذي، رقم (٣٣٤٩) وقال: «صحيح الإسناد» وصحيح سنن الترمذي، رقم (٢٦٦٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً، قال: وأنزل الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة)(١).

ولما نزلت سورة النجم، وهي أول سورة أعلن بها النبي ﷺ يقرؤها عند الكعبة فسجد وسجد من خلفه من حضر من الجن والإنس والشجر(٢).

وعن ابن مسعود قال: (أول سورة أنزلت فيها سجدة «والنجم» فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف)(٣).

قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ [النجم: ٥٩-٦٢].

في الآيات وعيد للمشركين المنكرين لرسالة محمد ﷺ ولما جاء به من القرآن الكريم والله «يقول لهم: إن هذا الحديث ليس أهلاً لأن تقابلوه بالضحك والاستهزاء والتكذيب أو الغفلة واللهو عن تدبره.. ثم أمرهم بالسجود لله لأن ذلك التوبيخ من شأنه أن يعمق في قلوبهم فيكفهم عما هم فيه من البطر والاستخفاف بالداعي إلى الله.. وإنما سجد النبي ﷺ فيها وإن كان الأمر في قوله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟﴾ مفرعاً على خطاب المشركين بالتوبيخ لأن المسلمين أولى بالسجود لله وليعضد الأمر القوي بالفعل ليبادر به المشركون، وقد كان ذلك مذكراً للمشركين بالسجود لله فسجدوا مع النبي ﷺ»(٤).

إن سجود المشركين هذا ليس عن رغبة وإيمان ولكنه من تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب، وكذلك قراءة الرسول ﷺ الخاشعة، فلعلهم عندما استمعوا لها

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، رقم (٢٧٩٧).

(٢) يُنظر: الدر المنثور (١٤/ ٥) نسبه إلى ابن مردويه وأنه أخرجه عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر رضي الله عنهم.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾، رقم (٤٨٦٣) ومواضع أخرى، وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، رقم (٥٧٦).

(٤) يقارن مع التحرير والتنوير (٢٧/ ١٦٢).

صادف قلوبهم لحظة الاستجابة التي لم يملكوا أنفسهم إزاءها وأخذوا بسلطان القرآن فسجدوا مع الساجدين، ثم رجعوا لعنادهم وكفرهم بعد ذلك.

إنهم سجدوا وهم مشركون، وهم يمارون في الوحي والقرآن، وهم يجادلون في الله والرسول، سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول ﷺ يتلو هذه السورة عليهم، سجد الجميع مسلمين ومشركين، لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن أو لا ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون[1].

ومن أحوال المشركين بصفة عامة استكبارهم واستنكافهم ومغالطتهم للرسول ﷺ عندما يدعوهم إلى الصلاة للواحد المنعم سبحانه عليهم بسائر النعم والدافع عنهم النقم.

قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠].

إن المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد، إذا طلب منهم السجود للرحمن قالوا: لا نعرف الرحمن لأنهم كانوا ينكرون أن يُسمى الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم) فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم، ولهذا أنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠][2].

أي هو الله وهو الرحمن، وهم يقولون: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: لا نعرفه ولا نقر به، أنسجد لمجرد قولك وأمرك إيانا، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول ﷺ أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إلهاً آخر، يقول: «يا رحمن»، وأسماؤه تعالى كثيرة لكثرة أوصافه، وتعدد كماله، فكل واحد منها دل على صفة كمال.

إن المشركين لما كذبوا الرسول واستكبروا عن طاعته ﷺ في دعوتهم للسجود

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤١٩) وما بعدها، باختصار وتصرف.

(٢) يُنظر: الدر المنثور (١٣/ ٥٠١) ونسب الرواية إلى أحمد في المسند (٢٧/ ٣٥٤) والنسائي في الكبرى (١١٥١١) والحاكم (٢/ ٤٦٠).

للرحمن زادهم هذا التكبر هرباً من الحق إلى الباطل، وزادهم كفراً وشقاء[(١)].

إن المشركين لما كان من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق مع عجزهم وفقرهم، لم يخضعوا للقرآن ولم ينقادوا لأوامره ونواهيه معاندة، وذلك أن المكذب بالحق عناداً لا حيلة فيه، وقد أخبر عنهم عز وجل بأنهم إذا تلي عليهم القرآن لا يخضعون أو يسجدون لتلاوته، قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الإنشقاق: ٢٠، ٢١] مع أن هذا القرآن فيه إخبار عن الأهوال والشدائد والأمور العظيمة التي سيراها الناس يوم القيامة، وتتلى على المشركين ولكن حالهم الإعراض والتكذيب بالقرآن وعدم الإيمان.

ومن تكذيبهم وعنادهم أنهم إذا أمروا بالصلاة، وأن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه، وقد توعدهم الله عز وجل وأنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون يستحقون ما يستحقه المجرمون فتنقطع عنهم اللذات وتبقى عليهم التبعات، وما هي إلا مدة قليلة قريبة قصيرة ثم يساقون إلى نار جهنم[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٥-٤٨].

رابعاً: صد المؤمنين عن الصلاة في المسجد الحرام وإقامة صلاة بدعية فيه:

من الجرائم العظيمة التي يستحق فاعلها عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة صد المؤمنين عن الصلاة والطواف بالمسجد الحرام.. وقد قام المشركون بهذه الجريمة كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

إن فعلهم هذا صد عن التوحيد، لأن ذلك المسجد بناه مؤسسه ليكون علماً على توحيد الله ومأوى للموحدين، فصدهم المسلمين عنه لأنهم آمنوا بإله واحد صرف له عن كونه علماً على التوحيد، إذ صار الموحدون معدودين غير أهل لزيارته، فقد جعلوا مضادين له فلزم أن يكون ذلك المسجد مضاداً للتوحيد وأهله، ولذلك عقب بقوله:

---

(١) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (١٣٦٢) وتيسير الكريم الرحمن (٥٣٣).

(٢) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (١٩٥٢) وتيسير الكريم الرحمن (٨٣٨).

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي ليسوا هم أهل المسجد الحرام وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه ومن صار على طريقهم من المتقين[(١)].

ويشهد لذلك قصة سعد بن معاذ مع أبي جهل، ففي صحيح البخاري عن عبدالله ابن مسعود أنه حدث عن سعد بن معاذ أنه كان صديقاً لأمية بن خلف وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت فخرج قريباً من نصف النهار فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد آويتم الصباة، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً[(٢)].

إن المشركين كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء، ولهذا استحقوا العذاب واستحقوا ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، ولكن الله رحم هذه الأمة تكرمة لنبيه محمد ﷺ فلم يؤاخذ عامتهم بظلم الخاصة، فعذب نفراً بالقتل والأسر والإهانة ممن عرفوا بالغلو في كفرهم وأذاهم مثل النضر بن الحارث وطعيمة بن عدي، وعقبة بن أبي معيط وأبي جهل.. وعذب بالخوف والجوع من كانوا دون هؤلاء كفراً واستبقاهم وأمهلهم فكان عاقبة أمرهم أن أسلموا بقرب أو بعد، وهؤلاء مثل أبي سفيان، وحكيم بن حزام، وخالد بن الوليد.

وإنما نفى العلم عن أكثرهم دون أن يقال «ولكنهم لا يعلمون» فاقتضى أن منهم من يعلم أنهم ليسوا أولياء المسجد الحرام وهم من أيقنوا بصدق الرسول ﷺ واستفاقوا من غفلتهم القديمة، ولكن حملهم على المتابعة للصادين عن المسجد الحرام العناد وطلب الرئاسة وموافقة الدهماء على ضلالهم وهؤلاء هم عقلاء أهل مكة ومن تهيأ للإيمان منهم بعد ذلك[(٣)].

ولهذا جاء في سورة التوبة وهي من أواخر ما نزل من القرآن أمر بحرمان المشركين من زيارة البيت أو عمارته، وقد كانوا يقومون بها في الجاهلية.. ولكنه بعد براءة الله من

(١) يقارن مع التحرير والتنوير (٩/ ٣٣٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر، رقم (٣٩٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٣٣٨) باختصار وتصرف .

المشركين فليس لهم الحق في أن يعمروا بيوت الله، فهو حق خالص للمؤمنين بالله القائمين بفرائضه، وما كانت عمارة البيت في الجاهلية وسقاية الحاج لتغير من هذه القاعدة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

إنه أمر مستنكر منذ الابتداء، ليس له مبرر لأنه مخالف لطبائع الأشياء، إن بيوت الله خالصة لله لا يذكر فيه إلا اسمه، ولا يدعى معه فيها أحد غيره، فكيف يعمرها من لا يعمر التوحيد قلوبهم، ومن يدعون مع الله شركاء ومن يشهدون على أنفسهم بالكفر شهادة الواقع الذي لا يملكون إنكاره ولا يسعهم إلا إقراره؟

إن أعمالهم كلها باطلة أصلاً، وهم في النار خالدون بما قدموا من الكفر الواضح الصريح.

إن العبادة تعبير عن العقيدة، فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة، وأداء الشعائر وعمارةالمساجد ليست بشيء ما لم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيماني الصحيح، وبالعمل الواقع الصريح، وبالتجرد لله في العمل والعبادة على السواء[(١)].

إن المشركين الذين صدوا عن المسجد الحرام اخترعوا صلاة باطلة فيها صفير وتصفيق، فعل الجهلة الأغبياء الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه فكيف ببقية العبادات، إن صلاتهم وطوافهم من قبيل اللعب واللهو، وأين هي من صلاة المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون.. قال تعالى في وصف صلاة المشركين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، وكان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر، قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، وروي عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٣-١٦١٤) باختصار.

ويصفقون.. قال مجاهد: وإنما كانوا يفعلون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري: يستهزؤن بالمؤمنين[1].

إن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له، كما تقول العرب: ما لفلان عيب إلا السخاء، يريد من كان السخاء عيبه فلا عيب له[2].

إن المشركين بهرجهم ومرجهم الخالي من الوقار واستشعار حرمة البيت ليخطرون بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين المرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم في كثير من البلاد التي يسمونها «بلاد المسلمين»! إنها الجاهلية تبرز في صورة من صورها الكثيرة بعدما برزت في صورتها الواضحة الكبيرة: صورة ألوهية العبيد في الأرض، وحاكميتهم في حياة الناس.. وإذا وقعت هذه فكل صور الجاهلية الأخرى إنما هي تبع لها، وفرع منها[3].

خامساً: إقامة الصلاة شرط لتوبة المشركين وقبولهم إخوة في الدين:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

في الآية الأولى أمر بقتال المشركين، وفيها نسخ لكل موادعة في القرآن أو مهادنة وما جرى مجرى ذلك، حتى يتوبوا من الكفر، والتوبة تتضمن الإيمان ولكن قرن بها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تنبيهاً على مكان الصلاة والزكاة من الشرع[4].

قال القرطبي: «هذه الآية فيها تأمل، وذلك أن الله تعالى علق القتل على الشرك ثم قال: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله، وذلك يقتضي زوال

(١) تفسير القرآن العظيم (٨٣٨).
(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٤٩١).
(٣) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٠٦) باختصار وتصرف.
(٤) المحرر الوجيز (٨٢٦).

القتل بمجرد التوبة، من غير اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة، وهذا بين في هذا المعنى، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين فلا سبيل إلى إلغائها، نظيره قوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)[(١)]»[(٢)].

إن الشرك بالله يضيق على صاحبه جميع الخيرات ويلقيه في جميع الآفات، فلو تاب عن الكفر وأقام الصلاة وآتى الزكاة فقد تخلص من كل تلك الآفات في الدنيا والآخرة.. والتوبة عبارة عن تطهير القوة النظرية عن الجهل، والصلاة والزكاة عبارة عن تطهير القوة العملية عما لا ينبغي وذلك يدل على أن كمال السعادة منوط بهذا المعنى[(٣)].

إن المشركين كانت عداوتهم للإيمان وأهله شديدة، وكانوا لا يرقبون في المؤمنين إذا ظهروا عليهم قرابة ولا ذمة ولا يخافون الله فيهم بل يسومونهم سوء العذاب، ومع هذا فقد أمر الله المؤمنين أن يتخذوهم إخواناً في الدين إذا تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وتناسوا تلك العداوة ويكونوا جميعاً عباد الله المخلصين لأن العبد المخلص يتخذ من عادى دين الله عدواً، ومن نصر دين الله ولياً، وليست عداوته وولايته طبعية تميل به حيث يميل الهوى بل هي مع الدين تدور معه حيث دار[(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٣٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٤٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ٥٧٥) بتصرف.

(٤) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٢٩٠).

الفصل الثالث
المنافقون وحالهم مع الصلاة

قال الجرجاني: النفاق إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب(١).

والنفاق: الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر، مشتق من نافقاء اليربوع، وقد نافق منافقة ونفاقاً(٢)، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به.

والنفاق من جنس الخداع، والمكر، وإظهار الخير وإبطان خلافه، وينقسم شرعاً إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والآخر: النفاق الأصغر: وهو نفاق العمل وهو أن يظهر الإنسان علانية ويبطن ما يخالف ذلك.

ومن أعظم خصال النفاق العملي أن يعمل الإنسان عملاً، ويظهر أنه قصد به الخير وإنما عمله ليتوصل به إلى غرض له سيء فيتم له ذلك، ويتوصل بهذه الخديعة إلى غرضٍ ويفرح بمكره وخداعه، وحمد الناس له على ما أظهره، ويتوصل به إلى غرضه السيء الذي أبطنه(٣).

وقد جاء في القرآن الكريم عدة آيات تصف المنافقين بكسلهم عند القيام للصلاة، ومراءاتهم للناس بها، كما وصفهم بالسهو عن أوقاتها وتضييعها، واتباع الشهوات، وكذا اعتراضهم على القبلة عندما حولت من بيت المقدس إلى البيت الحرام.. وسأستعرض الآيات التي تحدثت عن ذلك ليظهر حال المنافقين مع الصلاة التي هي أعظم وأظهر شعائر الإسلام:

---

(١) التعريفات (٢٤٥).

(٢) لسان العرب (١٠/ ٣٥٩) ومختار الصحاح (٦٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٣٧٥-٣٧٨) باختصار وتصرف.

أولاً: السهو عن الصلاة والمراءاة بها:

قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

نزلت هذه الآية -كما يقول ابن الجوزي- في المنافقين الذين لا يرجون لصلاتهم ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً، فإن كانوا مع النبي ﷺ صلوا رياءً.

وقال ابن مسعود: والله ما تركوها البتة ولو تركوها البتة كانوا كفاراً، ولكن تركوا المحافظة على أوقاتها.

وقال ابن عباس: يؤخرونها عن وقتها.

ونقل عن أبي العالية أنه قال: هو الذي لا يدري عن كم انصرف، عن شفع أو عن وتر.

ورد هذا بعض العلماء فقال: هذا ليس بشيء، لأن رسول الله ﷺ قد سها في صلاته، ولأنه تعالى قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: في صلاتهم، ولأن ذلك لا يكاد يدخل تحت طوق ابن آدم.. قال ابن الجوزي: ولا أظن أن أبا العالية أراد السهو النادر، وإنما أراد السهو الدائم، و ذلك ينبئنا عن التفات القلب عن احترام الصلاة، فيتوجه الذم إلى ذلك لا إلى السهو[(١)].

إن المنافقين يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، لأنهم ساهون عنها لا يبالون صلوا أم لم يصلوا، وذلك لغفلتهم عن الله والدار الآخرة.. ولو حصل وصلوها لحضور الناس أو اضطروا لذلك فهم يصلوها رياءً ولا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها وسجودها.. وإن فاتهم لم يندموا على ذلك[(٢)].

و«المصلين» من باب وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بأن أشرف أفعالهم وصور حسناتهم سيئات وذنوب، لعدم ما هي به معتبرة من الحضور والإخلاص، والمنافقون يراؤون الناس بصلاتهم لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب، ولا رهبة من عقاب، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنوهم منهم فيكفوا عنهم، وأصل المراءاة أن تُري غيرك ويراك، أريد به العمل عند الناس ليثنوا عليهم[(٣)].

---

(١) يقارن مع زاد المسير (١٥٩٤).

(٢) معالم التنزيل (١٤٣٨) بتصرف عن الأقوال التي نسبها لبعض التابعين.

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٤٩١).

إن الغفلة واللامبالاة بالصلاة حتى تفوت بالكلية أو يخرج وقتها، أو لا تصلى الصلاة كما صلاها الرسول ﷺ، ولكن ينقرها نقراً بدون خشوع، ويُنْجد فيها ويتهم، وفي كل واد من الأفكار غير المناسبة لها يهيم، ويسلم منها ولا يدري ما قرأ فيها.. إلى غير ذلك من قلة المبالاة بها، كل هذا داخل في السهو عن الصلاة الذي هو من خلق أهل النفاق[(١)].

ثانياً: الكسل في الصلاة والتثاقل في القيام لها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

في الآية الأولى وصف الله صلاة المنافقين أنهم يصلون مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثواباً ولا يعتقدون على تركها عقاباً، وبينها رسول الله ﷺ في صحيح الحديث: (إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة والصبح)[(٢)] فإن العتمة تأتي وقد أتعبهم عمل النهار فيثقل عليهم القيام إليها، والصبح تأتي والنوم أحب إليهم من مفروح به، ولولا السيف ما قاموا[(٣)].

إن الكسل في القيام إلى الصلاة حال من يعمل العمل كارهاً غير معتقد فيه الصواب تقية أو مصانعة.. وقرأ جمهور الناس: «يُرؤون» بهمز مضمومة مشددة بين الراء والواو دون ألف، وهي تعدية «رأى» بالتضعيف وهي أقوى في المعنى من ﴿يُرَآءُونَ﴾ لأن معناها: يحملون الناس على أن يروهم أو يتظاهرون لهم بالصلاة وهم يبطنون النفاق، وتقليله ذكرهم يحتمل وجهين:

قال الحسن: قَلَّ لأنه كان لغير الله فهذا وجه.

والثاني: أنه قليل بالنسبة إلى خوضهم في الباطل وقولهم الزور والكفر[(٤)].

---

(١) روح المعاني (١٥/ ٤٧٥) بتصرف.

(٢) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ذكر العشاء والعتمة ومن رآه واسعاً، (١/ ١٢٠، ١٢١) وصحيح مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (٦٥١) (١/ ٤٥١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٦٥).

(٤) المحرر الوجيز (٤٩٢).

إن من علامات المنافقين الكسل والفتور في الأفعال التعبدية لسآمة أو كراهية ولا سيما الصلاة وذلك لقلة اكتراثهم بها وزهدهم في فعلها، وهم ليسوا كالمسلمين الذين يذكرون الله على كل حال، ويكثرون من ذكره، بل لا يذكرون الله إلا زمناً قليلاً وهو وقت حضورهم مع المسلمين إذ يقومون إلى الصلاة معهم حينئذٍ فيذكرون الله بالتكبير وغيره.

وعلى كل تقدير فالآية أفادت عبوديتهم وكفرهم بنعمة ربهم زيادة على كفرهم برسوله وقرآنه[1].

وفي الآية الثانية: إثبات لفسق المنافقين وكفرهم بالله ورسوله وخروجهم عن طاعة الله ورسوله، ولهذا أبطل الله نفقاتهم لأن قبول الأعمال الصالحة من النفقة وغيرها شرطه الأول الإيمان، وهم لا إيمان لهم ولا عمل صالح حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن إذا قاموا إليها قاموا كسالى متثاقلين لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم[2].

إن قلوب المنافقين لم تخشع وتخضع لله جل وعلا لذا كبر عليهم وثقل عليهم القيام إلى الصلاة لأن الله جل وعلا يقول: **وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ** .

ومن معاني الكسل هنا أنه إن كان المنافق في جماعة صلى، وإن كان وحده لم يصل، وكذا الإنفاق فإنه لا ينفق لغرض الطاعة بل رعاية للمصلحة الظاهرة وذلك أنهم كانوا يعدون الإنفاق مغرماً وضيعة بينهم، وهذا يوجب أن تكون النفس طيبة عند أداء الزكاة والإنفاق في سبيل الله لأن الله تعالى ذم المنافقين بكراهتهم الإنفاق.

والحاصل: أن روح الطاعات الإتيان بها لغرض العبودية والانقياد في الطاعة، فإن لم يؤتَ بها لهذا الغرض فلا فائدة فيها بل ربما صارت وبالاً على صاحبها[3].

إن صورة المنافقين في كل آن، خوف ومداراة، وقلب منحرف، وضمير مدخول، ومظاهر خالية من الروح، وتظاهر بغير ما يكنه الضمير، والتعبير القرآني الدقيق: **وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ** .

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٠) بتصرف.

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٣٠٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٨/ ٤١) بتصرف واختصار.

فهم يأتونها مظهراً بلا حقيقة، ولا يقيمونها إقامة واستقامة، يأتونها كسالى لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير، إنما يدفعون إليها دفعاً، فيحسون أنهم عليها مسخرون، وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين.

وما كان الله ليقبل هذه الحركات التي لا تحدو إليها عقيدة، ولا يصاحبها شعور دافع، فالباعث هو عمدة العمل، والنية هي مقياسه الصحيح[(١)].

إن المنافقين لم يؤمنوا حقيقة بوجوب الصلاة، لهذا لا يصلونها إلا رياءً وتقية، لا قصداً إلى ثوابها واحتساباً لأجرها، ولا تكميلاً لأنفسهم بما شرعه الله لأجلها، لأنهم لكفرهم حصل لهم الكسل والتثاقل فلم تنشرح لها نفوسهم ولم تنشط لها أبدانهم[(٢)].

ثالثاً: إضاعة الصلاة واتباع الشهوات:

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قال ابن الجوزي: «وفي المراد بالخلف ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم اليهود، رواه الضحاك عن ابن عباس.

الثاني: اليهود والنصارى، قاله السُدي.

الثالث: أنهم من هذه الأمة يأتون عند ذهاب صالحي أمة محمد ﷺ يتبارون بالزنا، ينزو بعضهم على بعض في الأزقة زناة، قاله مجاهد وقتادة»[(٣)].

وعلى القول الثالث فسيكون في هذه الأمة من تكون هذه صفته لا أنهم المراد بهذه الآية[(٤)].

إن من مظاهر إضاعة الصلاة عند المنافقين عدم المحافظة على كمال وضوئها، وركوعها، وسجودها، وخشوعها، ونقرها كنقر الغراب، وكذا عدم المحافظة عليها في أوقاتها، وأماكنها، قال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله: شرابين

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٦٥).
(٢) تفسير المراغي (١٠/ ١٣٧) بتصرف.
(٣) زاد المسير (٨٩٠) ويُنظر: الدر المنثور (١٠/ ٩٧) ذكر آثاراً عدة في ذلك، ويُنظر: معالم التنزيل (٨٠٦).
(٤) المحرر الوجيز (١٢٣٣).

القهوات[1]، تراكين للجمعات ثم تلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ... ﴾.

وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد ولزموا الضيعات[2].

إن المنافقين شاكلوا اليهود والنصارى فتركوا الصلوات المفروضة عليهم، وآثروا شهواتهم على طاعة الله، فانكبوا على شرب الخمور، وشهادة الزور، ولعب الميسر، وإتيان الفاحشة خفية وعلانية.. فسوف يلقون شراً وخساراً لإهمالهم أداء واجبات الدين وانهماكهم في المعاصي والآثام[3].

رابعاً: الاعتراض على تحويل القبلة:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ١٤٢].

ورد في تحديد المقصود بالسفهاء ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم اليهود، قاله البراء بن عازب ومجاهد وسعيد بن جبير.

الثاني: أنهم أهل مكة، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

الثالث: أنهم المنافقون، ذكره السُدي عن ابن مسعود وابن عباس.

قال ابن الجوزي: وقد يمكن أن يكون الكل قال ذلك[4].

إن من سفه المنافقين وجهلهم اعتراضهم على تحويل القبلة إلى الكعبة من بيت المقدس، وهم إنما قالوا ذلك استهزاء، ويرجح حمل لفظ السفهاء على المنافقين لأن هذا الاسم مختص بهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

إن المنافقين ضعاف الأحلام حريصون على الطعن والاستهزاء، وقد أخبر الله بقولهم قبل وقوعه.. وفائدة ذلك أن مفاجأة المكروه أشد والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه

(١) القهوات: يعني يشربون الخمر.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١١٩٤) ويُنظر هناك آثار أخرى.
(٣) تفسير المراغي (١٦/ ٦٧).
(٤) زاد المسير (٩٢) ويُنظر: مفاتيح الغيب (٢/ ٤٦٣).

أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم[(١)].

واشتملت الآية على معجزة، وتسلية وتطمين قلوب المؤمنين واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسلّم لحكم الله دينه، فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن وهم اليهود والنصارى ومن أشبههم من المنافقين المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة ثم بعد الهجرة إلى المدينة بنحو سنة ونصف لما لله في ذلك من الحِكم، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبر أنه لا بد أن يقول السفهاء: أي شيء صرفهم عن قبلتهم؟

وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه، وفضله وإحسانه، فسلاّهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع الاعتراض ممن اتصف بالسفه، قليل العقل، والحلم والديانة فلا تبالوا بهم، إذ قد علم مصدر هذا الكلام، والعاقل لا يبالي باعتراض السفيه ولا يلقي له ذهنه، ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم.

وقد كان في قوله: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به ولكنه تعالى -مع هذا- لم يترك هذه الشبهة حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وفيه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة إبراهيم فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له.. وهذا من فضل الله عليكم وهدايته وإحسانه، فالمعترض معترض على فضل الله حسداً لكم وبغياً[(٢)].

ونتيجة لصفات هؤلاء المنافقين نهى الله رسوله ﷺ عن الصلاة عليهم فقال عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

(١) الكشاف (١٠٠) باختصار.

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٥٢) باختصار وتصرف.

جاءت هذه الآية من سورة براءة في سياق الكلام عن المنافقين وتخلفهم عن الجهاد مع الرسول ﷺ.. قال البقاعي: «.. ولما أتم سبحانه الكلام في الاستغفار وتعليله إلى أن ختم بإهانة المتخلفين، وكان القتل المسبَب عن الجهاد سبباً لترك الصلاة على الشهيد تشريفاً له، جعل الموت الواقع في القعود المَرضي به عن الجهاد سبباً لترك الصلاة إهانة لذلك القاعد فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ »[1].

وكأنه لما انقضى الكلام على الاستغفار للمنافقين الناشئ عن الاعتذار والحلف الكاذبيْن، وكان الإعلام بأن الله لا يغفر لهم مشوباً بصورة التخيير في الاستغفار لهم، وكان ذلك يُبقي شيئاً من طمعهم في الانتفاع بالاستغفار لأنهم يحسبون المعاملة الربانية تجري على ظواهر الأعمال والألفاظ.. تهيأ الحال للتصريح بالنهي عن الاستغفار لهم والصلاة على موتاهم، فإن الصلاة على الميت استغفار.

ومعنى ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ لا تقف عليه عند دفنه لأن المشاركة في دفن المسلم حق على المسلم على الكفاية كالصلاة عليه، فترك النبي ﷺ الصلاة عليهم وحضور دفنهم إعلان بكفر من ترك ذلك له.

وفي الآية تفنن حيث ختمت بقوله: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ حيث عبر بها عوضاً عن كافرين، والأحسن أن يفسر الفسق هنا بالخروج عن الإيمان بعد التلبس به، فيكون المراد من الفسق معنى أشنع من الكفر[2].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: (لما توفي عبدالله -وهو ابن أبيّ- جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ يصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده على السبعين، قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٥٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٤-٢٨٥) باختصار وتصرف.

وجل آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[(١)].

قال ابن كثير: وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافين[(٢)].

وفي الآية تحريم الصلاة على الكافر، والوقوف على قبره، وأن دفنه جائز، ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ومشروعية الوقوف على قبره والدعاء له والاستغفار[(٣)].

وقال الحافظ ابن حجر: «ظاهر الآية أنها نزلت في جميع المنافقين، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم، قال الواقدي: أنبأنا معمر عن الزهري قال: قال حذيفة: قال لي رسول الله ﷺ: «إني مُسِرٌّ إليك سراً فلا تذكره لأحد، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان، رهطٍ ذوي عدد من المنافقين قال: فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة، فإن مشى معه، وإلا لم يصل عليه..» ولعل الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك أن الله علم أنهم يموتون على الكفر بخلاف من سواهم فإنهم تابو»[(٤)].

«وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جنائز المسلمين، من أهل الكبائر كانوا أو صالحين، وراثة عن نبيهم ﷺ قولاً وعملاً والحمد لله، واتفق العلماء على ذلك إلا في الشهيد، و إلا في أهل البدع والبغاة»[(٥)].

إن الصلاة والقيام على القبر من مظاهر التكريم يجب أن يحرم منه المنافق، والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف في ساعة الجهاد لتبقى له قيمته، ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون في سبيل الله وبما يصبرون على البذل، ويثبتون على الجهد، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله لا يتخلفون بهما في ساعة الشدة، ثم

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة التوبة، باب ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، رقم (٤٦٧٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨٩٩).
(٣) محاسن التأويل (٥/ ٤٨٧) ونسبه إلى السيوطي في الإكليل (١٤٣).
(٤) فتح الباري (٨/ ٣٣٧) باختصار، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (٩٠٠).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٥٤٤).

يعودون في الصف مكرمين[1].

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٨٤).

الفصل الرابع
أهل الكتاب وحالهم مع الصلاة

سبق وأن تكلمت في الفصل الأول من الباب الثالث وهو بعنوان **الصلاة فريضة إلهية على سائر الأنبياء والأمم** عن فرض الصلاة على من قبلنا من الأمم ومن ضمنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتتبعت الآيات الدالة على ذلك وفسرتها هناك.

وفي هذا الفصل سأقصر الكلام على الآيات الخاصة بأهل الكتاب فقط.. والتي تبين حالهم مع الصلاة قديماً منذ فرضها الله عليهم، وكذا الآيات التي نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يحرفوه، ثم أتعرض للآيات التي وردت في خطاب أهل الكتاب الذين دعاهم القرآن للصلاة، وموقفهم من ذلك:

أولاً: موقفهم من العهود والمواثيق التي أخذت عليهم بإقامة الصلاة التي فرضت على أنبيائهم وعليهم:

١- أوحى الله إلى موسى عليه السلام أول ما أوحى بأن عرفه بأنه الله بالاسم العلم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى التي علت عن أن يتصف بها أو بشيء منها حق الاتصاف غيره تعالى، وأمره بإفراده تعالى بالعبادة.. ثم خص من بين العبادات معدن الأنس والخلوة وآية الخضوع والمراقبة وروح الدين.. التي أضاعها خلوف السوء إشارة إلى أنها المقصودة بالذات من الدين لأنها أعلى شرائعه، ولأنها حاملة على المراقبة بما فيها من دوام الذكر والإعراض عن كل سوء، وذلك أنسب شيء لمقام الجلال، بل هي الجامعة لمظهري الجمال والجلال[(١)] فقال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

٢- ولما دعا موسى وأخوه هارون قومهما آمن بهما شباب من بني إسرائيل صبروا على الأذى لما ثبت في قلوبهم من الإيمان على خوف من فرعون وملئه.. الذي أمر بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها، ومُنعوا من الصلاة، وكانوا لا يصلون إلا في الكنائس، واشتد البلاء عليهم، وحرص فرعون وقومه على فتنتهم عن دينهم.. عند ذلك أوحى الله إلى موسى وأخيه أن يأمرا قومهم باتخاذ بيوت يتمكنون بها من الاستخفاء فيها ويتخذوا فيها مساجد يصلون فيها خفية عن فرعون وقومه.. ذلك لأن

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ٢٧٧).

في الصلاة معونة على جميع الأمور، ولا سيما في الشدائد، وأمر الله موسى أن يبشر قومه بالنصر والتأييد وإظهار دينهم، لأن الكرب إذا اشتد وضاق الأمر فرجّه الله ووسعه، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسرا[(١)].

قال تعالى عن ذلك: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

قال ابن عباس: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قِبَل القبلة.

وقال مجاهد: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سراً.

وكذا قال قتادة والضحاك[(٢)].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

جاءت هذه الآية من سورة البقرة وقد سبقتها آيات كثيرة ذكّر الله سبحانه فيها بني إسرائيل الذين عاصروا الرسول ﷺ، ذكرهم بما أنعم الله به على آبائهم من النعم كتفضيلهم على العالمين، وإنجائهم من الغرق، وإنزال المن والسلوى عليهم، ثم ما كان يحصل إثر كل نعمة من مخالفة، فحلول عقوبة، فتوبة من الذنب بعد ذلك.

وفي هذه الآية ذكرهم بأهم ما أمر به أسلافهم من عبادات ومعاملات، ثم ما كان منهم من إهمالها وترك اتباعها.. وقد خوطب النبي ﷺ والمؤمنون بهذا ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الطمع في إيمانهم، لأن قبائح أسلافهم تمنعهم من الهدى والرشاد[(٣)].

إن الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل من أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً.. وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ثم اليتامى الذين لا

---

(١) يقارن مع زاد المسير (٦٣٤) وتيسير الكريم الرحمن (٣٢٨) بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٩٤٢).

(٣) تفسير المراغي (١/ ١٥٥).

كاسب لهم من الآباء، ثم المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، كما أخذ عليهم الميثاق أن يقولوا للناس حسناً وذلك بأن يكلموهم كلاماً طيباً ويلينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، مع الحلم والعفو والصفح عنهم، ثم أكد الأمر بعبادته، والإحسان إلى الناس بالمعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة، وأخذ عليهم الميثاق في ذلك كله.. وأخبر عنهم أنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصداً وعمداً وهم يعرفونه ويذكرونه إلا القليل منهم[(١)].

وفي قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أنه كان من أمرهم توليهم عن العمل بالميثاق ورفضه وهم في حال الإعراض عنه وعدم الاهتمام بشأنه، وقوله: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ مبالغة في الترك المستفاد من التولي لأن الإنسان قد يتولى عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويؤدي ما يجب له، فليس كل من تولى عن شيء يكون معرضاً عنه.

وقد كان من توليهم وإعراضهم: أن اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً مشرعين يحلون ويحرمون، ويبيحون ويحظرون، ويزيدون ما شاءوا من الشعائر والمناسك الدينية، فكأنهم شركاء لله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله، كما كان من توليهم أن بخلوا بالمال في الواجبات الدينية كالنفقة على ذوي القربى وأداء الزكاة، وتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلى نحو ذلك مما يدل على الاستهتار بأمور الدين.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ أخرج بعض من كانوا في عهد موسى عليه السلام ممن أقام اليهودية على وجهها، وبعض من كان في عصر التنزيل وأسلم كعبدالله بن سلام وأمثاله من المخلصين المحافظين على الحق بقدر الطاقة، وفائدة ذلك عدم بخس العاملين حقهم والإشادة بذكرهم، والإشارة إلى أن وجود القليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب إذا فشا فيها الفساد وعم البلاء، وقد جرت سنة الله بأن بقاء الأمة عزيزة مرهوبة الجانب ذات سطوة وبأس إنما يكون بمحافظة السواد الأعظم فيها على الأخلاق الفاضلة، والدأب على العمل الذي تستحق به العز والشرف[(٢)].

٤- وفي سورة المائدة يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٥٤-١٥٥) باختصار وتصرف.

(٢) تفسير المراغي (١/ ١٥٩).

صفة الميثاق وفيه إقامة الصلاة والمداومة عليها والإتيان بما يلزم وينبغي لها، وذكر أجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به وذكر ما عاقبهم به فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٢-١٣].

إن بني إسرائيل الذين أخذ الله عليهم هذا الميثاق، وبعث منها رؤساء وعرفاء على من تحتهم ليكونوا ناظرين عليهم حاثين لهم على القيام بما أمروا به مطالبين لهم يدعونهم له، وقال الله للنقباء: إني معكم بالعون والنصر..وإنكم إذا أقمتم بما تضمنه الميثاق لأجمعن لكم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.. وأن من كفر بعد ذلك العهد والميثاق المؤكد بالأيمان والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه فقد حاد عن الطريق المستقيم، وذلك لا عذر للسائر فيه حين يضله، لأن الطريق السوي لا يحوج السائر فيه إلى الروغان في ثنيات قد تختلط عليه وتفضي به إلى التيه في الضلال. ولكن بني إسرائيل نقضوا ذلك عن عمد وعلم، فاستحقوا ما يستحقه الضالون، وبسبب هذا النقض عاقبهم الله بعدة عقوبات:

الأولى: طردهم الله وأبعدهم من رحمته حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: جعل الله قلوبهم غليظة قاسية لا تجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف.

وهذا من أعظم العقوبات على العبد أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده معها الهدى، والخير إلا شراً.

الثالثة: ابتلوا بالتغيير والتبديل فيجعلون الكلام الذي أراد الله له معنى غير ما أراد الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم نسوا ﴿حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ وذلك أنهم ذُكِّروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه وأنهم نسوه، وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبة منه لهم، وشامل لنسيان العمل، الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به.

الخامسة: الخيانة المستمرة لله ولعباده المؤمنين.. ومن أعظم الخيانة منهم كتمهم الحق عن من يعظهم، ويحسن فيهم الظن، فهذه خيانة عظيمة(١).

وكما أخذ الله العهد والميثاق من اليهود فكذلك أخذه من النصارى، ولم يكونوا أحسن حالاً منهم بل نقضوا العهد، ونسوا نسياناً علمياً ونسياناً عملياً فسلط الله بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحن ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً، ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون فيعاقبهم عليه، قال تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

ثانياً: **موقف أهل الكتاب المعاصرين للرسول ﷺ من الصلاة والقبلة والأذان:**

كان اليهود والنصارى من أهل الكتاب في ظلام دامس من الجهل بما يجب الاعتقاد به والسير عليه من شرائع أنبيائهم، إلا من عصم الله، لأن أسلافهم غيروا وبدلوا شرائعهم، وأدخلوا فيها ما ليس منها، إما لسوء فهمهم لما أنزل الله على أنبيائهم، وإما لاستحسانهم ضروباً من البدع توهموها مؤيدة للدين، وهي هادمة لأركانه، وإما لإفحام خصومهم والرغبة في الظفر بهم، وقد توالت على ذلك الأزمان، وكلما جاء جيل زاد على ما وضعه من قبلهم حتى خفيت معالم الحق، وطمست أنوار اليقين.. وكان اليهود الذين سكنوا المدينة يقولون للمشركين: إن الله سيبعث نبياً من العرب من أهل مكة وينعتونه لهم ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصروه وآزروه واستنصروا به عليهم حتى يبيدهم.. فلما بعث محمد ﷺ قلب له اليهود ظهر المجن بعد أن كانوا من قبل يستفتحون به، فزعموا أن

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٧-١٨٨) والتحرير والتنوير (٦/ ١٣٩-١٤٥) باختصار وتصرف.

ما جاء به من الدين ليس بالبدع الجديد بل هو معروف في كتبهم التي جاءت على لسان أنبيائهم، فلا ينبغي أن يتركوا ما هم عليه من الحق ليتبعوا رجلاً ما جاء بأفضل مما بين أيديهم، بل قد بلغ الأمر بهم أن كانوا عليه مع المشركين الذين كانوا يعاندونهم ويتهددونهم بأنهم سيتبعون هذا النبي وينصرونه[(١)].

فأنزل الله سورة البينة توبيخاً لهم وتسلية للرسول ﷺ، ومنها قوله تعالى:

١- ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤-٥].

إن هذا شأن اليهود الذين درجوا عليه وديدنهم وديدن أسلافهم الذين بدلوا وافتروا على أنبيائهم وتفرقوا طرائق قدداً، ولم يكن تفرقهم لقصور حجة الرسول ﷺ أو خفاء شأنه عليهم ولكنه العناد، والتكبر، والاقتداء بالآباء من متابعة الرسول ﷺ، والحال أنهم تفرقوا واختلفوا وهم لم يؤمروا إلا بما يصلح دينهم ودنياهم، وما يجلب لهم سعادة في معاشهم ومعادهم من إخلاص لله في السر والعلن، وتخليص أعمالهم من الشرك به، واتباع ملة إبراهيم عليه السلام ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة.. وذلك هو الدين الذي جاء في الكتب القيمة.

إن مجيء البينة: وهو الرسول ﷺ ودعوته الناس إلى الحق وأنزل الله عليه كتاباً يتلوه ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور - فحينئذٍ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة.. وإذ لم يؤمن أهل الكتاب بهذا الرسول ﷺ ولم ينقادوا له فليس ذلك ببدع من خلالهم وعنادهم.. وذلك لرداءتهم ونذالتهم لم يزدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها ما جاءت إلا بأصل واحد، ودين واحد.. وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع الشرائع[(٢)].

وفي سورة البقرة جاء قوله تعالى:

---

(١) تفسير المراغي (١٠/ ٢١٢-٢١٤) باختصار وتصرف.

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٨٦١).

٢- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

جاءت في سياق تذكير بني إسرائيل حفظ نعم الله التي أنعمها عليها و نسوها ولم يشكروها حيث اختصهم الله بالنبوة زماناً طويلاً، وكانوا مفضلين على الشعوب والأمم.. وهذه النعم تقتضي ذكرها وشكرها، ومن شكرها الإيمان بكل نبي يرسله الله لهداية البشر، كما أمرهم بالوفاء بالعهد الذي أخذ عليهم في التوراة بأن يؤمنوا بالنبي ﷺ، ويتبعوا النور الذي أنزل معه، ووعدهم بأن يفي لهم بعهده وأن يمكن لهم في الأرض المقدسة ويرفع من شأنهم، ويخفض لهم العيش فيها.. كما أمرهم بأن لا يرهبوا ولا يخافوا إلا من الله الذي أنعم عليهم بتلك النعم الكثيرة وهو القادر على سلبها منهم، كما أمرهم بالإيمان بالقرآن الذي أنزله الله مصدقاً لما معهم ونهاهم عن أن يكونوا أول من يسارع إلى الكفر به مع أن الأجدر بهم أن يكونوا أول من آمن، إذ هم يعرفون حقيقته بما معهم من الكتب الإلهية.

كما نهاهم عن أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فيعرضوا عن التصديق بالنبي ﷺ وما جاء به ويستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل الذي يستفيده الرؤساء من مرؤوسيهم من مالٍ وجاه، كما نهاهم عن خلط الحق المنزل بالباطل الذي يخترعونه ويكتبونه، وعن كتم الحق الذي يعلمونه من صدق نبوة الرسول ﷺ وما جاء به[(١)].

ثم جاء الأمر لهم بإقامة الصلاة، صلاة المسلمين وزكاتهم، فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة، أمرهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بها، كما أمرهم أن يصلوا مع جماعة المسلمين، وعبر عن الصلاة بالركوع، احترازاً عن صلاة اليهود[(٢)].

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يريد الصلوات الخمس.. ﴿وَٱرۡكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي صلوا مع المصلين، قال ابن عباس: يريد محمداً ﷺ والصحابة رضي الله عنهم.

وقيل: إنما ذكر الركوع لأنه ليس في صلاتهم ركوع، والخطاب لليهود، وفي هذه

---

(١) تفسير المراغي (١/ ٩٩-١٠١) باختصار وتصرف.
(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٦٣) باختصار وتصرف.

الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع، وهي إحدى الروايتين عن أحمد»(١).

قال ابن جرير: «هذا أمر من الله جل ثناؤه لمن ذكر من أحبار بني إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه، وبإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والدخول مع المسلمين في الإسلام والخضوع له بالطاعة، ونهيٌ منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد ﷺ بعد تظاهر حججه عليهم، وبعد الإعذار والإنذار، وبعد تذكيره نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفاً منه بذلك عليهم وإبلاغاً إليهم في المعذرة»(٢).

وعلى كل حال فالآية فيها أمر لليهود بالتلبس بشعار الإسلام عقب الأمر باعتقاد عقيدة الإسلام، فقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ راجع إلى الإيمان بالنبي ﷺ، وما هو وسيلة ذلك وما هو غايته، فالوسيلة ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ إلى ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ والمقصد ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ والغاية ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقد تخلل ذلك نهي عن مفاسد تصدهم عن المأمورات مناسبات للأوامر.. فالآية أمر بأعظم القواعد الإسلامية بعد الإيمان والنطق بكلمة الإسلام.. وقوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ تأكيد لمعنى الصلاة لأن لليهود صلاة لا ركوع فيها فلكي لا يقولوا: إننا نقيم صلاتنا دفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(٣).

٣- وبعد آية واحدة جاء قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

قال ابن جرير: «استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتموني في كتابكم من طاعتي واتباع أمري وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمري واتباع رسولي محمد ﷺ بالصبر والصلاة»(٤).

فالآية خطاب لبني إسرائيل بالإرشاد إلى ما يعينهم على التخلق بجميع ما عدد لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلي بالمحامد والتخلي عن المفاسد، له أحسن وقع من البلاغة. فإنهم لما خوطبوا بالترغيب والترهيب.. ظن بهم أنهم لم يبق في نفوسهم

---

(١) زاد المسير (٥٨).
(٢) جامع البيان (١/ ٢٥٧).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٧٣) باختصار.
(٤) جامع البيان (١/ ٢٥٩).

مسلك للشيطان ولا مجال للخذلان وأنهم أنشأوا يتحفزون للامتثال والائتساء، إلا أن ذلك الإلف القديم، يثقل أرجلهم في الخطو إلى هذا الطريق القديم، فوصف لهم الدعاء الذي به الصلاح، وريش بقادمتي الصبر والصلاة منهم الجناح، فالأمر بالاستعانة بالصبر لأن الصبر ملاك الهدى فإن مما يصد الأمم عن اتباع دين قويم إلفهم بأحوالهم القديمة وضعف النفوس عن تحمل مفارقتها فإذا تدرعوا بالصبر سهل عليهم اتباع الحق، وأما الاستعانة بالصلاة فالمراد تأكيد الأمر السابق بها.. وهذا إظهار لحسن الظن بهم، وهو طريق بديع من طرق الترغيب.

والصلاة أريد بها هنا معناها الشرعي في الإسلام وهو مجموع محامد الله تعالى قولاً وعملاً واعتقاداً.. وفي قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ التعريض بالثناء على المسلمين وتحريض بني إسرائيل على التهمم بالاقتداء بالمؤمنين[(١)].

أما موقفهم من القبلة:

فإن أهل الكتاب ولا سيما اليهود الذين عاصروا الرسول ﷺ كانوا في غفلة وجهل عن سر من أسرار الدين، وهو أن الجهات كلها لله، فلا فضل لجهة على أخرى، ولله أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة منها ويجعلها قبلة، وليست صخرة بيت المقدس بأفضل من سائر الصخور في جوهرها، وليس فيها من المنافع ما لا يوجد في غيرها، وكذلك الكعبة والبيت الحرام، وإنما يجعل الله تعالى للناس قبلة لتكون جامعة لهم في عبادتهم.. لكن اليهود وهم سفهاء الأحلام يظنون أن القبلة أصل في الدين من حيث هي الصخرة أصل في الدين من حيث هي الصخرة المعينة أو البناء المعين، وقد بلغ الأمر بهم أن قالوا للرسول ﷺ: ارجع إلى قبلتنا نتبعك ونؤمن بك، وما أرادوا بذلك إلى فتنته ﷺ والطعن في الدين، ببيان أن كلاً من التوجه إليها والانصراف عنها، حدث بلا داع يدعو إليه حتى قالوا: إنه رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، وليرجعن إلى دينهم أيضاً.

وكانوا يقولون أيضاً قبل تحويل القبلة: يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا ولولا ديننا لم يدر أين يستقبل القبلة، فكره النبي ﷺ قبلتهم حتى روي أنه قال لجبريل: (وددت لو أن الله

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٧٧-٤٨١) باختصار.

صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها)[(١)]، وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي كان يرجوه.

وقد أخبر الله في سورة البقرة بما سيقع من اعتراض اليهود ومن شابههم من السفهاء قبل وقوعه ولقنه الحجة البالغة والحكمة فيه ليوطن نفسه عليه، فإن مفاجأة المكروه أشد إيلاماً، والعلم به قبل وقوعه يبعد القلق عن النفس، وليعد الجواب قبل الحاجة إليه، والجواب المعد أقطع لحجة الخصم، وليكون الوقوع بعد الإخبار به معجزة له ﷺ[(٢)].

٤- فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وأخبر سبحانه عن تحويل القبلة بقوله تعالى:

٥- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٦].

ولما جاء الأمر بتحويل القبلة انطلقت أبواق يهود -وقد عز عليهم أن يتحول محمد ﷺ والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاظمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم- انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عقيدتهم وقالوا لهم: إن كان التوجه فيما مضى إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة، وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها.. وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر، وللآيات -لا يصدر من الله- فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى

(١) أخرجه أبو داود في ناسخه عن أبي العالية. يُنظر: الدر المنثور (٢/ ٨).

(٢) تفسير المراغي (٢/ ٥-٩) باختصار وتصرف.

الوحي من الله[(١)].

إن أهل الكتاب يعلمون أن ذلك التولي شطر المسجد الحرام هو الحق المنزل من الله على نبيه ﷺ، وهم مع هذا يفتنون ضعاف المؤمنين في دينهم.، إذ يذكرون للناس أقوالاً على أنها من كتبهم وما هي من كتبهم، ولكن يريدون بذلك الخداع والفتنة والتهويش على الذين في قلوبهم مرض، بإثارة الشكوك في نفوسهم، ومن ثم كذب الله هؤلاء المخادعين، وبيَّن أنهم يقولون ما لا يعتقدون، إذ هم يعلمون أن أمر القبلة كغيره من أمور الدين -حق لا محيص عنه، إذ جاء به الوحي الذي لا شك في صدقه.. وتوعدهم الله بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فهو العليم بالظاهر والباطن، والمحاسب على ما في السرائر، والرقيب على الأعمال، فيجازي كل عامل بما عمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم خاطب الله نبيه ﷺ بأنه لو جاء لليهود والنصارى بكل برهان وحجة على أن الحق هو ما جئتهم به من وجوب التحول من قبلة بيت المقدس في الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام ما صدقوا به ولا اتبعوك عناداً منهم ومكابرة.. ذلك أنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تدفعها بحجة، بل خالفوك عناداً وصلفاً فلا يجدي معهم برهان ولا تقنعهم حجة، وكما أيأسه من اتباعهم قبلته أيأسهم من اتباعه قبلتهم فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إن ذلك لا يكون منك، فإنك على قبلة إبراهيم عليه السلام الذي يُجلونه، فهي الأجدر بالاتباع، وإذا كان اتباع إبراهيم عليه السلام لا يزحزحهم عن تعصبهم لما ألفوا التقليد يحول بينهم وبين النظر في حكمة القبلة، وسرّ اجتماع الناس عليها، وكون الجهات كلها لله -فأي آية ترجعهم عن قبلتهم؟ وأي فائدة ترجى من موافقتك إياهم عليها؟

إن اليهود لا تترك قبلتها وتتجه إلى المشرق، والنصارى لا تغير قبلتها وتتجه إلى المغرب، لأن كلاً منهما متمسك بما هو فيه محقاً كان أو مبطلاً، ولا ينظر إلى حجة أو برهان، إذ التقليد أعمى بصيرته، فلا يبحث في فائدة ما هو فيه، ولا يوازن بينه وبين غيره، ليتبع أصلح الأمور وأكثرها نفعاً[(٢)].

وأما موقفهم من الأذان:

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٢٦).

(٢) تفسير المراغي (٢/ ١٠-١٣) باختصار وتصرف.

فقد أخبر الله عنه بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

جاءت الآية في سياق التنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون من شرائع الإسلام المطهرة والمحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي شيئاً يستهزؤن بها ويعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد.

إن من قلة عقل اليهود، وجهلهم العظيم أنهم إذا سمعوا مناداة المسلمين للصلاة اتخذوها هزواً ولعباً، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس.

وروي عن السُدي أنه قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: حُرق الكاذب! فدخلتْ خادمه ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة، فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله[(١)].

وقال ابن عطية: في الآية إنحاءٌ على اليهود، وتبيين لسوء فعلهم، فإنهم إذا سمعوا قيام المؤمنين إلى الصلاة قال بعضهم لبعض: قد قاموا لا قاموا.. إلى غير هذا من الألفاظ التي يستخفون بها في وقت الأذان[(٢)].

إن لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة فكأنه لا عقل لهم[(٣)].

إن اليهود لا يعقلون معاني عبادة الله، فإن السفه يؤدي إلى الجهل بمحاسن الحق والهزء به، ولو كان لهم عقل في الجملة لما اجترؤوا على تلك العظيمة، فإن الصلاة أكمل القربات، وفي النداء معان شريفة من تعظيم الله باعتبار ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن ذكر توحيده باعتبار ذاته، وباعتبار عدم مغايرة أسمائه وصفاته، ومن تعظيم رسوله ﷺ باعتبار قيامه بمصالح المعاش والمعاد، ومن الصلاة من حيث هي وصلة ما بين العبد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦٣١) وقال: رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، ويُنظر: تفسير البيضاوي (١/ ٢٧٥).

(٢) المحرر الوجيز (٥٥٦).

(٣) الكشاف (٢٩٧).

وبين الله، ومن حيث إفادتها معالي الدرجات، ومن تعظيم مقصده وهو الفلاح في الظاهر والباطن، وما هو غاية مقصده من القرب من الله باعتبار عظمة ظاهره وباطنه، ومن الوصول إلى توحيده الحقيقي(١).

ثالثاً: **حال مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يحرفوه:**

جاءت آيات تصف حال مَنْ آمن مِنْ أهل الكتاب بالرسول ﷺ، بأنهم يمسكون بالكتاب، وأنهم ممن أوتوا العلم قبل نزول القرآن، وأنهم من الراسخين في العلم، وأنهم أمة قائمة بتلاوة الكتاب:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

جاءت الآية في سياق الحديث عن بني إسرائيل وأن طمعهم في متاع الدنيا هو الذي أفسد عليهم أمرهم واستحوذ عليهم حب العاجلة فأذهب عنهم رشدهم فأكلوا السحت والرشا وتاجروا بالدين وحابوا في الحكم ويقولون سيغفر لنا ولا يؤاخذنا الله بما فعلنا، فإننا أبناء الله وأحباؤه.. ثم استثنى الله منهم جماعة استمسكوا بأوامر الكتاب واعتصموا بحبله في جميع شؤونهم.

قال ابن الجوزي: وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يحرفوه منهم عبدالله بن سلام وأصحابه(٢).

جاءت الآية عقب التي قبلها: لأن مضمونها مقابل حكم التي قبلها إذ حصل من التي قبلها أن هؤلاء الخلف الذين أخذوا عرض الأدنى قد فرطوا في ميثاق الكتاب ولم يكونوا من المتقين، فعقب ذلك ببشارة من كانوا ضد أعمالهم، وهم الآخذون بميثاق الكتاب والعاملون ببشارته بالرسل وآمنوا بمحمد ﷺ فأولئك يستكملون أجرهم لأنهم مصلحون، فكنى عن الإيمان بمحمد ﷺ بإقامة الصلاة، لأن الصلاة شعار دين الإسلام، حتى سُمي أهل الإسلام أهل القبلة، فالمراد مِنْ هؤلاء هم مَنْ آمن مِنَ اليهود

(١) محاسن التأويل (٤/ ١٨٤).
(٢) زاد المسير (٥٢٦).

بعيسى عليه السلام في الجملة وإن لم يتبعوا النصرانية لأنهم وجدوها محرفة مبدلة فبقوا في انتظار الرسول المخلص الذي بشرت به التوراة والإنجيل ثم آمنوا بمحمد ﷺ حين بعث.. وجملة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ خبر عن الذين يمسكون، والمصلحون هم، والتقدير: إنا لا نضيع أجرهم لأنهم مصلحون، فطوى ذكرهم اكتفاء بشمول الوصف لهم وثناء عليهم على طريقة الإيجاز البديع[(١)].

٢- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

قال ابن عطية: واختلف الناس في المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾، فقالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب، وقالت فرقة: هم ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل ومن جرى مجراهما، وقيل: إن جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم فتذاكروا أمر النبي ﷺ وما أنزل عليه وقرئ عليهم منه شيء فخشعوا، وسبحوا الله وسجدوا له، وقالوا هذا وقت نبوة المذكور في التوراة وهذه صفته ووعد الله به واقع لا محالة وجنحوا إلى الإسلام هذا الجنوح فنزلت الآية[(٢)].

فالله يقول للمشركين وغيرهم آمنوا بالقرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم لا يزيده كمالاً وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً.. فإن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم وهم العلماء الذين قرأوا الكتب السابقة وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة، وتمكنوا من الميز بين المحق والمبطل، ورأوا نعتك وصفة ما أنزل إليك في تلك الكتب[(٣)].

إن صالحي أهل الكتاب الذين يمسّكون بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه إذا تُلي عليهم القرآن خروا سجداً لله شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب.. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٦٤).
(٢) المحرر الوجيز (١١٧١، ١١٧٢) ويُنظر: زاد المسير (٨٣٥).
(٣) تفسير البيضاوي (١/ ٥٨٧).

عن بعثة محمد ﷺ[(١)].

٣- وفي سورة آل عمران أثنى الله على صالحي اليهود، وصالحي النصارى في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

والآية استئناف قصد به إنصاف طائفة من أهل الكتاب بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعمهم بأنهم كانوا يكفرون بالله، ويقتلون الأنبياء بغير حق عصياناً لله واعتداءً.

وعدل عن أن يقال: منهم أمة إلى قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ليكون هذا الثناء شاملاً لصالحي اليهود، وصالحي النصارى، فلا يختص بصالحي اليهود، فإن صالحي اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام كانوا متمسكين بدينهم، مستقيمين عليه، ومنهم الذين آمنوا بعيسى واتبعوه، وكذلك صالحوا النصارى قبل بعثة محمد ﷺ كانوا مستقيمين على شريعة عيسى عليه السلام وكثير منهم أهل تهجد في الأديرة والصوامع وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية، وجملة ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ حال: أي يتهجدون في الليل بتلاوة كتابهم، فقيدت تلاوتهم الكتاب بحالة سجودهم، وهذا الأسلوب أبلغ وأبين من أن يقال: يتهجدون، لأنه يدل على صورة فعلهم[(٢)].

إن أهل الكتاب ليسوا متساوين في الصفات القبيحة، بل منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون.. وفي الآية وصفٌ ومدح للمؤمنين بأنهم جماعة مستقيمة على الحق متبعة للعدل، لا تظلم أحداً، ولا تخالف أمر الدين.. والآية حجة على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء وأن من أخذه مذعناً، وعمل به مخلصاً، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر فهو من الصالحين، كما أن فيها استمالة لأهل الكتاب، وتقديراً للعدل الإلهي، وقطعاً لاحتجاج من يعرفون الإيمان والإخلاص، إذ لولا هذا النص لكان لهم أن يقولوا: لو كان هذا القرآن من عند الله لما ساوانا بغيرنا من الفاسقين، واستقامة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١١٤٢) بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٥٧، ٥٨) باختصار.

بعضهم على الحق من دينهم لا ينافي ضياع بعض كتبهم، وتحريف بعضهم لما في أيديهم منها[(١)].

٤- وفي سورة النساء خص الله خيار اليهود الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم، وكانوا أهل العلم الصحيح بالدين ببيان حالهم ومآلهم فقال تعالى:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

إن الآية تنصف القليل المؤمن من اليهود وتقرر حسن جزائهم، وتضمهم إلى موكب الإيمان العريق، وتشهد لهم بالعلم والإيمان، وتقرر أن الذي هداهم إلى التصديق بالدين كله: ما أنزل على الرسول ﷺ وما أنزل من قبله، هو الرسوخ في العلم وهو الإيمان، فالعلم الراسخ، والإيمان المنير كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله، كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذي جاء من عند الله الواحد.

وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، لفتة من اللفتات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كانت يومذاك، كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين، فالعلم السطحي والكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة.. ونحن نشهد هذا في كل زمان.

فالذين يتعمقون في العلم، ويأخذون منه بنصيب حقيقي، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة، لا يجيب عنها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلهاً واحداً مسيطراً مدبراً متصرفاً، وذا إرادة واحدة، وضعت ذلك الناموس الواحد.. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى يفتح الله عليهم، وتتصل أرواحهم بالهدى.. أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان، أو لا تبرز لهم -بسبب علمهم الناقص السطحي- علامات الاستفهام، وشأنهم شأن من لا تهفوا قلوبهم للهدى ولا

(١) تفسير المراغي (٤/ ٣٥، ٣٦) باختصار.

تشتاق.. وكلاهما هو الذي لا يجد في نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان، أو يجعل التدين عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التي جاءت من عند ديان واحد على أيدي موكب واحد متصل من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

وهذه الإشارة القرآنية تعني أول ما تعني -أولئك النفر من اليهود الذين استجابوا للرسول ﷺ، وذكرت أسماؤهم من قبل، ولكن النص عام ينطبق على كل من يهتدي منهم لهذا الدين، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير.

ويضم السياق القرآني هؤلاء وهؤلاء إلى موكب المؤمنين الذين من صفاتهم: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ وهي صفات المسلمين التي تميزهم.. وجزاء الجميع ما يقرره الله لهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[(١)].

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٨٠٣-٨٠٤) بتصرف واختصار.

الباب الخامس

أنواع الصلوات الواردة في القرآن الكريم

١- الصلوات الخمس المفروضة.

٢- صلاة الليل.

٣- صلاة الجمعة.

٤- صلاة الجماعة.

٥- صلاة النافلة: أ- صلاة الضحى، ب- الركعتان بعدالمغرب، جـ- ركعتا الطواف، د- صلاة التوبة، هـ- سجود التلاوة.

٦- صلاة العيد.

٧- الصلاة على الميت.

٨- صلاة السفر.

٩- صلاة الخوف.

١٠- صلاة المريض.

١١- صلاة الكسوف والخسوف.

١٢- صلاة الاستسقاء.

جاء حديث القرآن الكريم عن أنواع الصلوات حديثاً مجملاً، وإن كان فيه شيء من البيان لبعضها -وتركَ البيان الوافي لسنة الرسول ﷺ لتأكيد الترابط بين الكتاب والسنة ووجوب العمل بهما.

وقد حاولت تتبع المقصود بالصلاة في جميع الآيات التي بين يدي، سواءٌ منها ما جاء بلفظ الصلاة أو بمعناها، والنظر في أقوال المفسرين في ذلك.

وأنواع الصلوات التي أشار إليها القرآن الكريم هي:

أولاً: الصلوات الخمس المفروضة:

ولا فائدة هنا من سرد الآيات التي فسِّرت على أن المقصود بالصلاة هو الصلوات الخمس المفروضة، فكل آية مدنية جاء الأمر فيها بإقامة الصلاة، أو مدح المقيمين لها.. فالمقصود بها المفروضة، وكذا كل صلاة قرنت بذكر الزكاة كما يقول ابن الجوزي[(١)].

والصلاة في هذه الآيات وما شابهها اسم جنس، ويراد بها الصلوات الخمس المفروضة كما روي عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما، وجزم بذلك الرازي بعد أن ذكر أن اسم الصلاة يقع على الفرض والنفل لكن المراد به الفرض خاصة، لأنه الذي يقف الفلاح عليه لأنه ﷺ بيَّن للأعرابي صفة الصلاة المفروضة فقال: والله لا أزيد عليها ولا أنقص، فقال رسول الله ﷺ: (أفلح إن صدق)[(٢)].

وحديث الأعرابي هذا رواه البخاري ومسلم عن طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته، ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (خمس صلوات في اليوم والليلة) فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: (لا إلا أن تطوع)، قال رسول الله ﷺ: (وصيام رمضان) قال: هل عليَّ غيره؟ قال: (لا إلا أن تطوع)، قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: (لا إلا أن تطوع)، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: (أفلح إن صدق)[(٣)].

---

(١) منتخب قرة العيون النواظر (١٦١).

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب (١/ ٣٩٤) وروح المعاني (١/ ١٢٠) وزاد المسير (٣٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، رقم (٤٦) وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، رقم (١١).

وجاء في بعض الآيات التصريح بأسماء بعض الفروض الخمسة ومن ذلك:

١- قوله تعالى في سورة النور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ٥٨].

فسمى في الآية: صلاة الفجر، وصلاة العشاء.

٢- وجاء ذكر الصلوات الخمس في آية واحدة حيث أمر الله نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة وذكر الأوقات الخمسة، قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨].

ودلوك الشمس: ميلانها إلى الأفق الغربي فيدخل في ذلك صلاة الظهر، وصلاة العصر.

وغسق الليل: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب، وصلاة العشاء.

وقرآن الفجر: أي صلاة الفجر، وسميت قرآناً لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة فيها[(١)].

٣- ومثلها قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

قال ابن عطية: لم يختلف أحد في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة.. ثم ذكر الخلاف في ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ ومحصله أنها تشمل الأوقات الخمسة.. ثم ذكر أن جمهور المتأولين من صحابة وتابعين ذهبوا إلى أن المراد بالحسنات: الصلوات الخمس[(٢)]، إلى غير ذلك من الآيات الواردة بلفظ التسبيح والحمد والدعاء[(٣)].

٤- وقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ولا شك في دخول الصلاة الوسطى في قوله: ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، ولكنه خصصها بعد

(١) يقارن بين تيسير الكريم الرحمن (٤١٦) وزاد المسير (٨٢٦).

(٢) المحرر الوجيز (٩٧٤).

(٣) مثل آيات سورة الروم (١٧، ١٨)، والكهف الآية (٢٨) وسبق الكلام عنها في الباب الأول.

ذلك بالذكر تنبيهاً على شرفها في جنسها ومقدارها في أخواتها.. وفي تسميتها وسطى احتمالات:

أحدها: أنها وسطى من الوسط وهو العدل والخيار والفضل.

والثاني: أنها وسط في العدد، لأنها خمس صلوات تكتنفها اثنتان من كل جهة.

الثالث: أنها وسط في الوقت .. وقد ذكر المفسرون ومنهم ابن العربي سبعة أقوال في المراد بها: خمسة في الفروض الخمسة، والسادس: أنها الجمعة، والسابع: أنها غير معينة، وناقش الأقوال جميعها، ورجح السابع لتعارض الأدلة وعدم الترجيح، وقال: هو الصحيح لأن الله خبأها في الصلوات الخمس كما خبأ ليلة القدر في رمضان، وخبأ الساعة في يوم الجمعة، وخبأ الكبائر في السيئات، ليحافظ الخلف على الصلوات، ويقوموا جميع شهر رمضان، ويلزموا الذكر في يوم الجمعة كله، ويجتنبوا جميع الكبائر والسيئات[(١)].

ثانياً: صلاة الليل:

جاء ذكر صلاة الليل وقيامه في آيات كثيرة جداً، وسبق أن تكلمت في الفصل الثاني من الباب الثالث وهو بعنوان **فرض الصلاة وتطور تشريعها على النبي ﷺ**.

أن قيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ، وتأسي الأمة به، وذلك قبل فرض الصلوات الخمس.

وتكلمت هناك عن آيات سورة المزمل، الموجبة، والناسخة.

١- وقد سمى القرآن الصلاة بالليل تهجداً، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

في الآية أمر للرسول ﷺ أن يصلي في سائر أوقات الليل لتكون هذه الصلاة زيادة له في علو قدره ورفع درجاته ﷺ، وذلك لكرامته ﷺ على الله حيث جعل وظيفته أكثر من غيره، ولينال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون وهو مقام الشفاعة العظمى حين يعتذر جميع الأنبياء عن ذلك لهول الموقف وكربه.. فيشفع عند ذلك الرسول ﷺ عند ربه فيشفعه ويقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٢٢٣-٢٢٦) باختصار وتصرف، ويُنظر: زاد المسير (١٤٧).

وتكون له المنة على جميع الخلق[(١)].

٢- ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

قال البغوي: يعني التطوع بعد المكتوبة[(٢)].

٣- ولما كان أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه والاستعانة بمولاه، على توفيقه للقيام بالمأمور -أمر الله تعالى نبيه ومن بعده أمته فقال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

إن استحضار قرب الله الذي يرى عبده في هذه العبادة العظيمة وهي صلاة الليل يجلب الخشوع والذل فيقوم بإكمالها وتكميلها، ويستعين بها على جميع أموره، ومما يعينه على ذلك استحضار سماع الله لسائر الأصوات على اختلافها وتنوعها وتشتتها فهو سبحانه سميع لها، عليم أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.. واستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم، والعزم والنيات يعينه على منزلة الإحسان[(٣)].

٤- ومدح الله عباده بأنهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٤].

أي: يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له كما قال تعالى:

٥- ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

أي: ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألذ عندهم وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى.. أما جزاؤهم فلا تعلمه جميع نفوس الخلق من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله ﷺ: (أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[(٤)]، فكما صلوا في الليل ودعوا وأخفوا العمل جازاهم من جنس

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤١٦) بتصرف واختصار.

(٢) معالم التنزيل (١٣٧٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥٤٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤) وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٤).

عملهم فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

٦- وفي سورة الذاريات جاء وصف عباد الله المتقين الذين سيعطيهم في الجنة جميع مناهم من جميع أصناف النعيم فأخذوا ذلك راضين به قد قرت أعينهم به، وفرحت به نفوسهم -بأنهم كانوا في الدنيا محسنين.. ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق، صلاة الليل الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان فقال عنهم سبحانه:

﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

فنومهم بالليل قليل، وأما أكثره فإنهم قانتون لربهم ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع.. فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره[(١)].

٧- وفي سورة الزمر يصف الله عز وجل أصحاب العلم الحقيقي والمعرفة المستنيرة، وأصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق المتفعة بها ترى وتعلم، التي تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه، ولا تنساه، ولا تنسى يوم لقاه.. إنهم أصحاب القلوب الخائفة الوجلة التي تعيش على الأرض في حذر من الآخرة وفي تطلع إلى رحمة الله وفضله، وفي اتصال بالله ينشأ عنه العلم الصحيح المدرك لحقائق الوجود، إنهم أصحاب القنوت والطاعة والتوجه إلى الله بالسجود والقيام[(٢)].

فقال تعالى عنهم: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

ثالثاً: صلاة الجمعة:

الأصل في فرضها الكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٥٢).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٣٠٤٢) باختصار وتصرف.

ﵟقُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَﵞ [الجمعة: ٩-١١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غد)(١).

والجمعة اسم لليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام، وسورة الجمعة مدنية بالاتفاق، ويظهر أنها نزلت سنة ست وهي سنة خيبر، فظاهر حديث أبي هريرة أن هذه السورة نزلت بعد فتح خيبر لأن أبا هريرة أسلم يوم خيبر.. وكان فرض صلاة الجمعة متقدماً على وقت نزول السورة فإن النبي ﷺ فرضها في خطبة خطب بها للناس وصلاها في أول يوم جمعة بعد الهجرة في دار لبني سالم بن عوف، وثبت أن أهل المدينة صلوها قبل قدوم رسول الله ﷺ المدينة لما روي عن ابن سيرين أن الأنصار جمعوا الجمعة قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه، وللنصارى يوم مثل ذلك فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلي فيه.. فمشروعية صلاة الجمعة والتجمع فيه إجابة من الله رغبة المسلمين مثل إجابته رغبة النبي ﷺ استقبال الكعبة المذكورة في قوله تعالى: ﵟقَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚﵞ [البقرة: ١٤٤].

والإجماع على أن صلاة الجمعة قائمة مقام صلاة الظهر في يوم الجمعة، فمن صلاها لا يصلي معها ظهراً، فأما من لم يصلها لعذر أو لغيره فيجب عليه أن يصلي الظهر(٢).

وسياق الآيات التي معنا جاءت بعد أن نعى الله على اليهود فرارهم من الموت حباً في الدنيا والتمتع بطيباتها -ذكر بعدها أن المؤمن لا يمنع من اجتناء ثمار الدنيا وخيراتها مع السعي لما ينفعه في الآخرة كالصلاة يوم الجمعة في المسجد مع الجماعة، فعليه أن يعمل للدنيا والآخرة، فما الدنيا إلا مزرعة ا لآخرة.

والنداء المقصود هو عند جلوس الإمام على المنبر لأنه لم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه، كان إذا جلس على المنبر أذن بلال رضي الله عنه(٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦) واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٥، ٢٢٠-٢٢٢) باختصار، ويُنظر معالم التنزيل (١٣١٠-١٣١٢).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٢٧).

وليس المراد بالسعي هاهنا المشي السريع، وإنما هو القصد والاهتمام في المسير إليها كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [الإسراء: ١٩].

قال ابن عطية: «والسعي في الآية ليس الإسراع في المشي ـ كالسعي بين الصفا والمروة، وإنما هو بمعنى قوله: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشي سعيٌ كله إلى ذكر الله تعالى، قال الحسن وقتادة ومالك وغيرهم: إنما تؤتى الصلاة بالسكينة، والسعي هو بالنية والإرادة والعمل»[(١)].

إن ترك البيع وغيره من المشاغل والملاهي الدنيوية، والسعي إلى صلاة الجمعة خير وأبقى لأن المنافع الدنيوية زائلة وفانية أما المنافع الباقية فهي ما عند الله، ولا يعلم ذلك إلا ذوو العلم الصحيح بما يضر وما ينفع.

وإذا أديت صلاة الجمعة على الوجه المشروع فيجوز بعدها التفرق لأداء المصالح الدنيوية بعد أداء ما ينفع في الآخرة.. ولا يمنع ذلك من طلب الثواب من الله وذكره ومراقبته في جميع الشؤون فهو العليم بالسر والنجوى لا تخفى عليه خافية.

إن في الآية إيماء إلى شيئين:

١ – مراقبة الله في أعمال الدنيا حتى لا يطغى حبها بجمع حطامها بأي الوسائل من حلال وحرام.

٢ – إن في مراقبته تعالى الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأن من راقبه لا يغش في كيل ولا وزن ولا يكذب في مساومه، ولا يحلف كذباً، ولا يخلف موعداً، ومتى كان كذلك شهر بين الناس بحسن المعاملة وأحبوه وصار له من حسن الأحدوثة ما يضاعف له الله به الرزق، وأما في الآخرة فيفوز برضوان ربه وبجنات تجري من تحتها الأنهار[(٢)].

جعل الله يوم الجمعة للمسلمين عيد الأسبوع فشرع لهم اجتماع أهل البلد في المسجد وسماع الخطبة ليعلموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم وإصلاحهم.

قال القفال: لما جعل الله الناس أشرف العالم السفلي لم يخف عظم المنة وجلالة قدر موهبته لهم فأمرهم بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة ليكون في

(١) المحرر الوجيز (١٨٥٧).

(٢) تفسير المراغي (٢٨/ ١٠١-١٠٣) باختصار وتصرف.

اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله بـه عليـهم.. واحتيج فيـه إلى الخطبـة تذكيراً بالنعمة وحثاً على استدامتها، ولما كان مدار التعظيم إنما هو عـلى الصـلاة جعلـت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع[(١)].

والرجل المشغول المرهق بتكاليف الحياة، وحقوق الأسرة يحتاج إلى يوم تتحرك فيه همته، ويتفرغ فيه باله للعبادة والقربات وإجلاء صدأ القلـب وتصـقيله فيسرـي نـوره في سائر الأيام، ويوم الجمعة ميزان الأسبوع.

«إنه اليوم الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة، وله على سـائر الأيـام مزيـة بـأنواع العبادات واجبة ومستحبة، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغـون فيـه للعبـادة ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضـان في الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان.. ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم، سلمت له سائر جمعته، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته، ومـن صـحت له حجته وسلمت له صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضـان ميـزان العام والحج ميزان العمر»[(٢)].

يقول القاسمي: «وفي قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ دلالة على عدم مشروعية تعطيل يوم ، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب في تعطيل يومي السبت والأحد، ورد على ما ابتدع فيه من الوظائف ما يدعو إلى الانقطاع عن كل عمل، والأصـل أن كـل ما لم ينص عليه الكتاب الحكيم، ولا الهدي النبوي من خبر قويم، فهو تشريع مـا لم يـأذن به الله، وإذا رفع الله بفضله عنا الإصر والأغـلال التـي كانـت عـلى مـن قبلنـا، فـما بالنـا نستجرها إلينا بالأسباب الضعيفة»[(٣)].

إن صلاة الجمعـة هـي الصـلاة الجامعـة التـي لا تصـح إلا جماعـة.. وهـي صـلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقـوا ويسـتمعوا إلى خطبـة تـذكرهم بـالله، وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد وفي العبادة الواحدة، وكلاهما عبادة وهي ذات دلالة خاصة على طبيعـة العقيـدة الإسـلامية

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٢٢) باختصار، ويُنظر: مفاتيح الغيب (١٥/ ٥٣٧-٥٣٨).

(٢) زاد المعاد (١/ ١٠٦) ويُنظر: الأركان الأربعة (٦٠).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٣٠).

الجماعية.. وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب.

والآية الأولى تأمر المسلمين أن يتركوا البيع -وسائر نشاط المعاش- بمجرد سماعهم للأذان، وترغبهم في الانخلاع من شؤون المعاش والدخول في الذكر في هذا الوقت.. وفي ذلك تعليم دائم للنفوس، فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض، ليخلو إلى ربه، ويتجرد لذكره، ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى، ويملأ قلبه وصدره من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شذاه، ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله.. وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي، التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض، من عمل وكد ونشاط وكسب وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر، وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى، وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة.

وفي الآية الأخيرة تلويح بأن ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة وتذكير بأن الرزق من عند الله.. مما يمنح القائمين على دعوة الله في كل زمان رصيداً من الصبر على ما يجدونه من ضعف ونقص وتخلف وتعثر في الطريق. والنفس البشرية قابلة أن تصعد مراقي العقيدة والتطهر والتزكي بلا حدود، مع الفهم والصبر والإدراك والثبات والمثابرة وعدم النكوص من منتصف الطريق»[(١)].

رابعاً: صلاة الجماعة:

وردت الإشارة لصلاة الجماعة في آيات مكية وأخرى مدنية:

١- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

يقول ابن القيم: «ووجه الاستدلال بها أنه سبحانه عاقبهم يوم القيامة بأن حال بينهم وبين السجود لما دعاهم إلى السجود في الدنيا فأبوا أن يجيبوا الداعي إذا ثبت هذا فإجابة الداعي هي إتيان المسجد بحضور الجماعة لا فعلها في بيته وحده، وهكذا فسر

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٦٩-٣٥٧٠) باختصار وتصرف.

النبي ﷺ الإجابة، فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال: يا رسول الله ليس لي قائد يقودني إلى المسجد فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له، فرخص، فلما ولى دعاه فقال: هل تسمع النداء؟ قال: نعم، قال: فأجب)[1] فلم يجعل مجيباً له بصلاته في بيته إذا سمع النداء، فدل على أن الإجابة المأمور بها هي إتيان المسجد للجماعة، ويدل عليه حديث ابن أم مكتوم قال: (يا رسول الله إن المدينة كثيرة الهوام والسباع، فقال رسول الله ﷺ: تسمع حي على الصلاة حي على الفلاح، قال: نعم، قال: فحيهلاً)[2].

وحيهلاً: اسم فعل أمر معناه: أقبل وأجب، وهو صريح في أن إجابة هذا الأمر بحضور الجماعة، وأن المتخلف عنها لم يجبه، وقد قال غير واحد من السلف في قوله: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ قال: هو قول المؤذن: حي على الصلاة، حي على الفلاح، فهذا الدليل مبني على مقدمتين:

إحداهما: أن هذه الإجابة واجبة.

والثانية: لا تحصل إلا بحضور الصلاة في الجماعة، وهذا هو الذي فهمه أعلم الأمة وأفقههم من الإجابة وهم الصحابة رضي الله عنهم»[3].

وكذا التابعون من بعدهم[4].

٢- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ذكر ابن الجوزي في تفسيرها أربعة أقوال:

أحدها: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد، فصلوا فيه، ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي، قاله ابن عباس، والضحاك واختاره ابن قتيبة.

والثاني: توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى ا لكعبة، قاله مجاهد، والسدي، وابن زيد.

والثالث: اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون غيره، قاله الربيع بن أنس.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، رقم (٦٥٣).

(٢) مسند أحمد (٣/ ٤٢٣) وسنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجماعة (٥٥٣) وسنن النسائي، كتاب الإمامة، باب المحافظة على الصلوات حيث ينادى بهن (٢/ ١١٠) وإسناده صحيح.

(٣) الصلاة وحكم تاركها (١١٢-١١٣).

(٤) يُنظر أقوال التابعين في وجوب الجماعة وحرصهم عليها في: المحرر الوجيز (١٨٨٨).

والرابع: اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة أمراً بالجماعة لها، ذكره الماوردي[(١)].

وإقامة الوجوه تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى، في مواضع عبادته بحال المتهيء لمشاهدة أمر مهم حين يوجه وجهه إلى صوبه، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فلذلك التوجه يطلق عليه إقامة لأنه جعل الوجه قائماً أي غير متغاض ولا متوان في التوجه.. فالمعنى: أن الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد لأن ذلك هو تعظيم المعبود، ومكان العبادة، ولم يأمر بتعظيمه ولا تعظيم مساجده بما سوى ذلك[(٢)].

وعلى كل حال فالآية فيها إشارة إلى إقامة صلاة الجماعة في المساجد.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ﴿مَعَ﴾ تقتضي المعية والجمعية، ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن: إن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله: ﴿مَعَ﴾ شهود الجماعة[(٣)].

وفي الآية دليل على وجوب صلاة الجماعة «ووجه الاستدلال بالآية أنه سبحانه أمرهم بالركوع، وهو الصلاة، وعبر عنها بالركوع لأنه من أركانها، والصلاة يعبر عنها بأركانها وواجباتها كما سماها الله سجوداً، وقرآنا، وتسبيحاً، فلا بد لقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ من فائدة أخرى، وليست إلا فعلها مع جماعة المصلين، والمعية تفيد ذلك.. إذا ثبت هذا فالأمر المقيد بصفة أو حال، لا يكون المأمور ممتثلاً إلا بالإتيان به على تلك الصفة والحال»[(٤)].

٤- وفي قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ما يدل على أن الله اصطفى مريم واختصها بأمور لم تكن لغيرها من النساء، فإن أمها نذرتها أن تكون محررة لله ولعبادته ولزوم المسجد، وكانت لا تفارقه، فأمرت أن تركع مع أهله، لما اصطفاها الله وطهرها على نساء العالمين.. قال الأوزاعي: لما قالت لها

---

(١) زاد المسير (٤٩٠).
(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٨٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٢١-٣٢٢).
(٤) الصلاة وحكم تاركها (١١٣).

الملائكة ذلك قامت في الصلاة حتى تورمت قدماها، وسالت دماً وقيحاً.

وقوله: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولم يقل مع الراكعات ليكون أعم وأشمل فإنه يدخل فيه الرجال والنساء(١).

وقدم السجود لأنه أدخل في الشكر والمقام هنا مقام شكر.. وفي الآية إذن لمريم عليها السلام بالصلاة مع الجماعة، وهذه خصوصية لها من بين نساء بني إسرائيل إظهاراً لمعنى ارتفاعها عن بقية النساء، ولذلك جيء في ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ بعلامة جمع التذكير(٢).

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

ووجه الاستدلال بالآية من وجوه:

أحدها: أمره سبحانه لهم بالصلاة في الجماعة.

الثاني: أعاد الأمر سبحانه مرة ثانية في حق الطائفة الثانية بقوله: ﴿وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ وفي هذا دليل على أن الجماعة فرض على الأعيان، إذ لم يسقطها سبحانه عن الطائفة الثانية بفعل الأولى، لو أنها كانت فرض كفاية.

الثالث: لو كانت الجماعة سنة لكان أولى الأعذار بسقوطها عذر الخوف، ولكنه سبحانه لم يرخص لهم في تركها حال الخوف(٣).

وتدل الآية على أن الأولى والأفضل، أن يصلوا بإمام واحد، ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم(٤).

خامساً: صلاة النافلة «التطوع»:

التطوع: ما تبرع به المسلم من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه(٥).

---

(١) معالم التنزيل (٢٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٤).

(٣) الصلاة وحكم تاركها (١١٢) بتصرف واختصار.

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١٦١).

(٥) لسان العرب (٨/ ٢٤٣).

وتسمى صلاة النافلة تطوعاً، وكل متنفل خيرٍ تطوع، قال تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وصلاة النافلة لها فضائل كثيرة عظيمة.. فهي تكمل الفرائض وتجبر نقصها لحديث تميم الداري مرفوعاً: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن كان أتمها كتبت له تامة، وإن لم يكن أتمها قال الله عز وجل لملائكته: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع فتكملون بها فريضته، ثم الزكاة كذلك، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك)(١).

كما أن التطوع ترفع به الدرجات، وتحط به الخطايا، وكثرة النوافل من أعظم أسباب دخول الجنة بمرافقة النبي ﷺ، وهي أفضل أعمال نوافل البدن، لحديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)(٢).

وصلاة التطوع في البيوت تجلب البركة، وقبلها صحبة الله لعبده كما أنها تزيد من شكر العبد لله عز وجل(٣).

وصلاة التطوع «النافلة» أقسام منها: السنن الرواتب الدائمة، والوتر، وصلاة الضحى، ومنها ما تسن له الجماعة، ومنها التطوع المطلق، والتطوع المقيد، ومنها ما هو مقيد بسبب، كسجود التلاوة وسجود الشكر، وغير ذلك(٤).

وقد سبق أن تكلمت عن ورود صلاة الليل في القرآن الكريم في آيات كثيرة، وسأذكر هنا ما أشار إليه القرآن من أنواع صلاة النافلة غير صلاة الليل.

١- صلاة الضحى:

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

(١) سنن أبي داود، رقم (٨٦٤، ٨٦٦) وسنن ابن ماجه، رقم (١٤٢٥) ومسند أحمد (٤/ ٦٥، ١٣٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٣٥٣).

(٢) سنن ابن ماجه (٢٧٧) وسنن الدارمي (١/ ١٦٨) ومسند أحمد (٥/ ٢٧٦) وصححه الألباني في الإرواء (٢/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: صلاة المؤمن لسعيد بن علي القحطاني، ذكر أحاديث كثيرة في فضل صلاة النافلة (١/ ٢٨٣-٢٨٥).

(٤) يُنظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عيثمين (٤/ ٦).

ذكـر أهـل التفسـير أن في الآيتـين إشـارة إلى صـلاة الضـحى، وقـالوا: روى ابـن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن صـلاة الضـحى لفـي كتـاب الله، ومـا يغوص عليها إلا غواص ثم قرأ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾، وقال ابـن العـربي: والأصح أنها صلاة الضحى[1].

وهناك أحاديث صحيحة ثابتـة في فضـل صـلاة الضـحى ووصـية النبـي ﷺ بهـا وبيانه لفضلها، وقد صلاها ﷺ كما في حديث عائشة عندما سئلت كـم كـان رسـول الله ﷺ يصلي صلاة الضحى؟ قالـت: (أربـع ركعـات ويزيـد مـا شـاء الله) وفي روايـة (مـا شاء)[2].

كما أن الفقهاء قالوا: إنها سنة مؤكدة لأن النبي ﷺ فعلهـا وأرشـد إليهـا أصـحابه، وأوصى بها، والوصية لرجل واحد وصية للأمة كلها إلا إذا دل الـدليل عـلى اختصاصـه بها[3].

٢- الركعتان بعد المغرب:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

روى ابن جرير عن جماعة من الصحابة والتابعين منهم: عمر وعـلي وابـن عبـاس رضي الله عنهم ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغـرب، ثـم إنـه اختـار هـذا القـول فقـال: «وأولى الأقـوال في ذلـك بالصحة قول من قال هما الركعتان بعد المغرب، لإجمـاع الحجـة مـن أهـل التأويـل عـلى ذلك»[4].

وعلى هذا فيكون السجود في هـذه الآيـة معنـاه صـلاة المغـرب، وسـمي التسـبيح صلاة، لأنه تنزيه لله عما لا يليق به، والصلاة تشتمل على ذلك، من ذكر وقـرآن وتسـبيح كلها تنزيه لله تعالى[5].

وهذا ليس تفسيراً للآية بذلك، بل هو إشارة إلى أنه روي ذلك.

(١) يُنظر: مفاتيح الغيب (١١/ ٥٩٤) وزاد المسير (١٠٠٠) وأحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٦٢٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، رقم (٧٢٠).

(٣) يُنظر: صلاة المؤمن (١/ ٣٤٠-٣٤٦) باختصار، ويُنظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٤٢٥).

(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: معاني الركوع والسجود في القرآن (٦٣).

٣- ركعتا الطواف:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين)[(١)].

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب قال: (وافقت ربي في ثلاث، ووافقني ربي في ثلاث: فقلت يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ .. إلى آخر الحديث)[(٢)].

قال ابن كثير: «وقد كان المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة البقعة المستقبلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا -والله أعلم- أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه»[(٣)].

وقال القرطبي: «واختلف في تعيين المقام على أقوال، أصحها -أنه الحجر الذي تعرفه الناس اليوم الذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم، وهذا قول جابر بن عبدالله وابن عباس وقتادة وغيرهم، وفي صحيح مسلم[(٤)] من حديث جابر الطويل أن النبي ﷺ لما رأى البيت استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فصلى ركعتين قرأ فيها بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وهذا يدل على أن ركعتي الطواف وغيرهما من الصلوات لأهل مكة أفضل، ويدل من وجه على أن الطواف للغرباء أفضل»[(٥)].

وركعتا الطواف من الصلوات ذات الأسباب التي تصلى حتى في أوقات النهي،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب من صلى ركعتيْ الطواف خلف المقام، رقم (١٦٢٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ رقم (٤٤٨٣) وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، رقم (٢٣٩٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٠٠).

(٤) كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٥٢٣).

ويدل على ذلك حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: (يـا بنـي عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار)[(١)].

٤- صلاة التوبة:

قـــــــــال تعـــــــــالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

في الآية إشارة إلى صلاة التوبة، وهي سنة لحديث علي رضي الله عنه قال: كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له ثم قرأ هذه الآية)[(٢)].

ويقول ابن كثير: «ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة.. وروى حديث علي السابق، وخرجه ثم قال: ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلغ - أو فيُسبغ - الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء)[(٣)]، وفي الصحيحين عن عثمان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه)[(٤)] فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين كما دل عليه الكتاب المبين

---

(١) سنن أبي داود، رقم (١٨٩٤) وسنن الترمذي، رقم (٢٩٢٤) وسنن ابن ماجه، رقم (١٢٥٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٣٥٤).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب الاستغفار، رقم (١٥٢١) وسنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم (٤٠٦) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٢٨٣).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، رقم (١٥٩) وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم (٢٢٦).

من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩﴾ [ص: ٢٤]، إشارة إلى أن نبي الله داود عليه السلام سجد لله عند توبته.. يقول ابن العربي: «لا خلاف بين العلماء أن الركوع ها هنا السجود لأنه أخوه، إذ كل ركوع سجود وكل سجود ركوع، فإن السجود هو الميل، والركوع هو الانحناء، وأحدهما يدل على الآخر ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئة، ثم جاء على تسمية أحدهما بالآخر فسمي السجود ركوعاً.. ومعنى السجود أن داود عليه السلام سجد خاضعاً لربه معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي اتبعه، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا فإن هنا أمرٌ مشروع في كل ملة لكل أحد»[2].

وقد سجد النبي ﷺ فيها، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص» فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزَّن[3] الناس للسجود، فقال ﷺ: (إنما هي توبة نبي، ولكن رأيتكم تشزَّنتم) فنزل وسجد[4].

٥ - سجود التلاوة:

لسجود التلاوة فضل عظيم لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله [وفي رواية يا ويلي] أُمر ابن آدم بالسجود فسجد وله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار)[5].

وعدد سجدات القرآن خمس عشرة سجدة أولاها آخر آية في سورة الأعراف وآخرتها آخر آية من سورة العلق.. وسجود التلاوة في الصلاة الجهرية ثابت لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى بأصحابه صلاة العشاء فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد، فقيل له: ما هذه؟ قال: (سجدت فيها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد فيها

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٠٢).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٦٣٩-١٦٤٠) باختصار.

(٣) التشزّن: الاستعداد يقال: تشزن للسفر إذا تأهب له، وهو من الشُزن الناصبه، لأن المستعد لقلة طمأنينته، كأنه على حرف. الفائق في غريب الحديث للزمخشري (٢/ ٢٤٢)

(٤) سنن أبي داود، رقم (١٤١٠) وسنن الدارمي (١٤٣٨) وصحيح ابن خزيمة (١٤٥٥) ومستدرك الحاكم (١٠٥٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨١).

حتى ألقاه)[1].

يقول ابن تيمية: «وسجود القرآن نوعان: خبر عن أهل السجود ومدح لهم، أو أمر به، وذم على تركه:

فـــالأول: ســـجدة الأعـــراف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وكذا في الرعد، وفي النحل، وفي سبحان خبر عـن سـجود مع مـن سـمع القـرآن فسجد وكذلك في مريم.. فهؤلاء الأنبياء سجدوا إذا تتلى عليهم آيات الـرحمن وأولـئك الذين أوتوا العلم من قبل القرآن إذا يتلى عليهم القرآن يسجدون..

وفي سجدة الحج الأولى خبر، والثانية أمر مقرون بالركوع، وسـجدة الفرقـان خـبر مقرون بذم من أُمِرَ بالسجود فلم يسجد، ليس هو مدحاً، وكذلك سجدة «النمـل» خـبر يتضمن ذم من يسجد لغير الله، ولم يسجد لله.. ومن قرأ الآيات اسجدوا كانت أمـراً وفي «ألم تنزيل السجدة» أبلغ الأمر والتحضيض، فإنه نفى الإيمان عمن ذكـر بآيـات ربـه ولم يسجد إذا ذكر بها، وفي «ص» خبر عـن سـجدة داود، وسـماها ركوعـاً، و«حـم تنزيـل» «والنجم» أمر صريح، و«الانشقاق» أمر صريح عن سماع القرآن، و«اقـرأ باسـم ربـك» أمر مطلق.. فالستة الأول إلى الأولى من الحج خبر ومدح، والتسع البواقي من الثانية مـن الحج أمر وذم لمن لم يسجد إلا «ص»..»[2].

ويقول ابن عاشور: «وقد دل استقراء مواقع سجود القرآن أنها لا تعـدو أن تكـون إغاظة للمشركين، أو اقتداء بالأنبياء أو المرسلين كما قال ابن عباس في سجدة ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩﴾ إن الله تعالى قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فداود ممن أمـر محمـد ﷺ بأن يقتدي به»[3].

وسجود التلاوة سنة مؤكدة على الصحيح للتالي والمستمع، وهناك أحاديـث كثـيرة رويت عن النبي ﷺ تدل على أهمية سجود التلاوة ومشروعيته المؤكدة، وعناية النبي ﷺ

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الجهر في العشاء، رقم (٧٦٦) وباب القـراءة في العشـاء بالسـجدة، رقم (٧٦٨)، وصحيح مسلم، كتاب المساجد، باب سجود التلاوة، رقم (٥٧٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٣٦-١٣٩) باختصار، وفيه فصل ممتع وكأنه تفسير موضوعي للآيات التي يسجد عندها.

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤٤).

به، وهناك أدلة أخرى تدل على عدم الوجوب.

ومن أوضح الأدلة على أن سجود التلاوة سنة مؤكدة وليس بواجب حديث زيد ابن ثابت رضي الله عنه قال: (قرأت على النبي ﷺ «والنجم» فلم يسجد فيها)[(١)].

ورجح الحافظ النووي والحافظ ابن حجر وابن قدامة رحمهم الله أن حديث زيد بن ثابت هذا محمول على بيان جواز عدم السجود، وأنه سنة مؤكدة وليس بواجب لأنه لو كان واجباً لأمره بالسجود ولو بعد ذلك.. ويشرع في سجود التلاوة ما يشرع في سجود الصلاة.. ويجوز في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها لأنه من ذوات الأسباب[(٢)].

وأرى أن الآيات التي فيها سجدة يمكن أن تفسر تفسيراً موضوعياً نافعاً.

سادساً: صلاة العيد:

وردت الإشارة لصلاة عيد الفطر في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

ذكر السيوطي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وسعيد بن المسيب، وعبدالله بن عمر، وواثلة بن الأسقع، وأبي العالية، وعطاء، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النخعي.. أنهم تأولوا هذه الآيات على أنها في تقسيم الفطرة قبل أن يغدوا إلى المصلى.. وقالوا: إنها نزلت في صدقة الفطر تزكى ثم تصلى[(٣)].

ووردت الإشارة إلى التكبير في العيد في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال ابن عطية: «حض على التكبير في آخر رمضان.. وعن ابن عباس: يكبر المرء من رؤية الهلال إلى انقضاء الخطبة، ويمسك وقت خروج الإمام ويكبر بتكبيره»[(٤)].

كما وردت الإشارة لصلاة عيد الأضحى في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر: ٢].

نقل السيوطي في الدر المنثور عدة روايات عن ابن عباس، وسعيد بن جبير،

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب سجود القرآن، باب من قرأ السجدة ولم يسجد، رقم (١٠٧٢، ١٠٧٣) وصحيح مسلم، كتاب المساجد، باب سجود التلاوة، رقم (٥٧٧).

(٢) يُنظر: صلاة المؤمنين (١/ ٣٨٩-٣٩٨) باختصار وتصرف.

(٣) تُنظر الروايات عنهم في: الدر المنثور (١٥/ ٣٦٨-٣٧١).

(٤) المحرر الوجيز (١٦٥)، ويُنظر: زاد المسير (١٠٦).

ومجاهد، وقتادة، وعطاء أنهم تأولوا الآية بأن فيها إشارة إلى صلاة العيد يوم الأضحى ثم النحر بعد ذلك، وروي عن أنس رضي الله عنه أنـه قـال: كـان النبـي ﷺ ينحـر قبـل أن يصلي، فأمر أن يصلي ثم ينحر[(١)].

وكذا وردت الإشارة إليها في قوله تعـالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

قال القرطبي: قيل: صلاة العيد، والنسك جمع نسيكة وهي الذبيحة، وكذلك قـال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم[(٢)].

وسمي العيد عيداً، لكثرة عوائد الله تعالى على عباده في ذلك اليـوم، لأن لـه عوائـد الإحسان على عباده في ذلك اليوم كل عام.

والذي رجحه كثير من العلماء[(٣)] أن صلاة العيد فرض عـين لقولـه تعـالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ ولحديث أم عطية قالت: (أمرنا -تعني النبـي ﷺ- أن نخـرج في العيـدين: العواتق، وذوات الخدور، وأمر الحيض أن يعتزلن مصلى المسلمين)[(٤)].

ومما يؤكد فرضيتها وأنها واجبة على الأعيـان: أن النبـي ﷺ واظـب عليهـا، وقـد اشتهر في السير أن أول صلاة صـلاها رسـول الله ﷺ يـوم عيـد الفطـر في السـنة الثانيـة للهجرة ولم يزل يواظب عليها حتى فارق الدنيا، وواظب عليها الخلفاء بعـد النبـي ﷺ، وهي من أعلام الدين وشعائره الظاهرة[(٥)].

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله القول بأن صلاة العيد فرض عـين وقـال: «.. ولهذا رجحنا أن صلاة العيد واجبة على الأعيان كقول أبي حنيفة وغـيره، وهـو أحـد أقوال الشافعي وأحد القولين في مذهب أحمد»[(٦)].

ويسن ويستحب لصلاة العيد الاغتسال، والتنظف والتطيب والسواك ولبس أجد

(١) الدر المنثور (١٥/ ٧٠٥، ٧٠٦)، ويُنظر: زاد المسير (١٥٩٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٣٤).
(٣) يُنظر جملة منهم في: صلاة المؤمن (٢/ ٨٣١-٨٣٢).
(٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب إذا لم يكن لها جلباب في العيد، رقم (٩٨٠) وصحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة، رقم (١٥٩٦).
(٥) يُنظر: المغني (٣/ ٢٥٤) والشرح الممتع (٥/ ١٥١-١٥٢).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٦١).

ما يجد.. وأن يأكل قبل خروجه إلى المصلى في عيد الفطر تمرات وتراً، والأفضل في عيد الأضحى أن لا يأكل حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته، كما يسن أن يخرج إلى العيد ماشياً وعليه السكينة والوقار، وأن تصلى صلاة العيدين في المصلى خارج البلد، كما يستحب التبكير لها والتكبير لله على ما هدانا.. وفي كل ذلك وردت أحاديث صحيحة[(١)].

سابعاً: الصلاة على الميت:

وردت الإشارة لها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: هذا نص في الامتناع عن الصلاة على الكفار.. واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين؟ على قولين: يؤخذ لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإذا زال الكفر وجبت الصلاة.. أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية وهي الأحاديث الواردة في الباب والإجماع»[(٢)].

وعند الفقهاء أن حكم الصلاة على الميت: فرض كفاية لمفهوم الآية التي معنا وقالوا: لما نهى عن الصلاة على المنافقين دل على أن الصلاة على المؤمنين شريعة قائمة، ولأن النبي ﷺ كان يصلي على أموات المسلمين باستمرار، وكان يقول أحياناً: (صلوا على صاحبكم)[(٣)].

قال ابن كثير: «ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل لما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان، قيل: وما القيراطان؟ قال: أصغرهما مثل أحد)[(٤)]»[(٥)].

---

(١) يُنظر: صلاة المؤمن (١/ ٣٢-٨٤٦) ففيه تفصيل لجميع المستحبات والسنن لهذه الصلاة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٥٤٤).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب الدين، رقم (٢٢٩٨) وصحيح مسلم، كتاب الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته، رقم (١٦١٩)، ويُنظر: صلاة المؤمن (٣/ ١٣٦٢).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من انتظر حتى تدفن، رقم (١٣٢٣، ١٣٢٤) وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها، رقم (٩٤٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٩٠٠).

وفي الحديث دلالة على فضل الصلاة على الميت وهذا من فضل الله عـز وجـل عـلى عباده المؤمنين بأن وعدهم بالأجر العظيم على الصلاة على أموات المسلمين.

وفضل الله أكبر على عبده المسلم الميت بشرعية الصلاة عليه وقبول شفاعة إخوانـه فيه لحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من ميت يصلي عليه أمـة مـن المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه)(١).

ولحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: (مـا مـن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه)(٢).

وقد جمع أهل العلم بين الحديثين: بأن حديث المائة أولاً، ثم تفضـل الله عـز وجـل وجعل الأربعين يقومون مقام المائة في قبول الشفاعة، وبكل حال فالحديثان يـدلان عـلى استحباب كثرة الجمع على الجنائز(٣).

ثامناً: صلاة السفر:

وردت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

وقد أخبر النبي ﷺ أن قصر الصلاة صـدقة مـن الله علينـا، سـواء حـال الأمـن أو الخوف، فعن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطـاب: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد أمن الناس، فقال: عجبـت ممـا عجبـتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلـك فقـال: (صـدقة تصـدق الله بهـا علـيكم، فـاقبلوا صدقته)(٤).

وقد تواترت الأخبار أن رسول الله ﷺ كـان يقصرـ في أسـفاره، حاجـاً ومعتمـراً، وغازياً، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (صحبت رسـول الله ﷺ فكـان لا يزيـد في

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه مائة شفعوا فيه، رقم (٩٤٧).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).
(٣) صلاة المؤمن (٣/ ١٢٦٤).
(٤) تقدم تخريجه صفحة (٦٦).

السفر على ركعتين، وأبا بكر، وعمر، وعثمان كذلك رضي الله عنهم)[(١)].

بل إن الأصل في فرض الصلوات الخمس أنه ركعتان، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر)[(٢)] وفي لفظ للبخاري: (فرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعاً وتركت صلاة السفر على الأولى)[(٣)].

زاد أحمد: (إلا المغرب فإنها وتر النهار، وإلا الصبح فإنها تطول فيها القراءة)[(٤)].

وقد أجمع أهل العلم على أن من سافر سفراً تقصر في مثله الصلاة: في حج أو عمرة أو جهاد أن له أن يقصر الرباعية فيصليها ركعتين، وأجمعوا على أن لا يقصر في المغرب ولا في صلاة الصبح[(٥)].

والقصر في السفر أفضل من الإتمام لحديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته)[(٦)].

ويستدل بهذه الآية على صلاة الخوف كثير من السلف منهم: مجاهد، والضحاك، والسدي وأن المعنى بالقصر هو قصر الكيفية لا الكمية، لأن عندهم كمية صلاة المسافر ركعتان فهي تمام غير قصر، كما قاله عمر، وابن عباس، وعائشة رضي الله عنهم، قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وقال تعالى بعدها: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ... الآية، فبيَّن المقصود من القصر هاهنا وذكر صفته وكيفيته[(٧)].

وقال العلامة أبو السعود: «إن هذه الآية الكريمة مجملة في حق مقدار القصر وكيفيته وفي حق ما يتعلق به من الصلوات، وفي مقدار مدة الضرب الذي نيط به القصر، فكل ما ورد عنه ﷺ من القصر في حال الأمن، وتخصيصه بالرباعيات على وجه

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب التقصير، باب من لم يتطوع في السفر دبر الصلاة، رقم (١١٠٢) وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٦).

(٢) تقدم تخريجه صفحة (٢٢٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب التاريخ، من أين أرخوا التاريخ، رقم (٣٩٣٥).

(٤) مسند أحمد (٦/ ٢٤١) وصحيح ابن خزيمة، رقم (٣٠٥) وصحيح ابن حبان، رقم (٢٧٣٨).

(٥) الإجماع لابن المنذر (٤٦).

(٦) مسند أحمد (٢/ ١٠٨) وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم (٥٦٤).

(٧) يُنظر: محاسن التأويل (٣/ ٣٠٥-٣٠٨) باختصار.

التنصيف وبالضرب في المدة المعينة -بيان لإجمال الكتاب»[1].

تاسعاً: صلاة الخوف:

لما كانت الآية السابقة الواردة في مشروعية القصر مجملاً في السفر وحال الخوف بيَّن الله كيفية صلاة الخوف في الآيات بعدها فقال تعالى:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٢، ١٠٣].

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ صلى بأصحابه صلاة الخوف مرات متعددة على صفات متنوعة، وأجمع الصحابة على فعلها، فكانوا في الخوف يصلون صلاة الخوف، جاء ذلك عن علي رضي الله عنه ليلة صفين، وجاء عن أبي هريرة، وأبي موسى الأشعري، وعن سعيد بن العاص، وحذيفة رضي الله عنهم[2].

«وجاءت صلاة الخوف عن النبي ﷺ على أنواع مختلفة: ذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم أنها جاءت في أحاديث يبلغ مجموعها ستة عشر- نوعاً وهي مفصلة في صحيح مسلم وبعضها في سنن أبي داود، واختار الشافعي منها ثلاثة أنواع: بطن نخل، وذات الرقاع، وعسفان، وذكر الحاكم في مستدركه ثمانية أنواع منها، وصحح ابن حزم في صفتها عن رسول الله ﷺ أربعة عشر نوعاً، وذكر القرطبي في المفهم عشرة أحاديث منها وتكلم عليها، قال أبو داود: جميع ما روي عن النبي ﷺ في صلاة الخوف جائز، لا نرجح بعضه على بعض، وقال الإمام أحمد: ما أعلم في هذا الباب إلا حديثاً صحيحاً.. وقال ابن القيم -بعد أن ذكر ست صفات من أنواع صلاة الخوف-: وقد روي عن النبي ﷺ صفات أخرى ترجع كلها إلى هذه، وهذه أصولها، وربما اختلفت بعض

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٢/ ٢٢٣) ويُنظر: محاسن التأويل (٣/ ٣٠٨).
(٢) المغني (٣/ ٢٩٧).

ألفاظها»[1].

وأول الأنواع وأولاها وأسهلها ما وافق ظاهر القرآن، وقد وصفها القرآن وصفاً واضحاً ذكرته أغلب كتب التفسير والحديث والفقه.. وهو النوع الذي اختاره الإمام أحمد وغيره لموافقته ظاهر القرآن وأقر جميع الأنواع الأخرى، وأن كل حديث صح في صلاة الخوف يجوز العمل به[2].

ثم إن الله تعالى أمر عباده بأن يداوموا على ذكره تعالى في جميع الأحوال فإن ما هم عليه من الخوف والحذر مع العدو جدير بالمواظبة على ذكر الله.

يقول ابن كثير: «يأمر الله تعالى بالذكر عقيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن ههنا آكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب مما ليس يوجد في غيرها»[3].

أما صلاة الخوف حال القتال والتحام الحرب فجاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨-٢٣٩].

قال جمهور العلماء: لا تؤخر الصلاة عند اشتداد الحرب والتحام القوم بعضهم ببعض، بل يصلون على حسب أحوالهم على أي صفة كانوا ولو ركعة واحدة إيماءً سواء كانوا مستقبلين القبلة أو مستدبرين، وسواء كانوا رجالاً على الأقدام أو ركباناً على الخيل والإبل وغيرها، فقالوا: تكون الصلاة على ما ورد به القرآن ووردت به الأحاديث، وأن الصلاة لا تؤخر، أما تأخير الصلاة يوم الخندق، فلأن صلاة الخوف لم تشرع بعد[4].

وذهب قوم من أهل العلم إلى أن صلاة الخوف في اشتداد القتال يجوز تأخيرها إلى الفراغ من التحام القتال إذا لم يستطع المجاهدون أن يعقلوا صلاتهم، وهذا أحد القولين في مذهب الإمام أحمد رحمه الله وغيره، واختاره البخاري، والأوزاعي، ومكحول، وهو الذي عمل به الصحابة رضي الله عنهم زمن عمر بن الخطاب في فتح «تستر» وقد اشتهر ولم ينكر عليهم تأخير صلاة الفجر إلى أن استتم الفتح ضحى فصلوها بعد ارتفاع

---

(١) يُنظر: صلاة المؤمن (٢/ ٧٢١-٧٢٣) باختصار وتصرف، ويُنظر: زاد المعاد (١/ ٥٣٢).

(٢) المغني (٣/ ٢٢٩)، ويُنظر: محاسن التأويل (٥/ ٣١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥٢٨).

(٤) يُنظر: المغني (٣/ ٣١٦) وزاد المعاد (٣/ ٢٥٣).

الشمس[1].

عاشراً: صلاة المريض:

جاءت الإشارة إلى جواز التيمم للمريض الذي لا يستطيع أن يتطهر بالماء لخوفه تلف النفس أو تلف عضو، أو حدوث مرض، أو لعجزه، أو خوف زيادة المرض، أو تأخر برئه.. وقد احتج عمرو بن العاص رضي الله عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] لما امتنع من الاغتسال بالماء البارد حين أجنب في غزوة ذات السلاسل خوفاً على نفسه منه فقرر النبي ﷺ احتجاجه وضحك عند ذلك ولم يقل شيئاً[2].. فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: (لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب! قال: قلت يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً)[3].

كما جاء ذلك صريحاً في آيتين تصفان كيفية التيمم وهي:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

---

(١) فتح الباري (٢/ ٢٣٤-٢٣٦) وتفسير القرآن العظيم (٣٠٨-٣٠٩) باختصار وتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٤٢).

(٣) سنن أبي داود، رقم (٣٣٤)، ومسند أحمد (٤/ ٢٠٤) وقال محققه: «إسناده حسن»، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٣٣٤): «صحيح»، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (٤٦٧).

كما استنبط جمع من المفسرين صفة صلاة المريض من قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

أ- قال ابن الجوزي: «في هذا الذكر أقوال: أحدها: أنه الذكر في الصلاة يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب، هذا قول علي، وابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، والثاني: أنه الذكر في الصلاة وغيرها، وهو قول طائفة من المفسرين»[(١)].

ب- وابن كثير يقول عن الآية «.. ثم وصف الله تعالى أولي الألباب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب) أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم»[(٢)].

جـ- ويقول القرطبي: «... وذهب جماعة من المفسرين منهم الحسن وغيره إلى أن قوله: ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ إنما هو عبارة عن الصلاة أي لا يضيعونها ففي حال العذر يصلونها قعوداً أو على جنوبهم.. ثم قال: وإذا كانت الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلي قائماً فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب.. ثم ساق حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.. ثم ذكر مسائل عدة في صفة صلاة المريض وما يتعلق بها من أحكام»[(٣)].

إن في الإشارة إلى صلاة المريض في القرآن الكريم دلالة واضحة على يسر الشريعة الإسلامية، وسهولتها، وكمالها كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

---

(١) زاد المسير (٢٤٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٢٩) والحديث في: صحيح البخاري، كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب، رقم (١١١٧) (١/ ٢٨٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٦٤٨-٦٥٠).

وقد ذكر الفقهاء كيفية صلاة المريض وما يجب عليه، وما هو الأفضل له في كل حال من أحوال مرضه.. أو عجزه عن الطهارة، أو عن استقبال القبلة، أو عن القيام، أو القعود كما ذكروا أنه يجب عليه أن يصلي كل صلاة لوقتها، ويفعل كل ما يقدر عليه مما يجب فيها فإن شق عليه فعل كل صلاة في وقتها فله الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء إما جمع تقديم أو جمع تأخير.. كما قالوا: لا يجوز للمريض ترك الصلاة بأي حالٍ من الأحوال ما دام عقله ثابتاً، بل يجب على المكلف أن يحرص على الصلاة أيام مرضه أكثر من حرصه عليها أيام صحته ويصليها في وقتها المشروع حسب استطاعته، فإذا تركها متعمداً وهو عاقل عالم بالحكم الشرعي مكلف يقوى على أدائها ولو إيماءً، فهو آثم، وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى كفره بذلك.. وكذلك إذا نام المريض عن صلاته أو نسيها وجب عليه أن يصليها حال استيقاظه أو ذكره لها ولا يجوز له تركها إلى دخول وقت مثلها ليصليها فيه[1].

حادي عشر: صلاة الكسوف والخسوف:

الكسوف أو الخسوف: هو احتجاب ضوء الشمس أو القمر أو بعضه بسبب معتاد يخوف الله به عباده، فعلى هذا يكون الكسوف والخسوف مترادفين أي بمعنى واحد، فيقال: كسفت الشمس وخسفت، وكسف القمر وخسف، وقيل: الكسوف للشمس، والخسوف للقمر، ولعل هذا إذا اجتمعت الكلمتان فقيل: كسوف وخسوف، أما إذا انفردت كل واحدة عن الأخرى فهما بمعنى واحد.. ولهذا نظائر في اللغة[2].

وقد جاءت الإشارة إلى هذه الصلاة عند تفسير العلماء لقوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩].

يقول ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ قال قتادة: إن الله خوف الناس بما يشاء من آياته لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وهكذا روي أن

(١) يُنظر: صلاة المؤمن (٢/ ٦٤٠-٦٥٠) فقد فصل المؤلف وأجاد في وصف كيفية صلاة المريض في جميع أحواله، ويُنظر: المغني (٢/ ٥٧٠-٥٨٠).

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٥/ ٢٩٩) ويُنظر: نيل الأوطار للإمام الشوكاني (٢/ ٦٣٣-٦٤٨).

المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات فقال عمر: أحدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وكذا قال رسول الله في الحديث المتفق عليه: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وأنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره)[(١)].

ويقول ابن عطية: «أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآيات غير المقترحة تخويفاً للعباد، وهي آيات معها إمهال لا معاجلة، فمن ذلك: الكسوف، والرعد، والزلزلة، وقوس قزح[(٢)] وغير ذلك، قال الحسن: والموت الذريع.. ثم قال: و من هذا قول النبي ﷺ في الكسوف: (فافزعوا إلى الصلاة..) الحديث[(٣)]، ثم قال: وآيات الله المعتبر بها ثلاثة أقسام:

-فقسم عام في كل شيء إذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية، وهنا فكرة العلماء.

- وقسم معتاد غباً كالرعد والكسوف ونحوه، وهنا فكرة الجهلة فقط.

- وقسم خارق للعادة وقد انقضى بانقضاء النبوة، وإنما يعتبر به توهماً لما سلف منه»[(٤)].

قال الألوسي: «.. واستظهر أبو حيان كون المراد بها الآيات التي معها إمهال كالخسوف والكسوف وشدة الرعد والبرق والرياح والزلازل وغور ماء العيون وزيادتها

(١) تفسير القرآن العظيم (١١٢٥) والحديث في: صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف رقم (١٠٤٤) وصحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١).

(٢) قوس قزح: قال في لسان العرب: «وقوس قزح طرائق متقوسة تبدو في السماء أيام الربيع غب المطر بحمرة وصفرة وخضرة، ولا يفصل قزح من قوس.. وفي الحديث عن ابن عباس: «لا تقولوا قوس قزح، فإن قزح اسم شيطان، وقولوا: قوس الله عز وجل» وقيل سمي به لتسويله للناس وتحسينه إليهم المعاصي من التقريح وهو التحسين.. وكأنه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية، وأن يقال: قوس الله فيرفع قدرها، كما يقال: بيت الله، وقالوا: قوس الله أمان من الغرق.. ويقال قزح: اسم ملك موكل به».

وقال في المعجم الوسيط: «وقوس قزح قوس ينشأ في السماء أو على مقربة من مسقط الماء من التلال ونحوه، ويكون في ناحية الأفق المقابلة للشمس وترى فيه ألوان الطيف متتابعة وسببه انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء المتطاير من ماء المطر أو من مياه الشلالات وغيرها من مساقط الماء المرتفعة». يُنظر: المعجم الوسيط، مادة «قوس» (٧٦٦) ولسان العرب، مادة «قزح» (١١/ ١٥١)

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها: صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب هل يقول كسفت الشمس أو خسفت رقم (١٠٤٧) وصحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١).

(٤) المحرر الوجيز (١١٥٢).

على الحد حتى يغرق منها بعض الأرضين.. أي ما نرسلها إلا تخويفاً مما هو أعظم منها»[(١)].

وكذا الحافظ ابن حجر استدل بالآية التي معنا على أن الكسوف والخسوف من آيات الله الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته أو على تخويف العباد من بأس الله وسطوته[(٢)].

وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية استدل بالآية بعد أن ذكر أن بعض الناس ظن أن كسوف الشمس كان لأن إبراهيم مات فخطبهم النبي ﷺ وأمرهم بالفزع إلى الصلاة. ثم قال ابن تيمية: «وهذا بيان منه ﷺ أنها سبب لنزول عذاب الناس فإن الله تعالى إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه، وعصوا رسله، وإنما يخاف الناس مما يضرهم فلولا إمكان حصول الضرر بالناس عند الخسوف ما كان ذلك تخويفاً.. وأمر النبي ﷺ بما يزيل الخوف: أمر بالصلاة، والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والعتق حتى يُكشف ما بالناس، وصلى بالمسلمين صلاة الكسوف صلاة طويلة[(٣)].

والمشهور عند الفقهاء والمحدثين أن صلاة الكسوف سنة مؤكدة[(٤)].

وقال بعض العلماء بوجوب صلاة الكسوف لأن النبي ﷺ فعلها وأمر بها.. يقول ابن عيثمين: «وقال بعض أهل العلم إنها واجبة، لقول النبي ﷺ: (إذا رأيتم ذلك فصلوا) قال ابن القيم في كتاب الصلاة: وهو قول قوي أي القول بالوجوب، وصدق رحمه الله لأن النبي ﷺ أمر بها وخرج فزعاً وقال: إنها تخويف، وخطب خطبة عظيمة، وعرضت عليه الجنة والنار، وكل هذه القرائن العظيمة تشعر بوجوبها، لأنها قرائن عظيمة، ولو قلنا: إنها ليست بواجبة، وأن الناس، مع وجود الكسوف، إذا تركوها مع هذا الأمر من النبي ﷺ والتأكيد فلا إثم عليهم، لكان في هذا شيء من النظر، كيف يكون تخويفاً ثم لا نبالي كأنه أمر عادي؟ أين الخوف؟

ولا أرى أن الناس يرون الكسوف في الشمس أو القمر ثم لا يبالون به، كلٌ في

---

(١) روح المعاني (٨/ ١٠٠).

(٢) فتح الباري (٢/ ٥٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٥٨-٢٥٩) ويُنظر: (٣٥/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٤٥١) وفتح الباري (٢/ ٥٢٧) والمغني (٣/ ٣٣٠).

تجارته، كلٌ في لهوه، كلٌ في مزرعته، فهذا شيء يخشى أن تنزل بسببه العقوبة التي أنذرنا الله إياها بهذا الكسوف، فالقول بالوجوب أقوى من القول بالاستحباب»[(١)].

ثاني عشر: صلاة الاستسقاء:

الاستسقاء سنة مؤكدة إذا أجدبت الأرض وقحط المطر، وهي ثابتة بسنة رسول الله ﷺ وخلفائه رضي الله عنهم[(٢)].

«وأجمع العلماء على أن الخروج إلى الاستسقاء، والبروز والاجتماع إلى الله عز وجل خارج المصر: بالدعاء، والضراعة إلى الله تبارك اسمه في نزول الغيث عند احتباس ماء السماء وتمادي القحط: سنة مسنونة سنها رسول الله ﷺ لا خلاف بين علماء المسلمين في ذلك»[(٣)].

وقد بيَّن الله تعالى أن الابتعاد عن المعاصي، والقيام بالواجبات من أعظم أسباب إنزال البركات فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

يذكر الله عز وجل في هذه الآية أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك جميع ما حرم الله لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون، وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناءٍ ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلايا، ونزع البركات، وكثرة الآفات وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو أخذهم بجميع ما كسبوا ما ترك عليها من دابة[(٤)]، ولا أجزم بأن الآية تدل صراحة أو ضمناً على صلاة الاستسقاء ولكن يمكن أن تؤخذ الإشارة إلى صلاة الاستسقاء من قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

---

(١) الشرح الممتع (٥/ ٢٣٧-٢٤٠) باختصار.
(٢) المغني (٣/ ٣٣٤).
(٣) التمهيد لابن عبدالبر (١٧/ ١٧٢).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢٦٠).

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ففي الآيتين دليل على أن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أمّة، وهو بعد التقوى من أعظم وسائل استنزال الرزق، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالناس، فلم يزد في الخطبة على الاستغفار ثم نزل، فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح[1] السماء ثم قرأ هذه الآية.

وشكا رجل إلى الحسن الجدب فقال له: استغفر الله تعالى، وشكا إليه آخر الفقر فقال له: استغفر الله سبحانه، وقال له آخر: ادع الله تعالى أن يرزقني ولداً فقال له: استغفر الله تعالى، فقيل له في ذلك فاستدل بهذه الآية.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: اللهم إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟ اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا! فرفع يديه ورفعوا أيديهم، فسُقوا[2].

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أن النبي ﷺ استسقى على وجوه:

الوجه الأول: يوم الجمعة على المنبر.

الوجه الثاني: أنه ﷺ وعد الناس يوماً يخرجون فيه إلى المصلى، فخرج إلى المصلى، فاستسقى، فاستقبل القبلة وحول رداءه وصلى ركعتين.

الوجه الثالث: أنه استسقى على منبر المدينة استسقاءً مجرداً في غير يوم جمعة، ولم يحفظ عنه في هذا اليوم صلاة.

الوجه الرابع: أنه استسقى وهو جالس في المسجد فرفع يديه ودعا الله عز وجل فحفظ من دعائه: (اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً، مريعاً، طبقاً، عاجلاً غير رائث، نافعاً

(١) واحدها «مجدح» نجم من النجوم، وقيل: هو ثلاثة كواكب كالأثافي تشبيهاً بالجدح الذي له ثلاث شعب وهو من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه لا قولاً بالأنواء، وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء كلها التي يزعمون أن من شأنها المطر. يُنظر: النهاية (١/ ٢٤٣).

(٢) يقارن بين المحرر الوجيز (١٩٠٢) والجامع لأحكام القرآن (٩/ ٥٠٤).

غير ضار)[(١)].

الوجه الخامس: أنه استسقى عند أحجار الزيت قريباً مـن الـزوراء، وهـي خـارج بـاب المسجد الذي يدعى اليوم باب السلام.

الوجه السادس: أنه ﷺ استسقى في بعض غزواته لما سبقه المشركون إلى الماء.

وأغيث ﷺ في كل مرة استسقى فيها ربه[(٢)].

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب رفع اليـدين في الاستسـقاء، رقـم (١١٦٩) وصـححه الألبـاني في صـحيح سـنن أبي داود، رقم (١١٦٩).

(٢) زاد المعاد (١/ ٤٥٧-٤٥٩) باختصار، ويُنظر: صلاة المؤمن (٣/ ٩٩٠-٩٩١).

الباب السادس

مقاصد وفقه الصلاة في القرآن الكريم

وفيه ستة فصول

الفصل الأول: إقامة الصلاة تحقيق لذكر اللّه.

الفصل الثاني: الخشوع روح الصلاة ولبها.

الفصل الثالث: شروط الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم.

الفصل الرابع: أركان الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم.

الفصل الخامس: واجبات الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم.

الفصل السادس: سنن الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم.

الفصل الأول
إقامة الصلاة تحقيقٌ لذكر الله

إن لذكر الله تعالى بمعناه الواسع منزلة عظيمة، منه يتزود المؤمن وفيه يتجر مع الله.. وكما يقول ابن القيم: «الذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن مُنعه عُزِل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.. به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون.. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويوصل الذاكر إلى المذكور، بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها، فكذلك القلوب بورٌ خراب وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً.. به يزول الوقرُ عن الأسماع، والبَكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين.. وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته»(١).

وفي إقامة الصلاة إقامة حقيقية تامة تحقيق لكل فضائل الذكر ومزاياه، لأنها مشتملة على القراءة، والتسبيح، والتكبير، والتحميد، والتمجيد لله تعالى والإخلاص له، والتضرع والإنابة.. فيفزع إليها المؤمن عند كربه، ويطمئن قلبه فيها لربه، ويكشف الله بها غمه وكربه، ويقبل عليه برحمته وفضله، ويقبل توبته ويقيل عثرته.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٠-٤٤١) باختصار.

والآيات الواردة في ذلك والتي تدل على أن في إقامة الصلاة تحقيقاً لذكر الله كثيرة جداً يصعب حصرها، واستنباط ما يدل على ذلك منها ولكن سأذكر أصرحها دلالة على ذلك، فمن ذلك:

١- قوله تعالى لموسى أول ما أوحى إليه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

فالله المستحق الألوهية المتصف بها لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله الذي لا شريك له ولا مثيل، ولا كفو، ولا سمي، وهو المستحق أن يعبد وأن يذكر بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، وخص الصلاة بالذكر، وإن كانت داخلة في العبادة لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح، واللام في قوله: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ لام التعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وبه عبودية القلب، وبه سعادته، والقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات التي المقصود منها إقامة ذكره وخصوصاً الصلاة[(١)].

وقالت فرقة من المفسرين في قوله ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾، أي عند ذكري، أي: إذا ذكرتني وأمري لك بها فاللام على هذا بمنزلتها في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾، وقرأت فرقة «للذكرى»، وقرأت فرقة: «لذكرى» بغير تعريف، وقرأت فرقة: «للذكر»[(٢)].

وهذه القراءات والألفاظ كلها من معاني الذكر في القرآن الكريم.

٢- وفي خطاب الله لنبيه محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ما يدل على أن ما في إقامة الصلاة من ذكر أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الإلهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.. يقول البيضاوي: «وللصلاة أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبر عنها به للتعليل بأن اشتمالها على ذكره هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن

---

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٤٥٢).

(٢) يقارن مع المحرر الوجيز (١٢٤٧).

السيئات، أو لَذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته»[(١)].

إن في الصلاة من الأقوال تكبير لله وتحميده، وتسبيحه، والتوجه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه، وما هو ضلال، وكلها تذكر بالتعرض إلى مرضاة الله والاقلاع عن عصيانه وما يفضي- إلى غضبه فذلك صد عن الفحشاء والمنكر.. وفي الصلاة أفعال هي خضوع وتذلل لله تعالى من قيام وركوع وسجود وذلك يذكر بلزوم اجتلاب مرضاته والتباعد عن سخطه.

وفي الصلاة أعمال قلبية من نية واستعداد للوقوف بين يدي الله وذلك يذكر بأن المعبود جدير بأن تمتثل أوامره وتجتنب نواهيه.

وقوله: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ فيكون عطف علة على علة، ويكون المراد بذكر الله هو الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي صلاة الجمعة، ويكون العدول عن لفظ الصلاة الذي هو كالاسم لها إلى التعبير عنها بطريق الإضافة للإيماء إلى تعليل أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي إنما كانت ناهية عن الفحشاء والمنكر لأنها ذكر الله وذكر الله أمر كبير، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة مقصود به قوة الوصف كما في قولنا: الله أكبر، لا نريد أنه أكبر من كبير آخر.

ويجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ والمعنى: واذكر الله فإن ذكر الله أمر عظيم، فيصح أن يكون المراد من الذكر تذكر عظمة الله تعالى.

ويجوز أن يكون المراد ذكر الله باللسان ليعم ذكر الله في الصلاة وغيرها، واسم التفضيل أيضاً مسلوب المفاضلة[(٢)].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

في الآية إشارة إلى أن إقامة الصلوات ووصفها بـ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ أي: هي سبب ذكري وموضع ذكرى للحض على الحسنات، وفيها عظة للمتعظين، يفهمون بها ما أمرهم الله

(١) تفسير البيضاوي (٢/ ٨٠١)، ويُنظر: معالم التنزيل (٩٩٦-٩٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٩-٢٦١) باختصار وتصرف.

به ونهاهم عنه، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات الدافعة للشرور والسيئات، وهذا من تحقيق ذكر الله الذي أمر به وحث عليه سبحانه.

إن إقامة الصلوات الخمس طرفيْ النهار وزلفاً من الليل، والمحافظة عليها، من أعظم الحسنات التي تذهب السيئات، وتحقق الاستقامة المأمور بها كما جاء في قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] (١).

٤- وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩].

٥- وقوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

في الآيات ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض لتخصيصها بالأمر، وكذلك ذكر الصلاة في سائر أوقات الليل.. وفي هذا إشارة إلى أن الله أمر عباده بأن يحققوا ذكره بعبادته وتسبيحه وحمده حين المساء، وحين الصباح، ووقت العشي، ووقت الظهيرة.. ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل، لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات، هي أفضل وأشرف الأوقات، فالتسبيح والتحميد فيها، والعبادة فيها أفضل من غيرها.. والإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة، وبهذا يكون إقامة الصلاة تحقيقاً لذكر الله في الأرض (٢).

٦- وفي قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

يقول الحسن البصري: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي.

وعن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي رواية: برحمتي.

---

(١) يُنظر: مفاتيح الغيب (٨/ ٦٣٣).

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٥٨٨).

وعن ابن عباس: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

وفي الحديث الصحيح: (يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)[(١)].

ولا شك أن إقامة الصلوات الخمس قيام بما افترض الله على العبد وتحقيق لطاعته عز وجل، وهي من أكبر أعمال الذاكر لله فتوجب ذكر الله له بعد ذلك.

٧- وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

أمر من الله بإقامة الصلوات كما أمرنا بإتمام ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها.. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر[(٢)].

وهذه الآية مثل:

٨- قوله تعالى بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

أي: إذا أمنتم من الخوف، واطمأنت قلوبكم وسكنت نفوسكم وأبدانكم، فحققوا ذكر الله بإقامة صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهراً وباطناً، بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها لأن الصلاة فرض مفروض، ومنجمٌ في أوقات[(٣)].

ودل قوله ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته وتتم وتكمل[(٤)].

إن فرض الله للصلاة وطلب إقامتها في حال الأمن والخوف، وفي أوقاتها المحددة دليل على أن في إقامتها تحقيقاً لذكر الله تعالى في كل حال.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢٢١) والحديث تقدم تخريجه صفحة (٩٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٠٩).

(٣) يقارن مع المحرر الوجيز (٤٧٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١٦٢).

ٱلزَّكَوٰةِ [النور: ٣٦-٣٧].

ما يدل على أن الله عز وجل أمر بتطهير بيوته في الأرض من الأنجاس الحسية والمعنوية، وأمر بذكره تعالى فيها و إخلاص العبادة له، وأنه سبحانه له رجال لا تشغلهم الدنيا وزخرفها ولا بيوعهم وتجاراتهم عن ذكر خالقهم ورازقهم فهم يقدسونه وينزهونه ويؤدون الصلاة في مواقيتها على الوجه الذي أمر به سبحانه لأنهم يعلمون أن ما عند الله خير لهم وأنفع مما بأيديهم، فما عندهم ينفد، وما عند الله باق.

وفي الآية تنويه بالمساجد وإيقاع الصلاة والذكر فيها كما جاء في الحديث: (صلاة أحدكم في المسجد تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة)[(١)].

وفي قوله رِجَالٌ إشعارٌ بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه[(٢)].

١٠- وفي قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [البقرة: ١١٤].

ما يدل على أنه لا أحد أظلم وأشد جرماً ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات، وبذل وسعه واجتهد في خرابها الحسي والمعنوي كهدمها وتخريبها وتقذيرها.. ومنع الذاكرين لاسم الله فيها.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية كما قال تعالى:

١١- إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ [التوبة: ١٨].

إنما تستقيم عمارة المساجد وتحقيق ذكر الله تعالى في الأرض لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها: تزيينها بالفرش، وتنويرها بالسرج، وإدامة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٤٥) وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (٦٤٩) وما بعده.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٣٣٨).

العبادة والذكر ودروس العلم فيها، وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين الذين لا يقيمون الصلاة، ولا يحققون ذكر الله في الاهتداء والانتقاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم.. فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم، ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها[1].

ومن أعظم فوائد ذكر الله وثماره وجل القلوب وخوفها ورهبتها التي توجب خشية الله تعالى والانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى يحجز صاحبه عن الذنوب ولا يحصل هذا إلا لأصحاب الإيمان الكامل الذين يعتمدون في قلوبهم على ربهم، في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم ويثقون بأن الله سيفعل ذلك، لأن التوكل هو الحامل للأعمال كلها فلا توجد ولا تكمل إلا به.. وكذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها ظاهراً وباطناً، وينتفعون بما يتلى فيها من القرآن ويلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم.. وقد أثنى الله على هؤلاء الذين حققوا ذكر الله وجمعوا بين الإسلام والإيمان، وبين الأعمال الباطنة والظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده[2] في عدة مواضع من القرآن منها:

١٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

١٣- وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

يأمر الله بتبشير المخبتين بخيريْ الدنيا والآخرة، والمخبت: هو الخاضع لربه، المستسلم لأمره المتواضع لعباده، الذي يوجل قلبه خوفاً وتعظيماً لله عند ذكره فيترك المحرمات خوفاً ووجلاً من الله وحده، الصابر في البأساء والضراء وعلى ما يصيبه من أنواع الأذى فلا يجري منه التسخط لشيء من ذلك بل يصبر ابتغاء وجه الله محتسباً ثوابه

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٤٠٠) باختصار.
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٧٦-٢٧٧) باختصار.

مرتقباً أجره.. قائماً بصلاته مستقيمة كاملة يؤدي اللازم فيها والمستحب محققاً عبوديتها الظاهرة والباطنة، منفقاً مما رزقه الله في جميع النفقات الواجبة والمستحبة محققاً لذكر الله في الأرض[1].

وهؤلاء الكمل من المؤمنين يسعون لنشر ذكر الله في الأرض بنصرهم لدين الله، ودفع الكفار والمشركين وقتالهم لأن الله سبحانه شرع لهم ذلك لإقامة حدود الدين وشرائعه وإقامة وتحقيق ذكره بين عباده، وقد أخبر الله عنهم بقوله تعالى:

١٤- ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

فلولا القتال وتسليط المؤمنين على المشركين في كل عصر وزمان لهدمت في شريعة كل نبي معابد أمته، فهدمت صوامع الرهبان، وبِيَعُ النصارى، وصلوات اليهود، ومساجد المسلمين التي يذكرون فيها اسم الله كثيراً.. وفي هذا ترق وانتقال من الأقل إلى الأكثر حتى انتهى إلى المساجد وهي أكثر عماراً وأكثر عباداً وهم ذوو القصد الصحيح.. الذين أعانهم الله ونصرهم.. ثم إن هؤلاء إذا مكنهم الله في البلاد فغلبوا المشركين -لم يبطروا ويغتروا، بل يطيعوا فيقيموا الصلاة على النحو الذي طلبه الله منهم، وأعطوا زكاة أموالهم التي حباها لهم ودعوا الناس إلى توحيده، والعمل بطاعته، وأمروا بها حثت عليه الشريعة، ونهوا عن الشرك واجتراح السيئات[2].

وهؤلاء المجاهدون الذاكرون، العاملون بطاعة الله، هم الذين يعرفون ربهم حقاً، ويعلمون دينه الشرعي، ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحِكم، وهم أولوا الألباب وأهل العقول الزكية الذكية، الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته، لأن لهم عقولاً ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه.. لذلك فهم يتذكرون إذا ذكروا:

١٥- قال تعالى عنهم: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٨٧) بتصرف.

(٢) يقارن مع تفسير المراغي (١٧/ ١٢٠).

رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ [الزمر: ٩].

فالآية مقابلة بين من يحققون ذكر الله، وبين من يعرضون عن ذكر الله، وهذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيانها، وعلم علماً يقيناً تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه المتبع لهواه، كمن هو قانت: أي مطيع لله بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهي أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل، وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف، عذاب الآخرة على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله فوصفه بالعمل الظاهر والباطن[(١)].

والذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، وقد أمر الله عز وجل عبده ورسوله محمداً ﷺ أصلاً وغيره تبعاً بذلك:

١٦- في قوله تعالى: وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ [الأعراف: ٢٠٥].

أي: اذكره في نفسك مخلصاً خالياً متضرعاً بلسانك مكرراً لأنواع الذكر، وخيفة في قلبك بأن تكون خائفاً من الله وجل القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول.. وعلامة الخوف: أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه.. كما أمره بالتوسط في قراءته في الصلاة، فلا يجهر، ولا يخافت بها بل يبتغ بين ذلك سبيلاً، ولا سيما أول النهار وآخره لأن هذين الوقتين فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.. ثم قال له سبحانه: وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به.. إن من الآداب التي ينبغي للعبد الذي يريد أن يحقق ذكر الله في الأرض -أن يراعيها حق رعايتها: هي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار خصوصاً طرفيْ النهار، مخلصاً خاشعاً، متضرعاً متذللاً، ساكناً، متواطئاً عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه[(٢)].

١٧- وكذلك قوله تعالى لنبيه ﷺ في سورة المزمل وهي من أوائل ما نزل من

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٦٦٦).

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٢٧٦-٢٧٧).

القرآن: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل: ٨].

وهذا الأمر شامل لأنواع الذكر كلها، حيث أمره بالانقطاع إليه، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وما يقرب إليه، ويقرب من رضاه.. وهذا الأمر للرسول ﷺ بالصلاة خصوصاً كما في أول السورة، وبعد ذلك بالذكر عموماً تحصل به للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الشاق من الأعمال والصبر على ما يقوله المعاندون له، ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد(١).

١٨- وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥-٢٦].

جاءت الآية بعد الأمر بالصبر لحكم الله القدري فلا يتسخطه، ولحكمه الديني فيمضي عليه، والصبر يستمد من القيام بطاعة الله والإكثار من ذكره حيث جاء الأمر بالذكر أول النهار وآخره، ويدخل في ذلك الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل والذكر والتسبيح والتهليل والتكبير في هذه الأوقات.. والأمر بالسجود والتسبيح في الليل متضمن لكثرة الصلاة فيه.. وفي هذا تحقيق لذكر الله عز وجل(٢).

وقد أمر الله عباده بكثرة ذكرهم لربهم المنعم عليهم بأنواع النعم، وأصناف المنن لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب:

١٩- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣].

وعن ابن عباس: إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله فقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء: ١٠٣] بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر،

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٨٢٧) بتصرف.
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٣٦) بتصرف.

والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال[(١)].

ولابن حجر رحمه الله كلام جامع في المراد بالذكر يقول رحمه الله:

«والمراد بالذكر الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها والإكثار منها، مثل الباقيات الصالحات وهي: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وما يلحق بها من الحوقلة، والبسملة، والحسبلة، والاستغفار ونحو ذلك، والدعاء بخيريْ الدنيا والآخرة، ويطلق ذكر الله أيضاً ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن وقراءة الحديث ومدارسة العلم، والتنفل بالصلاة، ثم الذكر يقع تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط ألا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالاً، فإن وقع ذلك في عمل صالح مما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالاً، فإن صح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال»[(٢)].

إن ذكر الله ينبغي أن يكون على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح، وقيل: المراد منه الصلاة، وقيل: للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلاً. إشارة إلى المداومة، وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله ﷺ: (لو أن أولكم وآخركم)[(٣)] ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم[(٤)].

وأثنى الله عز وجل، وبشره بالفلاح والفوز والربح على من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، وشغل قلبه ولسانه بذكر الله، فأوجب ذلك العمل بما يرضي الله من الأعمال الصالحة خصوصاً الصلاة التي هي ميزان الأعمال فقال سبحانه:

٢٠- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

كما سمى الله صلاة الجمعة ذكراً وأمر بالسعي إليها بالمبادرة والاهتمام، والتبكير وجعلها أهم الأشغال، وترك البيع إذا نودي للصلاة.. لأن السعي إليها في ذلك الوقت

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥٠٦) ويُنظر المحرر الوجيز (١٥١٦).
(٢) فتح الباري (١١/ ٢١٢-٢١٣).
(٣) يُنظر: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).
(٤) مفاتيح الغيب (١٢/ ٦٠١).

تحقيق لذكر الله وهو خير من الاشتغال بالبيع لأن ما عند الله خير وأبقى، كما أمر بكثرة الذكر بعد انقضاء الصلاة والانتشار في الأرض.. لأن كثرة الذكر قياماً وقعوداً وعلى الجنب أكبر أسباب الفلاح..

٢١- فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩-١٠].

ومن تيسير الله لعباده حتى يحققوا ذكره في الأرض أن جعل الليل والنهار يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل:

٢٢- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقد جاء في الحديث الصحيح: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)[(١)].

وقد فقه هذا التيسير جمع من الصحابة والتابعين منهم عمر بن الخطاب، وابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن[(٢)].

إن الليل والنهار لا يجتمعان ولا يرتفعان، يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، وهكذا أبداً.. وفي ذلك تذكير واعتبار لمن أراد.. ويُستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويُشكر الله على ذلك.. ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره وردٌ من الليل أو النهار، فمن فاته ورده من أحدهما أدركه في الآخر، وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار يتوالى كل منهما على العباد ويتكرران، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوقات العبادات، تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبد همة غير همته التي كسلت عنه في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات، بمنزلة سقي الإيمان الذي يمده،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٣٦٣)، وانظر ما نقله عنهم.

فلولا ذلك، لذوى غرس الإيمان وييبس[1].

ومن فضل الله على عباده الذاكرين أنه حذرهم من الأعمال التي تصدهم عن ذكره وعن الصلاة وحرّمها عليهم، وأمرهم باجتنابها بعد أن بيّن لهم مفاسدها التي يدركها كل ذي عقل سليم، ومن ذلك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

٢٣- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

إن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً الفواحش المذكورة في الآية وهي الخمر: وهي كل ما خامر العقل وغطاه بسكره.

والميسر: وهو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين كالمراهنة ونحوها.

والأنصاب: وهي الأصنام والأنداد ونحوها مما ينصب ويعبد من دون الله.

والأزلام: التي يقتسمون بها.

فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها:

١- فهي رجس، نجس خبيث، وإن لم تكن نجسة حساً، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها.

٢- وهي من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يحذر منه وتحذر مصايده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها، ليوقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها والخوف من الوقوع فيها.

٣- ولا يمكن للعبد الفلاح إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه المحرمات مانعة من الفلاح معوقة له.

٤- ومن مفاسدها أنها موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريصٌ على بثها خصوصاً: الخمر والميسر ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

فإن في الخمر انقلاب العقل، وذهاب حِجاه ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٣٤) بتصرف بسيط.

من المؤمنين خصوصاً إذا اقترن بذلك من الأسباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل.

وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير من غير مقابل، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

٥- ومن مفاسدها العظيمة أنها تصد القلب وتبعد البدن عن ذكر الله وعن الصلاة اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشتغل قلبه، ويذهل لبه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟!! فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها؟!!

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها عرضاً بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ لأن العاقل إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد انزجر عنها وكفت نفسه ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ[(١)].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٥).

الفصل الثاني
الخشوع روح الصلاة ولبها

الخشوع مأخوذ من مادة «خ ش ع» التي تدل -كما يقول ابن فارس-: على معنى واحد: هو التطامن، يقال: خشع فلان إذا تطامن وطأطأ رأسه، وهو قريب المعنى من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن، وهو الإقرار بالاستخذاء، والخشوع في البدن والصوت والبصر.

وقال ابن دريد: الخاشع، المستكين والراكع.

وقال الراغب: الخشوع الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح.

وذكرت كتب اللغة: أن الخشوع هو الخضوع، يقال: خشع يخشع خشوعاً واختشع، وتخشع: رمى ببصره نحو الأرض، وغضه وخفض صوته، وقوم خشع: متخشعون، وخشع بصره: انكسر.

واختشع: إذا طأطأ صدره وتواضع، وكل ساكن: خاضع خاشع.

والخاشع: الراكع في بعض اللغات.

والتخشع: تكلف الخشوع، والتخشع لله: الإخبات والتذلل[(١)].

وهو في الشرع «خشية من الله تكون في القلب فتظهر آثارها على الجوارح».

وقد عد الله الخشوع من صفات الذين أعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي سورة «المؤمنون» عد الله الخشوع من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس، واستدل جماعة من أهل العلم على أن من خشوع المصلي أن يكون نظره في صلاته إلى موضع سجوده، ولا يرفع بصره، وخالف المالكية الجمهور فقالوا: إن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده، واستدلوا لذلك بقوله تعالى:

(١) يُنظر: مقاييس اللغة (٢/ ١٨٢) والمفردات (٢٨٣) والصحاح (٣/ ١٢٠٤) ولسان العرب (٨/ ٧١) باختصار وتصرف.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] قالوا: فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء، وذلك ينافي كمال القيام، وظاهر الآية، لأن المنحني بوجهه إلى موضع سجوده ليس بمولٍّ وجهه شطر المسجد الحرام، والجمهور على خلافهم(١).

حكم الخشوع:

والراجح من حكم الخشوع أنه واجب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وهذا يقتضي ذم غير الخاشعين.. ودل كتاب الله عز وجل على من كبر عليه ما يحبه الله أنه مذموم بذلك في الدين، مسخوط منه ذلك، والذم أو السخط لا يكون إلا لترك واجب، أو فعل محرم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين، دل ذلك على وجوب الخشوع، ومن المعلوم أن الخشوع المذكور في الآية لا بد أن يتضمن الخشوع في الصلاة، فإنه لو كان المراد بالخشوع خارج الصلاة لفسد المعنى، إذ لو قيل: إن الصلاة لكبيرة إلا على من خشع خارجها، ولم يخشع فيها، كان يقتضي أنها لا تكبر على من لم يخشع فيها وتكبر على من خشع فيها وقد انتفى مدلول الآية، فثبت أن الخشوع واجب في الصلاة.

ويدل على وجوب الخشوع فيها أيضاً قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٩].

أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة، وذلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم، وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال، إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها، لأن الجنة تنال بفعل الواجبات، دون المستحبات،

(١) أضواء البيان (٥/ ٣٠٥-٣٠٦) بتصرف.

ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب. وإذا كان الخشوع واجباً، فالخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعاً.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في حال ركوعه: (اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعقلي وعصبي)[(١)].

فوصف نفسه بالخشوع في حال الركوع، لأن الراكع ساكن متواضع، وبذلك فسرت الآية.

فعن ابن عباس: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال: خائفون ساكنون.

وقال مجاهد: السكون فيها، وكذلك قال الزهري.

وقال إبراهيم النخعي: الخشوع في القلب.

وعن الحسن: خائفون.

وقال أبو سنان: الخشوع في القلب، وأن يلين كنفه للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك.

وعن قتادة: الخشوع في القلب، والخوف وغض البصر في الصلاة.

وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى: أي لا تطمح أبصارهم ولا يلتفتون.

ثم قال: وإذا كان الخشوع واجباً، وهو متضمن للسكون والخشوع، فمن نقر نقر الغراب لم يخشع في سجوده، وكذلك من لم يرع رأسه من الركوع ويستقر قبل أن ينخفض لم يسكن، لأن السكون هو الطمأنينة بعينها، فمن لم يطمئن لم يسكن، ومن لم يسكن لم يخشع في ركوعه ولا سجوده، ومن لم يخشع كان آثماً عاصياً.

ويدل على وجوب الخشوع في الصلاة أن النبي ﷺ توعد تاركيه كالذي يرفع بصره إلى السماء، فإن حركته ورفعه وهو ضد حال الخاشع.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما بال أقوام يرفعون أبصارهم في صلاتهم؟ فاشتد قوله في ذلك، فقال: لينتهين عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم)[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة، رقم (٧٥٠) وصحيح مسلم، كتاب ، باب =

فضل الخشوع:

وفي فضل الخشوع ووعيد من تركه جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، منها:

١- عن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيُحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله)[(١)].

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مثل المجاهد في سبيل الله -والله أعلم بمن يجاهد في سبيله- كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد)[(٢)].

٣- عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله ﷺ يقول: (خمس صلوات افترضهن الله تعالى من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد إن شاء غفر له وإن شاء عذبه)[(٣)].

قال الإمام أبو نصر المروزي معلقاً على الحديث السابق:

«ومن حقوق الصلاة: الطهارة من الأحداث، وطهارة الثياب التي تصلى فيها وطهارة البقاع التي تصلى عليها، والمحافظة على مواقيتها التي كان يحافظ عليها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، والخشوع فيها من ترك الالتفات، والعبث، وحديث النفس وترك الفكرة فيما ليس من أمر الصلاة، وإحضار القلب، واشتغاله بما يقرأ ويقول بلسانه، وإتمام الركوع والسجود فمن أتى بذلك كله كاملاً على ما أمر به فهو الذي له العهد عند الله تعالى بأن يدخله الجنة، ومن أتى

= النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، رقم (٤٢٨، ٤٢٩)، ويُنظر: مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥٣-٥٥٨) باختصار وتصرف

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، رقم (٢٢٨) صفحة (١٢٠).

(٢) سنن النسائي (٦/ ١٨) واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم (٢٩٣٠) وهو في صحيح الجامع (٥٨٥٠) وهو بسياق مقارب في الصحيحين من حديث أبي هريرة، يُنظر: جامع الأصول (٩/ ٤٧٦، ٤٨١).

(٣) سنن أبي داود، رقم (٤٢٥) وهو في صحيح الجامع (٣٢٤٢).

بهن لم يتركهن وقد انتقص من حقوقهن شيئاً فهو الذي لا عهد له عند الله إن شـاء عذبـه وإن شاء غفر له»[(١)].

والخشـوع أمـر عظـيم شـأنه، سريـع فقـده، نـادرٌ وجـوده خصوصـاً في آخـر الزمـان، قـال النبـي ﷺ: (أول شيء يرفـع مـن هـذه الأمـة الخشـوع حتـى لا تـرى فيهـا خاشـعاً)[(٢)]، وقـد شـبه بعـض السـلف الصـلاة كجاريـة تهـدى إلى ملـك الملـوك فـما الظـن بمـن يهـدى إليـه جاريـة شـلاء أو عـوراء أو عميـاء أو مقطوعـة ا ليـد أو الرِجـل أو مريضـة أو دميمـة أو قبيحـة، حتـى يهـدي إليـه جاريـة ميتـة بـلا روح.. فكيف بالصلاة يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربـه تعـالى؟ والله طيـب لا يقبـل إلا طيبـاً، وليس من العمل الطيب صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس مـن العتـق الطيـب عتـق عبـد لا روح فيه[(٣)].

والخشوع سر الصلاة وروحها ولُبها، ولا يكون إلا بإقبـال العبـد عـلى الله بكليتـه فيها، فكما أنه لا ينبغي أن يصرف وجهه عن القبلة إلى غيرها فيها، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربه إلى غيره فيها.

بل يجعل الكعبة -التي هي بيت الله- قبلة وجهه وبدنه، ورب البيت تبارك وتعـالى قبلة قلبه وروحه، وعلى حسب إقبال العبد على الله في صلاته يكون إقبال الله عليـه، وإذا أعرض أعرض الله عنه.

والإقبال في الصلاة على ثلاثة منازل:

الأول: إقبال العبد عـلى قلبـه فيحفظـه ويصـلحه مـن أمـراض الشـهوات والوسـاوس والخطرات المبطلة لثواب صلاته أو المنقصة لها.

الثاني: إقباله على الله بمراقبته فيها حتى يعبده كأنه يراه.

الثالث: إقباله على معاني كلام الله، وتفاصيله وعبودية الصلاة ليعطيها حقها من الخشوع والطمأنينة وغير ذلك.

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٩٤-٥٩٥).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٣٦): «رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن»، وهو في صحيح الترغيب، رقـم (٥٤٣) وقال: صحيح.

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٢٦) باختصار وتصرف.

فباستكمال هذه المراتب الثلاث يكون قد أقام الصلاة حقاً، ويكـون إقبـال الله عـلى المصلي بحسب ذلك.

١- فإذا انتصب العبد قائماً بين يديه، فإقباله على قيومية الله وعظمته فلا يلتفت يمنـة ولا يسرة.

٢- وإذا كبر الله تعالى كان إقباله على كبريائه وإجلاله وعظمته.

٣- وكان إقباله على الله في استفتاحه على تسبيحه والثنـاء عليـه وعـلى سـبحات وجهـه، وتنزيهه عما لا يليق به، ويثني عليه بأوصافه وكماله.

٤- فإذا استعاذ بالله من الشـيطان الـرجيم، كـان إقبالـه عـلى ركنـه الشـديد، وسـلطانه وانتصاره لعبده، ومنعه له منه وحفظه من عدوه.

٥- وإذا تلا كلامه كان إقباله على معرفته في كلامه كأنه يراه ويشاهده في كلامه فهـو كـما قال بعض السلف: «لقد تجلى الله لعباده في كلامه».

والنـاس في ذلـك عـلى أقسـام ولهـم في ذلـك مشـارب، وأذواق فمـنهم: البصـير، والأعور، والأعمى، والأصم، والأعمش، وغير ذلك في حال التلاوة والصلاة، فهو في هذه الحال ينبغي لـه أن يكـون مقـبلاً عـلى ذاتـه وصـفاته وأفعالـه وأمـره ونهيـه وأحكامه وأسمائه.

٦- وإذا ركع كان إقباله على عظمـة ربـه، وإجلالـه وعـزه وكبريائـه، ولهـذا شرع لـه في ركوعه أن يقول: «سبحان ربي العظيم».

٧- فإذا رفع رأسه من الركوع كان إقباله على حمد ربه والثناء عليه وتمجيده وعبوديتـه لـه وتفرده بالعطاء والمنع.

٨- فإذا سجد كان إقباله على قربه، والدنو منه، والخضوع له، والتذلل له، والافتقار إليـه والانكسار بين يديه والتملق له.

٩- فإذا رفع رأسه من السجود جثى على ركبتيه، وكان إقباله على غنائه وجـوده وكرمـه، وتضرعه بين يديه والانكسار أن يغفر له ويرحمه ويعافيه ويهديه ويرزقه.

١٠- فإذا جلس في التشهد فله حال آخر، وإقبال آخر يشبه حال الحاج في طواف الوداع، واستشعر قلبه الانصراف من بين يدي ربه إلى أشـغال الـدنيا والعلائـق والشـواغل التـي قطعـه عنهـا الوقـوف بـين يـدي ربـه، وقـد ذاق قلبـه التـألم والعـذاب

بها قبل دخوله في الصلاة، فباشر قلبه روح القرب ونعيم الإقبال على الله تعالى، وعافيته منها وانقطاعها عنه مدة الصلاة، ثم استشعر قلبه عوده إليها بخروجه من الصلاة، فهو يحمل هَمَّ انقضاء الصلاة وفراغه منها ويقول: ليتها اتصلت بيوم اللقاء[(١)].

وفي الأحاديث الآتية مثل تطبيقي من صلاة سيد الخاشعين ﷺ: في صلاته، وقيامه، واستسقائه، وسماعه للقرآن:

١) عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، اصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك).

- وإذا ركع قال: (اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي).

- وإذا رفع قال: (اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد).

- وإذا سجد قال: (اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين).

- ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت)[(٢)].

(١) أسرار الصلاة لابن القيم (١١٥-١٢١) باختصار وتصرف، ويُنظر: الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي (١٧-٤٠) فكأن ابن القيم هذب كلام الحكيم الترمذي ورتبه.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

٢- سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن استسقاء رسول الله ﷺ فقال: (إن رسول الله ﷺ خرج متبذلاً متواضعاً متضرعاً حتى أتى المصلى فلم يخطب خطبتكم هذه ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير، وصلى ركعتين كما كان يصلي في العيد)[(١)].

٣- عن عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال: (رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ)[(٢)].

٤- وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال لي النبي ﷺ: اقرأ علي. قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فإني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: (أمسك) فإذا عيناه تذرفان)[(٣)].

إن روح الصلاة النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، وذلك أن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولم يكن القلب حاضراً، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحج: ٣٧].

والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشرع في غفلة تطرأ، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمها على باقيها.

---

(١) سنن الترمذي، رقم (٥٥٨) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وسنن ابن ماجه، رقم (١٢٦٦)، وحسنه الألباني.

(٢) سنن أبي داود، رقم (٩٠٤) واللفظ له، وسنن النسائي (٣/ ١٣) وقال محقق جامع الأصول (٥/ ٤٣٥): «حديث صحيح».

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، رقم (٤٥٨٢) واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ...، رقم (٨٠٠).

والمعاني التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة:

المعنى الأول: حضور القلب، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له، وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة فاعلم أن سببه ضعف الإيمان فاجتهد في تقويته.

والمعنى الثاني: التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى، فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها، والمواد:

١- **إما ظاهرة**: وهي ما يشغل السمع والبصر.

٢- **وإما باطنة**: وهي أشد، كمن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا، فإنه لا ينحصر فكره في فن واحد، ولم يغنه غض البصر لأن ما وقع في القلب كاف في الاشتغال به.

وعلاج ذلك إن كان من **المواد الظاهرة**: بقطع ما يشغل السمع والبصر، وهو القرب من القبلة، والنظر إلى موضع سجوده، والاحتراز من الصلاة في المواضع المنقوشة، وأن لا يترك عنده ما يشغل حسه فإن النبي ﷺ لما صلى في خميصة لها أعلام نزعها وقال: (إنها ألهتني آنفاً عن صلاتي)[(١)].

وإن كان من **المواد الباطنة**: فطريق علاجه أن يرد النفس قهراً إلى ما يقرأ في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويستعد لذلك قبل الدخول في الصلاة بأن يقضي أشغاله، ويجتهد في تفريغ قلبه، ويجدد على نفسه ذكر الآخرة وخطر القيام بين يدي الله عز وجل وهول المطلع، فإن لم تسكن الأفكار بذلك فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أهمه واشتهاه، فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق.

والمعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة وذلك يتولد من شيئين:

١- معرفة جلال الله وعظمته.

٢- ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة.

فيتولد من المعرفتين الاستكانة والخشوع.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، رقم (٣٧٣) وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، رقم (٥٥٦).

ومن ذلك: الرجاء، فإنه زائدٌ على الخوف، فكم من معظم ملكاً يهابه لخوف سطوته كما يرجو بره، والمصلي ينبغي أن يكون راجياً بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب.

وينبغي للمصلي أن يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع نداء المؤذن فليمثل النداء للقيامة، ويشمر للإجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر، وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق، وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها الندم، والحياء، والخوف[1].

إخفاء الخشوع:

إن التظاهر بالخشوع أمر ممقوت، لأن من علامات الإخلاص إخفاء الخشوع، كان حذيفة رضي الله عنه يقول: «إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع».

وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يُريَ الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه.

ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان الخشوع هاهنا وأشار إلى صدره، لا هاهنا وأشار إلى منكبيه[2].

وعن الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق يقول ابن القيم رحمه الله:

«خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعمة الله، وشهود جناياته هو، فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح.

وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع.

والخاشع لله عبد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حشي به، وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار مخبتاً له، والمخبت: المطمئن، فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء فكذلك

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (٤١-٤٤) باختصار وتصرف.

(٢) مدراج السالكين (١/ ٥٢١).

القلب المخبت قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التي يجري إليها الماء فيستقر فيها، وعلامته أن يسجد بين يدي الله إجلالاً له وذلاً وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه.. فهذا خشوع الإيمان، وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات، فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة»[(١)].

الأسباب المعينة على الخشوع:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «.. والذي يعين على ذلك شيئان: قوة المقتضي، وضعف الشاغل.

أما الأول: فاجتهاد العبد في أن يعقل ما يقوله ويفعله، ويتدبر القراءة والذكر والدعاء ويستحضر أنه مناج لله تعالى، كأنه يراه، فإن المصلي إذا كان قائماً فإنه يناجي ربه.

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ثم كلما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أوكد، وهذا يكون بحسب قوة الإيمان والأسباب المقوية للإيمان كثيرة، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: (حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة)[(٢)] وفي حديث آخر أنه قال: (أرحنا يا بلال بالصلاة)[(٣)] ولم يقل: أرحنا منها.

أما الثاني: زوال العارض: فهو الاجتهاد في دفع ما يشغل القلب في تفكر الإنسان فيما لا يعنيه، وتدبر الجواذب التي تجذب القلب عن مقصود الصلاة، وهذا في كل عبد بحسبه، فإن كثرة الوسواس بحسب كثرة الشبهات والشهوات، وتعليق القلب بالمحبوبات التي ينصرف القلب إلى طلبها، والمكروهات التي ينصرف القلب إلى دفعها»[(٤)].

من الكلام السابق لشيخ الإسلام يمكن تقسيم الأسباب المعينة على الخشوع إلى

---

(١) كتاب الروح (٣١٤).

(٢) تقدم تخريجه صفحة (٨٩).

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٧٢) بلفظ: (أقم الصلاة أرحنا بها).

(٤) مجموع الفتاوى (٦٠٥-٦٠٨) باختصار وتصرف بسيط.

قسمين:

الأول: جلب ما يوجد الخشوع ويقويه.

الثاني: دفع ما يزيل الخشوع ويضعفه.

أما الأسباب المعينة على جلب ما يوجد الخشوع ويقويه فتحصل بأمور كثيرة منها:

١- الاستعداد للصلاة والتهيؤ لها:

ويحصل ذلك بالترديد مع المؤذن، والإتيان بالدعاء المشروع بعده، وكذا الدعاء بين الأذان والإقامة، وقبل ذلك إحسان الوضوء والتسمية قبله، والذكر والدعاء بعده مع الاعتناء بالسواك، وتطييب الفم الذي سيكون طريقاً للقرآن، وكذلك أخذ الزينة باللباس الحسن النظيف، قال تعالى: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١] والله عز وجل أحق من تُزين له، كما أن الثوب الحسن الطيب الرائحة يعطي صاحبه راحة نفسية بخلاف ثوب النوم والمهنة، وكذلك الاستعداد بستر العورة وطهارة البقعة، والتبكير والمشي إلى المسجد بسكينة ووقار، وعدم التشبيك بين الأصابع، وانتظار الصلاة، وكذلك تسوية الصفوف والتراص فيها، لأن الشياطين تتخلل الفُرَجَ بين الصفوف.

٢- الطمأنينة في أداء الأركان والواجبات:

كان النبي ﷺ يطمئن حتى يرجع كل عظم إلى موضعه[(١)] وأمر بذلك المسيء في صلاته وقال له: (لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك)[(٢)].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، قالوا: يا رسول الله كيف يسرق من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها)[(٣)].

وعن أبي عبدالله الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (مثل الذي لا يتم

---

(١) صحح إسناده في صفة الصلاة (١٣٤)، وعند ابن خزيمة نحوه كما ذكر الحافظ في الفتح (٢/ ٣٠٨).

(٢) سنن أبي داود، رقم (٨٥٨) (١/ ٥٣٦)، وأصل حديث المسيء في صلاته في صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣) وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

(٣) مستدرك الحاكم (١/ ٢٢٩)، وهو في صحيح الجامع (٩٩٧).

ركوعه وينقر في سجوده، مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئاً)[(١)].

والذي لا يطمئن في صلاته لا يمكن أن يخشع لأن السرعة تذهب بالخشوع، ونقـر الغراب يذهب بالثواب.

٣- النظر إلى موضع السجود:

لما ورد عن عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى طأطأ رأسـه ورمـى ببصره نحو الأرض)[(٢)] أما إذا جلس للتشهد فإنه ينظر إلى أصبعه المشيرة وهو يحركها لمـا جاء عنه ﷺ أنه كان إذا جلس للتشهد يشير بأصبعه التي تـلي الإبهـام إلى القبلـة ويرمـي ببصره إليها[(٣)].

٤ - الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

الشيطان عدو للمـؤمنين، ومـن عداوتـه قيامـه بالوسوسـة للمصـلي كـي يـذهب خشوعه ويلبس عليه صلاته، والوسواس يعرض لكل من توجـه إلى الله تعـالى بـذكر أو بغيره، لذا ينبغي الاسـتعاذة بـالله مـن الشـيطان مع الثبـات والصـبر، وملازمـة الـذكر والصلاة وعدم الضجر حتى ينصرف كيد الشيطان عنه.

إن الشيطان بمنزلة قاطع الطريق، كلـما أراد العبـد السـير إلى الله تعـالى، أراد قطـع الطريق عليه.. قيل لبعض السلف: إن اليهود والنصـارى يقولـون: لا نوسـوس، قـال: صدقوا، وما يصنع الشيطان بالبيت الخرب؟

وقد مثل ذلك بمثال حسن، وهو ثلاثة بيوت: بيت للملك فيـه كنـوزه، وذخـائره وجواهره، وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره، وبيت خال صفر لا شيء فيه، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت، فمن أيها يسرق؟[(٤)].

إن العبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربه وأغيظـه للشيطان وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال يعده ويمنيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليـه شـأن الصـلاة، فيتهـاون بهـا

---

(١) المعجم الكبير (٤/ ١١٥) وقال الألباني في صحيح الجامع: «حسن».

(٢) مستدرك الحاكم (١/ ٤٧٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الألباني في صفة الصلاة (٨٩).

(٣) صحيح ابن خزيمة (١/ ٣٥٥) رقم (٧١٩) وقال المحقق: «إسناده صحيح»، ويُنظر صفة الصلاة (١٣٩).

(٤) يُنظر: مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٠٨) والوابل الصيب (٤٣).

فيتركها، فإن عجز عن ذلك منه، وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام، أقبل عـدو الله حتـى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبـل دخولـه فيها، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة وأيس منها فيذكره إياهـا في الصـلاة ليشـغل قلبه بها ويأخذه عن الله عز وجل، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامتـه وقربه ما يناله المقبل على ربه عز وجل -الحاضر بقلبه في صلاته، فينصـرف مـن صـلاته مثلما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخفف عنه بالصـلاة.. فـإن الصـلاة إنـما تكفـر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه[1].

وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى كيفية مواجهة كيد الشيطان وإذهاب وسوسته:

١- فعن أبي العاص رضي الله عنه قال: (يا رسول الله إن الشـيطان قـد حـال بينـي وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ فقال رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنـزب، فـإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً) قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[2].

٢- وقال ﷺ: (إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليـه حتـى لا يـدري كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس)[3].

٥- تدبر الآيات المقروءة وبقية أذكار الصلاة والتفاعل معها:

أنزل الله القرآن ليقرأ بتدبر قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ومما يعين على التدبر كثيراً ترديد الآيات ومعاودة النظر في المعنى، وكان النبي ﷺ يفعل ذلك، وقد جاء أنه ﷺ قام ليلة بآية يرددها حتى أصبح وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

- ومما يعين على التدبر التفاعل مع الآيـات كـما روى حذيفـة رضي الله عنـه قـال: (صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة يقرأ مسترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ)[5] وهذا في قيام الليل.

(١) الوابل الصيب (٣٦، ٣٧) باختصار.
(٢) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣) ص (٩٠٥).
(٣) صحيح البخاري، كتاب السهو، باب السهو في الفرض والتطوع، رقم (١٢٣٢).
(٤) صحيح ابن خزيمة (١/ ٢٧١) ومسند أحمد (٥/ ١٤٩)، يُنظر: صفة الصلاة (١٠٢).
(٥) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢) ص (٣٠٤).

- ومما يعين على التدبر التفكر في الأذكار المتنوعة في أركان الصلاة المختلفة بعد حفظها فإن ذلك مما يزيد الخشوع والخضوع لله في الصلاة.

- ومما يعين على التدبر أن يقطِّع المصلي قراءته آية آية، وذلك أدعى للفهم والتدبر، وهي سنة النبي ﷺ كما ذكرت أم سلمة رضي الله عنها -قراءة رسول الله ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم، وفي رواية: ثم يقف ثم يقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف ثم يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وفي رواية ثم يقف ثم يقول: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يقطع قراءته آية آية)[(١)].

- ومما يعين على التدبر الذي يؤدي إلى الخشوع في الصلاة: ترتيل القراءة وتحسين الصوت بها كما قال الله عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] وكانت قراءته ﷺ مفسرة حرفاً حرفاً[(٢)]، وكان ﷺ يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها[(٣)].

وهذا الترتيل والترسل أدعى للتفكر والخشوع بخلاف الإسراع والعجلة.

٦- أن يعلم أن الله يجيبه في صلاته:

قال النبي ﷺ: (قال الله عز وجل: قسَّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[(٤)].

وهذا حديث عظيم جليل لو استحضره كل مصل لحصل له خشوع بالغ، ولوجد للفاتحة أثراً عظيماً حيث يستشعر أن ربه يخاطبه ثم يعطيه سؤله.

---

(١) سنن أبي داود، رقم (٤٠٠١)، وصححه الألباني في الإرواء وذكر طرقه (٢/ ٦٠).

(٢) مسند أحمد (٦/ ٢٩٤) بسند صحيح، صفة الصلاة (١٠٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائماً وقاعداً وفعل بعض الركعة قائماً وبعضها قاعداً، رقم (٧٣٣).

(٤) تقدم تخريجه صفحة (٢٠٢).

٧- التنويع في السور والآيات والأذكار والأدعية في الصلاة:

وهذا يشعر المصلي بتجدد المعاني ويفيده ورود المضامين المتعددة للآيات والأذكار، وهذا ما يفتقده الذي لا يحفظ إلا عدداً محدوداً من قصار السور، والأذكار، والتنويع من السنة وأكمل في الخشوع فقد كان النبي ﷺ ينوع في تلاوته في الصلاة وكذا في الأذكار.. فهناك عدة صيغ لدعاء الاستفتاح، وكذا في الأذكار التي يقولها في الركوع، والرفع منه، والسجود والجلسة بين السجدتين، و كذلك للتشهد عدة صيغ، أما قراءته فقد كان ينوع فيها ﷺ فقراءته في الفجر أطول منها في غيره حيث يقرأ من طوال المفصل.. وفي المغرب من قصاره، وفي العشاء من أواسط المفصل، وفي قيام الليل كان يقرأ بطوال السور[(١)].

٨- الاجتهاد بالدعاء في مواضعه من الصلاة وخصوصاً في السجود:

إن مناجاة الله تعالى والتذلل إليه والطلب منه، والإلحاح عليه مما يزيد العبد صلة بربه فيعظم خشوعه، وذلك أن الدعاء هو العبادة، والعبد مأمور به، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه)[(٢)].

وقد ثبت الدعاء في الصلاة عن النبي ﷺ في مواضع معينة هي: السجود، وبين السجدتين، وبعد التشهد.. وأعظمها في السجود لقوله ﷺ: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)[(٣)]، وقال ﷺ: (..أما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمنٌ أن يستجاب لكم)[(٤)].

٩- المحافظة على الأذكار الواردة بعد الصلاة:

فإن ذلك مما يعين على تثبيت أثر الخشوع في القلب وما حصل من بركة الصلاة وفائدتها.

إن المتأمل لأذكار ما بعد الصلاة يجد أنها تبدأ بالاستغفار ثلاثاً، فكأن المصلي يستغفر ربه عما حصل من الخلل في صلاته، وعما حصل من التقصير في خشوعه فيها، وكذلك من المهم المحافظة على النوافل والسنن الرواتب فإنها تجبر النقص في الفرائض

---

(١) يُنظر: كتاب صفة صلاة النبي ﷺ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم (٢٦٨٦).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٢١٥).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٢٠٧).

والذي يشمل الإخلال بالخشوع.

١٠- معرفة مزايا الخشوع في الصلاة، والتأمل في حال السلف في صلاتهم:

سبق في صدر الفصل الحديث عن فضل الخشوع وأن استحضار فضله دائماً يجدد الرغبة في تحصيله.. وقد ذكرتُ من فضائله وآثاره أن الخشوع في الصلاة سيق لأن تكون الصلاة كفارة لما قبلها، وأن الأجر على الصلاة يكون بحسب الخشوع كما قال ﷺ: (إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها)[(١)].

وليس للمرء من صلاته إلا ما خشع فيه كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)[(٢)].

ومن مزايا الخشوع أن الخاشع في صلاته إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه وأحس بأثقال قد وضعت عنه فوجد نشاطاً وراحة وروحاً حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرة عينه، ونعيم روحه، وجنة قلبه، ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها لا منها، فالمحبون الخاشعون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا كما قال إمام الخاشعين ﷺ: (يا بلال أرحنا بالصلاة)[(٣)] ولم يقل: أرحنا منها[(٤)].

١١- الصلاة إلى سترة والدنو منها ووضع اليمنى على اليسرى على الصدر:

من الأمور المفيدة والمعينة على تحصيل الخشوع في الصلاة الاهتمام بالسترة والصلاة إليها فإن ذلك أقصر لنظر المصلي وأحفظ له من الشيطان، وأبعد له عن مرور الناس بين يديه فإن ذلك يشوش وينقص الأجر، قال ﷺ: (إذا صلى أحدكم إلى سترة فليدن منها لا يقطع الشيطان عليه صلاته)[(٥)].

وكان النبي ﷺ إذا قام في الصلاة وضع يده اليمنى على اليسرى، وكان يضعهما

(١) مسند أحمد (٤/ ٣٢١) وقال محققه: «إسناده صحيح» وصحيح الجامع (١٦٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦١٢).

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٧٩) بلفظ: (أقم الصلاة أرحنا بها).

(٤) الوابل الصيب (٣٧).

(٥) سنن أبي داود، رقم (١٦٩٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٢/ ١٩٨) عن سهل بن سعد وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون»، وهو في صحيح الجامع (٦٥٠).

على الصدر[(١)].

وسئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن المراد بوضع اليدين إحداهما على الأخرى حال القيام فقال: هو ذل بين يدي العزيز[(٢)].

ولا شك أنه أمنع من العبث وأقرب إلى الخشوع.

وأما **دفع الموانع والشواغل التي تصرف عن الخشوع** وتكدر صفوه فإنها تحصل بما يلي:

١) إزالة ما يشغل المصلي في المكان الذي يصلي فيه:

وهذا من فعله ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: (كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال لها النبي ﷺ: أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي)[(٣)].

وكذلك الاحتراز من الصلاة في أماكن مرور الناس، وأماكن الضوضاء، والأصوات المزعجة، وبجانب المتحدثين وفي مجالس اللغو واللغط وكل ما يشغل البصر.

وكذلك تجنب الصلاة في أماكن الحر الشديد، والبرد الشديد إذا أمكن ذلك، يقول ابن القيم رحمه الله: «إن الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور، ويفعل العبادة بتكره وتضجر، فمن حكمة الشارع أن أمرهم بتأخيرها حتى ينكسر الحر فيصلي العبد بقلب حاضر، ويحصل له مقصود الصلاة من الخشوع والإقبال على الله تعالى»[(٤)].

٢- ألا يصلي في ثوب فيه نقوش أو كتابات أو ألوان أو تصاوير تشغله:

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام النبي ﷺ يصلي في خميصة ذات أعلام فنظر إلى علمها فلما قضى صلاته قال: (اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم بن حذيفة فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي) وفي رواية: (شغلتني أعلام هذه)[(٥)].

فإذا شغل الرسول ﷺ بمثل هذه فغيره من باب أولى.

---

(١) يُنظر: صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وضع يده اليمنى على اليسرى بعد تكبيرة الإحرام تحت صدره فوق سرته، رقم (٤٠١)، ويُنظر: الإرواء (٢/ ٧١).

(٢) الخشوع في الصلاة لابن رجب (٢١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب إن صلى في ثوب مصلب أو تصاوير هل تفسد صلاته وما ينهى عن ذلك، رقم (٣٧٤).

(٤) الوابل الصيب (٢٢).

(٥) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، رقم (٥٥٦).

٣- أن لا يصلي حاقناً أو حاقباً أو بحضرته طعام يشتهيه:

لا شك أن مما ينافي الخشوع أن يصلي الشخص وقد حصره البول أو الغائط، ولذلك نهى رسول الله ﷺ أن يصلي الرجل وهو حاقن[(١)].

والحاقن: حابس البول، والحاقب: حابس الغائط.

ومن حصل له ذلك فعليه أن يذهب إلى الخلاء لقضاء حاجته ولو فاته ما فاته من صلاة الجماعة، فإن النبي ﷺ قال: (إذا أراد أحدكم أن يذهب الخلاء وقامت الصلاة فليبدأ بالخلاء)[(٢)].

٤- وكذلك الطعام إذ وضع وحضر بين مريد الصلاة أو قدم له، بدأ بالطعام، لأنه لا يخشع إذا تركه وقام يصلي ونفسه متعلقة به بل إن عليه أن لا يعجل حتى تنقضي حاجته منه لقوله ﷺ: (إذا قرب العشاء وحضرت الصلاة فابدءوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب ولا تعجلوا عن عشائكم) وفي رواية: (إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء ولا يعجلن حتى يفرغ منه)[(٣)].

٥- ألا يصلي وقد غلبه النعاس:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا نعس أحدكم في الصلاة فلينم حتى يعلم ما يقول)[(٤)] أي فليرقد حتى يذهب عنه النوم.

وقد جاء ذكر السبب في ذلك: فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه)[(٥)].

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم (٦١٧) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، رقم (٦٢٢)، وهو في صحيح الجامع، رقم (٦٨٣٢).

(٢) سنن أبي داود، رقم (٨٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم (٨٠)، هو في صحيح الجامع، رقم (٢٩٩).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة، رقم (٦٧١، ٦٧٣) وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال...، رقم (٥٥٧، ٥٥٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً، رقم (٢١٠).

(٥) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً، رقم (٢٠٩).

وقد يحصل هذا في قيام الليل وقد يصادف ساعة إجابة فيدعو على نفسه وهو لا يدري.

وعلى المصلي أن يجاهد التثاؤب في الصلاة فقد قال رسول الله ﷺ: (إذا تثاءب أحدكم في الصلاة فليكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل)[1] وإذا دخل الشيطان يكون أقدر على التشويش على خشوع المصلي، كذلك فإنه يضحك من المصلي إذا تثاءب.

٦- ترك الالتفات في الصلاة:

لحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال الله عز وجل مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه)[2].

والالتفات في الصلاة قسمان:

الأول: التفات القلب إلى غير الله عز وجل.

الثاني: التفات البصر، وكلاهما منهي عنه، وينقص من أجر الصلاة، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: (اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)[3].

«ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو قلبه مثل رجل استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً، وقد انصرف قلبه عن السلطان فلا يفهم ما يخاطبه به، لأن قلبه ليس حاضراً معه فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان؟

أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه، فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبه من هيبته وذلت عنقه له، واستحيا من ربه أن يقبل على غيره أو يلتفت عنه، وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل والآخر ساهٍ غافل»[4].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب، رقم (٢٩٩٥) (٤/ ٢٢٩٣).

(٢) سنن أبي داود، رقم (٩٠٩) ومستدرك الحاكم (١/ ٣٤٩-٣٥٠) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه...»، وهو في صحيح سنن أبي داود.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الالتفات في الصلاة، رقم (٧٥١).

(٤) الوابل الصيب (٣٦).

ومن أبشع أنواع الالتفات في الصلاة، وينافي الخشوع والأدب مع الله أن يبصق المصلي أمامه لقوله ﷺ: (إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى)[(١)].

ومن الالتفات رفع البصر إلى السماء، وقد ورد النهي عن ذلك والوعيد على فعله في قوله ﷺ: (إذا كان أحدكم في الصلاة فلا يرفع بصره إلى السماء أن يلتمع بصره)[(٢)].

٧- ترك التشبه بالبهائم:

لقد كرم الله ابن آدم وخلقه في أحسن تقويم، فمن المعيب أن يتشبه الآدمي بالبهائم، وقد جاء النهي عن مشابهة البهائم في الصلاة في عدد من هيئاتها وحركاتها لما في ذلك من منافاة الخشوع وقبح الهيئة التي لا تليق بالمصلي.

ومن ذلك: (نهى رسول الله ﷺ في الصلاة عن ثلاث: عن نقر الغراب، وافتراش السبع، وأن يوطن الرجل المقام الواحد كإيطان البعير)[(٣)].

ومعنى «إيطان البعير»: أن يألف الرجل مكاناً معلوماً من المسجد مخصوصاً به يصلي فيه كالبعير لا يغير مناخه فيوطنه[(٤)].

وفي رواية: (نهاني عن نقرة كنقرة الديك، وإقعاء كإقعاء الكلب، والتفات كالتفات الثعلب)[(٥)].

إن أمر الخشوع كبير وشأنه خطير، ولا يتأتى إلا لمن وفقه الله لذلك. وحرمان الخشوع مصيبة كبيرة، وخطب جلل، ولذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع)[(٦)].

والخاشعون درجات ، والخشوع من عمل القلب يزيد وينقص، فمنهم من يبلغ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد، رقم (٤٠٦).

(٢) مسند أحمد (٥/ ٢٩٤) وهو في صحيح الجامع، رقم (٧٦٢)، وأورده الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه ابن لهيعة ويه ضعف».

(٣) مسند أحمد (٣/ ٤٢٨) وسنن ابن ماجه، رقم (١٤٢٩) ومستدرك الحاكم (١/ ٣٤٠)، رقم (٨٣٦) وقال: «هذا حديث صحيح ولم يخرجاه» وسكت عنه الذهبي.

(٤) الفتح الرباني (٤/ ٩١).

(٥) مسند أحمد (٢/ ٣١١) وهو في صحيح الترغيب (٥٥٦).

(٦) سنن الترمذي، رقم (٣٤٨٢) (٥/ ٤٨٥) وقال: «وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٧٦٩).

خشوعه عنان السماء، ومنهم من يخرج من صلاته لم يعقل شيئاً، والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة، ووضوئها، لكنه قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها وإتمامها قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل، ناظراً بقلبه إليه، مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به.

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه، لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا، قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة، وقرت عينه أيضاً به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات[1].

(١) الوابل الصيب (٤٠-٤١).

الفصل الثالث
شروط الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم

الشرط في اللغة العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ [محمد: ١٨].

واصطلاحاً: ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته(١).

وقد عد فقهاء الحنابلة تسعة شروط للصلاة هي:

١- الإسلام. ٢- العقل. ٣- التمييز. ٤- الطهارة.

٥- إزالة النجاسة من ثلاث: من البدن والثوب والبقعة.

٦- ستر العورة. ٧- دخول الوقت. ٨- استقبال القبلة.

٩- النية(٢).

أما فقهاء المفسرين فقد جمعوا بين الشروط والواجبات والفروض والأركان، فمثلاً يقول القرطبي: «.. الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض، فمن شروطها: الطهارة، وسيأتي بيان أحكامها في سورة النساء والمائدة، وستر العورة، يأتي في الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى، وأما فروضها: فاستقبال القبلة، والنية، وتكبيرة الإحرام والقيام لها، وقراءة أم القرآن والقيام لها، والركوع والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والسجود الثاني والطمأنينة فيه»(٣).

وقد أشار القرآن الكريم في مواضع متفرقة إلى شيء من ذلك، بيد أن حديث القرآن عن فقه الصلاة بصفة عامة لم يكن حديثاً مفصلاً، بل جاء بعضه كذلك كالوضوء، وصلاة الخوف مثلاً، وجاء بعضه مجملاً وترك بيانه للرسول ﷺ كمواقيت الصلاة وعدد الركعات وغير ذلك.. وقد بيَّن الرسول ﷺ ذلك كله بقوله وفعله امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ

---

(١) وذلك مثل الوضوء للصلاة يلزم من عدمه عدم صحة الصلاة، لأنه شرط لصحتها، ولا يلزم من وجوده وجود الصلاة، فلو توضأ إنسان فلا يلزمه أن يصلي. يُنظر: الشرح الممتع (٢/ ٨٥).

(٢) يُنظر: المغني (٢/ ١٣٢) وصلاة المؤمن (١/ ١٦١-١٩٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٦٩).

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وهناك حِكم كثيرة في عدم بيان القرآن لأحكام الصلاة، كعدد ركعات الصلوات المفروضة وما يقرأ في القيام وما يقال في الركوع والسجود ولم يبين أوقات كل صلاة بداية ونهاية.

ولعل من أهم الحِكم في ذلك الإشارة إلى أنه لا يجوز أن نأخذ بالقرآن وحده ونعرض عن سنة الرسول ﷺ، ومصداق ذلك حديث الرسول ﷺ: (ألا إني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)[(١)].

وحين يجمل القرآن أحكام بعض العبادات المفروضة كالصلاة والزكاة والصيام والحج فإنما يكل بيان ذلك إلى السنة ويلزم بالرجوع إليها والأخذ بها وكفى بهذا حكمة لإجمال القرآن في ذلك.

ولعل من الحكمة في عدم جمع القرآن الحديث عن شروط الصلاة في موضع واحد هو أن الله سبحانه دعا في مواضع عديدة إلى تدبر القرآن فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وفي تفريق أجزاء الموضوع الواحد، أو القصة الواحدة، مجال للتدبر وميدان للتذكر، ومعترك للتنافس بين أولي الألباب لاستنباط المعاني الدقيقة وتعلم التأويل.

وفوق هذا أن في سوق شروط الصلاة متوالية قصراً للهدف على الإعلام بها، أما تفريقها ففيه مزية بيان وجه كل شرط من هذه الشروط والحكمة السامية في تشريعه، وزيادة الاهتمام به عند إفراده في الحديث، إضافة إلى إحكام السرد وجودة السبك وترابط المعاني[(٢)].

- فحين يتحدث القرآن مثلاً عن كيد الشيطان لأبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام ونزعه عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما[(٣)] ناسب أن يدعو بعده إلى ستر العورة، بل لبس

---

(١) مسند أحمد (٤/ ١٣٠-١٣٢) وسنن أبي داود (١/ ٢٠٠) وسنن الترمذي (٥/ ٣٨) وسنن ابن ماجه (١/ ١٠)، وصحيح الألباني في صحيح الجامع، رقم (٨٠٣٨) (٦/ ٣٦٥).

(٢) الصلاة في القرآن الكريم د. فهد الرومي (٨٧).

(٣) في قوله تعالى في سورة الأعراف، الآية (٢٧): ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا﴾ =

الزينة عند كل مسجد وفي هذا تبكيت للشيطان وإعلان لخيبته وخسرانه.

- وحين يتحدث القرآن عن أهل الكتاب ويدعوهم إلى قول الحق ويتوعد كاتم الشهادة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ناسب أن يذكر مثالاً لما كتموه مع أنهم يعلمون الحق فيه ألا وهو استقبال المسجد الحرام فقال سبحانه بعد أن أمر بالتوجه إليه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

- وحين يتحدث القرآن في سورة هود عليه السلام عنه وعن نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام جميعاً يعقب على هذه القصص بتسلية الرسول ﷺ عما أصاب إخوانه الأنبياء من قبله وتوجيهه ومن تاب معه إلى الاستقامة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] ثم أشار إلى أن من أسباب الاستقامة إقامة الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [هود: ١١٤].

وفي هذا إشارة إلى أوقات الصلوات الخمس.

- ولما تحدث القرآن عن طيبات الطعام والنساء وهما طيبات الجسد ناسب أن يرتقي بهم إلى طيبات الروح وهما الصلاة والطهارة، فلما قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ﴾ [المائدة: ٥-٦].

ومن شروط الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم:

= ﴿لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾ .

الشرط الأول: الإسلام:

وضده الكفر، ويشترط الإسلام لكل عبادة.. والكافر عمله مردود ولو عمل أي عمل.. وقد أشار القرآن لهذا الشرط في آيات عدة ومن أنسبها لموضوع الصلاة قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

والمعنى: ما ينبغي ولا يليق للمشركين أن يعمروا مساجد الله بالعبادة والصلاة وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرهم وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.. وكذا عدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال فكيف يزعمون أنهم عمار مساجد الله، والأصل منهم مفقود والأعمال منهم باطلة؟![(١)].

إن أي عمل من غير إسلام باطل مضمحل يخسره صاحبه ويحرم أجره، بل يعاقب عليه وذلك لفقده الإيمان، وصدوره عن مكذب لله ورسوله، فالعمل الذي يقبله الله هو ما صدر من المؤمن المخلص المصدق للرسل المتبع لهم فيه، قال تعالى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

الشرط الثاني: العقل:

وضده الجنون، والمجنون مرفوع عنه القلم حتى يفيق لحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم)[(٢)].

وقد أشار القرآن إلى وجوب هذا الشرط لصحة الصلاة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

«خص الله سبحانه وتعالى بهذا الخطاب المؤمنين، لأنهم كانوا يقيمون الصلاة قبل تحريم الخمر وقد أخذوا من الخمر وأتلفت عليهم أذهانهم فخصوا بهذا الخطاب إذ كان

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٩١).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب المجنون يسرق أو يصيب حداً، رقم (٤٤٠١، ٤٤٠٢) وسنن الترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، رقم (١٤٢٣) وسنن ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، رقم (٢٠٤١، ٢٠٤٢) وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء (٢/ ٤) من حديث عائشة وعلي وأبي قتادة وغيرهم.

الكفار لا يفعلونها صحاة ولا سكارى.. وفي الآية دليل على شرط من شروط الصلاة التي لا تصح إلا بها.. والجمهور من العلماء وجماعة الفقهاء على أن المراد بالسكر سكر الخمر إلا الضحاك فإنه قال: المراد سكر النوم، وقال عبيدة السلماني: إذا كنت حاقناً.

وقولها صحيح المعنى، فإن المطلوب من المصلي الإقبال على الله تعالى بقلبه وترك الالتفات إلى غيره، والخلو عن كل ما يشوش عليه من نوم، وحقنة، وجوع وكل ما يشغل البال ويغير الحال حتى يقبل على عبادة ربه بفراغ قلبه وخالص لبه فيخشع في صلاته»[(١)].

والنهي في الآية شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد، فإنه لا يمكّن السكران من دخوله وشامل لنفس الصلاة فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة لاختلاط عقله وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدد الله تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم بما يقول السكران.

وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر -في أول الأمر- كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه بقوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

- ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية.

- ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة لتضمنه هذه المفسدة العظيمة.. من سكر القلب، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة[(٢)].

«.. والسكران الذي لا يعرف الأرض من السماء ولا الرجل من المرأة فلا اختلاف

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٨٠-١٨١) باختصار وتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٤٤) باختصار.

في أنه كالمجنون في جميع أفعاله وأحواله فيما بينه وبين الناس، وفيما بينه وبين الله تعالى أيضاً إلا فيما ذهب وقته من الصلوات، فقيل: إنها لا تسقط عنه بخلاف المجنون، من أجل أنه بإدخاله السكر على نفسه كالمتعمد لتركها حتى خرج وقتها.. ولا تصح صلاته، وإن صلى قضى، وإن كان بحيث يعلم ما يقول فأتى بالصلاة فحكمه حكم الصاحي»[(١)].

الشرط الثالث: الطهارة:

وتعرف عند الفقهاء: بأنها رفع الحدث وزوال الخبث، ويراد برفع الحدث زوال الوصف القائم بالبدن المانع من الصلاة ونحوها.

ويراد بزوال الخبث إزالة النجاسة[(٢)].

وقد رغب القرآن الكريم في الطهارة وحث عليها في آيات عدة منها:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١].

قال ابن كثير: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر[(٣)].

٣- وقال سبحانه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

٤- وقال سبحانه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أهل قباء فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نتبع الحجارة بالماء[(٤)].

إن إكمال الطهارة والاهتمام بشأنها مما يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

والحدثان: حدث أكبر، وحدث أصغر. أما الأكبر فيجب فيه الغسل، وأما الأصغر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: منار السبيل لإبراهيم الضويان (١/ ٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨٢٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (١٠٩)، ويُنظر مثله عن أبي هريرة في الدر المنثور (٧/ ٥٣٠) وخرجه المحققون من صحيح سنن أبي داود (٣٤) والترمذي (٣١٠٠) وابن ماجه (٣٥٧).

فيجب فيه الوضوء، ويجزئ التيمم في الحالتين إذا عدم الماء أو تعذر استعماله.

وقد أشار القرآن إلى هذا الشرط من شروط الصلاة، وجاءت الآيات في بيان الوضوء وصفته ونواقضه، ومتى يجب الغسل.. وكذا صفة التيمم وأحكامه.. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وهذه آية عظيمة اشتملت على أحكام كثيرة تتعلق بالوضوء، وفرائضه، ومتى يجب الغسل، والتيمم.. ومن هذه الأحكام والحِكم:

أولاً: في تصدير الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أن هذه المذكورات امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان التي لا يتم إلا به.. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم[(١)].

ثانياً: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] حيث عبر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة، أو إذا قصدتم الصلاة لأن التوجه إلى الشيء والقيام إليه قصد له[(٢)].

ثالثاً: ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً، والإجماع على خلافه لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: عمداً فعلته)[(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٥).

(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٢٥٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد، رقم (٢٧٧) صفحة (١٣٤).

رابعاً: إن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما عند إرادة الصلاة، وإن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة في الفرض، والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة تشترط له الطهارة حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء كسجود التلاوة والشكر[١].

خامساً: اشتملت الآية الكريمة على ذكر فروض الوضوء الستة أربعة منها نصاً والباقي استنباطاً:

الفرض الأول: في الآية أمر بغسل الوجه، وهو ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسنة، مثل قوله ﷺ: (إذا توضأت فمضمض)[٢]، ولحديث لقيط رضي الله عنه: (وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً)[٣] ولمواظبة النبي ﷺ على المضمضة والاستنشاق.

الفرض الثاني: نصت الآية على الأمر بغسل اليدين إلى المرفقين، اليمنى ثم اليسرى، و ﴿إِلَى﴾ كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ والواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق[٤].

الفرض الثالث: نصت عليه الآية وهو مسح الرأس، والواجب هو المسح، فلو غسل رأسه، ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به، كما يجب مسح جميع الرأس، لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعمم المسح بجميع الرأس، كما يكفي المسح كيفما كان بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة، أو نحوهما لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفة فدل ذلك على إطلاقه[٥].

يقول القرطبي: «.. وأجمع العلماء على أن: من مسح رأسه كله فقد أحسن، وفعل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٥).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب في الاستنثار، رقم (١٤٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (١٣١) (١/ ٣٠).

(٣) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب في الاستنثار، رقم (١٤٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (١٢٩) (١/ ٢٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١٨٥) ويُنظر تفسير البيضاوي (١/ ٢٥٩).

(٥) يقارن بين فتح القدير (٢/ ١٧) وتيسير الكريم الرحمن (١٨٥).

ما يلزمه، والباء مؤكدة زائدة ليست للتبعيض والمعنى: وامسحوا رءوسكم، وقيل: دخولها هنا كدخولها في التيمم في قوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ﴾ فلو كان معناها التبعيض لأفادته في ذلك الموضع، وهذا قاطع، وقيل: إنما دخلت لتفيد معنى بديعاً وهو أن الغسل لغة يقتضي مغسولاً به، والمسح لغة لا يقتضي ممسوحاً به فلو قال: وامسحوا رءوسكم لأجزأ المسح باليد إمراراً من غير شيء على الرأس فدخلت الباء لتفيد ممسوحاً به وهو الماء فكأنه قال: وامسحوا برءوسكم الماء وذلك فصيح في اللغة»[(١)].

ويدخل في مسح الرأس الأذنان لحديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه: (الأذنان من الرأس)[(٢)].

الفرض الرابع: غسل الرجلين إلى الكعبين، أو المسح على الخفين.

وفي قوله: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ ثلاث قراءات: واحدة شاذة واثنتان متواترتان.

أما الشاذة فقراءة الحسن وهي قراءة الرفع: أي «وأرجُلُكم» بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي مغسولة[(٣)]، وأما المتواترتان:

فالأولى: بالفتح ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وحفص ويعقوب، فتكون معطوفة على الوجوه والأيدي، فأوجبوا غسل الرجلين.

والثانية: بالجر «وأرجلِكم» وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة وأبي بكر عطفاً على ﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾ وحجتهم في ذلك أنها الأقرب إلى الأرجل من الوجوه والأكثر في كلام العرب أن يحمل العطف على الأقرب[(٤)].

وقد جمع الطبري رحمه الله بين قراءة النصب والجر بوجوب تعميم الرجلين بالمسح بالماء في الوضوء، وإذا عم المتوضئ رجليه مسحاً بالماء كان مستحقاً اسم «ماسح غاسل» وعلل ذلك بقوله: «لأن غسلهما إمرار الماء عليهما، وإصابتهما بالماء ومسحهما إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما فإذا فعل ذلك بهما فاعل فهو «غاسل ماسح» ثم قال: «فإن قال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٤٥٩) باختصار.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الأذنان من الرأس، رقم (٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥) وغيره، وصححه الألباني لكثرة طرقه وشواهده في صحيح سنن ابن ماجه، رقم (٣٥٧-٣٥٩) وفي الإرواء، رقم (٨٤) وفي السلسلة الصحيحة، رقم (٣٦).

(٣) إتحاف فضلاء البشر لأحمد البناء (١/ ٥٣٠).

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع لأبي محمد مكي بن أبي طالب (١/ ٤٠٦) باختصار.

قائل: وما الدليل على أن المراد بالمسح في الرجلين العموم دون أن يكون خصوصاً، نظير قولك في المسح بالرأس؟ قيل: الدليل على ذلك تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ويل للأعقاب من النار)(١).

ولو كان مسح بعض القدم مجزئاً من عمومها بذلك لما كان لها الويل بترك ما ترك مسحه منها بالماء بعد أن يمسح بعضها لأن من أدى فرض الله عليه فيما لزمه غسله منها لم يستحق الويل بل يجب أن يكون له الثواب الجزيل، وفي وجوب الويل لعقب تارك غسل عقبه في وضوئه أوضح الدليل على وجوب فرض العموم بمسح جميع القدم بالماء وصحة ما قلنا في ذلك وفساد ما خالفه»(٢).

وقال بعض العلماء: المراد بقراءة الجر: المسح ولكن النبي ﷺ بيَّن أن ذلك المسح لا يكون إلا **على الخف**، قال الشنقيطي: وعليه فالآية تشير إلى المسح على الخف في قراءة الخفض، والمسح على الخفين -إذا لبسهما طاهراً- متواتر عن رسول الله ﷺ لم يخالف فيه إلا من لا عبرة به(٣).

الفرض الخامس: الترتيب، أي ترتيب غسل الأعضاء كما وردت في الآية.

قال القرطبي: «وتتضمن ألفاظ الآية الترتيب، وقد اختلف فيه فقال الأبهري: الترتيب سنة، وظاهر المذهب أن التنكيس للناسي يجزئ... ثم قال: ومن لم يتوضأ على ترتيب الآية فعليه الإعادة مما صلى بذلك الوضوء»(٤).

وهذا هو الصحيح لأن الله تعالى ذكر الوضوء مرتباً وأدخل الممسوح بين المغسولات محافظة على الترتيب لأن الرأس ممسوح بين المغسولات، قال الشنقيطي: «ومن هنا أخذ جماعة من العلماء وجوب الترتيب في أعضاء الوضوء حسبما في الآية الكريمة»(٥).

والترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في الآية، أما الترتيب بين

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم، رقم (٦٠) وباب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم (٩٦) وكتاب الوضوء، باب غسل الرجلين ولا يمسح على القدمين، رقم (١٦٣) وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (٢٤١).

(٢) جامع البيان (١٠/ ٦٢-٦٤) باختصار وتصرف.

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٤٦٨-٤٦٩) باختصار.

(٥) أضواء البيان (٢/ ٨).

المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين فإن ذلك غير واجب بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين[١].

الفرض السادس: الموالاة، وهي عبارة عن الإتيان بالطهارة في زمن متصل فلا يؤخر غسل عضو حتى ينشف الذي قبله.. قال القرطبي: «ألفاظ الآية تقتضي الموالاة بين الأعضاء، وهي اتباع المتوضئ الفعل الفعل إلى آخره من غير تراخ بين أبعاضه، ولا فصل بفعل منه» ثم رجح أن الوضوء عبادة ذات أركان مختلفة فوجب فيها التوالي كالصلاة[٢].

ومن الأحكام والحِكَم التي تستنبط من آية المائدة الكريمة:

سادساً: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة المأمور به، وهو سنة مستحبة لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء، ومع كل وضوء بسواك)[٣].

سابعاً: الأمر بالغسل من الجنابة وجوباً، بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾.

والجنب مأخوذ من الجنب، لأنه يمس جنبه جنب امرأة في الأغلب، ومن المجاورة والقرب قيل ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ وقوله ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ أمر بالاغتسال بالماء، ولذلك رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن مسعود وغيرهما أن الجنب لا يتيمم البتة بل يدع الصلاة حتى يجد الماء، وقال جمهور الناس: بل هذه العبارة هي لواجد الماء، وقد ذكر الجنب أيضاً بعد في نفس الآية في أحكام عادم الماء بقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إذ الملامسة هنا الجماع، والطهور بالماء صفته: أن يعم الجسد بالماء وتمر اليد مع ذلك عليه، هذا هو المشهور، وروي عن مالك: أنه يجزئ في غسل الجنابة أن ينغمس الرجل في الماء دون تدلك[٤].

كما وردت الإشارة إلى الغسل في قوله تعالى: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٤٦٨) باختصار وتصرف.
(٣) مسند أحمد (٢/ ٤٠٠، ٤٣٣، ٤٦٠، ٥١٧) وحسنه المنذري وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٩٥) (١/ ٨٦).
(٤) يقارن مع المحرر الوجيز (٥٢١-٥٢٢) بتصرف بسيط.

تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ [النساء: ٤٣].

كما وردت الإشارة إلى وجوب الاغتسال على المرأة إذا انقطع حيضها وطهرت منه لأن ذلك شرطاً في صحة اغتسالها لقوله تعالى: وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ [البقرة: ٢٢٢].

وقد ورد في السنة بيان صفة غسل النبي ﷺ في أحاديث كثيرة منها حديث عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ثم يدخل أصابعه في الماء فيخلل بها أصول شعره ثم يصب على رأسه ثلاث غرف بيديه ثم يفيض الماء على جلده كله)(١).

وعلى ذلك فإن الواجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف التطهر للبدن ولم يخصصه شيء دون شيء، كما أنه يجب غسل ظاهر الشعر وباطنه، ويندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي، ثم يعمم بدنه، لأن الله لم يذكر إلا التطهر ولم يذكر أنه يعيد الوضوء(٢).

ثامناً: ذكر منة الله تعالى على عباده بمشروعية التيمم إذا عدم الماء أو كان المصلي مريضاً أو على سفر، ويؤخذ من قوله تعالى في آية المائدة التي معنا، وكذا الآية من سورة النساء: وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا [النساء: ٤٣].

يؤخذ من الآيتين السابقتين إباحة التيمم بدلاً من الوضوء والغسل، وهذا يدل على يسر الشريعة في الصلاة من وجوه متعددة منها:

١- التيمم يغني عن الوضوء والغسل عند فقد الماء أو تعذر استعماله، فلم يلزم الشارع الحكيم المريض باستعمال الماء إذا كان يجلب له ضرراً أو يشق عليه رحمة به وتيسيراً عليه.

(١) صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب الوضوء قبل الغسل، رقم (٢٤٨) (١/ ٦٨) وصحيح مسلم، كتاب الحيض، باب صفة غسل الجنابة، رقم (٣١٦) (١/ ٢٥٣).

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (١٨٥).

٢- لم يشرع للمريض ولا للمسافر تأجيل الصلاة إلى الشفاء أو الحصول على الماء لأن هذا قد يؤدي إلى تراكم القضاء في الصلوات حين يتأخر الشفاء أو يطول السفر مما يشق معه الأداء فاقتضت الرحمة تشريع التيمم مقام الوضوء والغسل.

٣- لم يلزم المريض أو المسافر بإعادة الصلاة التي صلاها بالتيمم عند حصوله على الماء أو شفائه بل جعل الصلاة بالتيمم قائمة مقام الصلاة بالوضوء وهذا من رحمة الله بعباده.

٤- ومن أوجه اليسر في التيمم أن القرآن اقتصر في التيمم على عضوين من أعضاء الوضوء هما الوجهُ واليدان وعفا عن الرأس والرجلين، بل اقتصر في مسح اليدين عليهما دون الساعدين والمرفقين كما هو في الوضوء.

٥- ولعل من حِكم تشريع التيمم أن الطهارة هي مفتاح الصلاة كما قال الرسول ﷺ: (مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم)[(١)].

فإذا فقدت وسيلة من وسائلها وهي الماء فلا يعني إلغاء الوسيلة الثانية وهي التيمم، وكما أن الوضوء رمز للطهارة مع أنه لا يعم سائر البدن فما الذي يمنع من جعل التيمم رمزاً للطهارة حتى ولو لم تغسل أعضاء الوضوء[(٢)].

إن التيمم من خصائص هذه الأمة التي لم تكن لأمة من قبلها مما يميز الشريعة الإسلامية بوجوه من اليسر تبوئ الدين الإسلامي مرتبة دين اليسر، قال ﷺ: (فُضِّلْنا على الناس بثلاث: جُعلتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعلتْ لنا الأرض كلها مسجداً، وجُعلتْ تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء)[(٣)].

وقد استنبط فقهاء المفسرين من الآيات الواردة في التيمم أحكاماً كثيرة منها:

١- إن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء فيجوز له التيمم مع وجود الماء.

٢- من جملة أسباب جوازه السفر، والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء ولو في الحضر.

---

(١) مسند أحمد (١/ ١٢٣) وسنن أبي داود (١/ ١٦) وسنن الترمذي (١/ ٨) وسنن ابن ماجه (١/ ١٨).

(٢) روح الصلاة في الإسلام لعفيف طبارة (٩٢) ويُنظر: الصلاة في القرآن الكريم د. فهد الرومي (٦١، ٦٢).

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٥٦).

٣- اشتراط عدم الماء لصحة التيمم لغير المريض.

٤- مع وجود الماء ولو في الصلاة يبطل التيمم لأن الله أباحه مع عدم الماء.

٥- إذا دخل الوقت وليس معه ماء فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه لأنه لا يقال «لم يجد» لمن لم يطلب.

٦- إن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته فإنه يلزمه استعماله ثم يتيمم بعد ذلك.

٧- إن الماء المتغير بالطاهرات مقدم على التيمم، أي يكون طهوراً، لأن الماء المتغير ماء فيدخل في قوله: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً﴾.

٨- لا بد من نية في التيمم لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾.

٩- يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره فيكون على هذا قوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه، ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشاداً للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

١٠- لا يصح التيمم بالتراب النجس لأنه لا يكون طيباً بل خبيثاً.

١١- إن قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمۡ﴾ شامل لجميع الوجه وأن يعمه بالمسح إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.

١٢- إن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط لأن اليدين عند الإطلاق كذلك، فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده بذلك كما قيده في الوضوء.

١٣- اشتراط الترتيب في طهارة التيمم كما يشترط ذلك في الوضوء لأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين[(١)].

وقد وردت صفة التيمم في حديث عمار رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله ﷺ في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: إنما كان يكفيك أن تصنع هكذا فضرب بكفه ضربة على الأرض ثم نفضها ثم مسح بها ظهر كفه بشماله أو ظهر شماله بكفه ثم مسح بها وجهه)[(٢)].

(١) يُنظر: تيسير الكريم الرحمن (١٨٥-١٨٦) باختصار وتصرف، ويُنظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٠١-٢١٣) باختصار، وبقارن.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، رقم (٣٤٧) (١/ ٩١).

تاسعاً: ومن الأحكام المستنبطة من الآيات أن الخارج من السبيلين من بول أو غائط ينقض الوضوء وكذا لمس المرأة بلذة وشهوة.. وفي هذا إشارة إلى شيء من نواقض الوضوء.

عاشراً: استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ حيث إن لفظ «الغائط» في الأصل المكان المنخفض من الأرض الذي يقضي الإنسان فيه حاجته، وكانت العرب تقصد بحاجتها ذلك الصنف من المواضع حتى كثر استعماله في قضاء الحاجة وصار عرفاً[(١)].

الشرط الرابع: إزالة النجاسة من ثلاثة: من البدن، والثوب، والبقعة:

دعا القرآن الكريم في آيات عدة إلى طهارة الأبدان، واللباس، والمسجد الذي هو موضع الصلاة وفي هذا إشارة إلى هذا الشرط الهام من شروط الصلاة، ومن هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة٦].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

٣- وقوله عز شأنه: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

تدل الآية الأولى على أن الله تعالى فيما شرعه لنا من أحكام لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم وليتم نعمته عليهم، ويدل على أن الله يريد تطهيرنا حسياً ومعنوياً أنه أوجب التيمم لفاقد الماء أو العاجز عن استعماله مع أن طهارة التيمم ليس فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، ولكن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى، وذلك أن طهارة الظاهر بالماء والتراب تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح، لهذا ينبغي للمصلي أن يتدبر الحِكم والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلماً، ويزداد شكراً لله ومحبة له على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة[(٢)].

(١) المحرر الوجيز (٤٣٩).

(٢) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (١٨٦).

وفي قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة بها وذلك أن المشركين كانوا لا يتطهرون ولا يطهرون ثيابهم.. هذا تفسير ابن سيرين وابن زيد، ومما يساعد على تطهير الثياب تقصيرها عن الكعبين لأن تقصير الثياب طهرة لها كما يقول طاووس(١).

وفي أمر الله للخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بتطهير البيت للطائفين والعاكفين والمصلين إشارة صريحة لاشتراط نظافة البقعة التي يصلى فيها لله.. والمراد من التطهير في الآية: التنظيف من كل ما لا يليق فيدخل فيه الأوثان والأنجاس وجميع الخبائث وما يمنع منه شرعاً كالحائض.. وقيل المراد: بَخِّرَاه ونظفاه وخلقاه وارفعاه عن الفرث والدم الذي كان يطرح فيه.

الشرط الخامس: ستر العورة:

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال الشوكاني في تفسيره: «هذا خطاب لجميع بني آدم، وإن كان وارداً على سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والزينة: ما يتزين به الناس من الملبوس، أمروا بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة، والطواف، وقد استدل بالآية على وجوب ستر العورة في الصلاة، وإليه ذهب جمهور أهل العلم، بل سترها واجب في كل حالٍ من الأحوال وإن كان الرجل خالياً كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة»(٢).

إن لبس الثياب مما امتاز به الإنسان عن سائر البهائم، وهو أحسن حالات الإنسان، وفيه شعبة من معنى الطهارة، وفيه تعظيم الصلاة وتحقيق أدب المناجاة بين يدي رب العالمين، وهو واجب أصلي جعل شرطاً في الصلاة لتكميله معناها(٣).

الشرط السادس: دخول الوقت:

١- جاءت الإشارة إلى اعتبار هذا الشرط في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

---

(١) معالم التنزيل (١٣٦٠) وزاد المسير (١٤٨٧).

(٢) فتح القدير (٢/ ٢٠٠).

(٣) حجة الله البالغة (١/ ٤٣٦).

أي واجباً مفروضاً مقدراً في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتان، وقال مجاهد: أي فرضاً مؤقتاً وقته الله عليهم، وقد جاء بيان أوقات الصلوات في الحديث[(١)].

وقال الشوكاني: «أي محدوداً معيناً، يقال: وقته فهو موقوت، ووقته فهو موقت، والمعنى: أن الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعي من نوم أو سهو، ونحوهما»[(٢)].

٢- وجاءت الإشارة إلى الأوقات الخمسة مجملة في قوله تعالى:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

قال ابن عطية: «هذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة، فقال ابن عمر وابن عباس وأبو بردة والحسن، والجمهور «دلوك الشمس»: زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر، و ﴿غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أشير به إلى المغرب والعشاء، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ أريد به صلاة الصبح، فالآية على هذا تعم جميع الأوقات»[(٣)].

قال ابن كثير: «وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه عمل أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه ولله الحمد»[(٤)].

٣- كما جاءت الإشارة إلى هذه الأوقات في قوله تعالى:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

قال الطبري رحمه الله: «.. واختلف أهل التأويل في التي عنيت بهذه الآية من صلوات العشي بعد إجماع جميعهم على أن التي عنيت من صلاة الغداة: الفجر.

فقال بعضهم عنيت بذلك صلاة الظهر والعصر، قالوا: وهما من صلاة العشي.

وقال آخرون: عني بها صلاة العصر.. وقال بعضهم: بل عني بـ ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾

(١) معالم التنزيل (٣٣٥) ويُنظر: جامع البيان (٩/ ١٧٠).
(٢) فتح القدير (٤/ ٥١٠).
(٣) المحرر الوجيز (١١٦٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (١١٣٠).

الظهر والعصر، وبقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ المغرب والعشاء والصبح»[(١)].

٤- كما جاءت الإشارة في قوله تعالى:

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

فقوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي سبحوا الله ومعناه صلوا لله ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ أي تدخلوا في المساء، وهو صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ أي تدخلون في الصباح وهو صلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي صلوا لله عشياً يعني صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة وهو الظهر، وسئل ابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين وقال: جمعت الصلوات الخمس ومواقيتها[(٢)].

ومن أصرح الأحاديث في اشتراط دخول الوقت ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن للصلاة أولاً وآخراً وإن أول وقت صلاة الظهر حين تزول الشمس وآخر وقتها حين يدخل وقت العصر، وإن أول وقت العصر: حين يدخل وقتها، وإن آخر وقتها حين تصفر الشمس، وإن أول وقت المغرب حين تغرب الشمس، وإن آخر وقتها حين يغيب الأفق، وإن أول وقت العشاء حين يغيب الأفق، وإن آخر وقتها حين ينتصف الليل، وإن أول وقت الفجر حين يطلع الفجر، وإن آخر وقتها حين تطلع الشمس)[(٣)].

والصلاة في وقتها من أحب الأعمال إلى الله، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)[(٤)].

الشرط السابع: استقبال القبلة:

وجاء الأمر به في قوله تعالى:

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٥٠٢-٥٠٤) باختصار.

(٢) معالم التنزيل (١٠٠٤) باختصار.

(٣) موطأ مالك (١/ ٨) وسنن الترمذي، رقم (١٥١) واللفظ له، وسنن النسائي (١/ ٩٢٥، ٢٥٠) وقال محقق جامع الأصول (٥/ ٢١٤): «حديث حسن».

(٤) تقدم تخريجه صفحة (٢٢٩).

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وفي قوله سبحانه بعد عدة آيات: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٩، ١٥٠].

قال القرطبي: «لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة في كل أفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى.. وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها، فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها»[(١)].

والسر في استقرار الأمر على استقبال الكعبة: «أنه لما كان تعظيم شعائر الله وبيوته واجباً لا سيما فيما هو أصل أركان الإسلام، وأم القربات، وأشهر شعائر الدين وكان التوجه في الصلاة إلى ما هو مختص بالله بطلب رضا الله بالتقرب منه أجمع للخاطر، وأحث على صفة الخشوع، وأقرب لحضور القلب، لأنه يشبه مواجهة الملك في مناجاته اقتضت الحكمة الإلهية أن يجعل استقبال قبلة ما شرطاً في جميع الشرائع»[(٢)].

وقد يسر الله سبحانه وتعالى على المسلمين في هذا الاستقبال فلا يلزم في بعض حالات الضرورة منها:

١- إذا اشتد الخوف وهو مطلوب من العدو ابتدأ الصلاة إلى القبلة وصلى إلى غيرها راجلاً أو راكباً ولا يؤخر الصلاة عن وقتها لقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٣٩][(٣)].

٢- في صلاة التطوع على النافلة في السفر الطويل فإنه لا يلزمه التوجه إلى القبلة، قال

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٥٦٣).
(٢) حجة الله البالغة (١/ ٤٣٨).
(٣) المغني (١/ ٤٣٠) بتصرف.

ابن عبدالبر: «أجمعوا على أنه جائز لكل من سافر سفراً يقصر فيه الصلاة أن يتطوع على دابته حيثما توجهت يومئ بالركوع والسجود يجعل السجود أخفض من الركوع» وتعقبه ابن قدامة بأنه لا فرق بين قصير السفر وطويله واستدل بعدة أدلة(١).

٣- من اجتهد فلم يعرف القبلة فإن له أن يصلي إلى أية جهة تغلب على ظنه ولا يلزمه التوجه إلى القبلة لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقيل: «نزلت هذه الآية في قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله عز وجل لهم: لي المشارق والمغارب فأنى وليتم وجوهكم فهنالك وجهي وهو قبلتكم -فعلمهم بذلك أن صلاتهم ماضية»(٢).

٤- إذا كان عاجزاً كالأعمى الذي لا يجد من يوجهه وعجز عن معرفة القبلة، والمريض الذي لا يستطيع الحركة وليس عنده من يوجهه، والمأسور المربوط إلى غير القبلة، فقبلة هؤلاء هي الجهة التي يقدرون عليها لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ولقول النبي ﷺ: (فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)(٣).

الشرط الثامن: النية:

جاءت الإشارة إلى هذا الشرط في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وهذا أمر من الله في سائر الشرائع بأن يقصدوا بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، حال كونهم معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد، وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله ﴿لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لفضلهما وشرفهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.. ثم ختم

---

(١) المغني (١/ ٤٣٤-٤٣٥) ويُنظر: صلاة المؤمن (١/ ١٨١).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٣١).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمرة، رقم (١٣٣٧).

الآية بقول: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي أن التوحيد والإخلاص في الدين هو الطريق المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم[(١)].

والنية محلها القلب، والتلفظ بها بدعة وهي لغة: القصد، وهو عزم القلب على الشيء، وشرعاً: العزم على فعل العبادة تقرباً إلى الله تعالى.

والنية نيتان: نية للمعمول له، وهي الإخلاص لله تعالى.

ونية للعمل: وهي تمييز العبادات عن بعضها وقصدها ونيتها فينوي تلك العبادة المعينة[(٢)].

وزمن النية: أول العبادة، أو قبلها بيسير، والأفضل قرنها بالتكبير خروجاً من خلاف من شرط ذلك، ويشترط مع نية الصلاة تعيين ما يصليه بقلبه، من ظهر، أو عصر، أو جمعة، أو وتر، أو راتبة لتتميز عن غيرها وتجزئه نية الصلاة إذا كانت نافلة مطلقاً[(٣)].

ولا شك أن الصلاة عبادة عظيمة يشترط لها:

الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للنبي ﷺ، فهذان شرطان لكل عبادة.

أما الإخلاص فلقوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)[(٤)].

وأما المتابعة فلقوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[(٥)].

---

(١) يقارن مع تيسير الكريم الرحمن (٨٦١).

(٢) يُنظر: صلاة المؤمن (١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: منار السبيل (١/ ٧٩).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١١١) وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب قوله ﷺ (إنما الأعمال بالنية)، رقم (١٩٠٧).

(٥) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧) وصحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

الفصل الرابع
أركان الصلاة التي أشار إليها القرآن

أفعال الصلاة وأقوالها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- أركان: وهي ما لا يسقط جهلاً ولا عمداً ولا سهواً.

٢- واجبات: وهي ما تبطل به الصلاة عمداً، ويسقط جهلاً وسهواً ويجبر بسجود السهو.

٣- وسنن: وهي ما لا تبطل بتركه عمداً ولا سهواً.

والركن في اللغة: جانب الشيء الأقوى الذي لا يقوم ولا يتم إلا به، وسميت أركان الصلاة: تشبيهاً لها بأركان البيت الذي لا يقوم إلا بها.

والركن في الاصطلاح: ماهية الشيء والذي يتركب منه ويكون جزءاً من أجزائه، ولا يوجد ذلك الشيء إلا به[(١)].

وعد فقهاء الحنابلة وغيرهم أركان الصلاة أربعة عشر ركناً على النحو التالي:

١- القيام في الفرض مع القدرة.

٢- تكبيرة الإحرام.

٣- قراءة الفاتحة مرتبة في كل ركعة.

٤- الركوع.

٥- الرفع من الركوع والاعتدال قائماً.

٦- السجود على الأعضاء السبعة.

٧- الرفع من السجود.

٨- الجلسة بين السجدتين.

٩- الطمأنينة في جميع الأركان.

١٠- التشهد الأخير.

١١- الجلوس للتشهد الأخير.

١٢- الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير.

١٣- الترتيب بين أركان الصلاة.

(١) يُنظر: حاشية الروض المربع لابن قاسم (٢/ ١٢٢).

١٤- التسليمتان[(١)].

وهذه الأركان، وما سبق من شروط في الفصل السابق، وما سيأتي من واجبات وسنن كلها جاءت الإشارة إليها والأمر بها في الآيات التي فيها أمر بإقامة الصلاة أو مدح للمقيمين للصلاة، إذ من أبرز معاني إقامة الصلاة: تعديل أركانها بأن يوقعها المصلي مستجمعة للفرائض، والواجبات، مع الآداب والسنن وفي أوقاتها مع المحافظة عليها والمداومة على أدائها والتشمير لذلك[(٢)].

وهذه الأركان التي حصرها الفقهاء مستنبطة من صفة صلاة الرسول ﷺ التي داوم عليها وحفظها عنه الصحابة ونقلوها لنا في أحاديث كثيرة اشتملت عليها دواوين السنة، وتاج هذه الأحاديث قوله ﷺ: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[(٣)].

ومن أشهر الأحاديث التي جمعت أركان الصلاة حديث أبي هريرة رضي الله عنه في تعليم الرسول ﷺ للمسيء صلاته حيث علمها له مرتبة الأركان فقال: (إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها)[(٤)].

وقد جاء التصريح في القرآن لسبعة أركان من أركان الصلاة وهي أهمها وأعظمها على الإطلاق مع دخول بقية الأركان معها تبعاً، هذه الأركان هي:

الركنان الأول والثاني: القيام في الفرض مع القدرة، وتكبيرة الإحرام:

ويستدل لهما بآيات عدة منها قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

قال القرطبي: «القنوت: القيام وهو أحد أقسامه فيما ذكر أبو بكر بن الأنباري وأجمعت الأمة على أن القيام في صلاة الفرض واجب على كل صحيح قادر عليه، منفرداً

---

(١) تُنظر الأركان مع أدلتها وشرحها في: صلاة المؤمن (١/ ٢٤٥-٢٤٩) وجميع كتب الفقه الحنبلي وغيرها.

(٢) يُنظر الفصل الأول من الباب الرابع من هذه الرسالة.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠٠٨).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٧) وفي مواضع أخرى، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٧).

كان أو إماماً»[(١)].

ومن إيحاءات قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ القيام لله في الصلاة بحالة وقار وسكينة وهدوء للجوارح على حالة من الأمن والطمأنينة مع غض للبصر وخفض للجناح وإحضار للخشية والفكر في الوقوف بين يدي الله تعالى[(٢)].

واستدل بعض الفقهاء بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ مع قوله ﷺ في حديث المسيء صلاته (إذا قمت إلى الصلاة فكبر)[(٣)] على ركنية تكبيرة الإحرام قائماً قاصداً بقلبه الصلاة التي يريدها من فريضة أو نافلة تقرباً لله تعالى قائلاً الله أكبر[(٤)].

ومن الآيات الدالة على فرضية القيام قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

قال الدامغاني في الآيات السابقة ونحوها: قياماً: يعني قائمين على أرجلهم[(٥)].

إن العبد في حال غفلته كالآبق من ربه قد عطل جوارحه وقلبه عن الخدمة التي خلق لها، فإذا جاء إليه فقد رجع من إباقه، فإذا وقف بين يديه موقف العبودية والتذلل والانكسار، فقد استدعى عطف سيده وإقباله عليه بعد الإعراض عنه وأمر بأن يستقبل القبلة بوجهه ويستقبل الله عز وجل بقلبه لينسلخ مما كان فيه من التولي والإعراض ثم قام بين يديه مقام المتذلل الخاضع المسكين المستعطف لسيده عليه، وألقى بيديه مسلماً مستسلماً ناكس الرأس خاشع القلب، مطرق الطرف لا يلتفت قلبه عنه ولا طرفة عين، لا يمنة ولا يسرة.. وأقبل بكليته عليه ثم كبره بالتعظيم والإجلال وواطأ قلبه لسانه في التكبير فكان الله أكبر في قلبه من كل شيء، وصدق هذا التكبير بأنه لم يكن في قلبه شيء أكبر من الله تعالى يشغله عنه.. إنه بهذا يكون قد حقق عبودية القيام لله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٨٥).
(٢) يقارن مع المحرر الوجيز (٢١٦).
(٣) تقدم تخريجه صفحة (٣٨٦).
(٤) يقارن مع صلاة المؤمن (١/ ١٨٧).
(٥) الوجوه والنظائر (٣٧٩).

في الصلاة[(١)].

الركن الثالث: قراءة الفاتحة مرتبة في كل ركعة:

يستدل لهذا الركن بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المزمل: ٢٠] ودلت السنة الصحيحة على تعيين الواجب كما جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[(٢)].

وسورة الفاتحة هي فاتحة الكتاب خطاً، وبها تفتتح القراءة في الصلوات ويقال لها: أم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم وهي أعظم سورة في القرآن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عن ربه: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل...) الحديث[(٣)].

فسمى الفاتحة صلاة، فدل على عظمتها وعظمة قراءتها في الصلاة وأنها من أكبر أركانها[(٤)].

«وإذا أخذ العبد المصلي في قراءة أم القرآن، فقد قام في مخاطبة ربه ومناجاته فليحذر كل الحذر من التعرض لمقته وسخطه بأن يناجيه ويخاطبه وقلبه معرض عنه ملتفت إلى غيره، فإنه يستدعي بذلك مقته، ويكون بمنزلة رجل قربه ملك من ملوك الدنيا، وأقامه بين يديه فجعل يخاطب الملك وقد ولاه قفاه، أو التفت عنه بوجهه يمنة ويسرة فهو لا يفهم ما يقول الملك، فما الظن بمقت الملك لهذا، فما الظن بمقت الملك الحق المبين رب العالمين وقيوم السماوات والأرضين، فينبغي للمصلي أن يقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسيرة ينتظر جواب ربه له وكأنه يسمعه وهو يقول: «حمدني عبدي» إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقف لحظة ينتظر قوله: «أثنى عليَّ عبدي».

فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ انتظر قوله: «مجدني عبدي».

---

(١) يقارن مع أسرار الصلاة (٧٢).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٦) وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٤).

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٢٠٢).

(٤) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (٥٤) وما بعدها.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتظر قوله: «هذا بيني وبين عبدي».

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها انتظر قوله: «هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[(١)].

ومن ذاق طعم الصلاة علم أنه لا يقوم غير التكبير والفاتحة مقامهما، كما لا يقوم غيرُ القيام والركوع والسجود مقامها، فلكل عبودية من عبودية الصلاة سر وتأثير وعبودية لا تحصل في غيرها ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية وذوق ووجد يخصها لا يوجد في غيرها[(٢)].

الركن الرابع: الركوع:

يعد الركوع الركن الرابع من أركان الصلاة، وقد أجمع العلماء على وجوبه لقادر عليه[(٣)]، وورد لفظ الركوع أمراً به وثناءً على الراكعين في ثلاث عشرة آية من القرآن، ومن أصرح الآيات الدالة على ركنيته وفرضه في الصلاة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧].

والظاهر أن المراد بالركوع هنا هو الحقيقة الشرعية أي اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله وحده[(٤)]، وقال الفراء: كان الناس يسجدون بلا ركوع فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع قبل السجود[(٥)].

«والركوع يكون في القلب بالخضوع، وفي الجسد بالانحناء وطأطأة الرأس»[(٦)].

والركوع والسجود من أهم أركان الصلاة وأفضلها كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً: (إن أفضل الصلاة الركوع والسجود)[(٧)].

«والركوع في الشرع: هو أن يخفض المصلي رأسه بعد القومة التي فيها القراءة حتى يطمئن ظهره راكعاً، قال أحمد بن حنبل: «ينبغي له إذا ركع أن يلقم راحتيه ركبتيه

---

(١) الحديث تقدم تخريجه صفحة (٢٠٢).
(٢) يقارن مع أسرار الصلاة (٧٧-٧٨) ويُنظر هناك كلاماً جميلاً حول معاني الحمد واستشعاره في الصلاة.
(٣) يُنظر: السلسبيل في معرفة الدليل (١/ ٩٠).
(٤) يُنظر: روح المعاني (٢١/ ٢٠٨).
(٥) معاني القرآن (٢/ ٢٣١).
(٦) لسان العرب، مادة «ركع» (٨/ ١٣٣).
(٧) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٢٧٥) (١/ ٥٦٣).

ويفرق بين أصابعه ويعتمد على ضبعيه[(١)] وساعديه ويسوي ظهره ولا يرفع رأسه ولا ينكسه» وكل قومة يتلوها الركوع والسجدتان من الصلوات كلها فهي ركعة، ويقال: ركع المصلي ركعة وركعتين وثلاث ركعات»[(٢)].

يقول ابن القيم: «.. ثم شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعاً لعظمة ربه واستكانة لهيبته وتذللاً لعزته، فثناء العبد على ربه في هذا الركن، هو أن يحني له صلبه ويضع له قامته، وينكس له رأسه.. ويكبره معظماً له، ناطقاً بتسبيحه المقترن بتعظيمه، فاجتمع له خضوع القلب، وخضوع الجوارح، و خضوع القول على أتم الأحوال ويجتمع له في هذا الركن من الخضوع والتواضع والتعظيم والذكر ما يفرق به بين الخضوع لربه، والخضوع للعبيد بعضهم لبعض، فإن الخضوع وصف العبد، والعظمة وصف الرب.

وتمام عبودية الركوع أن يتصاغر الراكع ويتضاءل لربه بحيث يمحو تصاغره لربه من قلبه كل تعظيم فيه لنفسه، ولخلقه ويثبت مكانه تعظيمه ربه وحده لا شريك له.

وكلما استولى على قلبه تعظيم الرب وقوي خرج منه تعظيم الخلق وازداد تصاغره هو عند نفسه فالركوع للقلب بالذات والقصد، والجوارح بالتبع والتكملة»[(٣)].

الركن الخامس: السجود على الأعضاء السبعة:

وهو الركن الساد س من أركان الصلاة عند جمهور الفقهاء، وهو واجب بالإجماع أيضاً لقادر عليه، ووردت مادة «سجد» بجميع تصاريفها في اثنين وتسعين موضعاً في القرآن الكريم، ومن أصرح الآيات الدالة على رُكنية السجود قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧].

والسجود يشترك مع الركوع في معنييه من الخضوع بالقلب، والانحناء بالجسد وطأطأة الرأس ويفضل عليه بأنه يختص بوضع الجبهة على الأرض، ولا خضوع أعظم منه، والساجد أشد انحناء من الراكع.

قال الراغب: «وأصل السجود: التطامن، والتذلل وجعل ذلك عبارة عن التذلل

(١) ضبعيه: عضديه. يُنظر: القاموس، مادة «ضبع» (٩٥٦).
(٢) معاني الركوع والسجود في القرآن المجيد (٦، ٧) بتصرف واختصار.
(٣) أسرار الصلاة (٩٤، ٩٥) باختصار.

لله وعبادته، وهو عام في الإنسان والحيوانات والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار وليس ذلك إلا للإنسان وبه يستحق الثواب»(١).

ولا بد أن يكون على الأعضاء السبعة كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (أُمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة -وأشار بيده على أنفه- واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين)(٢).

وفضل السجود فضل عظيم يكفي أن جعله الله سبحانه سبباً للقرب فقال:

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وقال ﷺ: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء)(٣).

وإنما خص في الآية الركوع والسجود من بين أفعال الصلاة لأن سائر أشكال المصلي موافق للعادة عداهما، فيهما يتبين الفضل بين المصلي وغيره(٤)، وما ذلك إلا لمكانتهما البالغتين في الصلاة حيث يكمن فيهما الخشوع والتذلل لله رب العالمين.

قال البقاعي: «وخص هذان الركنان في التعبير عن الصلاة بهما لأنهما لمخالفتهما الهيئات المعتادة -هما الدالان على الخضوع فحسُن التعبير بهما عنها جداً في السورة التي جمعت جميع الفرق الذين فيهم من يستقبح -لما غلب عليه من العز- بعض الهيئات الدالة على الذل»(٥).

ويشرع للعبد المصلي أن يكبر ويخر ساجداً ويعطي في سجود كل عضو من أعضائه حظه من العبودية، فيضع ناصيته بالأرض بين يدي ربه، مسندة راغماً له أنفه، خاضعاً له قلبه، ويضع أشرف ما فيه -وهو وجهه- على الأرض ولا سيما وجه قلبه مع وجهه الظاهر ساجداً على الأرض معفراً له وجهه وأشرف ما فيه بين يدي سيده.. متذللاً لعظمة ربه خاضعاً لعزته منيباً إليه، مستكيناً ذلاً وخضوعاً وانكساراً، قد صارت أعاليه ملوية لأسافله وقد طابق قلبه في ذلك حال جسده، فسجد القلب للرب كما سجد الجسد

(١) المفردات «سجد» (٣٩٦).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، رقم (٨١٢) وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس في الصلاة، رقم (٤٩٠).

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٣٥٧).

(٤) مفاتيح الغيب (١١/ ٢١٠).

(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣/ ٩٩).

بين يدي الله، وقد سجد مع أنفه ووجهه، ويداه وركبتاه ورجلاه، فهذا العبد هو القريب المقرب فهو أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

وشرع له أن يُقل فخذيه عن ساقيه، وبطنه عن فخذيه، وعضديه عن جنبيه، ليأخذ كل جزء منه حظه من الخضوع لا يحمل بعضه بعضاً.

فأحرِ به في هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه منه في غيرها من الأحوال كلها كما قال النبي ﷺ: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[(١)].

ولما كان سجود القلب خضوعه التام لربه أمكنه استدامة هذا السجود إلى يوم القيامة، كما قيل لبعض السلف: هل يسجد القلب؟ قال: «أي والله سجدة لا يرفع رأسه منها حتى يلقى الله عز وجل»[(٢)].

الركن السادس: الطمأنينة في جميع الأركان:

الطمأنينة في اللغة: هي الاسم من الاطمئنان الذي هو مصدر قولهم: اطمأن الشيء يطمئن إذا سكن، يقال: اطمئن المكان إذا ثبت واستقر واطمأن الرجل اطمئناناً وطمأنينة أي سكن[(٣)].

قال الكفوي: والطمأنينة في الشرع «أي عند الفقهاء»: القرار بمقدار تسبيحة في أركان الصلاة[(٤)].

ويمكن أخذ الإشارة إلى هذا الركن من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النساء: ١٠٣] ومن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وكذا من الآيات التي فيها أمر بالإقامة، والإتمام، والخشوع.

يقول ابن تيمية: «.. فأفعال الصلاة إذا كانت مقدرة وجب أن يكون لها قدر، وذلك هو الطمأنينة، فإن من نَقَرَ نَقْرَ الغراب لم يكن لفعله قدر أصلاً، فإن قدر الشيء ومقداره فيه زيادة على أصل وجوده ولهذا يقال للشيء الدائم: ليس له قدر، فإن القدر لا يكون لأدنى حركة بل لحركة ذات امتداد، وأيضاً: فإن الله عز وجل أمرنا بإقامتها

(١) تقدم تخريجه صفحة (٣٥٧).
(٢) يقارن مع أسرار الصلاة (٩٦-٩٨) ومدارج السالكين (١/ ٤٢٩) ومجموع الفتاوى (٢٣/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: لسان العرب (١٣/ ٢٦٨) والمفردات (٥٢٤).
(٤) الكليات للكفوي (٥٦٥).

والإقامة: أن تجعل قائمة، والشيء القائم: هو المستقيم المعتدل، فلا بد أن تكون أفعال الصلاة مستقرة معتدلة، وذلك إنما يكون بثبوت أبعاضها واستقرارها وهذا يتضمن الطمأنينة، فإن من نقر نقر الغراب لم يقم السجود ولا يتم سجوده إذا لم يثبت ولم يستقر وكذلك الراكع»[(١)].

وقال شيخ الإسلام أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]: «وهذا وعيد شديد لمن ينقر في صلاته فلا يتم ركوعه وسجوده بالاعتدال الطمأنينة»[(٢)].

وقال أيضاً: فإنه سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥].

فأخبر أنه لا يكون مؤمناً إلا من سجد إذا ذُكر بالآيات وسبح بحمد ربه، ومعلوم أن قراءة القرآن في الصلاة هي تذكير بالآيات، ولذلك وجب السجود مع ذلك، وقد أوجب خرورهم سجداً، وأوجب تسبيحهم بحمد ربهم، وذلك يقتضي وجوب التسبيح في السجود وهذا يقتضي وجوب الطمأنينة، ولهذا قال طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم: إن مقدار الطمأنينة الواجبة مقدار التسبيح الواجب عندهم[(٣)].

الركن السابع: الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير:

وجاء التصريح بالأمر بهذا الركن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

يقول ابن كثير: «والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً... وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٤٥).
(٢) المرجع السابق (٢٢/ ٥٣٥-٥٣٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٤٩) ويُنظر في نفس الجزء من صفحة (٥٢٦-٥٥٤) تقريراً طويلاً على وجوب الطمأنينة في الصلاة وأنها ركن من أركانها.

بالصلاة عليه وكيفية الصلاة عليه»[(١)].

وأصح ما ثبت في التشهد ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه ولفظه عند البخاري قال: (كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على جبريل وميكائيل، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله، والصلوات، والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم ذلك أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعوه)[(٢)].

وأكمل ما ثبت في الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد ما رواه كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت، فإن الله قد علمنا كيف نسلم؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[(٣)].

قال ابن العربي: «الصلاة على النبي ﷺ فرض في العمر مرة بلا خلاف فأما في الصلاة فقال محمد بن المواز والشافعي: إنها فرض فمن تركها بطلت صلاته، وقال سائر العلماء:هي سنة في الصلاة، والصحيح ما قاله محمد بن المواز للحديث الصحيح: أن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك؟ فعلمه الصلاة ووقتها فتعينا كيفية ووقتاً»[(٤)].

إن المصلي إذا قضى صلاته وأكملها ولم يبق له إلا الانصراف منها، شرع له الجلوس في آخرها بين يدي ربه مثنياً عليه بما هو أهله، فأفضل ما يقول العبد في جلوسه هذا التحيات التي لا تصلح إلا لله، ولا تليق بغيره.. ثم شرع له بعد هذه التحية السلام على من يستحق السلام عليه خصوصاً وعموماً، ثم شرع له أن يشهد شهادة الحق التي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٥١٦).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١، ٨٣٥) وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حدثنا موسى بن إسماعيل، رقم (٣٣٧٠).

(٤) أحكام القرآن (٣/ ١٥٨٤).

بنيت عليها الصلاة، والصلاة حق من حقوقها ولا تنفعه إلا بقرينتها وهي الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة، وختمت بها الصلاة.. فجعلت شهادة الحق خاتمة الصلاة، كما شرع أن تكون هي خاتمة الحياة.. وشرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة على النبي ﷺ فإنها من أعظم الوسائل بين الدعاء كما في السنن عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: (إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل على رسوله ثم ليسل حاجته)[1].

ثم جعل الدعاء آخر الصلاة كالختم عليها، فجاءت التحيات على ذلك، أولها حمدٌ لله والثناء عليه، ثم الصلاة على رسوله، ثم الدعاء آخر الصلاة، وأذن النبي ﷺ للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخير من المسألة ما يشاء[2].

(١) سنن أبي داود (١٤٨١) وسنن الترمذي (٣٤٧٧) ومسند أحمد (٦/١٨) وصحيح ابن حبان (١٩٦٠) وغيرهم، والحديث صحيح.

(٢) يُنظر: أسرار الصلاة (١٠٥-١١٤) باختصار وتصرف.

الفصل الخامس
واجبات الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم

عد الفقهاء ثمانية واجبات للصلاة تبطل الصلاة بتركها عمداً، وتسقط سهواً وجهلاً وتجبر بسجود السهو، وهي على النحو التالي:

الأول: جميع التكبيرات غير تكبيرة الإحرام.

الثاني: قول «سبحان ربي العظيم» في الركوع.

الثالث: قول «سمع الله لمن حمده» للإمام والمنفرد عند رفع الصلب من الركوع.

الرابع: قول «ربنا ولك الحمد» للإمام، والمنفرد، والمأموم.

الخامس: قول «سبحان ربي الأعلى» في السجود.

السادس: قول «رب اغفر لي» بين السجدتين.

السابع: التشهد الأول.

الثامن: الجلوس للتشهد الأول.

واستدل الفقهاء لهذه الواجبات بأحاديث صحيحة ثابتة عن صفة صلاة الرسول ﷺ أكثرها في الصحيحين[(١)].

والصلاة كما صلى الرسول ﷺ فيها تحقيق لمعنى إقامة الصلاة، والمحافظة عليها التي تكاثرت الآيات القرآنية في الأمر بها، وعليه فجميع هذه الواجبات مشارٌ إليها في تلك الآيات ولا يكون المصلي مقيماً للصلاة ومحافظاً عليها إلا إذا اجتهد في أن يصلي كما صلى الرسول ﷺ مقتدياً به في كل صغيرة وكبيرة من أفعال الصلاة وأقوالها وكلما اقترب من صفة صلاة الرسول ﷺ وأدعيته فيها وخشوعه كان مقيماً للصلاة حقاً.

وقد جاءت الإشارة في القرآن الكريم لبعض الواجبات وهي التسبيح في الركوع والسجود وهما الواجبان الثاني والخامس.

فعن عقبة بن عامر قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] قال لنا

(١) يُنظر: صلاة المؤمن (١/ ٢٤٩-٢٥٢).

رسول الله ﷺ: (اجعلوها في ركوعكم) فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: اجعلوها في سجودكم)[1].

---

(١) مسند أحمد (٤/ ١٥٥) وسنن أبي داود (١/ ٢٣٠) وسنن ابن ماجه (١/ ٢٨٨) وصححه الحاكم، وقال الذهبي: «إياس ليس بالمعروف» المستدرك (١/ ٢٢٥)، وصححه الألباني في الإرواء (٢/ ٤٠)، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٩٨٥).

الفصل السادس
سنن الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم

سنن الصلاة هي ما عدا الشروط والأركان والواجبات، ولا تبطل الصلاة بترك شيء منها عمداً ولا سهواً، وهي سنن أقوال وأفعال، وقد عد الفقهاء ما يقرب من أربعين سنة من هذه السنن على النحو التالي:

١- رفع اليدين حذو المنكبين أو الأذنين مع تكبيرة الإحرام، وعند الركوع، وعند الرفع منه، وعند القيام من التشهد الأول.

٢- وضع اليمنى على اليد اليسرى على الصدر.

٣- النظر إلى موضع السجود في الصلاة.

٤- دعاء الاستفتاح.

٥- التعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٦- البسملة.

٧- قول «آمين» بعد قراءة الفاتحة في الركعتين الأوليين، يجهر بها في الجهرية ويُسِرُّ في السرية.

٨- قراءة سورة بعد الفاتحة في الركعتين الأوليين، أو ما تيسر من القرآن.

٩- الجهر بالقراءة في الصلاة الجهرية.

١٠- الإسرار في الصلاة السرية.

١١- السكتة اللطيفة بعد الفراغ من القراءة كلها.

١٢- وضع اليدين مفرجتي الأصابع على الركبتين كأنه قابض عليهما.

١٣- مد الظهر حتى لو صب عليه الماء لاستقر، وجعل الرأس حيال الظهر.

١٤- مجافاة اليدين عن الجنبين في الركوع.

١٥- ما زاد على التسبيحة الواحدة في الركوع والسجود.

١٦- ما زاد على المرة الواحدة في سؤال الله المغفرة بين السجدتين.

١٧- قول «ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد» بعد قول: «ربنا لك الحمد».

١٨- وضع الركبتين قبل اليدين في السجود، ورفع اليدين قبل الركبتين في القيام.

١٩- ضم أصابع اليدين في السجود.
٢٠- تفريج أصابع الرجلين في السجود.
٢١- استقبال القبلة بأطراف أصابع اليدين والرجلين في السجود.
٢٢- مجافاة العضدين عن الجنبين في السجود.
٢٣- مجافاة البطن عن الفخذين، والفخذين عن الساقين، والتفريج بين الفخذين.
٢٤- وضع اليدين حذو المنكبين أو الأذنين في السجود، والسجود بينهما.
٢٥- ضم القدمين والعقبين ونصبهما في السجود.
٢٦- الإكثار من الدعاء في السجود.
٢٧- افتراش الرجل اليسرى ونصب اليمنى في الجلوس بين السجدتين وفي التشهد الأول.
٢٨- وضع اليد اليمنى على الفخذ اليمنى، واليسرى على اليسرى، أو وضع الكفين على الركبتين، أو وضع الكف اليمنى على الفخذ اليمنى، واليسرى على اليسرى ويلقم كفه اليسرى ركبته.
٢٩- وضع الذراعين على الفخذين في التشهد وفي الجلوس بين السجدتين.
٣٠- قبض خنصر وبنصر اليد اليمنى والتحليق بين الإبهام والوسطى، والإشارة بالسبابة وتحريكها إلى القبلة عند ذكر الله وعند الدعاء.
٣١- جلسة الاستراحة قبل القيام إلى الركعة الثانية، والركعة الرابعة.
٣٢- التورك في التشهد الثاني.
٣٣- النظر إلى السبابة عند الإشارة بها في الجلوس.
٣٤- الصلاة والتبريك على محمد وآل محمد وعلى إبراهيم وآل إبراهيم في التشهد الأول.
٣٥- الدعاء والتعوذ من أربع بعد التشهد الثاني.
٣٦- الالتفات يميناً وشمالاً في التسليمتين.
٣٧- نيته في سلامه الخروج من الصلاة، والسلام على الملائكة والحاضرين.
٣٨- قول الأذكار المشروعة بعد الصلاة ورفع الصوت بها[(١)].

واستدل الفقهاء لهذه السنن بأحاديث كثيرة ثابتة عن النبي ﷺ منها ما هو في

(١) يُنظر: صلاة المؤمن (١/ ٢٥٢-٢٥٧) باختصار.

وصف صلاته، ومنها ما هو أمر وتعليم لكيفية الصلاة.

ولا شك أن جميع هذه السنن داخل في الآيات التي فيها مدح للخاشعين في الصلاة، وذلك أن المحافظة على هذه السنن والتأسي فيها بصلاة النبي ﷺ من أهم الأسباب الموجبة للخشوع في الصلاة والإفادة منه وبالتالي تحصل الثمرات والفضائل المرجوة من الصلاة.

وقد وردت الإشارة في القرآن الكريم للسنن التالية:

١- الاستعاذة قبل القراءة وهي أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

يؤخذ من الآية أن المصلي إذا شرع في القراءة في الصلاة وغيرها أن يقدم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإنه أحرص ما يكون على خذلان العبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته، فهو أحرص شيء على صرفه عنه، وانتفاعه دونه بالبدن والقلب، فإن عجز عن اقتطاعه وتعطيله عنه بالبدن اقتطع قلبه وعطله وألقى فيه الوساوس ليشغله بذلك عن القيام بحق العبودية بين يدي الرب تبارك وتعالى، فأمر العبد بالاستعاذة بالله منه ليسلم له مقامه بين يدي ربه وليحيى قلبه ويستنير بما يتفهمه ويتدبره من كلام الله سيده، الذي هو سبب حياة قلبه ونعيمه وفلاحه، فالشيطان أحرص شيء على اقتطاع قلبه عن مقصود التلاوة. ولما علم الله سبحانه وتعالى حسد العدو للعبد وتفرغه له، وعلم عجز العبد عنه، أمره بأن يستعيذ به سبحانه، ويلتجئ إليه في صرفه عنه، فيكتفي بالاستعاذة من مؤونة محاربته ومقاومته، وكأنه قيل له: لا طاقة لك بهذا العدو فاستعذ بي، أعيذك منه، واستجر بي أجيرك منه، وأكفيكه وأمنعك منه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم: «إذا هاش عليك كلب الغنم فلا تشتغل بمحاربته ومدافعته، وعليك بالراعي فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب ويكفيكه»[(١)].

٢- النظر إلى موضع السجود.. من سنن الصلاة التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن المراد

(١) يُنظر: أسرار الصلاة (٧٤-٧٦) بتصرف.

بالخشوع هنا هو النظر إلى موضع السجود[(١)].

وقال أحمد بن حنبل: الخشوع في الصلاة أن ينظر إلى موضع سجوده[(٢)].

٣- والذكر بعد الصلاة من السنن التي انتزعها بعض الفقهاء من قوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

قال ابن قدامة رحمه الله: «ويستحب ذكر الله تعالى والدعاء عقيب صلاته ويستحب من ذلك ما ورد به الأثر»[(٣)].

---

(١) زاد المسير (٩٦٩).

(٢) منار السبيل (١/ ٩٢).

(٣) المغني (٢/ ٢٥١).

الباب السابع

أسلوب القرآن وخصائصه في حديثه عن الصلاة

وفيه تمهيد وفصلان

الفصل الأول: خصائص وأسلوب القرآن في العهد المكي.

الفصل الثاني: خصائص وأسلوب القرآن في العهد المدني.

تمهيد

تواضع المتأدبون وعلماء العربية على أن الأسلوب: هو الطريقة التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك.

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم: هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به.. والأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام، وإنما هو الطريقة التي انتهجها المتكلم في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه.. وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة، والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة، وهذا هو السر أيضاً في أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة، بل جاء كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب من هذه الناحية.. ومع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا على معرفتها، وتنافسوا في حلبتها، وبلغوا الشأو الأعلى فيها فقد أعجزهم بأسلوبه الفذ ومذهبه الكلامي المعجز[(١)].

ومن المعلوم أن ما نزل من القرآن في مكة كان يخاطب مجتمعاً فشا فيه الشرك، وانتشرت فيه الأصنام، ولم يتلق الدعوة الإسلامية بالقبول والتسليم بل أخذ يناوؤها العداء، ويضطهد أتباعها ويحارب رسولها.

وفي المدينة كان القرآن الكريم غالباً يخاطب أتباعه المؤمنين، يأمرهم فينقادون إليه، وينهاهم فينتهون عما نهى عنه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن البلاغة تقتضي ـ الاختلاف في الأسلوب والاختلاف في المعاني والموضوعات بين ما نزل في مكة وما نزل في المدينة[(٢)].

ودأب العلماء المتخصصون في التفسير الموضوعي عند دراستهم لخصائص

(١) يُنظر: مناهل العرفان للزرقاني (٢/ ١٩٨-٢٠٠) باختصار وتصرف.

(٢) يقارن مع دراسات في علوم القرآن الكريم د. فهد الرومي (١٣١).

الأسلوب القرآني لأي موضوع يطرقونه –أن يدرسوه من خلال النقاط التالية:

١- سهولة الأسلوب وقوته.

٢- الوضوح في الدلالة على المطلوب.

٣- التعبير بالأدنى على الأعلى.

٤- التصوير.

٥- التشخيص.

٦- التقديم والتأخير.

٧- مخاطبة الفطرة والعواطف.

٨- تحريك المشاعر والعواطف.

٩- تنويع الصيغ والألفاظ: صيغ إنشائية، صيغ خبرية.

١٠- تنوع الأسلوب: أسلوب الحوار، أسلوب التمثيل.

١١- سهولة الألفاظ وجزالتها.

١٢- اختيار جوامع الألفاظ.

١٣- الوفاء بمعنى الألفاظ لا يتأتى إلا ببذل الجهد.

١٤- الألفاظ قليلة المبنى كبيرة المعنى.

١٥- الألفاظ محكمة فلا يفهم منها ما يناقض المراد بها ولا يرد عليها ما يخالفها[(١)].

كما أن لعلماء القرآن الكريم القدامى والمحدثين تقريباً لخصائص أسلوب القرآن التي لا يمكن استقصاؤها والإحاطة بمزاياها على وجه الاستيعاب لأن ذلك أمراً استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب، ومن هذه الخصائص:

الأولى: مسحة القرآن اللفظية، فإنها مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي.

الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة، ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم وكذلك الخاصة.

الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة، ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب

(١) يُنظر: من معالم الهدي القرآني في بر الوالدين د. سليمان الصادق البيرة (١٠٩).

معاً ويجمع الحق والجمال معاً.

الرابعة: جودة سبك القرآن وإحكام سرده.

الخامسة: براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام، فهو يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة بمقدرة فائقة خارقة.

السادسة: جمع القرآن بين الإجمال والبيان مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس، بل كلامهم إما مجمل وإما مبين.

السابعة: قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى، ومعنى هذا أنك في كل من جمل القرآن تجد بياناً قاصداً مقدراً على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق[1].

(١) يُنظر: مناهل العرفان (٢/ ٢٠٥-٢٢٦) باختصار وتصرف، ويُنظر هناك تمثيله لكل خاصية من هذه الخصائص.

الفصل الأول
خصائص وأسلوب القرآن في حديثه عن الصلاة في العهد المكي

إن من أهم خصائص أسلوب القرآن المكي التي تواضع عليها علماء علوم القرآن الكريم هي التي أجملوها في النقاط التالية:

١- تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان برسالة محمد ﷺ، وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية وعبادة غير الله وإيراد الحجج والبراهين على ذلك.

٢- وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً، ووأد البنات وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣- الاهتمام بتفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد، ومواقف أممهم منهم، وما نزل بالمكذبين من عذاب دنيوي جزاء تكذيبهم وإيراد الحوار بين الأنبياء وخصومهم وإبطال حججهم بما يوحي إلى أهل مكة بوجوب أخذ العبرة من هؤلاء وفي هذا بسط أيضاً للعقيدة الصحيحة.

٤- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ وإيجاز العبارة بما يصخ الأذان ويشتد قرعه على المسامع ويصعق القلوب، مع بلاغة المعنى ووفائه، وذلك أن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول ﷺ في القراءة يتنادون ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

٥- التنويع في الأدلة والتفنن في الأساليب، وبيان الأوليات والمشاهدات حتى ينقاد المخاطبون إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته والإيمان بالبعث ومسؤوليته، والجزاء العادل ودقته، ثم التسليم بالوحي وبكل ما جاء به الوحي من هدي الله.

٦- سلك سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد، وأن يقدم الأهم على المهم(١).

وسأحاول في هذا الفصل النظر في الآيات المكية الواردة بلفظ الصلاة ومحاولة استخلاص ما فيها من خصائص أسلوب القرآن المكي التي تواضع عليها العلماء.

(١) يُنظر: مناهل العرفان (١/ ١٩٥، ١٩٧) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (٦٣) ودراسات في علوم القرآن الكريم (١٣١-١٣٢) باختصار وتصرف، ويقارن.

أولاً: تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده:

أ- إن أظهر ما يدل على هذه الخصيصة هي ثلاث آيات وردت في سورة مكية واحدة هي سورة الأنعام، والآيات هي:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

٣- وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

سورة الأنعام من القرآن المكي الذي ظل يتنزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً كاملة يحدثه عن قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر، ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى.. إنها قضية العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئيسة الإلاهية والعبودية، وما بينهما من علاقة.

إنها قضية «الإنسان» التي لا تتغير لأنها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء، وهي قضية لا تتغير لأنها قضية الوجود والإنسان.. إن القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده، ووجود هذا الكون من حوله.. يقول له: من هو؟ ومن أين جاء، وكيف جاء، ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ ويقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوزه؟ ويقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضاً، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد؟[(١)].

وأول آية جاء فيها ذكر الصلاة في هذه السورة هي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢] جاءت بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَٰطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٠٤) باختصار.

ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ [الأنعام: ٧١].

وفي هذه الآية أمر للرسول ﷺ أن يقول للمشركين بالله الداعين معه غيره: إن كل من عُبد من دون الله فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.. ثم ختم الآية بأن أمره أن يقول: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله ﷺ وما عداه فهو ضلال وردى وهلاك.. وأننا أمرنا بأن ننقاد إلى توحيد الله ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد وأكمل تربية أوصلها إليهم.. ثم جاء قوله تعالى: وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ... أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها، وأن نتقي الله بفعل ما أمر به واجتناب ما عنه نهى لأن الله هو الذي نجمع له يوم القيامة فيجازينا بأعمالنا خيرها وشرها[1].

وفي إعلان الرسول ﷺ والمسلمين معه أنهم أمروا بالاستسلام فاستسلموا إيحاء مؤثر لمن يفتح الله قلبه للتلقي والاستجابة على مدى الزمان، وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجيء التكاليف التعبدية والشعورية: وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ فالأصل هو الاستسلام لربوبية رب العالمين وسلطانه وتربيته وتقويمه، ثم تجيء العبادات الشعائرية وتجيء الرياضات النفسية.. لتقوم على قاعدة ا لاستسلام.. فإنها لا تقوم إلا إذا رسخت هذه القاعدة ليقوم عليها البناء، وفي ختم الآية بقوله: وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ثم قوله سبحانه بعدها: وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ [الأنعام: ٧٣].

يحشد السياق المؤثرات من الحقائق الأساسية في العقيدة: حقيقة الحشر، وحقيقة الخلق، وحقيقة السلطان، وحقيقة العلم بالغيب والشهادة، وحقيقة الحكمة والخبرة من خصائص الألوهية، التي هي الموضوع الرئيس في هذه السورة.. إن الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب.. فهو الذي إليه تحشر الخلائق فأولى لهم أن يقدموا بين يدي

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٢٣) بتصرف.

الحشر -الحتمي- ما ينجيهم، وأولى لهم أن يستسلموا اليوم له استسلام العالمين، قبل أن يقفوا أمامه مسؤولين.. وكذلك يصبح تصور هذه الحقيقة -حقيقة الحشر- موحياً بالاستسلام في المبدأ ما دام أنه لا مفر من الاستسلام في المصير![1].

والموضع الثاني من سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

جاءت هذه الآية في وسط آيات من أول قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

إلى آخر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهذه الآيات العشرون بطولها لحمة واحدة تتناول موضوعاً متصل الفقرات وهي تعالج الموضوع الأساسي في السورة وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وما بينهما من ارتباطات.. تعالجه في أسلوب القصص والتعقيب عليه مع استصحاب المؤثرات الموحية التي تزخر بها السورة.. والآيات في جملتها تعرض موكب الإيمان الموصول منذ نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ.. وفي الختام يجيء مشهد الاحتضار المكروب للمشركين، وهو مشهد كئيب مكروب رعيب، يجلله الهوان ويصاحبه التنديد والتأنيب جزاء الاستكبار والإعراض والافتراء والتكذيب.

وفي وسط هذه الآيات جاء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] ليؤكد ويقرر بأن الذين يؤمنون بأن هناك آخرة وحساباً وجزاءً، يؤمنون بأن الله لا بد مرسل للناس رسولاً يوحى إليه ولا يجدون في نفوسهم مشقة في التصديق به، بل إنهم ليجدون داعياً يدعوهم إلى هذا التصديق.

كما أنهم لإيمانهم بالآخرة وبهذا الكتاب يحافظون على صلاتهم، ليكونوا على صلة دائمة وثيقة بالله، وليقوموا بطاعته ممثلة في الصلاة.. فهي طبيعة نفس متى صدّقت

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١١٣٣-١١٣٤) باختصار وتصرف.

بالآخرة، واستيقنتها، صدقت بهذا الكتاب وتنزيله وحرصت على الصلة بـالله وطاعتـه، وملاحظة نماذج النفوس البشرية تصدق في الواقع الصادق بذاته[(١)].

أما الآية الثالثة من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فقد جاءت ثاني خمس آيات ختمت بها السورة، وهي تسبيحة ندية رخية في إيقاع حبيب إلى النفس قريب، وفي تقرير كذلك حاسم فاصل.. ويتكرر الإيقاع الموحي في كل آية «قل»...«قل».. «قل» ويلمس في كل آية أعماق القلب البشري لمسات دقيقة عميقة في مكان التوحيد.. توحيد الصراط والملة، توحيد المتجه والحركة -توحيد الإله والرب، توحيد العبودية والعبادة، مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسننه ومقوماته.. جاءت الآيات فيها إعلان يوحي بالشكر، ويشي بالثقة، ويفيض باليقين.. اليقين في بناء العبادة اللفظي ودلالتها المعنوية، والثقة بالصلة الهادية صلة الربوبية الموجهة المهيمنة الراعية.. والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم الذي لا التواء فيه ولا عوج إلى دين الله القويم منذ إبراهيم أبي هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب عليه السلام.

وتوحي الآية بالتجرد الكامل لله، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة بالصلاة والاعتكاف، وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبدية، وبالحياة الواقعية، وبالممات وما وراءه.. إنها تسبيحة «التوحيد» المطلق والعبودية الكاملة تجمع الصلاة مع المحيا والممات وتخلصها لله وحده ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ القوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم للعالمين.. في «إسلام» كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبِّدها لله، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في الواقع.. ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ فسمعت وأطعت: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[(٢)].

ب- **ومما يدل على هذه الخصيصة** آية في سورة الروم المكية بالاتفاق التي من أهم أغراضها تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني، ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة

(١) يقارن مع في ظلال القرآن (٢/ ١١٣٧-١١٤٨) بتصرف كبير.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٤٠-١٢٤١) بتصرف.

الثانية ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله، وفي السورة أيضاً ذكر للبعث واستدلال لوحدانية الله تعالى بدلائل من آيات الله في تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان، وفيها حث للنبي ﷺ والمسلمين على التمسك بهذا الدين.. ومن أعظم ما اشتملت عليه التصريح بأن الإسلام دين فطر الله الناس عليه وأن من ابتغى غيره ديناً فقد حاول تبديل ما خلق الله وأنى له ذلك[(١)].

والآية المقصودة من السورة مرتبطة بالآية قبلها وبعدها من قوله تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

الخطاب للنبي ﷺ والمراد معه جميع المؤمنين: والمراد أنه إذا تبين الأمر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك للدين وأقبل بكلك على الدين مائلاً عن كل ما عداه فلا يكون في قلبك شيء آخر فتعود إليه، والزم فطرة الله وهي التوحيد فإن الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقالوا: بلى، وفي قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ تسلية للنبي ﷺ عن الحزن حيث لم يؤمن قومه.. وفيها دليل على أن الوحدانية مترسخة فيهم لا تغيير لها حتى إن سألتهم من خلق السماوات والأرض يقولون الله.. وهذا هو الدين القيم الذي لا عوج فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك هو الدين المستقيم.

ثم قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

يعني: إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا وتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة.. وفي قوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ أثبت التوحيد الذي هو مخرج عن الإشراك الظاهر ويكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أراد به إخراج العبد عن الشرك الخفي أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فإن الدنيا والآخرة تحصل وإن لم تطلبوها إذا حصل

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٤٠).

رضا الله[(١)].

ثانياً: جاء الاهتمام بالصلاة وذكر مشروعيتها وفرضها من خلال تفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد ومواقف أممهم منهم:

ويدل على هذه الخصيصة آيات كثيرة وفي سور مكية عدة.

أ- ففي سورة مريم: التي كان القصص مادة هذه السورة فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى فقصة مريم ومولد عيسى، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه.. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسى وهارون، وإسماعيل وإدريس، وآدم ونوح عليهم الصلاة والسلام، ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة، ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث ونفي الولد والشريك، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من اتباع النبيين ومن ثم بعض مشاهد القيامة، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث.

وجاء ذكر الصلاة في هذه السورة في ثلاث مواضع:

١- في قول عيسى عندما تكلم في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

٢- وفي قوله سبحانه عن إسماعيل: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

٣- وفي قوله سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

__في الموضع الأول__ ذكر الله في قصة عيسى عليه السلام أن الله كلفه بالصلاة ونطق بهذا التكليف وهو في المهد، وذلك أن معنى «أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد»[(٢)].

والوصاية هي الأمر المؤكد بعمل مستقبل، أي قدّر وصيتي بالصلاة والزكاة، أي أن يأمرني بهما أمراً مؤكداً مستمراً، فاستعمال صيغة المضي ـ «أوصاني» مثل استعمالها في قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ .. وهذا أمر خاص به عليه السلام كما أمر نبينا ﷺ بقيام الليل،

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٦٩-٤٧١) باختصار وتصرف.

(٢) الكشاف (٦٣٦).

وقرينة الخصوص قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ لدلالته على استغراق مدة حياته بإيقاع الصلاة والصدقة أي أن يصلي ويتصدق في أوقات التمكن من ذلك .. وهذا الاستغراق المستفاد من قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ استغراق عُرفي مراد به الكثرة[(١)].

أما الموضع الثاني وهو عن ابن الخليل وجد الخليل وهو إسماعيل عليهم الصلاة والسلام حيث ذكر الله أن من أعظم صفاته مع صدق الوعد أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وخص إسماعيل بالذكر في هذه السورة تنبيهاً على جدارته بالاستقلال بالذكر عقب ذكر إبراهيم وابنه إسحاق، لأن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم وشريكه في بناء الكعبة، وخصه بوصف صدق الوعد لأنه اشتهر به وتركه خلقاً في ذريته، وأعظم وعد صدقه وعده أباه إبراهيم بأن يجده صابراً على الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وجعله الله نبياً ورسولاً إلى قومه، وهم يومئذ لا يعدون أهله أمه، وبنيه وأصهاره من جرهم فلذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ ثم إن أمة العرب نشأت من ذريته فهم أهله أيضاً، وقد كان من شريعته الصلاة والزكاة وشؤون ملة أبيه إبراهيم عليهما السلام[(٢)].

أما ثالث المواضع من هذه السورة الكريمة وهو قوله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وهذه الآية جاءت بعد الثناء على جملة الأنبياء والرسل الذين قص الله خبرهم من أول السورة إلى هذا الموضع.. وهي فرع على الثناء عليهم اعتبار وتنديد بطائفة من ذرياتهم لم يقتدوا بصالح أسلافهم وهم المعني بالخلف، وهو هنا يشمل جميع الأمم التي ضلت لأنها راجعة في النسب إلى إدريس جد نوح، إذ هم من ذرية نوح، ومن يرجع أيضاً إلى إبراهيم فمنهم من يدلي إليه من نسل إسماعيل وهم العرب، ومنهم من يدلي إليه من نسل يعقوب وهم بنو إسرائيل.

ولفظ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ يشمل طبقات وقروناً كثيرة، ليس قيداً لأن الخلف لا يكون إلا من بعد أصله، وإنما ذكر لاستحضار ذهاب الصالحين.

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٩٩-١٠٠) باختصار وتصرف.

(٢) يقارن مع التحرير والتنوير (١٦/ ١٢٩).

والإضاعة: فيها معنى التفريط بتشبيهه بإهمال العرض النفيس، حيث فرطوا في عبادة الله تعالى واتبعوا شهواتهم فلم يخالفوا ما تميل إليه أنفسهم مما هو فساد.

والمقصود بالصلاة: عبادة الله وحده، وهذان وصفان جامعان لأصناف الكفر والفسوق، **فالشرك**: إضاعة للصلاة لأنه انصراف عن الخضوع لله تعالى، فالمشركون أضاعوا الصلاة تماماً قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣].

والشرك: اتباع للشهوات، لأن المشركين اتبعوا عبادة الأصنام لمجرد الشهوة من غير دليل، وهؤلاء هم المقصود هنا، وغير المشركين كاليهود والنصارى فرطوا في صلوات واتبعوا شهوات ابتدعوها، ويشمل ذلك كله اسم الغي، وحرف «سوف» دال على أن لقاءهم الغي متكرر في أزمنة المستقبل مبالغة في وعيدهم وتحذيراً لهم من الإصرار على ذلك[1].

ب- **وفي سورة طه** التي بسط الله فيها نشأة موسى عليه السلام وتأييده له بالنصر على فرعون بالحجة والمعجزات، وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه، وإنجاء الله موسى وقومه، وغرق فرعون، وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط، وقصة السامري وصنعه العجل الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى عليه السلام.. في هذه السورة جاء قوله تعالى لكليمه:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

حيث وقع الإخبار عن ضمير المتكلم باسمه العلم الدال على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد، وذلك أول ما يجب علمه من شؤون الإلهية، وهو أن يعلم الاسم الذي جعله الله علماً عليه لأن ذلك هو الأصل لجميع ما سيخاطب به من الأحكام المبلغة عن ربهم.. وتأكيد الجملة بحرف التأكيد لدفع الشك عن موسى، نزل منزلة الشاك لأن غرابة الخبر تعرض السامع للشك فيه.

وتوسيط ضمير الفصل بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ لزيادة تقوية الخبر، وليس بمفيد للقصر إذ لا مقتضى له هنا لأن المقصود الإخبار بأن المتكلم هو المسمى الله، فالحمل حمل مواطأة لا حمل اشتقاق.

ثم فرع على ذلك الأمر بعبادته، والعبادة تجمع معنى العمل الدال على التعظيم من

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣٥).

قول وفعل وإخلاص بالقلب، ووجه التفريع أن انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يُعبد.

وخص من العبادات بالذكر إقامة الصلاة لأن الصلاة تجمع أحوال العبادة، وإقامة الصلاة: إدامتها، أي عدم الغفلة عنها.

واللام في ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل أن تذكرني، لأن الصلاة تذكر العبد بخالقه، إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته، وفي هذا الكلام إيماء إلى حكمة مشروعية الصلاة وبضميمته إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يظهر أن التقوى من حكمة مشروعية الصلاة لأن المكلف إذا ذكر أمر الله ونهيه فعل ما أمره واجتنب ما نهاه عنه والله عرف موسى حكمة الصلاة مجملة وعرفها محمداً ﷺ مفصلة.

ويجوز أن يكون اللام أيضاً للتوقيت: أي أقم الصلاة عند الوقت الذي جعلته لذكري، ويجوز أن يكون الذكر الذكر اللساني لأن ذكر اللسان يحرك ذكر القلب ويشتمل على الثناء على الله والاعتراف بما له من الحق.. ففي الكلام إيماء إلى ما في أوقات الصلاة من الحكمة(١).

كما جاء في آخر سورة طه قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ بقوله:

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وسورة طه كما هو معلوم نزلت قبل سورة الإسراء التي فرض الله فيها الصلوات الخمس، والله يقول لنبيه ﷺ: «وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة فإن رزقك مكفي من عندنا ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرغ قلبك لأمر الآخرة»(٢).

وقد جاءت هذه الآية في سياق آيات فيها وعيد لكفار قريش وغفلتهم عما حل بالأمم المماثلة لهم في الإشراك والإعراض عن كتب الله وآيات الرسل، وكيف أن الله أهلك تلك القرون ولم يأخذوا العبرة من ذلك، وهم جديرون بأن يحل بهم مثل ما حل

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٩٩-٢٠١) باختصار وتصرف.
(٢) الكشاف (٦٧١).

بأولئك.. ثم أمر الله رسوله بالصبر عليهم وأن يقبل على مزاولة تزكية نفسه وتزكية أهله بالصلاة، والإعراض عما متع الله الكفار برفاهية العيش، ووعده بأن العاقبة للمتقين، ثم أعقب أمره بالصبر على ما يقولونه بنهيه عن الإعجاب بما يتنعم به من تنعم من المشركين بأموال وبنين في حين كفرهم بالله بأن ذلك لحِكم يعلمها الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٨-١٣١].

وجاء بعد الآية التي معنا وهي التي أمر فيها الرسول ﷺ بأن يقبل هو وأهله على الصلاة ويستعينوا بها على خصاصتهم قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٣-١٣٥].

والآيات تحكي قول المكذبين للرسول ﷺ واقتراحهم الآيات تعنتاً منهم وعناداً وظلماً مع أن الرسول ﷺ جاءهم بالمعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضها المقصود ولا سيما هذا القرآن العظيم المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، المطابق لها، المخبر بما أخبرت به.

جـ- و **في سورة يونس التي ذكر الله فيها طرفاً** من قصة نوح مع قومه ثم أتبع ذلك طرفاً من قصة موسى مع فرعون وملئه.. وسياق الآيات(١) فيه تكليف للنبي ﷺ أن يقص على قومه نبأ نوح فيما يختص بتحديه لقومه ثم ما كان من نجاته ومن آمنوا معه واستخلافهم في الأرض، وهلاك المكذبين وهم أقوى وأكثر عدداً.. والقصص في القرآن يجيء في السياق ليؤدي وظيفة فيه، ويتكرر في المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع

(١) سورة يونس من الآية (٧١-١٠٣).

مواضعه من السياق، والحلقات التي تعرض منه في موضع تفي بحاجة ذلك الموضع، وقد يعرض غيرها من القصة الواحدة في موضع آخر، لأن هذا الموضع تناسبه حلقة أخرى من القصة[1].

وقد عرض الله جل وعلا حلقة من قصة موسى مع قومه في هذه السورة وكانت طريقة العرض مناسبة لموقف المشركين في مكة من النبي ﷺ والقلة المؤمنة معه واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها في وجه الكثرة والقوة والسلطان.. وجاء في ثنايا القصة قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

تشير الآية إلى أن الله أوحى إلى موسى وأخيه هارون أن يتخذا لبني إسرائيل بيوتاً خاصة بهم، وذلك لفرزهم وتنظيمهم استعداداً للرحيل من مصر في الوقت المختار، وكلفهم بتطهير بيوتهم، وتزكية نفوسهم، والاستبشار بنصر الله.

وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات، ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة.. وهذه التجربة التي عرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ليست خاصة ببني إسرائيل فهي تجربة إيمانية خالصة وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم في زمن قد عمت الفتنة، وتجبر الطاغوت، وفسد الناس، وأنتنت البيئة، كما كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة.. فيأخذوا في هذه الحال بالأمور والإرشادات التي يمكن أخذها من الآية وهي:

١- اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها، وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة، النظيفة على نفسها لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها حتى يأتي وعد الله لها.

٢- اتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد، تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٨١٠) باختصار وتصرف.

العبادة الطهور(١).

د- وفي سورة الأنبياء التي ذكر فيها أسماء ستة عشر نبياً ومريم عليهم السلام، وهي مكية بالاتفاق.. ولها أغراض كثيرة، من أهمها: التحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله ﷺ، والتذكير بأن هذا الرسول ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله، والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين.. والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع ولا يضرهم تأخيره.. إلى آخر ما اشتملت عليه من الأغراض(٢).

في هذه السورة جاء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

جاءت هذه الآية بعد أن ذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه في أكثر من عشرين آية، وذكر الله بعدها قصة لوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريا، ومريم عليهم السلام جميعاً فيما يقرب من عشرين آية أيضاً.

وفي هذه الآية أعاد الله فعل «جعل» في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً ....﴾ دون أن يقال وأئمة يهدون بعطف «أئمة» على «صالحين» في الآية قبلها وذلك اهتماماً بهذا الجعل الشريف، وهو جعلهم هادين للناس بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم فأعيد الفعل ليكون له مزيد استقرار.. وفي تلك الإعادة من الاعتناء ما في الإظهار في مقام الإضمار كما يظهر بالذوق.

والأئمة: جمع إمام وهو القدوة والذي يُعمل كعمله، وأصل الإمام المثال الذي يصنع الشيء على صورته في الخير أو الشر.

وهؤلاء الأئمة أئمة هدى ورشاد يدعون إلى تزكية النفوس وإصلاحها وبث الإيمان ويشمل هذا شؤون الإيمان وشعبه وآدابه.. وكذا إقامة شرائع الدين بين الناس من العبادات والمعاملات وقد شملها قوله تعالى: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٨١٦) بتصرف.
(٢) تُنظر مفصلة في: التحرير والتنوير (١٧/ ٦-٨).

وفي تخصيص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنها لأن بالصلاة صلاح النفس، وبالزكاة صلاح المجتمع، وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام.

ثم خصهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى كما دل عليه فعل الكون المفيد تمكن الوصف، ودلت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبة النبوة من العصمة[(١)].

هـ- **وفي سورة هود وهي مكية كلها عند الجمهور،** والتي من أهم أغراضها التنويه بالقرآن والتحدي لمعارضته، وبالنهي عن عبادة غير الله، كما فيها بيان أن الرسول ﷺ نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم، وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمى.. وفيها تثبيت له ﷺ وتسلية عما يقوله المشركون ويقترحونه من آيات على وفق هواهم.. وفي السورة ضرب الله مثلاً لفريقي المؤمنين والمشركين، وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حل بهم، وعاد، وثمود، وإبراهيم، وقوم لوط، ومدين، ورسالة موسى.. وفي ذكر اختلاف قوم موسى في الكتاب الذي أوتيه تسلية للنبي ﷺ فما على الرسول وأتباعه إلا أن يستقيموا فيما أمرهم الله وأن لا يركنوا إلى المشركين وأن عليهم بالصبر والصلاة والمضي في الدعوة إلى الصلاح فإنه لا هلاك مع الصلاح، وقد تخلل ذلك كله عظات وعبر والأمر بإقامة الصلاة[(٢)].

أما الآيات التي وردت في هذه السورة فهي:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

ففي الآية الأولى دليل على أن الصلاة عماد الأديان كلها، وكان المكذبون الملحدون قد تمالؤوا في كل أمة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها.. فلما كانت الصلاة أخص أعماله المخالفة لمعتادهم جعلوها المشيرة عليه بما بلغه إليهم من أمور مخالفة

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٦-١١) باختصار وتصرف.

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٣١٢-٣١٣) باختصار.

لمعتادهم -بناء على التناسب بين السبب والمسبب في مخالفة المعتاد- قصداً للتهكم به والسخرية عليه تكذيباً له فيما جاءهم به، فإسناد الأمر إلى الصلوات غير حقيقي إذ قد علم كل العقلاء أن الأفعال لا تأمر، والمعنى أن صلاته تأمره بأنهم يتركون، أي تأمره بأن يحملهم على ترك ما يعبد آباؤهم[(١)].

أما الآية الثانية: فهي خطاب للنبي ﷺ وهذا الخطاب يتناول جميع الأمة بقرينة أن المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعينة للصلوات الخمس.. والمقصود أن تكون الصلاة أول أعمال المسلم إذا أصبح وهي صلاة الصبح وآخر أعماله إذا أمسى وهي صلاة العشاء لتكون السيئات الحاصلة فيما بين ذلك ممحوة بالحسنات الحافة بها.

وجملة ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلوات وتأكيد الجملة بحرف «إن» للاهتمام وتحقيق الخبر و«إن» فيه مفيدة معنى التعليل والتفريع.. وإذهاب السيئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها، ويشمل أيضاً محو إثمها إذا وقعت ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها فضلاً من الله على عباده الصالحين.

والظاهر أن المروي في سبب نزول هذه الآية هو الذي حمل ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة على القول بأن هذه الآية مدنية دون بقية هذه السورة لأنه وقع عند البخاري والترمذي قوله فأنزلت عليه[(٢)] فإن كان كذلك كما ذكره الراوي فهذه الآية ألحقت بهذه السورة في هذا المكان لمناسبة وقوع قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ قبلها، وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بعدها.

وأما الذين رجحوا أن السورة كلها مكية فقالوا: إن الآية نزلت في الأمر بإقامة الصلوات وإن النبي ﷺ أخبر بها الذي سأله عن القُبلة الحرام وقد جاء تائباً ليعلمه

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٤١).

(٢) وذلك فيما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة حرام فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، رقم (٥٢٦).

وروى الترمذي عن ابن مسعود قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها..) إلى آخره، أخرجه الترمذي وقال: «حديث حسن صحيح». سنن الترمذي، رقم (٣١١٢).

بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فيؤول قول الراوي: فأنزلت عليه، أنه أنزل عليه شمول عموم الحسنات والسيئات لقضية السائل ولجميع ما يماثلها من إصابة الذنوب غير الفواحش، ويؤيد ذلك ما في رواية الترمذي عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قوله: فتلا عليه رسول الله ﷺ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقولا: فأنزل عليه[1]، وعد الزركشي في البرهان هذه الآية مما يشبه تنزيل المدنية في السور المكية[2] ولعل هذا هو الصواب، والله أعلم.

ثالثاً: وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع:

يدل على هذه الخصيصة آيات عدة:

١- قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، جاءت هذه الآيات في سورة الأعلى ثامن السور المكية التي كان يحبها النبي ﷺ كما جاء عن الإمام علي بن أبي طالب[3] وحق لرسول الله ﷺ أن يحب هذه السورة وهي تحيل له الكون كله معبداً تتجاوب أرجاؤه بتسبيح ربه الأعلى وتمجيده، ومعرضاً يحفل بموحيات التسبيح والتحميد.. وحق له أن يحبها وهي تحمل له من البشريات أمراً عظيماً، وتتضمن الثابت من قواعد التصور الإيماني: من توحيد الرب الخالق وإثبات الوحي الإلهي وتقرير الجزاء في الآخرة.

إن الآيات تقرر أصلاً عظيماً وأساساً متيناً: إن النجاة والفلاح مع التطهر والتذكر، إن من تزكى فقد تطهر من كل رجس ودنس، والله سبحانه يُقرر أن هذا الذي تطهر وذكر اسم ربه فاستحضر في قلبه جلاله ﴿فَصَلَّىٰ﴾ وسواء قلنا: إن معنى الصلاة هنا هو المعنى الاصطلاحي، أو المقصود هو الخشوع والقنوت، فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله في القلب والشعور بمهابته في الضمير.. هذا الذي تطهر وذكر وصلى قد أفلح يقيناً، أفلح في دنياه فعاش موصولاً، حي القلب شاعراً بحلاوة الذكر وإيناسه وأفلح في أخراه فنجا من النار الكبرى، وفاز بالنعيم والرضى[4].

---

(١) يقارن مع التحرير والتنوير (١٢/ ١٧٨-١٨١) بتصرف واختصار.

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٩٦).

(٣) مسند أحمد (٢/ ١٤٢) رقم (٧٤٢) والبزار (٧٧٥، ٧٧٦) وقال محققوا المسند: إسناده ضعيف، ويُنظر: الدر المنثور (١٥/ ٣٥٨).

(٤) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٨٢-٣٨٩٤) بتصرف كبير.

إن التزكي والتطهر بالذكر والصلاة أول الطريق إلى الوصول إلى الفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع.

٢- وفي سورة «المؤمنون» التي مقصودها اختصاص المؤمنين بالفلاح واسمها واضح الدلالة على ذلك بدأها الله بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

وهذه السورة نزلت بعد سورة الإسراء بعدة سور، ولا شك أن الخشوع في الصلاة يثمر تهذيب الأخلاق والتمسك بالفضائل فيصدهم عن اللغو، وهو: كل ما لا يعنيهم وكل ما يستحق أن يُسقط ويلغى فيتركونه عمداً فصاروا جامعين بين فعل ما يعني وترك ما لا يعني(١).

وبتتبع بقية الصفات التي وصف الله بها المؤمنين في هذه السورة الكريمة نجد أنها جمعت كثيراً من الأخلاق التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي القويم.

٣- **وفي سورة الكوثر** التي تمثل صورة من حياة الدعوة وحياة الداعية في أول العهد بمكة، صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ ودعوة الله التي يبشر بها، وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده، وللقلة المؤمنة معه ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه جاء قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

بعد توكيد عطاء الله الكثير الفائض الكثرة لنبيه ﷺ، على غير ما أرجف المرجفون وقال الكائدون، وُجه الرسول ﷺ إلى شكر النعمة بحقها الأول، حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة والإتجاه.. في الصلاة وفي ذبح النسك خالصاً لله غير ملق بالاً إلى شرك المشركين وغير مشارك لهم في عبادتهم أو في ذكر غير اسم الله على ذبائحهم.

وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح، وتحريم ما أهل به لغير الله وما لم يذكر اسم الله عليه.. ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره، لا تخليص التصور والضمير وحدهما، فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها، وكل ظل من ظلالها، كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره، وفي كل مكامنه، ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣/ ١٠٦) باختصار.

في الضمير أم ظهر في العبادة أم تسرب إلى تقاليد الحياة، فالحياة وحدة واحدة ما ظهر منها وما بطن والإسلام يأخذها كلاً لا يتجزأ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعاً، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة[(١)].

٤- وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣، لقمان: ٤].

جاءت هذه الآية بهذا النص في سورتين مكيتين هما النمل وهي مكية قديمة وفي سورة لقمان التي نزلت بعد سورة الإسراء بعدة سور.

وفي هذه الآية يقول ابن عطية: «وصف تعالى المؤمنين بالأوصاف الخليقة بهم، وإقامة الصلاة إدامتها على وجهها و«الزكاة» يحتمل هنا أن تكون غير المفروضة لأن السورة مكية قديمة[(٢)] ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير، وقيل: الزكاة هنا: بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق»[(٣)].

والفرق بين سياق الآيتين في سورتيهما: أن آية سورة النمل جاءت وصفاً للمؤمنين، وآية سورة لقمان جاءت وصفاً للمحسنين، آية النمل جاء قبلها ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وآية لقمان قبلها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله في كلتا الآيتين: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تتمة الصلة، والواو للحال أو للعطف، وتغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم الأوحدون فيه، أو جملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فإن تحمل المشاق إنما يكون لخوف العاقبة والوثوق على المحاسبة، وتكرير الضمير للاختصاص[(٤)].

ولم يرد في القرآن المكي وصف للمؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة إلا في هاتين الآيتين.. ولعل هذا هو الذي دعا الحسن البصري رحمه الله لأن يقول إنها

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٨٧-٣٩٨٨) باختصار وتصرف.
(٢) يقصد سورة النمل.
(٣) المحرر الوجيز (١٤١٢).
(٤) تفسير البيضاوي (٢/ ٧٦٣) ويُنظر مفاتيح الغيب (١٢/ ١٨٤).

مدنية[1].

والذي يظهر -والله أعلم- أن هذا يدخل في النوع الذي عده علماء علوم القرآن مما نزل بمكة وهو شبيه بما نزل بالمدينة[2].

٥- **وفي سورة العنكبوت المكية** كلها في قول الجمهور، وهي من أواخر ما نزل بمكة، وأول أغراضها: تثبيت المسلمين الذين فتنهم المشركون وصدوهم عن الإسلام أو عن الهجرة مع من هاجروا، ووعد الله بنصر المؤمنين وخذل أهل الشرك وأنصارهم من أهل الكتاب، والأمر بمجافاة المشركين والابتعاد منهم ولو كانوا أقرب القرابة، ووجوب صبر المؤمنين على أذى المشركين.. ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.. وأمر النبي ﷺ بالثبات على إبلاغ القرآن وشرائع الإسلام، والتأسي في ذلك بأحوال الأمم التي جاءتها الرسل.. والتذكير بنعم الله وإثبات الجزاء على الأعمال[3].

والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام.. فهي تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة، وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس: فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف.. وتختم السورة بتمجيد المجاهدين في الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].. فيلتئم الختام مع المطلع وتتضح حكمة السياق في السورة وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام حول محورها الأول وموضوعها الأصيل[4].

في هذه السورة جاء قوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

جاءت هذه الآية بعد آيات[5] ضرب الله للناس فيها المثل بالأمم السالفة وجاء

---

(١) زاد المسير (١٠٩٩).

(٢) يُنظر كلام أبي القاسم الحسن بمحمد بن حبيب النيسابوري، نقله عنه الزركشي في البرهان (١/ ١٩٢) حيث عد خمسة وعشرين وجهاً من أشرف علوم القرآن في معرفة المكي والمدني ومنها هذا الوجه.

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٠٠-٢٠١).

(٤) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧١٨) باختصار.

(٥) من الآية (١٤-٤٤) من سورة العنكبوت.

بالحجة المبينة فساد معتقد المشركين ونوه بصحة عقائد المؤمنين بمنتهى البيان الذي ليس وراءه مطلب.. أقبل على رسوله ﷺ بالخطاب الذي يزيد تثبيته على نشر الدعوة وملازمة الشرائع وإعلان كلمة الله بذلك وما فيه زيادة صلاح المؤمنين الذين انتفعوا بدلائل الوحدانية، وما الرسول ﷺ إلا قدوة للمؤمنين وسيدهم فأمرُه أمرٌ لهم كما دل عليه التذييل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ بصيغة جمع المخاطبين.. فأمره بتلاوة القرآن إذ ما فرط فيه من شيء من الإرشاد.

- وحذف متعلق فعل «اتل» ليعم التلاوة على المسلمين وعلى المشركين.

- وأمره بإقامة الصلاة لأن الصلاة عمل عظيم وهذا الأمر يشمل الأمة، وعلل الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ فموقع «إن» هنا موقع فاء التعليل ولا شك أن هذا التعليل موجه إلى الأمة لأن النبي ﷺ معصوم من الفحشاء والمنكر فاقتصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة دون تعليل الأمر بتلاوة القرآن لما في هذا الصلاح الذي جعله الله في الصلاة من سر إلهي لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشاد منه تعالى، فأخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والمقصود أنها تنهى المصلي.

والآية مسوقة للتنويه بالصلاة وبيان مزيتها في الدين وأنها تحذر من الفحشاء والمنكر تحذيراً هو من خصائصها(١).

إن أهم قاعدة شرعية وفضيلة خلقية تقررها الآية: أن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يديه، وأن قلبه وإخلاصه مطَّلع عليه مرقوب، صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تبارك وتعالى، فاطردت لذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر ولا يكد يفتُر من ذلك حتى تظلله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله، وهذا معنى الإخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

- كما أنها تقرر أن ذكر الله أكبر على الإطلاق أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة لأن

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٧-٢٦٠) باختصار وتصرف.

الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله مراقب له[1].

رابعاً: التنديد بأفعال المشركين وفضح جرائمهم ومواقفهم من الصلاة وأهلها وبيان جزائهم في الآخرة:

(١) في المقطع الثالث من سورة العلق التي كان صدرها أول ما نزل من القرآن[2]، أما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد فهي تشير إلى مواقف وحوادث في السيرة لم تجيء إلا متأخرة، بعد تكليف الرسول ﷺ إبلاغ الدعوة، والجهر بالعبادة وقيام المشركين بالمعارضة وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في السورة: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠] ولكن هناك تناسقاً كاملاً بين أجزاء السورة، وتسلسلاً في ترتيب الحقائق التي تضمنها بعد هذا المطلع المتقدم يجعل من السورة كلها وحدة متسقة متماسكة[3].

وهذا المقطع الذي معنا -أعني- من قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ٩-١٤] أكثر المفسرين على أن المراد هنا هو أبو جهل وذكروا ما كان منه من التوعد للرسول ﷺ حين رآه يصلي[4].

والآيات خطاب مع الرسول ﷺ على سبيل التعجب ووجه التعجب فيه أمور:

أحدها: إنه عليه السلام قال: اللهم أعز الإسلام إما بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فكأنه تعالى قال له: كنت تظن أنه يعز به الإسلام وهو ﴿يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

ثانيها: إنه كان يلقب بأبي الحكم فكأنه تعالى يقول: كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه، أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان.

وثالثها: إن ذلك الأحمق يأمر وينهى، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته، مع أنه ليس بخالق ولا رب، ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق، ألا يكون هذا غاية الحماقة.

---

(١) المحرر الوجيز (١٤٦٤-١٤٦٥) باختصار وتصرف.

(٢) الآيات الخمس الأولى من السورة.

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٨) باختصار وتصرف.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢٠١١) وزاد المسير (١٥٦٨) وغيرهما كثير.

ثم إنه تعالى قال: ﴿يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا﴾ ولم يقل ينهاك وفيه فوائد:

أحدها: إن التنكير في ﴿عَبْدًا﴾ يدل على كونه كاملاً في العبودية، كأنه يقول إنه عبد لا يفي العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه في عبوديته.. فهو ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحمق.

وثانيها: إن هذا أبلغ في الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى.

وثالثها: إن هذا تخويف لكل من ينهى عن الصلاة.

ورابعها: أيظن أبو جهل أنه لولم يسجد محمد ﷺ لي لا أجد ساجداً غيره؟ إن محمداً عبد واحد ولي من الملائكة المقربين ما لا يحصيهم إلا أنا، وهم دائماً في الصلاة والتسبيح.

وخامسها: إنه تفخيم لشأن النبي ﷺ فهو مع التنكير معرف[1].

إن الآيات تعرض صورة من صور الطغيان: صورة مستنكرة يعجب منها ويقطع وقوعها في أسلوب قرآني فريد.. والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير، التي تتعذر مجاراتها في لغة الكتابة، ولا تؤدى إلا في أسلوب الخطاب الحي، الذي يعبر باللمسات المتقطعة في خفة وسرعة!

«أرأيت»؟ أرأيت هذا الأمر المستنكر؟ أرأيته يقع؟ أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة؟ وتضاف بشاعة إلى بشاعة؟ أرأيت إن كان هذا الذي يصلي ويتعرض له من ينهاه عن صلاته.. إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى؟ ثم ينهاه من ينهاه مع أنه على الهدى، آمر بالتقوى؟

أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكراً؟

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؟

هنا يجيء التهديد الملفوف ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ يرى تكذيبه وتوليه، ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى، وهو على الهدى، آمر بالتقوى، يرى سبحانه وللرؤية ما بعدها.

وأمام مشهد الطغيان الذي يقف في وجه الدعوة، وفي وجه الإيمان وفي وجه الطاعة، يجيء التهديد الحاسم الرادع الأخير، مكشوفاً في هذه المرة لا ملفوفاً: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٥١٨-٥١٩).

١٥-١٨].

إنه تهديد في إبّانه، في اللفظ الشديد العنيف.. هكذا ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ بهذا اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه، والسفع: الأخذ بعنف، والناصية: الجبهة أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر، مقدم الرأس المتشامخ: إنها ناصية تستحق السفع والصرع: ﴿نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ﴾! وإنها للحظة سفع وصرع، فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾ أما نحن فإننا ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ الشداد الغلاظ.. والمعركة إذن معروفة المصير!

وفي ضوء هذا المصير المتخيل الرعيب تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته.

﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾ [العلق: ١٩].

كلا! لا تطع هذا الطاغي الذي ينهى عن الصلاة والدعوة، واسجد لربك واقترب منه بالطاعة والعبادة ودع هذا الطاغي الناهي دعه للزبانية.

إن دلالة الآيات في كل مؤمن طائع عابد داع إلى الله، وكل طاغ باغ ينهى عن الصلاة، ويتوعد على الطاعة ويختال بالقوة[(١)].

(٢) **وفي سورة المدثر** المكية بالاتفاق كما حكاه ابن عطية والقرطبي وغيرهما.. وهي رابعة السور نزولاً على المشهور.. ومن أهم الأغراض التي اشتملت عليها: تكريم النبي ﷺ والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة، وإعلان وحدانية الله بالإلهية، والأمر بالتطهر الحسي والمعنوي، ونبذ الأصنام، والإكثار من الصدقات، والأمر بالصبر، وإنذار المشركين بهول البعث.. ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء.. وجاء في ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨].

في هذه الآيات يعرض الله مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين حيث يعترف

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٢٩٤٢-٢٩٤٣) بتصرف، ويُنظر: مفاتيح الغيب (١٦/ ٥٢١) وما بعدها.

المكذبون اعترافاً طويلاً بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيد في يوم الجزاء والحساب، يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم الذي لا تنفعهم فيه شفاعة شافع.. وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت، المقيدة بما فعلت، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال وإرسالهم من القيد، وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير.. وهذا من فضل الله عليهم الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها، وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة يلمس قلوب المجرمين المكذبين وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا ولا يبالونهم في موقف الكرامة والاستعلاء يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين، وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون.. وتطوى صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى!

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت بالمجرمين إلى سقر يعترفون بها هم بألسنتهم في ذلة المستكين أمام المؤمنين:

١- ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ وهي كناية عن الإيمان كله، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة وتجعلها رمز الإيمان ودليله، يدل إنكارها على الكفر ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين.

٢- ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ وهذه تلي عدم الإيمان، بوصفها عبادة الله في خلقه بعد عبادته سبحانه في ذاته، ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها، وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية، على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال، مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء.

٣- ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ .. وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة، وحقيقة الإيمان وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال.. وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره.. فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه، وعلى ضوئها يمضي في طريق الحياة، فكيف لا يقطع فيها برأي ولا

يأخذها مأخذ الجد؟ ويخوض فيها مع الخائضين، ويلعب فيها مع اللاعبين؟

٤- ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهذه أس البلايا، فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين، وتضطرب في تقديره جميع القيم، ويضيق في حسه مجال الحياة، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض، ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير، فلا يطمئن إلى هذه العواقب، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير.

إن المجرمين يقولون: إننا ظللنا على هذه الأحوال، لا نصلي، ولا نطعم المسكين ونخوض مع الخائضين ونكذب بيوم الدين.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ .. الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب، ويفصل في الأمر بلا مرد.. ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح.. بعد اليقين.

ويعقب السياق على الموقف السيء المهين، يقطع كل أمل في تعديل هذا المصير:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ .

فقد قضي الأمر، وحق القول، وتقرر المصير، الذي يليق بالمجرمين المعترفين، وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلاً، وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين[(١)].

(٣) **وفي سورة القيامة** التي هي مكية بالاتفاق، وسميت بذلك لوقوع القسم بيوم القيامة في أولها ولم يقسم به فيما نزل من قبلها من السور، ومن أغراضها:

- أنها اشتملت على إثبات البعث، والتذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه.
- وإثبات الجزاء على الأعمال التي عملها الناس في الدنيا.
- واختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء، وتكريم أهل السعادة.
- والتذكير بالموت وأنه أول مراحل الآخرة، والزجر عن إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أعد لأهل الخير من نعيم الآخرة[(٢)]، في هذه السورة جاء قوله تعالى:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوۡلَىٰ

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٥٣، ٣٧٦١-٣٧٦٢) باختصار وتصرف.
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣٧).

لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ [القيامة: ٣١-٣٥].

جمهور المتأولين أن هذه الآيات نزلت في أبي جهل بن هشام ثم كادت هذه الآية تصرح به في قوله تعالى: يَتَمَطَّىٰٓ فإنها كانت مشية بني مخزوم، وكان أبو جهل يكثر منها[(١)].

إن سورة القيامة اشتملت على عدة مشاهد من مشاهد يوم القيامة، وهذه المشاهد تستمد قوتها وإيقاعها في النفس من قوة الحقيقة الكامنة فيها، وقوة الأداء القرآني الذي يشخصها ويحييها، فإن السورة بعد عرض تلك المشاهد تقرب وتقرب حتى تلمس حس المخاطبين بمشهد آخر حاضر واقع مكرور، لا تمر لحظة حتى يواجههم في هذه الأرض بقوته ووضوحه ووزنه الثقيل! إنه مشهد الموت، الموت الذي ينتهي إليه كل حي، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي.. وكذا مشهد الاحتضار يعرضه النص القرآني كأنه حاضر، وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة.

والآيات التي معنا تعرض مشهد اللاهين المكذبين، الذين لا يستعدون بعمل ولا طاعة، بل يقدمون المعصية والتولي في عبث ولهو، وفي اختيال بالمعصية والتولي.

إن أبا جهل كان يجيء أحياناً إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله.. ثم يذهب مختالاً بما فعل، فخوراً بما ارتكب من الشر، كأنما فعل شيئاً يذكر.. والتعبير القرآني يتهكم به، ويسخر منه، ويثير السخرية كذلك، وهو يصور حركة اختياله بأنه يَتَمَطَّىٰٓ يمط في ظهره ويتعاجب تعاجباً ثقيلاً كريهاً.

وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوة إلى الله، يسمع ويعرض، ويتفنن في الصد عن سبيل الله، والأذى للدعاة، ويمكر مكر السيء، ويتولى وهو فخور بما أوقع من الشر والسوء، وبما أفسد في الأرض، وبما صد عن سبيل الله، وبما مكر لدينه وعقيدته وكاد.

والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد:

أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ .

(١) يُنظر: المحرر الوجيز (١٩٢٧).

وهو تعبير اصطلاحي يتضمن التهديد والوعيد، وقد أمسك رسول الله ﷺ بخناق أبي جهل مرة وهزه وهو يقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال عدو الله: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبليها!! فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين بمحمد ﷺ وبرب محمد القوي القهار المتكبر.. وقبله فرعون الطاغية أخذه الله كذلك.

إن من يعتز بعشيرته وبقوته وبسلطانه، ويحسبها شيئاً وينسى الله وأخذه، حتى يأخذه أهون من بعوضة، وأحقر من ذبابة.. إنما هو الأجل الموعود لا يستقدم لحظة ولا يستأخر(١).

(٤) **وفي سورة الإسراء** وهي مكية كلها عند الجمهور من المفسرين.. والعماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة:

إثبات نبوة محمد ﷺ، وإثبات أن القرآن وحي من الله، وإثبات فضله وفضل من أنزله وذكر أنه معجز، ورد مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به، وأنهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه.. ومن أغراضها: إظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض... ومن أغراضها: إثبات البعث والجزاء، والحث على إقامة الصلوات في أوقاتها.. وتهديد المشركين بأن الله يوشك أن ينصر الإسلام على باطلهم(٢).

وفي آخر آيتين من هذه السورة جاء قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١٠، ١١١].

لا شك أن لنزول هذه الآية سبباً خاصاً إذ لا موجب لذكر هذا التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العلم وبين دعائه بصفة الرحمان خاصة دون ذكر غير تلك الصفة من صفات الله مثل: الرحيم أو العزيز أو غيرهما من الصفات الحسنى.

أما سبب نزولها فعن ابن عباس قال: (كان النبي ﷺ ساجداً يدعو يا رحمن يا

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٧٢-٣٧٧٣) بتصرف واختصار، ويُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٩٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٥-٩) باختصار.

رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾.

ويروى عنه أيضاً أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن، ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: لا تجهر بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾[(١)].

والكلام في الآية: رد على المشركين وتعليم بأن تعدد الأسماء لا يقتضي تعدد المسمى وشتان بين ذلك وبين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسميات، والتوحيد والإشراك يتعلقان بالذوات لا بالأسماء.

والصلاة تحتمل الدعاء، وتحتمل العبادة المعروفة، وقد فسرها السلف هنا بالمعنيين، ومعلوم أن من فسر الصلاة بالعبادة المعروفة فإنما أراد قراءتها خاصة لأنها التي لا توصف بالجهر والمخافتة.

وعلى كلا الاحتمالين فقد جهر النبي ﷺ بذكر الرحمن، فقال فريق من المشركين: ما الرحمن؟ وقالوا: إن محمداً يدعو إلهين، وقام فريق منهم بسب القرآن ومن جاء به، أو بسب الرحمن ظناً أنه رب آخر غير الله تعالى وغير آلهتهم، فأمر الله رسوله أن لا يجهر بدعائه أو لا يجهر بقراءة صلاته في الصلاة الجهرية.

ولعل سفهاء المشركين توهموا من صدع النبي ﷺ بالقراءة أو بالدعاء أنه يريد بذلك التحكك بهم والتطاول عليهم بذكر الله تعالى مجرداً عن ذكر آلهتهم فاغتاظوا وسبوا، فأمره الله تعالى بأن لا يجهر بصلاته هذا الجهر تجنباً لما من شأنه أن يثير حفائظهم ويزيد تصلبهم في كفرهم في حين أن المقصود تليين قلوبهم.

ولما كان النهي عن الجهر بالدعاء أو قراءة الصلاة سداً لذريعة زيادة تصميمهم على الكفر أعقب ذلك بأمره بإعلان التوحيد لقطع دابر توهم من توهموا أن «الرحمان» اسم لمسمى غير مسمى اسم الله، فبعضهم توهمه إلهاً شريكاً، وبعضهم

(١) ويروى أن القائل هو أبو جهل، يُنظر: الكشاف (٦١١) ومعالم التنزيل (٧٦٢) والمحرر الوجيز (١١٧٢) وغيرها من كتب التفسير.

توهمه معيناً وناصراً، أمر النبي ﷺ بأن يقول ما يقلع ذلك كله وأن يعظمه بأنواع من التعظيم.. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ .

وجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد، أي قصر جنس الحمد عليه تعالى لأنه أعظم مستحق لأن يحمد، فالتخصيص (ادعائي) بادعاء أن دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة العدم.

والمراد من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ نفي الناصر له وجه مؤكد فإن الحاجة إلى الناصر لا تكون إلا من العجز عن الانتصار للنفس.

ومعنى ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ اعتقد أنه كبير، أي عظيم، العظم المعنوي الشامل لوجوب الوجود، والغنى المطلق، وصفات الكمال كلها الكاملة التعلقات، لأن الاتصاف بذلك كله كمال، والاتصاف بأضداد ذلك نقص وصغار معنوي.

وإجراء هذه الصلات الثلاث على اسم الجلالة الذي هو متعلق الحمد؛ لأن في هذه الصلات إيماءإلى وجه تخصيصه بالحمد.

والإتيان بالمفعول المطلق للتوكيد، ولما في التنوين من التعظيم، ولأن من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها[(١)] .

خامساً: التنويع في الأدلة، والتفنن في العرض مع سلوك سبيل التدرج حتى ينقاد المخاطبون إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته:

وهذه الخصيصة، وإن كان يدل عليها كثير من الآيات التي عرضت قبل ذلك لكن فيما يأتي من آيات ما يدل عليها بشكل أوضح:

١- ففي سورة فاطر المكية التي لها نسق خاص في موضوعها وفي سياقها.. فهي تمضي في إيقاعات تتوالى على القلب البشري من بدئها إلى نهايتها، إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزاً وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود، وروعة هذا الكون، وليتدبر آيات الله المبثوثة في تضاعيفه، المتناثرة في صفحاته، وليتذكر آلاء الله، ويشعر برحمته ورعايته وليتصور مصارع الغابرين في الأرض ومشاهدهم يوم القيامة.. ذلك كله في أسلوب وفي

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٥-٢٤٠) باختصار وتصرف.

إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك، ويتأثر تأثر الأحياء[(١)].

في هذه السورة جاء:

أ- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وهذه الآية جاءت ضمن سياق آيات[(٢)] تهتف بالناس أن ينظروا في علاقتهم بالله وفي حقيقة أنفسهم، ويرجع إلى الرسول ﷺ بالتسلية عما يلقى، والتسرية عما يجد من إعراض وضلال.

والآية تثبت حقيقة فردية التبعة، والجزاء الفردي الذي لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً، فما بالنبي ﷺ من حاجة إلى هدايتهم يحققها لنفسه، فهو محاسب على عمله وحده، كما أن كلاً منهم محاسب على ما كسبت يداه، يحمل حمله وحده، لا يعينه أحد عليه، ومن يتطهر فإنما يتطهر لنفسه، وهو الكاسب وحده لا سواه، والأمر كله صائر إلى الله.. وهذه الحقيقة ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي وفي السلوك العملي سواء فشعور كل فرد بأنه مجزي بعمله، لا يؤاخذ بكسب غيره، ولا يتخلص هو من كسبه، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب، مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً.. والتعبير القرآني يصور هذه الحقيقة على طريقة التصوير في القرآن فتكون أعمق وأشد أثراً، يصور كل نفس حاملة حملها فلا تحمل نفس حمل أخرى، وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئاً مما يثقلها!

إنه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقاله ويمضي في طريقه، حتى يقف أمام الميزان والوزان، وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والإعياء، واهتمام كل بحمله وثقله وانشغاله عن البعداء والأقرباء.

وعلى مشهد القافلة المجهدة المثقلة يلتفت إلى رسول الله ﷺ قائلاً:

- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ﴾.

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩١٨).

(٢) من الآية (١٥-٢٦) من سورة فاطر.

فهؤلاء هم الذين يفلح فيهم الإنذار، هؤلاء الذين يخشون ربهم ولم يشاهدوه ويقيموا الصلاة ليتصلوا بربهم ويعبدوه، هؤلاء هم الذين ينتفعون بك ويستجيبون لك، فلا عليك ممن لا يخشى الله ولا يقيم الصلاة.

- ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ﴾ .

لا لك، ولا لغيرك إنما هو يتطهر لينتفع بطهره، والتطهر معنى لطيف شفاف، يشمل القلب وخوالجه ومشاعره، ويشمل السلوك واتجاهاته وآثاره، وهو معنى موح رفاف.

- ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

وهو المحاسب والمجازي، فلا يذهب عمل صالح، ولا يفلت عمل سيء، ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون[(١)].

ب- أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

فجاءت بعد عشر آيات من الآية السابقة ضمن جولة[(٢)] قراءات في كتاب الكون في صحائفه المعجبة الرائعة، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس، الثمار المتنوعة الألوان، والجبال الملونة الشعاب، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة.. هذه اللفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة في كتاب الكون المفتوح ينتقل الحديث بعدها إلى الكتاب المنزل والذين يتلونه، وما يرجون من تلاوته وما ينتظرهم من جزاء.

وتلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت يعني تلاوته عن تدبر، ينتهي إلى إدراك وتأثر وإلى عمل بعد ذلك وسلوك، ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة، والإنفاق سراً وعلانية من رزق الله، ثم رجاؤهم بكل هذا ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح، يعاملون فيها الله وحده وهي أربح معاملة، ويتاجرون بها في الآخرة وهي أربح تجارة.. تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم وزيادتهم من فضل الله.. ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٣٨-٢٩٣٩) باختصار وتصرف.

(٢) من الآيات (٢٧-٣٨).

التقصير ويشكر الأداء، وشكره تعالى كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء، ولكن التعبير يوحي للبشر بشكر المنعم، تشبهاً واستحياءً، فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء؟![(١)].

٢- ومن التفنن والتنويع في الأساليب التي اختص بها القرآن المكي في حديثه عن الصلاة ما جاء في سورة لقمان المكية كلها عند ابن عباس في أشهر قوليه، وعليه إطلاق جمهور المفسرين.

وسبب نزولها أن قريشاً سألت رسول الله ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه وعن بر والديه فنزلت[(٢)].

والأغراض التي اشتملت عليها السورة تتصل بسبب نزولها.. فصدرت بالتنويه بهدي القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير، ومثل الكمال النفساني، ولا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه، فكان صدرها تمهيداً لقصة لقمان.. حيث ابتدئ ذكر لقمان بالتنويه بأن الله آتاه الحكمة وأمره بشكر النعمة، وأطيل الكلام في وصايا لقمان وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك، ومن الأمر ببر الوالدين، ومن مراقبة الله لأنه عليم بخفيات الأمور، وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، والتحذير من الكبر والعجب، والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام.

وسلكت السورة أفانين ذات مناسبات لما تضمنته وصية لقمان لابنه وأدمج في ذلك تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى وبنعمه عليهم وكيف أعرضوا عن هديه وتمسكوا بما ألفوا عليه آباءهم، وذكرت مزية دين الإسلام، وتسلية الرسول ﷺ بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى وأنه لا يحزنه كفر من كفروا[(٣)].

والآية التي فيها ذكر الصلاة ضمن وصايا لقمان هي قوله تعالى:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٤١-٢٩٤٤) باختصار وتصرف.

(٢) يُنظر: روح المعاني (١١/ ٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٣٧-١٣٩) باختصار.

حيث انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة، والصلاة: التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان، والصلاة عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح.

وشمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال يتطلب بيانه في تضاعيف وصايا أبيه كما شمل النهي عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة كذلك.

والأمر بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي إتيان الآمر وانتهاءه في نفسه لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية.

وهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير وبثه في الناس، وكفه عن الشر وزجره الناس عن ارتكابه ثم أعقب ذلك بأن أمره بالصبر على ما يصيبه.. والصبر: هو تحمل ما يحل بالمرء مما يؤلم أو يحزن، والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكور من إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصاب، والتأكيد للاهتمام.. و ﴿عَزۡمِ﴾ مصدر بمعنى المفعول أي من معزوم الأمور التي عزمها الله وأوجبها(١).

(٣) وفي سورة «الشورى» التي تركز بصفة خاصة على (حقيقة الوحي والرسالة) حتى ليصح أن يقال إنها هي المحور الرئيس الذي ترتبط به السورة كلها، وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها.. كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها، وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها، كما تلم بقضية الرزق: بسطه وقبضه وصفة الإنسان في السراء والضراء.

وفي الثلث الأخير من السورة(٢) تلفت الآيات النظر إلى أن كل ما أوتيه الناس في هذه الأرض متاع موقوت في هذه الحياة الدنيا، وأن القيمة الباقية هي التي يدخرها الله

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٦٤-١٦٦) باختصار وتصرف.

(٢) من الآية (٣٦-٥٣) من بداية قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

في الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. ويستطرد فيحدد صفة المؤمنين هؤلاء، بما يميزهم، ويفردهم وحدهم أمة ذات خصائص وسمات.. وهذه الصفات المميزة لطابع الجماعة الإسلامية، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلاً جديراً بالتأمل فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولاً، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية.. إنها الإيمان، والتوكل، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والشورى الشاملة، والإنفاق مما رزق الله، والانتصار من البغي، والعفو، والإصلاح والصبر.. وإن استعراض هذه الصفات في نسقها القرآني يطول جداً.. والذي يعنينا هنا استعراض الصفات الواردة في الآية التي ذكر فيها إقامة الصلاة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

فالآية تصف استجابتهم لربهم بأن أزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم، أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول، وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها، عوائق من شهواتها ونزواتها، عوائق من وجودها هي وتشبثها بذاتها، فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولاً، وحينئذٍ تستجيب بلا عائق، تستجيب بكلياتها، ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها.. **وللصلاة** في هذا الدين مكانة عظمى، فهي التالية للقاعدة الأولى فيه، قاعدة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، وهي صورة الاستجابة الأولى لله، وهي الصلة بين العبد وربه، وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد رُكّعاً سُجَّداً، لا يرتفع رأس على رأس، ولا تتقدم رِجل على رِجل، ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى قبل أن يذكر الزكاة.. والتعبير بجعل أمرهم كله شورى، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة.. والآية نزلت قبل قيام الدولة الإسلامية.. فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين، إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم بعد.. ومتى وُجِدَ المسلمون حقاً، ووُجِدَ الإيمان في قلوبهم بحقيقته، نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها، وتحقق المبادئ الإسلامية الكلية خير تحقيق.

وقوله في صفة الجماعة المسلمة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهو نص مبكر كذلك قبل تحديد فرائض الزكاة التي حددت في السنة الثانية للهجرة، ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيهاً مبكراً في حياة الجماعة الإسلامية، بل إنه وُلِد مع مولدها.. والإنفاق لا بد منه تطهيراً للقلب من الشح، واستعلاء على حب الملك، وثقة بما عند الله وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان، ثم إنها ضرورية لحياة الجماعة.. لأنه لا بد من التكافل بين أفراد الجماعة.. وأحياناً يكون هذا التكافل كاملاً بحيث لا يبقى لأحد مال متميز، كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ونزولهم على إخوانهم في المدينة، حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة[1].

٤- وفي سورة إبراهيم المكية كلها عند الجمهور والتي من أهم أغراضها أنها ابتدئت بالتنبيه إلى (إعجاز القرآن)، وبالتنويه بشأنه وأنه أنزل لإخراج الناس من الضلالة.. والتذكير بنعم الله ووجوب شكرها.. وإقامة الحجة على تفرد الله تعالى بالإلهية بدلائل مصنوعاته.. وذكر البعث وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم ومن كيد الشيطان وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ.. ثم ذكر الفريقين بحال إبراهيم عليه السلام ليعلم الفريقان من هو سالك سبيل إبراهيم عليه السلام ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام.. وختمت السورة بكلمات جامعة من قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ إلى آخرها[2].

ويظهر التنويع والتفنن في هذه السورة حيث ورد ذكر الصلاة في ثلاثة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

والآية استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقت عليه الكلمة الخبيثة بذكر مقابله وهو الفريق الذي حقت عليه الكلمة الطيبة، فلما ابتدئ بالفريق الأول لقصد الموعظة والتخلي ثُني بالفريق الثاني على طريقة الاعتراض بين أغراض الكلام.

ولما كانوا متحلين بالكمال صيغ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان بصيغة

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣١٦٠-٣١٦٦) بتصرف واختصار كبير.

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٧-١٧٩) باختصار.

الأمر بما هم فيه من صلاة وإنفاق لقصد الدوام على ذلك، فحصلت بذلك مناسبة وقع هذه الآية بعد التي قبلها لمناسبة تضاد الحالين.

ولما كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل وينفقون من قبل تعين أن المراد الاستزادة من ذلك ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأن المضارع دال على التجدد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة «افعل» فإن أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن متلبساً به، فأصل ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ليقيموا فحذف لام الأمر تخفيفاً.

وقوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ متعلق بفعل ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ﴾ أي ليفعلوا ذينك الأمرين قبل حلول اليوم الذي تتعذر فيه المعاوضات والإنفاق، وهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم الجزاء عنهما حين يتمنون أن يكونوا ازدادوا من ذينك لما يسرهم من ثوابهما فلا يجدون سبيلاً للاستزادة منهما، إذ لا بيع يومئذ فيشترى الثواب ولا خلال من شأنها الإرفاد والإسعاف بالثواب فالمراد بالبيع المعاوضة وبالخلال الكناية عن التبرع(١).

أما الموضع الثاني فقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

والموضع الثالث قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

والآيتان كلتاهما جمل مستأنفة جاءت في أثناء دعاء إبراهيم عليه السلام(٢).

ودعاء إبرهيم عليه السلام جاء عطفاً على قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨] فإن المشركين كما بدلوا نعمة الله كفراً أهملوا الشكر على ما بوأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداءً بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣١-٢٣٤) باختصار وتصرف.

(٢) الذي بدأ من الآية (٣٥-٤١) من أول قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

عليهم كفراً بمفيض تلك النعم.

ويجوز أن يكون الدعاء معطوفاً على جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

حيث انتقل من ذكر النعم العامة للناس التي يدخل تحت منتها أهل مكة بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خص بها الله أهل مكة، وغير الأسلوب في الامتنان بها إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم عليه السلام والتعريض بذريته من المشركين.

وفي الآية الأولى علق ﴿لِيُقِيمُوا۟﴾ بـ ﴿أَسْكَنتُ﴾ أي علة الإسكان بذلك الوادي عند ذلك البيت أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل فيكون البيت معموراً أبداً.. وتوسيط النداء للاهتمام بمقدمة الدعاء زيادة في الضراعة وتهيأ بذلك أن يفرع عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم لأن همة الصالحين في إقامة الدين.. والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم.. ومحبة الناس إياهم يحصل معها محبة البلد وتكرير زيارته وذلك سبب لاستئناسهم به و رغبتهم في إقامة شعائره فيؤول إلى الدعوة إلى الدين.. ورجاء شكرهم داخل في الدعاء لأنه جُعل تكملة له تعرضاً للإجابة وزيادة في الدعاء لهم بأن يكونوا من الشاكرين، والمقصود: توافر أسباب الانقطاع إلى العبادة وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب.

وفي الآية الثانية دعا إبراهيم عليه السلام لنفسه بأن يجعله الله في المستقبل مقيماً للصلاة مداوماً عليها.. وكذا من ذريته مقيمين للصلاة.. و«من» في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ ابتدائية وليست للتبعيض، لأن إبراهيم عليه السلام لا يسأل الله إلا أكمل ما يحبه لنفسه ولذريته.. ودعاؤه بتقبل دعائه ضراعة بعد ضراعة[1].

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٤-٢٤٤) بتصرف واختصار.

٥- ومما يدل على أن القرآن المكي سلك سبيل التدرج وهو نوع من التفنن في الأساليب: الآيات الواردة في سورة المعارج: «التي هي حلقة من حلقات العلاج البطيء، المديد، العميق، الدقيق لعقابيل الجاهلية في النفس البشرية كما واجهها القرآن في مكة.. أو هي جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التي خاضها في داخل هذه النفس، وفي خلال دروبها ومنحنياتها ورواسبها وركامها.. والحقيقة الأساسية التي تعالج السورة إقرارها هي حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء، وعلى وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين، كما أوعدهم القرآن.. وهي تلم بحقيقة النفس البشرية في الضراء والسراء، وهي حقيقة تختلف حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان، كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها في الشعور والسلوك، واستحقاقها للتكريم، وبهوان الذين كفروا على الله وما أعده لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين.. وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس في تقدير الله وتقدير البشر، واختلاف الموازين.

والذي يقرأ القرآن -وهو مستحضر في ذهنه لأحداث السيرة- يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذي كان هذا القرآن يواجه به النفوس في مكة ويروضها حتى تسلس قيادها راغبة مختارة، ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعاً عجيباً.. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة! وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقعها ولا يصبر على لذعها! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارة الودود، التي تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب!.

وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها فترى ما يجري في داخلها رأي العين، وتخجل من بعضه، وتكره بعضه، وتتيقظ لحركاتها وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها!.. ومئات من اللمسات، ومئات من اللفتات ومئات من الهتافات، ومئات من المؤثرات.. يطلع عليها قارئ القرآن وهو يتبع تلك المعركة الطويلة وذلك العلاج البطيء، ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصية العنيدة»[1].

وفي هذه السورة بعد أن انتهى من تصوير الهول في مشاهد ذلك اليوم وفي صورة

---

(١) تُنظر صورٌ كثيرة لهذا الأسلوب في: في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٩٢، ٣٦٩٣).

ذلك العذاب في ثماني عشرة آية.. اتجه إلى تصوير حقيقة النفس البشرية في مواجهة الشر والخير، في حالتيْ إيمانها وخلوها من الإيمان ويقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين وذلك في سبع عشرة آية أخرى[(١)].

حيث وصف المؤمنين المصلين المستثنين من الهلع - وهو السمة العامة للإنسان- بصفات عدة فصلها في السياق.. وقد حظي المصلون بذكر صفتين هما:

أ- ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

ب- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان، هي وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد، ومظهر العبودية الخالصة التي يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة.. **وصفة الدوام** التي يخصصها بها هنا تعطي صورة الاستقرار والاستطراد، فهي صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل وهي صلة بالله مستمرة غير منقطعة.. ذلك أن الاتصال بالله ليس هو لعبة توصل أو تقطع حسب المزاج!

كما وصفتهم الآيات بصفة أخرى غير صفة الدوام.. **وهي صفة المحافظة** ولا تتحقق إلا بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها، وفي فرائضها، وفي سننها، وفي هيئتها، وفي الروح التي تؤدى بها، فلا يضيعونها إهمالاً، وكسلاً، ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها.

ثم قررت الآيات مصير هذا الفريق من الناس بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسي ولون من النعيم الروحي، فهم في جنات.. وهم يلقون الكرامة في هذه الجنات، فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم جزاء على هذا الخلق الكريم، الذي يتميز به المؤمنون[(٢)].

---

(١) تبدأ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الآية (١٩) حتى نهاية الآية (٣٥).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٩٨-٣٧٠٢) بتصرف واختصار كبير.

الفصل الثاني
خصائص أسلوب القرآن في حديثه عن الصلاة في العهد المدني

من أهم خصائص أسلوب القرآن المدني التي تواضع عليها علماء علوم القرآن الكريم هي التي أجملوها في النقاط التالية:

أولاً: التحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام، وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية، والحقوق الشخصية وسائر ضروب العبادات والمعاملات.. وذلك أن القرآن المدني غالباً ما يخاطب مجتمعاً إسلامياً.

ثانياً: نشأ في المجتمع المدني طائفة من المنافقين فتحدث القرآن الكريم عن طبائعهم وهتك أستارهم، وبين خطرهم على الإسلام والمسلمين وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للكيد للمسلمين، ولم يكن في مكة نفاق لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين فكان الكفار يحاربونهم جهاراً.

ثالثاً: دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام، ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة، وبيان جناياتهم على الحق، وتحريفهم لكتب الله، ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ.

رابعاً: الغالب على الآيات والسور المدنية طول المقاطع والسور لبسط العقائد الإسلامية والأحكام التشريعية، فقد كان أهل المدينة مسلمين يقبلون على سماع القرآن، وينصتون إليه كأن على رؤوسهم الطير، فالمقام ليس مقام مقارعة ولجاج يناسبه الإيجاز، بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يناسبه الاسترسال والإطناب.. لأن دستور البلاغة يقوم على رعاية مقتضيات الأحوال[(١)].

وقد جاء ذكر الصلاة لفظاً ومعنى في ست عشرة سورة مدنية، وهي نصف مجموع السور المدنية المتفق عليها والمختلف فيها.. وسيكون الحديث في هذا الفصل عن الآيات الواردة بلفظ «الصلاة» فقط وحسب ترتيبها عند علماء هذا الفن:

(١) يُنظر: مناهل العرفان (١/ ١٩٧) ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (٦٤) ودراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي (١٣٣).

أولاً: سورة البقرة:

أول وأطول سورة مدنية، وهي أول سورة في المصحف بعد الفاتحة، وهذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيبها «فسطاط القرآن» فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان.. ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم، وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية، وأساليب الكتب التشريعية، وأساليب التذكير والموعظة، يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين(١).

وسأستعرض الآيات الإحدى عشرة التي ورد فيها لفظ الصلاة فقط مكتفياً بها عن الآيات الواردة في أحكام القبلة، والآيات التي تبين ظلم المشركين لأنهم منعوا المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام، وسعوا بذلك في خرابه، وكذا الآيات التي تتحدث عن فضائل المسجد الحرام وبانيه ودعوته لذريته بالهدى.

١- في بداية السورة جاء التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه، وتصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافاً أربعة وكانوا قبل الهجرة صنفين بحسب اختلافهم في ذلك التلقي.. ولما كان أخص الأصناف انتفاعاً بهديه هم المؤمنون بالغيب المقيمين الصلاة «يعني المسلمين» ابتدئ بذكرهم وجاء نعت المتقين منهم في الآية الثالثة من السورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وصفهم بأنهم يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها بحدودها وأركانها وهيئاتها، يقال: قام بالأمر، وأقام الأمر إذا أتى به معطىٌ حقوقه، والمراد بها في هذه الآية الصلوات الخمس مع أنه ذكرها بلفظ الواحد(٢).

وإقامة الصلاة «استعارة تبعية» شبهت المواظبة على الصلوات والعناية بها بجعل الشيء قائماً، وعبر هنا بالمضارع ليصلح ذلك للذين أقاموا الصلاة فيما مضى، وهم الذين آمنوا من قبل نزول الآية، والذين هم بصدد إقامة الصلاة وهم الذين يؤمنون عند نزول الآية، والذين سيهتدون إلى ذلك وهم الذين جاءوا من بعدهم، إذ المضارع صالح لذلك

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٣-٢٠٥) باختصار.
(٢) معالم التنزيل (١٥).

كله.. وقد حصل من إفادة المضارع التجدد تأكيد ما دل عليه مادة «الإقامة» من المواظبة والتكرر ليكون الثناء عليهم بالمواظبة على الصلاة أصرح(١).

٢- وبعد أربعين آية خاطب الله اليهود وذكّرهم نعمه العظيمة عليهم التي نسوها ولم يخطروها ببالهم وأمرهم بالوفاء بالعهود التي أخذها عليهم.. ودعاهم إلى الإيمان بالكتب.. طلب إليهم إقامة الصلاة لتطهر نفوسهم كما طلب إليهم إيتاء الزكاة التي هي مظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس، لما فيها من بذل المال لمواساة الفقراء.. وفي الآية نفسها أمرهم بالركوع مع الراكعين، أي أن يكونوا في جماعة المسلمين ويصلوا صلاتهم، قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

٣- ثم بعد أن خاطب الأحبار والرهبان من بني إسرائيل في المدينة خاصة الذين كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يفعلون ما ينهون عنه مع أنهم يتلون الكتاب فيعرفون منه ما لا يعرفه من يأمرونهم باتباعه.. وهذا من سوء حالهم فهم لم ينتفعوا بعقل ولم يتذكروا بكتاب.. أرشدهم الله إلى الطريق المثلى وهي الاستعانة بالصبر والصلاة فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

فاليهود إنما حملهم على مخالفة حكم العقل ما تعودت به أنفسهم من حب الرياسة والتقدم فلما في ذلك عليهم من المشقة أن يصيروا أتباعاً للعرب بعدما كانوا يرون أن جميع الأرض تبع لهم جاء أمرهم بالاستعانة بالصبر الذي هو حبس النفس عن حاجتها وعادتها وعلى إصلاحها وتزكيتها، وهو ضياء للقلوب تبصر به ما يخفيه عنها الجزع من الخروج عن العادة.. كما أمرهم بالصلاة الموصلة إلى المقام الأعلى.. وفي ذلك إشارة إلى أن من لم تنهه صلاته عن ركوب الباطل والتمادي فيه وتأمره بلزوم الحق والرجوع إليه فليس بمصلٍ.. وفي الصلاة استرزاق يغنيهم عن اشتراء ثمن كانوا يأخذونه من أتباعهم في اللبس والكتمان.

وفي الآية ينبئ تعالى بكبر قدر الصلاة عن أن يتناول عملها إلا خاشع خرج عن حظ نفسه وألزم نفسه ذل العبودية التي ختمت بها النبوة.. وخصت الصلاة بالكبر دون

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٣١-٢٣٢) بتصرف واختصار.

الصبر لأن الصبر صغار للنفس والصلاة وجهة للحق والله هو العلي الكبير.

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ تعبير بالظن عن العلم تهويلاً للأمر وتنبيهاً على أنه يكفي العاقل في الحث على ملازمة الطاعة ظن لقاء الملك المطاع المرجو المخوف فكيف والأمر متيقن لا مراء فيه ولا تطرق للريب إليه[(١)].

٤- واستمرت الآيات من سورة البقرة في مناقشة بني إسرائيل ووصف ما لاقوا به نعمه الجمة من الانحراف عن الصراط السوي انحرافاً بلغ بهم حد الكفر ثم ما كان من أهم أحداثهم مع موسى عليه السلام.. حتى جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

في الآيات قبل هذه الآية يذكر سبحانه بني إسرائيل الذين كانوا في عصر النبي ﷺ بما أنعم الله به على آبائهم من النعم كتفضيلهم على العالمين، وإنجائهم من الغرق، وإنزال المن والسلوى عليهم، ثم ما كان يحصل إثر كل نعمة من مخالفة، فحلول عقوبة، فتوبة من الذنب بعد ذلك.

وفي هذه الآية ذكرهم بأهم ما أمر به أسلافهم من عبادات ومعاملات، ثم ما كان منهم من إهمالها وترك اتباعها، وسيعاد الكلام فيها أيضاً بعد، لأن المقام يحتاج إلى الإطناب والبسط، ولأن القلوب مستحجرة لا ينفذ شعاع الحق في أكنافها، وأذهانهم كليلة فهي في حاجة إلى التكرار بين آنٍ وآخر لعلها ترجع إلى رشدها.

وقد خوطب النبي ﷺ والمؤمنون بهذا ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الطمع في إيمانهم، لأن قبائح أسلافهم تمنعهم من الهدى والرشاد كما قيل:

إذا طاب أصل المرء طابت فروعه[(٢)].

٥- واستمرت الآيات في تذكير بني إسرائيل بأهم المنهيات التي أخذ عليهم العهد باجتنابها.. وتذكيرهم بما أعطاه الله موسى من الوحي، وما أتبعه بعده من الرسل وموقف أسلافهم منهم.. وذكر بعض معاذيرهم التي اعتذروا بها عن الإيمان بمحمد

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٣٣٨-٣٤٣) باختصار وتصرف.

(٢) تفسير المراغي (١/ ١٥٥).

ﷺ وبما جاء به من الآيات البينات، وما تبع ذلك من جحود وعناد ومعاداة للنبي ﷺ.. جاء قوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩، ١١٠].

جاءت هذه الآيات بعد أن نهى الله عز وجل عن الاستماع لنصح اليهود وعدم قبول آرائهم في شيء من أمور دينهم حيث ذكر وجه العلة في ذلك وهي (أن كثيراً منهم يودون لو ترجعون كفاراً حسداً لكم ولنبيكم، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له بنقض ما عاهدهم عليه، بل يحسدونكم على نعمة الإسلام ويتمنون أن تحرموا منها). وقد كان لأهل الكتاب حيل في تشكيك المسلمين في دينهم، فقد طلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره كي يتأسى بهم بعض ضعاف الإيمان من المسلمين، وكانوا يلقون بعض الشبه على المؤمنين ليشككوهم في دينهم.

وقد أمر الله المؤمنين بأن يعاملوهم بأحاسن الأخلاق من العفو عن مذنبهم بترك عقابه، والصفح عنه بترك لومه وتعنيفه حتى يأتي نصر الله لهم بمعونته وتأييده.. وقد تحقق ذلك بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير من المدينة بعد أن غدروا ونقضوا العهد.

وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح لا يكون إلا من القادر، فكأنه يقول لهم: لا تغرنكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فأنتم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، وأهل الحق مؤيدون بعناية الله ولهم العزة ما ثبتوا عليه.

ثم ذكر سبحانه بعض الوسائل التي تحقق النصر الذي وعدوا به وذلك بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما في الصلاة من توثيق عرى الإيمان، وإعلاء الهمة، ورفعة النفس بمناجاة الله، وتأليف قلوب المؤمنين حين الاجتماع لأدائها وتعارفهم في المساجد، وبهذا ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله، وتتنزه النفس أن تأتي الفواحش ما ظهر منها وما بطن وتكون أقوى نفاذاً في الحق، فتكون جديرة بالنصر.

ولما في الزكاة من توكيد الصلة بين الأغنياء والفقراء، فتتحقق وحدة الأمة وتكون

كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له باقي الأعضاء بالحمى والسهر.

وقد جرت سنة القرآن أن يقرن الزكاة بالصلاة، لما في الصلاة من إصلاح حال الفرد، ولما في الزكاة من إصلاح حال المجتمع، والمال شقيق الروح، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله سهل عليه بذل نفسه في سبيل الله تأييداً لدينه وإعلاءً لكلمته.

وبعد أن أبان أن الصلاة والزكاة من أسباب النصر في الدنيا أردف هذا ببيان أنهما من أسباب السعادة في الآخرة أيضاً[(١)].

٦- ثم رجع سياق سورة البقرة إلى مرحلة أسبق من عهد موسى.. رجع إلى عهد إبراهيم عليه السلام حيث جاء سياق القصة ليؤدي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع حاد متشعب الأطراف.. إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق عليهما السلام ويعتزون بنسبتهم إليه وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة.

وإن قريشاً لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل عليهما السلام وتعتز بنسبتها إليه وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة البيت الحرام.

ولهذا جاء الحديث عن إبراهيم وذريته، والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره في جوه المناسب، لتقرير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذه النسب وهذه الصلات!!![(٢)].

وفي صدد هذا الحديث جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

هذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره.. لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعاً فلا يروعهم أحد.. ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى -ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله- فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً وهو أول قبلة يتوجه إليها المسلمون ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح بما أنه بيت

(١) تفسير المراغي (١/ ١٩٠-١٩٢) بتصرف.

(٢) يُنظر الآيات من (١٢٤-١٤١) من سورة البقرة.

الله، لا بيت أحد من الناس.. وقد عهد الله صاحب البيت إلى عبدين من عباده صالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود.. فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما فيورث بالنسب عنهما إنما كانا سادنين له بأمر ربهما لإعداده لقصاده وعباده من المؤمنين[1].

٧- ولهذا جاء في الجزء الثاني من السورة -الذي ركز على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى أمانة العقيدة، وأمانة الخلافة في الأرض باسم هذه العقيدة- جاء الجدل مع أعداء هذه الجماعة المناهضين لها وفي مقدمتهم بنو إسرائيل ومواجهة دسائسهم وكيدهم وحربهم للعقيدة في أصولها، وللجماعة المسلمة في وجودها.

وبدأ الجزء بعشر آيات تقريباً[2] بالحديث عن تحويل القبلة، والملابسات التي أحاطت به والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته، والأقاويل التي أطلقوها من حوله، ومعالجة آثار هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين، وفي الصف المسلم على العموم.. وقد كان التوجه إلى بيت المقدس -وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى- سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول بأن اتجاه محمد ﷺ ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة، وأنهم هم الأصل فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام.. وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين الذين ألفوا أن يعظموا حرمة البيت الحرام وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم، وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر واتخاذه حجة عليهم، وكان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشيء تأدباً مع الله وانتظاراً لتوجيهه بما يراه.. فجاءت هذه الآيات لتقرر القبلة وتفرد الأمة المسلمة بشخصيتها المميزة التي تتفق مع حقيقة تصورها المميزة، وكان أول توجيه لهذه الأمة هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

«الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم، والاستعداد لبذل

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١١٣) باختصار.

(٢) من الآية (١٤٢-١٥٢) من سورة البقرة.

التضحيات التي يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء ونقص الأموال والأنفس والثمرات، والخوف والجوع ومكابدة أهوال الجهاد لإقرار منهج الله.

وحين يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد، ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر، فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب، فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع.. إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى، يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة.. وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة.. حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئاً وشمس العمر تميل إلى المغيب.. هنا تبدو قيمة الصلاة.. إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض.. إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض. إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود.

إن الآية توجه المؤمنين وهم على أبواب المشقات العظام إلى الصبر وإلى الصلاة ثم يجيء ختام الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معهم يؤيدهم، ويثبتهم ويقويهم، ويؤنسهم ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة، وقوتهم الضعيفة، إنما يمدهم حين ينفد زادهم ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق»[1].

٨- وفي ختام الآيات التي جاءت في تعبئة الصف الإسلامي لمواجهة المشقة والجهد، والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات جاء قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

إنهم من استعانوا بالصبر والصلاة إنهم الصابرون الذين قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.. إن الله يضع البلاء والمشقة والاستشهاد والقتل.. في كفة، ويضع في الكفة

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٤٢) باختصار.

الأخرى أمراً واحداً.. ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ .. إنه لا يعدهم نصراً، ولا يعدهم هنا تمكيناً، ولا يعدهم هنا مغانم، ولا يعدهم شيئاً إلا صلوات الله ورحمته وشهادته.. لقد كان الله يُعِدُّ هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها و أكبر من حياتها فكان من ثم يجردها من كل غاية، و من كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية -حتى الرغبة في انتصار العقيدة.. كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضا الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون هذا هو الهدف وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها.. فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم إنما هو لدعوة الله التي يحملونها.

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته، جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة، وجزاء على القتل والشهادة.. إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور.

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف الإسلامي ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين[(١)].

٩- وبعد عشرين آية من السورة يقبل الله على خطاب المؤمنين ويلقن المسلمين الحجة على أهل الكتاب في تهويلهم على المسلمين إبطال القبلة التي كانوا يصلوا إليها.. وذلك أنه طال خوض أهل الكتاب في ذلك واحتدم الجدل بينهم وبين المسلمين حتى بلغ أشده، وكانوا يرون أن الصلاة إلى غير قبلتهم لا يقبلها الله تعالى ولا يكون صاحبها متبعاً دين الأنبياء كما كان المسلمون يرون أن الصلاة لا يرضى الله عنها إلا إذا كانت إلى المسجد الحرام قبلة إبراهيم أبي الأنبياء جميعاً عليهم السلام.

فجاء قوله تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٤٦).

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ [البقرة: ١٧٧].

فالله يقول: أعرضوا عن تهويل الواهنين وهبوا أن قبلة الصلاة تغيرت أو كانت الصلاة بلا قبلة أصلاً فهل ذلك أمر له أثر في تزكية النفوس واتصافها بالبر، فذكر المشرق والمغرب اختصار على أشهر الجهات، أو هو للإشارة إلى قبلة اليهود وقبلة النصارى لإبطال تهويل الفريقين على المسلمين حين استقبلوا الكعبة(١).

إن تولية الوجوه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين، لأنه إنما شرع لتذكير المصلي بأنه يناجي ربه، ويدعوه وحده، ويعرض عن كل ما سواه وليكون شعاراً لاجتماع الأمة على مقصد واحد فيكون في ذلك تعويدهم الاتفاق في سائر شؤونهم وأغراضهم وتوحيد جهودهم(٢).

وفي الآية استقراء بديع يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم حيث جمعت خصالاً هي جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال، فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها الأخوة والاتحاد.. ويبذل المال في الرقاب بتعزز جانب الحرية المطلوب للشارع حتى يصير الناس كلهم أحراراً، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة.. ولذلك قال تعالى في ختام الآية أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ فحصر فيهم الصدق والتقوى «حصراً ادعائياً» للمبالغة، ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم لأنهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين، ولأنهم حرموا كثيراً من الناس حقوقهم، ولم يفوا بالعهد ولم يصبروا، وفيها أيضاً تعريض بالمشركين إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر، والنبيين والكتاب وسلبوا اليتامى أموالهم ولم يقيموا الصلاة ولم

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٢٨) بتصرف.
(٢) تفسير المراغي (٢/ ٥٤).

يؤتوا الزكاة[1].

١٠- ومن خصائص أسلوب القرآن عامة والمدني خاصة: أن يأتي عقب ذكر الأحكام في العبادات وفي المعاملات وفي غيرها الأمر بتقوى الله، والتذكير بعلمه بحال عباده، وما أعد لهم من جزاء العمل، حتى يقوي الوازع الديني في النفوس ويحفزها على الإخلاص فيه.. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

وقد تقدم هاتين الآيتين آيات كثيرة من الأحكام بعضها في العبادات، وبعضها في المعاملات وكان من آخرها آيات تشريع العدة والطلاق.. ولما كانت النفوس قد تغفل عن تقوى الله و مراقبته بانهماكها في مشاغل الحياة، أو في تمتعها باللذات فتتنكب عن جادة الهدى، وتتفرق بها السبل، ومن ثم كانت في حاجة إلى مذكر يرقى بها إلى العالم الروحي، ويخلعها من عالم الحس، ويوجهها إلى مراقبة من برأها وفطرها حتى تطهر من تلك الأرجاس والأدران، وتترفع عن البغي والعدوان وتميل إلى العدل والإحسان.. ذلك المذكر هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنفي الجزع والهلع عند المصائب، وتعلم البخيل الكرم والجود، لهذا أردف هذه الأحكام بطلب الصلاة والمحافظة عليها وأدائها على وجهها بإخبات وقنوت لتحدث في النفس آثارها[2].

والظاهر أنه لما طال تبيان أحكام كثيرة ابتداءً من قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٥] جاءت هذه الآية مرتبطة بالتذييل الذي ذيلت به الآية السابقة ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فإن الله دعانا إلى خلق حميد، وهو العفو عن الحقوق، ولما كان ذلك الخلق قد يعسر على النفس، لما فيه من ترك ما تحبه من الملائم من مال وغيره: كالانتقام من الظالم، وكان في طباع الأنفس الشح، علمنا الله تعالى دواء هذا الداء بدواءين:

أحدهما: دنيوي عقلي وهو قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ المذكر بأن العفو يقرب إليك البعيد، ويصير العدو صديقاً، وإنك إن عفوت فيوشك أن تقترف ذنباً

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٣٢) بتصرف.

(٢) تفسير المراغي (٢/ ٢٠٠-٢٠١) بتصرف.

فيعفى عنك.

<u>الدواء الآخر: أخروي روحاني</u>: وهو الصلاة المعينة على التقوى ومكارم الأخلاق، ولهذا حث على المحافظة عليها.

ويمكن القول أيضاً: لما طال تعاقب الآيات المبينة تشريعات تغلب فيها الحظوظ الدنيوية للمكلفين، عقب تلك التشريعات بتشريع تغلب فيه الحظوظ الأخروية، لكي لا يشتغل الناس بدراسة أحد الصنفين من التشريع عن دراسة الصنف الآخر، قال البيضاوي: (أمر بالمحافظة عليها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها)[(١)].

١١- وفي أواخر سورة البقرة جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

جاءت الآية في ثنايا الحديث عن وصف أحوال الذين يأكلون الربا في الدنيا والآخرة وبيان حكمه وجزاء متعاطيه عند الله.. وفي هذا تعريض بآكلي الربا وأنهم لو كانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكفوا عن ذلك.

إن الذين صدقوا بما جاءهم من ربهم من الأوامر والنواهي، وعملوا ما تصلح به نفوسهم كمواساة المحتاجين، والرحمة بالبائسين، وإنظار المعسرين.. وأقاموا الصلاة التي تذكر المؤمن بالله فتزيد إيمانه، وحبه لربه، ومراقبته له، فتسهل عليه طاعته في كل شيء، وآتوا الزكاة التي تطهر النفوس من رذيلة البخل وتمرنها على أعمال البر.. هؤلاء لهم ثواب مدخر عند ربهم يوم الجزاء ولا يحزنون على ما فات ولا يخافون مما هو آت[(٢)].

ثانياً: سورة الأنفال:

وتسمى سورة بدر، وقد اتفق رجال الأثر كلهم على أنها نزلت بأسرها في غزوة بدر، وكانت في رمضان من العام الثاني للهجرة، وذلك بعد تحويل القبلة بشهرين.. والأصح أنها ثانية السور المدنية نزولاً بعد سورة البقرة.

وابتدأت السورة ببيان أحكام الغنائم وقسمتها ومصارفها والأمر بتقوى الله في

---

(١) تفسير البيضاوي (١/ ١٣٣) ويُنظر: التحرير والتنوير (٢/ ٤٦٥-٤٦٦) باختصار وتصرف.

(٢) تفسير المراغي (٣/ ٦٦).

ذلك والأمر بطاعة الله ورسوله في أمر الغنائم وغيرها، وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم وأن ذلك من مقومات معنى الإيمان الكامل.. وجاء في ثنايا السورة تذكير النبي ﷺ بنعمة الله عليه إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكة وخلصه من عنادهم، وأن مقامه بمكة كان أماناً لأهلها فلما فارقهم فقد حق عليهم عذاب الدنيا بما اقترفوا من الصد عن المسجد الحرام.. ودعوة المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام وإيذائهم بالقتال[1].

<u>وقد جاء ذكر الصلاة في موضعين هما</u>: آية في صدرها مدح للمؤمنين، وآية في وسطها تعريض بالمشركين.

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣].

وهاتان الآيتان وقعتا موقع التعليل لوجوب تقوى الله وإصلاح ذات بينهم وطاعتهم الله ورسوله لأن ما تضمنته هذه الجمل التي بعد «إنما» من شأنه أن يحمل المتصفين به على الامتثال لما تضمنته جمل الأمر الثلاث الواردة في الآية الأولى من السورة، وقد اقتضى ظاهر القصر المستفاد من «إنما» أن من لم يجل قلبه إذا ذكر الله ولم تزده تلاوة آيات الله إيماناً مع إيمانه، ولم يتوكل على الله ولم يقم الصلاة، ولم ينفق، لم يكن موصوفاً بصفة الإيمان.

والمعنى: ليس المؤمنون الكامل إيمانهم إلا أصحاب هذه الصفة التي يعرف المتصف بها تحققها فيه أو عدمه من عرض نفسه على حقيقتها، فإنه لما كان الكلام وارداً مورد الأمر بالتخلق بما يقتضيه الإيمان أحيلوا في معرفة أمارات هذا التخلق على صفات يأنسونها من أنفسهم إذا علموها.

ووصفهم بأنهم الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله جاء بإعادة الموصول كما أعيد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في سورة البقرة وذلك للدلالة على الانتقال في وصفهم إلى غرض آخر غير الغرض الذي اجتلب الموصول الأول لأجله وهو هنا غرض محافظتهم على ركنيْ الإيمان: وهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فلا علاقة للصلة المذكورة هنا بأحكام الأنفال والرضى بقسمها، ولكنه مجرد المدح.. وعبر في جانب

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٤٥-٢٤٧) باختصار، ويُنظر: المحرر الوجيز (٧٧٤).

الصلاة بالإقامة للدلالة على المحافظة عليها، وجيء بالفعلين المضارعين في ﴿يُقِيمُونَ﴾ و ﴿يُنفِقُونَ﴾ للدلالة على تكرر ذلك وتجدده[(١)].

ويرى صاحب الظلال يرحمه الله: أن التعبير القرآني دقيق في بنائه اللفظي ليدل دلالة دقيقة على مدلوله المعنوي، وفي العبارة في أول الآيات قصر بلفظ «إنما» وليس هناك مبرر لتأويله -وفيه هذا الجزم الدقيق- ليقال أن المقصود هو «الإيمان الكامل» فلو شاء الله سبحانه أن يقول هذه لقاله، إنما هو تعبير محدد دقيق الدلالة، أن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وأعمالهم ومشاعرهم هم المؤمنون، فغيرهم ممن ليس له هذه الصفات بجملتها ليسوا بالمؤمنين، والتوكيد في قوله بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ يقرر هذه الحقيقة، فغير المؤمنين حقاً لا يكونون مؤمنين أصلاً.. والتعبيرات القرآنية يفسر بعضها بعضاً[(٢)].

<u>أما الآية الأخرى</u> فهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

جاءت هذه الآية ضمن آيات[(٣)] ذكر بعض المفسرين أنها مكية، ولعل الذي دعاهم إلى القول بمكية هذه الآيات أنها تتحدث عن أمور كانت بمكة قبل الهجرة.. ولكن هذا ليس بسبب.. فإن هناك كثيراً من الآيات المدنية تتحدث عن أمور كانت في مكة قبل الهجرة.. وفي هذه السورة نفسها آيات تتحدث عن مثل هذا الشأن مثل قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

كما أن الآية الأخيرة من الآيات التي ذكروا أنها مكية تتحدث عن أمر كان بعد بدر خاص بإنفاق المشركين للتجهيز لغزوة أحد وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقد رجح ابن كثير مدنية هذه الآيات، ورد على الأدلة التي تقول بمكيتها بأنها

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٥٤-٢٦٠) بتصرف واختصار.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ٤٧٤) باختصار وتصرف.

(٣) من الآيات (٣٠-٣٦).

غريبة جداً ومنكرة وذكر الروايات التي تثبت مدنية هذه الآيات وأنها نزلت على النبي ﷺ بعد قدومه المدينة يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده[(١)].

والآية التي معنا جاءت في سياق تعداد لنعم النصر التي أنعم الله بها على رسوله ﷺ والمؤمنين في أحوال ما كان يظن الناس أن سيجدوا منها مخلصاً.. وفي سياق التذكير بأيام مقامهم في مكة وما لاقاه المسلمون عموماً وما لاقاه النبي ﷺ خصوصاً.. والآية ذكرت ضمن تعداد الأسباب التي استحق بها المشركون العذاب من الصد عن المسجد الحرام لأنهم لم يكونوا من أوليائه وكذا ما يفعلونه عند البيت الحرام من أعمال وأقوال غير لائقة من أصوات قبيحة من التصفير والتصفيق على أنها صلاة.

«ولا تعرف للمشركين صلاة فتسمية مكائهم وتصديتهم صلاة (مشاكلة تقديرية) لأنهم لما صدوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت كان من جملة طرائق صدهم إياهم تشغيبهم عليهم وسخريتهم بهم يحاكون قراءة المسلمين وصلاتهم بالمكاء والتصدية، قال مجاهد: فعل ذلك نفر من عبدالدار يخلطون على محمد ﷺ صلاته.. فلما فعلوا ذلك للاستسخار من الصلاة سمي فعلهم ذلك صلاة على طريقة المشاكلة التقديرية، والمشاكلة ترجع إلى استعارة علاقتها المشاكلة اللفظية أو التقديرية فلم تكن للمشركين صلاة بالمكاء والتصدية، وهذا الذي نحاه حذاق المفسرين. ويؤيد هذا قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لأن شأن التفريع أن يكون جزاء على العمل المحكي قبله والمكاء والتصدية لا يعدان كفراً إلا إذا كانا صادرين للسخرية بالنبي ﷺ وبالدين، وأما لو أريد مجرد لهو عملوه في المسجد الحرام فليس بمقتضٍ كفراً إلا على تأويله بأثر من آثار الكفر»[(٢)].

ثالثاً: سورة آل عمران:

تمثل هذه السورة قطاعاً حياً من حياة الجماعة المسلمة في المدينة من بعد «غزوة بدر» في السنة الثانية للهجرة إلى ما بعد «غزوة أحد» في السنة الثالثة، وما أحاط بهذه الحياة من ملابسات شتى في خلال هذه الفترة الزمنية.

ووجه تسميتها بسورة آل عمران أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران وهو عمران بن

(١) تفسير القرآن العظيم (٨٣٤).
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣٩) باختصار.

ماتان والد مريم، وآله: هم زوجه وأختها زوجة زكريا الذي كفل مريم بعد وفاة والدها.. وإذا قلنا: إن سبب نزول هذه السورة قضية نصارى نجران، وهم من أصدق العرب تمسكاً بدين المسيح عليه السلام وفيهم رهبان مشاهير.. فإن من أهم أغراض السورة هو مجادلة نصارى نجران حين وفدوا إلى المدينة وبيان فضل الإسلام على النصرانية. وكذا الثناء على عيسى عليه السلام وآل بيته وذكر معجزة ظهوره وأنه مخلوق لله، وذكر الذين آمنوا به حقاً وإبطال إلاهيته عليه السلام.

«إن هذا القصص الذي ورد في هذه السورة عن مولد عيسى عليه السلام ومولد أمه مريم، ومولد يحيى وبقية القصص جاء رداً على ما أراد الوفد إطلاقه من الشبهات، وهو يستند إلى ما جاء في القرآن عن عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله إلى مريم وروح منه.. وقد يكون هذا صحيحاً ولكن ورود هذا القصص في هذه السورة على هذا النحو يمضي على طريقة القرآن العامة في إيراد القصص لتقرير حقائق معينة يريد إيضاحها، وغالباً ما تكون هذه الحقائق هي موضوع السورة التي يرد فيها القصص، فيساق القصص بالقدر وبالأسلوب الذي يركز هذه الحقائق ويبرزها ويحييها.. فما من شك أن للقصص طريقته الخاصة في عرض الحقائق وإدخالها إلى القلوب، في صورة حية، عميقة الإيقاع بتمثيل هذه الحقائق في صورتها الواقعية وهي تجري في الحياة البشرية، وهذا أوقع في النفس من مجرد عرض الحقائق عرضاً تجريدياً، وهنا نجد هذا القصص يتناول ذات الحقائق التي يركز عليها سياق السورة وتظهر فيها ذات الخطوط العريضة فيها، ومن ثم يتجرد هذا القصص من الملابسة الواقعة المحدودة التي ورد فيها، ويبقى عنصراً أصيلاً مستقلاً، يتضمن الحقائق الأصيلة الباقية في التصور الاعتقادي الإسلامي.

ومن الموضوعات التي يركز عليها سياق السورة تصوير حال المؤمنين مع ربهم وهذا القصص يعرض جملة صالحة من هذه الحال في سير هذه النخبة المختارة من البشر التي اصطفاها وجعلها ذرية بعضها من بعض، وتتمثل هذه الصور في حديث امرأة عمران مع ربها ومناجاته في شأن وليدتها.. وفي حديث مريم مع زكريا.. وفي دعاء زكريا ونجائه لربه»[(١)].

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٨٩-٣٩٠) باختصار.

والذي يعنينا من قصص آل عمران ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

إن زكريا الشيخ الكبير وزوجه العاقر التي لم تلد في صباها.. جاشت في قلبه الرغبة الفطرية العميقة في الذرية –وهو يرى بين يديه مريم الصالحة المرزوقة– فيتوجه إلى ربه ويناجيه ويطلب منه أن يهب له من لدنه ذرية طيبة.

فما الذي كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب؟

كانت الاستجابة التي لا تتقيد بسن، ولا تتقيد بمألوف الناس لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد.

لقد استجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر الذي علق رجاءه بمن يسمع الدعاء، ويملك الإجابة حين يشاء، وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكر، اسمه معروف قبل مولده «يحيى» وصفته معروفة كذلك: سيداً كريماً، وحصوراً يحصر نفسه عن الشهوات، ويملك زمام نزعاته من الانفلات، ومؤمناً مصدقاً بكلمة تأتيه من الله ونبياً صالحاً في موكب الصالحين.

لقد استجيبت الدعوة، ولم يحل دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً، ثم يحسبون أن مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون، وكل ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً لا مطلقاً ولا نهائياً.. وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان المحدودة أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة.. فما أجدر الإنسان أن يتأدب في جناب الله، وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله، فلا يخبط في التيه بلا دليل وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل، ويضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن علمه القليل[(١)].

رابعاً: سورة الأحزاب:

وهي سورة مدنية بالاتفاق، ووجه تسميتها: أن فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش ومن تحزب معهم أرادوا غزو المسلمين في المدينة فرد الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٩٤) بتصرف واختصار.

ومن أهم أغراضها:

تحريض المؤمنين على التمسك بما شرع الله لهم لأنه أخذ العهد بذلك على جميع النبيين، والاعتبار بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين، والثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدين، ونعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب.. وختمت السورة بالتنويه بالشرائع الإلهية، وتحريض المؤمنين على ذكر الله وتنزيهه شكراً له على هديه، وتعظيم قدر النبي ﷺ عند الله في الملأ الأعلى والأمر بالصلاة عليه والسلام، ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين[(١)].

في هذه السورة التي جاء فيها ذكر بعض الأحكام الخاصة بالنساء عامة وبنساء النبي ﷺ خاصة جاء قوله تعالى مخاطباً نساء النبي ﷺ بقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

لما كان أمهات المؤمنين رضي الله عنهن هن القدوة لنساء الأمة، أمرن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ، ومن عداهن من النساء أحوج إلى هذا الأمر ممن عشن في كنف الرسول ﷺ وبيته الرفيع.

إن هذه الآية جاءت في سياق الحديث إلى نساء النبي ﷺ وتوجيه لهن في علاقتهن بالناس، وفي خاصة أنفسهن، وفي علاقتهن بالله.. وأن الله يريد أن يذهب عنهن الرجس ويطهرهن تطهيراً.

وسورة الأحزاب من السور التي عنيت بشؤون الأسرة المسلمة والتنظيم الاجتماعي لها وهذا من خصائص الأسلوب في القرآن المدني بصفة عامة.

فلا عجب أن يخص النساء بآية تأمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ضمن توجيهات تحقق لهن العفة والطهر وتربط قلوبهن بالله ونبذ أسباب الفتنة ودواعي الغواية والتشبه بالجاهلية الأولى.

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٤٥-٢٤٨) باختصار وتصرف.

وعبادة الله ليست بمعزل عن السلوك الاجتماعي أو الأخلاقي في الحياة، إنما هي الطريق للارتفاع إلى ذلك المستوى، والزاد الذي يقطع به السالك الطريق، فلا بد للمرأة المسلمة من صلة بالله يأتي منها المدد والزاد، ولا بد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه، ولا بد من صلة بالله ترتفع بها المسلمة على عرف الناس وتقاليد المجتمع وخطط البيئة.

والإسلام وحدة تجمع الشعائر والآداب والأخلاق والتشريعات والنظم.. كلها في نطاق العقيدة، ولكل منها دور تؤديه في تحقيق هذه العقيدة، وتتناسق كلها في اتجاه واحد، ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين، وبدونها لا يقوم هذا الكيان، ومن ثم كان الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله هو خاتمة التوجيهات الشعورية والأخلاقية والسلوكية لأهل البيت الكريم لأنه لا يقوم شيء من تلك التوجيهات بغير العبادة والطاعة[(١)].

واستمرت آيات السورة الكريمة في ذكر ما أعد الله للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده في الدار الآخرة ووصفهم بعشر صفات يستحقون بها أن يمحو عنهم زلاتهم ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده، ثم قصة زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها وما جاء فيها من رفع الحرج عن النبي ﷺ فيما أحل الله له وأن ذلك سنة الأسلاف من الأنبياء عليهم السلام.. الذين بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك ولا يخافون سواه.. جاءت الآيات بعد ذلك ترشد عباده المؤمنين عامة إلى تعظيمه تعالى وإجلاله بذكره بالتسبيح والصلاة له بكرة وأصيلاً فهو الذي يرحمهم، وملائكته يستغفرون لهم، كي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان لأنه سبحانه كان بعباده المؤمنين رحيماً فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ من التحريض على ذكره والتسبيح له والصلاة له سبحانه ما لا يخفى.. لأن الله الذي يذكره المؤمنون الذكر الكثير ويسبحونه بكرة وأصيلاً هو الذي يرحم عباده ويثني عليهم في الملأ من عباده وتستغفر

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٦٠-٢٨٦١) باختصار وتصرف.

لهم ملائكته.. وبرحمته وهدايته ودعاء الملائكة أخرج عباده المؤمنين من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ورحمهم في الدنيا بأن هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصَّرهم الطريق الذي حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر، وأما في الآخرة فإنه أمَّنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار[1].

وبعد عشر آيات[2] فيها تنويه بشأن النبي ﷺ والرفعة من مقداره بوصفه شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله، وسراجاً منيراً، أعقب ذلك ببيان أحكام معاملة أزواج النبي ﷺ وما يتعلق بذلك من شرع الحجاب والنهي عن دخول بيوت النبي ﷺ إلا لطعام يدعو المؤمنين إليه.. والنهي عن إيذاء النبي أو نكاح أزواجه من بعده.. جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفي التعقيب بهذه الآية وما فيها من الثناء والتشريف بمقام النبي ﷺ «إيماء إلى أن تلك الأحكام جارية على مناسبة عظمة مقام النبي عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى، وإلى أن لأزواجه من ذلك التشريف حظاً عظيماً، ولذلك كانت صيغة الصلاة عليه التي علمها للمسلمين مشتملة على ذكر أزواجه، وليجعل ذلك تمهيداً لأمر المؤمنين بتكرير ذكر النبي ﷺ بالثناء والدعاء والتعظيم، وذكر صلاة الملائكة مع صلاة الله ليكون مثالاً لصلاة أشرف المخلوقات على الرسول لتقريب درجة صلاة المؤمنين التي يؤمرون بها عقب ذلك، والتأكيد للاهتمام، ومجيء الجملة الاسمية لتقوية الخبر، وافتتاحها باسم الجلالة لإدخال المهابة والتعظيم في هذا الحكم.. ومجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيراً إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته.

ومن أسباب الصلاة عليه ﷺ أن يصلي عليه من جرى ذكره عنده، وكذلك في افتتاح الكتب والرسائل، وعند الدعاء، وعند سماع الأذان، وعند انتهاء المؤذن، وعند دخول المسجد، وفي التشهد الأخير»[3].

(١) تفسير المراغي (٢٢/ ١٧-١٩) بتصرف.
(٢) من الآية (٤٥-٥٥) من سورة الأحزاب.
(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٩٧-٩٩) بتصرف واختصار.

خامساً: سورة النساء:

وهي أطول سورة بعد سورة البقرة، وهي تمثل جانباً من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء المجتمع الإسلامي وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع، وتعرض نموذجاً من فعل القرآن في المجتمع الجديد الذي انبثق أصلاً من خلال نصوصه، والذي نشأ ابتداءً من خلال المنهج الرباني.. إن السورة تعمل بجد وجهد في محو ملامح المجتمع الجاهلي -الذي منه التقطت المجموعة المسلمة، ونبذ رواسبه، وفي تكييف ملامح المجتمع المسلم، وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه، وجلاء شخصيته الخاصة.. كما أنها تعمل على التعريف بأعدائه الراصدين له من حوله -من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود، وأعدائه المتميعين فيه- من ضعاف الإيمان والمنافقين وكشف وسائلهم وحيلهم ومكائدهم، وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم.

مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحدده.. على أساس التكامل والتراحم والتناصح والتسامح والأمانة والعدل والمودة والطهارة، ومحو الرواسب المتخلفة فيه من الجاهلية، وإنشاء وتثبيت الملامح الجديدة الوضيئة.

كما أنها تعمل بجد في تحقيق هدف آخر لا يقل عمقاً ولا أثراً في حياة المجتمع المسلم إن لم يكن هو الأساس الذي يقوم عليه الهدف الأول -ذلك هو تحديد معنى (الدين)، (وحد الإيمان وشرط الإسلام)، وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين، وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام[(١)].

وبدراسة وتتبع آيات الصلاة الواردة في هذه السورة نجد أنها تتناسق مع الأغراض والأهداف العامة التي تدور حولها السورة الكريمة، والمواضع الواردة هي:

١- قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء: ٤٣].

جاءت هذه الآية بعد آيات وصف فيها سبحانه الوقوف بين يديه يوم العرض والأهوال التي تؤدي إلى تمني الكافر العدم فيقول: يا ليتني كنت تراباً، والتي تجعله لا يستطيع أن يكتم الله حديثاً، وذكر أنه لا ينجو في ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٥٤-٥٦١) بتصرف واختصار.

والجوارح بالإيمان بالله والطاعة لرسوله ﷺ ووصف الله في هذه الآية الوقوف بين يديه في مقام الأنس، وحضرة القدس المنجي من هول الوقوف في ذلك اليوم، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلي الأعلى بألا تكون مشغولة بذكر غيره، طاهرة من الأنجاس والأخباث، لتكون على أتم العدة للوقوف في الموقف الرهيب، مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء.

والمعنى القريب للآية: لا تصلوا حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع فيها ما ستقرؤونه وما ستعلمونه، ذاك أن في حال السكر لا يتأتى الخشوع والخضوع والحضور مع الله بمناجاته بكتابه وذكره ودعائه.

وهذا الخطاب موجه إلى المسلمين قبل السكر بأن يجتنبوه إذا ظنوا أنهم سيصلون، ليحتاطوا فيجتنبوه في أكثر الأوقات، وقد كان هذا تمهيداً لتحريم السكر تحريماً باتاً لا هوادة فيه.. وهذا من التدرج في التشريع إذ من يتقي أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لتفرق الصلوات الخمس في هذه المدة، فلم يبق للسكر إلا وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر فيقل الشراب لمزاحمة النوم له.

ويفترق المعنى بين الأسلوبين ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ وبين «لا تصلوا وأنتم سكارى» إذ الأول: يتضمن النهي عن السكر الذي يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة فيفضي إلى أدائها في أثنائه.. والمعنى عليه: احذروا أن يكون السكر وصفاً لكم عند الصلاة عند حضور الصلاة فتصلوا وأنتم سكارى، فامتثال هذا النهي إنما يكون بترك السكر في وقت الصلاة وفيما يقرب منها، والثاني يتضمن النهي عن الصلاة حال السكر فحسب.

أما نهيهم عن الصلاة جنباً فلا يتضمن نهيهم عن الجنابة قبل الصلاة، لأنها من سنن الفطرة وإنما ينهاهم عن الصلاة في أثنائها حتى يغتسلوا ولهذا قال: ﴿جُنُبًا﴾ ولم يقل: «وأنتم جنب».

وحكمة الاغتسال من الجنابة، أن الجنابة تحدث تهيجاً في الأعصاب فيتأثر البدن كله ويحدث فتور وضعف فيه يزيله الاغتسال بالماء[(١)].

٢- ومما يتناسب مع موضوع السورة العام وأسلوبها الخاص في تربية المجتمع المسلم

(١) تفسير المراغي (٥/ ٤٥-٤٧) بتصرف واختصار.

في المدينة جاء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

جاءت هذه الآية في سياق آيات(١) فيها الأمر للمؤمنين بأخذ الحذر والاستعداد للقتال والنفر له، وذكر حال المبطئين الذين ضعفت قلوبهم، وأمرهم بالقتال في سبيله لإنقاذ المستضعفين.. وأن الإسلام كلفهم ترك ما كانوا عليه في الجاهلية من تخاصم وتلاحم وحروب مستمرة ولا سيما بين قبيلتيْ الأوس والخزرج، فإن الحروب بينهم لم تنقطع إلا بمجيء الإسلام، وأمرهم بكف أيديهم عن القتال والعدوان على غيرهم، وطلب إليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لما فيهما من تهذيب النفوس والعطف والرحمة حتى خمدت من نفوس كثير منهم حمية الجاهلية وحل محلها شريف العواطف الإنسانية إلى أن اشتدت الحاجة إلى القتال للذود عن بيضة الإسلام ودفع العدوان من أولئك المشركين الذين آذوا المسلمين وأحبوا فتنتهم في دينهم وردهم إلى ما كانوا عليه، ففرضه عليهم فكرهه المنافقون والضعفاء فنعى ذلك عليهم ووبخهم أشد التوبيخ(٢).

ويرجح صاحب (الظلال) يرحمه الله أن الآيات التي جاءت في سياقها هذه الآية أنها نزلت في وقت مبكر بعد غزوة أحد، وقبل الخندق حيث يقول: «فصورة الصف الإسلامي التي تبدو من خلال الآيات توحي بوجود جماعات منوعة داخل الصف، لم تنضج بعد، أو لم تؤمن إنما هي تنافق، وتوحي بأن الصف كان في حاجة إلى جهود ضخمة من التربية والتوجيه، ومن الاستنهاض والتشجيع، لينهض بالمهمة الضخمة الملقاة على عاتق الجماعة المسلمة والارتفاع إلى مستوى هذه المهمة سواء في التصورات الاعتقادية، أو في خوض المعركة مع المعسكرات المعادية.

والتدقيق في الآيات يجعلنا نرى كيف كان القرآن يخوض المعركة مع الضعف البشري ومع رواسب الجاهلية ومع المعسكرات المعادية في وقت واحد ونرى منهج القرآن في التربية وهو يعمل في النفوس الحية في عالم الواقع ونرى طرفاً من الجهد

---

(١) من الآية (٧١-٨٦) من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ...﴾.

(٢) تفسير المراغي (٥/ ٩٤) بتصرف.

الموصول الذي بذله هذا المنهج حتى انتهى بهذه المجموعة.. إلى ذلك التناسق والتكامل والارتفاع، الذي شهده في أواخر أيام الرسول ﷺ.

إن في الآية تعجيب من أمر طائفة كانت تشتد بهم الحماسة ليؤذن لهم في القتال حيث لم يكن مأذوناً لهم بعد فيه للحكمة التي يعلمها الله.. فلما كتب عليهم القتال بعد أن قامت للإسلام دولة، وعلم الله أن في هذا الإذن خيراً لهم وللبشرية إذا هم كما يصورهم القرآن ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾.

يمضي السياق ليعجب من شأن هؤلاء، في الأسلوب القرآني الذي يصور حالة النفس كما لو كانت مشهداً يُرى ويُحس، ويصحح لهم ولغيرهم سوء التصور والإدراك لحقائق الموت والحياة، والأجل والقدر، والخير والشر، والنفع والضر، والكسب والخسارة، والموازين والقيم، ويبين لهم حقائقها في أسلوب يصور الحقائق في صورتها الموحية المؤثرة.

ولعل من بعض ما اقتضت حكمة الله: أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.. لتتم تربيتهم وإعدادهم ولينتفع بكل إمكانيات الخطة، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها فلا يكون لذواتهم فيها حظ، لتكون خالصة لله، وفي سبيل الله»(١).

٣- وعلى عادة القرآن في تفنين أغراضه والتماس مناسباتها جاء قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠١-١٠٣].

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧١٠-٧١٥) باختصار وتصرف.

سبق هذه الآيات الثلاث حديث عن الجهاد والحث عليه لإقامة الدين وحفظه وإيجاب الهجرة لأجل ذلك، وتوبيخ من لم يهاجر من أرض لا يقدر على إقامة دينه فيها، والجهاد يستلزم السفر، وذكر هنا أحكام من سافر للجهاد، أو هاجر في سبيل الله إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن عنها، فبين أنه يجوز له أن يقصر منها وأن يصلي جماعتها بالطريقة التي ذكرت في الآية الثانية من هذه الآيات(١).

إن الضارب في الأرض في حاجة ماسة إلى الصلة الدائمة بربه، تعينه على ما هو فيه، وتكمل عدته وسلاحه فيما هو مقدم عليه، وما هو مرصود له في الطريق، والصلاة أقرب الصلات إلى الله، وهي العدة التي يدعى المسلمون للاستعانة بها في الشدائد والملمات، فكلما كان هناك خوف أو مشقة قال لهم:

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥].

«ومن ثم يجيء ذكرها هنا في إبانها المناسب، وفي وقت الحاجة إليها والاضطرار فما أحوج الخائف في الطريق إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله، وما أحوج المهاجر من أرضه أن يلتجئ إلى حمى الله.. غير أن الصلاة الكاملة -وما فيها من قيام وركوع وسجود- قد تعوق الضارب في الأرض عن الإفلات من كمين قريب أو قد تلفت إليه أنظار عدوه فيعرفوه، أو قد تمكن لهم منه وهو راكع أو ساجد فيأخذوه.. ومن ثم هذه الرخصة للضارب في الأرض أن يقصر من الصلاة عند مخافة الفتنة»(٢).

والآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة الخوف، وظاهر الآية أنه يقتضي الترخيص في أي سفر كان ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخيص في سفر المعصية تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع

(١) تفسير المراغي (٥/ ١٣٨).
(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٧).

في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب.. وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه[(١)].

إن المتأمل في أسلوب القرآن المدني وخصائصه، وفي أسرار المنهج الرباني للتربية المتمثل فيه، يطلع على عجب من اللفتات النفسية، النافذة إلى أعماق الروح البشرية ومنها هذه اللفتة في ساحة المعركة إلى الصلاة.

«إن السياق القرآني لا يجيء بهذا النص هنا لمجرد بيان الحكم «الفقهي» في صفة صلاة الخوف ولكنه يحشد هذا النص في جملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة، وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة ولكن هذا طبيعي بل بديهي في الاعتبار الإيماني، إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة، بل إنها السلاح! فلا بد من تنظيم استخدام هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة، وجو المعركة!

ولقد كان أولئك الرجال الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج ا لرباني يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح، لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ويشعرون أنه معهم في المعركة، متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله.

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو، وهذا الحذر الذي يوصى المؤمنون به تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم، ليميل عليهم ميلة واحدة! ومع هذا التحذير والتخويف، التطمين والتثبيت، إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قوماً كتب الله عليهم الهوان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ .. وهذا التقابل بين التحذير، والتطمين، وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم في مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم»[(٢)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٦٠-١٦١) بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٧٤٨) باختصار.

٤- ولما كان من خصائص الأسلوب في القرآن المدني الحديث عن المنافقين وطبائعهم وهتك أستارهم.. جاء في العشر الآيات الخاتمة للجزء الخامس[١] حديث عن النفاق والمنافقين يُدئ بتهكم واضح في استعمال كلمة ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [النساء: ١٣٨] مكان كلمة «أنذر»، وفي جعل العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين بشارة، ثم بيان سبب هذا العذاب الأليم وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين وسوء ظنهم بالله، وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة، وفي خلال هذه الحملة على المنافقين جاء قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

إن سياق الآية جاء بعد وعد قاطع مطمئن للمؤمنين، مخذِّل للمنافقين الذين يتولون الكافرين يبتغون عندهم العزة فقال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

والآية ترسم صورة رزية للمنافقين مصحوبة بالتهوين من شأنهم وبوعيد الله لهم، وهذه لمسة أخرى من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة، فإن هذه القلوب لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله فإن هذه القلوب تعرف أن الله سبحانه لا يُخدع وهو يعلم السر وأخفى، وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير، ومن ثم تشمئز وتستصغر كذلك هؤلاء المخادعين!

ويقرر عقب هذه اللمسة أنهم يخادعون الله ﴿وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ أي مستدرجهم وتاركهم لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم.. ثم يستمر السياق يرسم لهم صوراً زرية شائنة لا تثير في قلوب المؤمنين إلا الاشمئزاز والاحتقار[٢].

والآية وإن جاءت في سياق حديث مطول عن المنافقين فهي استئناف ابتدائي فيه زيادة بيان لمساويهم.. وتأكيد الجملة بحرف «إن» لتحقيق حالتهم العجيبة وتحقيق ما عقبها من قوله: ﴿وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ .. وقد سبق ذكر لمخادعة المنافقين لله تعالى في

---

(١) من الآية (١٣٧-١٤٧) من سورة النساء.

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٧٨٣-٧٨٤) باختصار وتصرف.

قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٨]، وزادت هذه الآية بقوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي: فقابلهم بمثل صنيعهم، فكما كان فعلهم مع المؤمنين المتبعين أمر الله ورسوله خداعاً لله تعالى، كان إمهال الله لهم في الدنيا حتى اطمأنوا وحسبوا أن حيلتهم وكيدهم راجا على المسلمين وأن الله ليس ناصرهم، وإنذاره المؤمنين بكيدهم حتى لا تنطلي عليهم حيلهم، وتقدير أخذه إياهم بآخرة، شبيهاً بفعل المخادع جزاءً وفاقاً.

فإطلاق الخداع على استدراج الله «استعارة تمثيلية» وحسنتها المشاكلة لأن المشاكلة لا تعدو أن تكون استعارة لفظ لغير معناه مع مزيد مناسبة مع لفظ آخر مثل اللفظ المستعار، فالمشاكلة ترجع إلى «التمليح» أي إذا لم تكن لإطلاق اللفظ على المعنى المراد علاقة بين معنى اللفظ والمعنى المراد إلا محاكاة اللفظ سميت مشاكلة كقول أحدهم:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه		قلت: اطبخوا لي جبة وقميصاً[(١)]

٥- وفي سياق بيان سوء حال اليهود وكفرهم وذكر تشديده عليهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فبتحريم طيبات كانت محلة لهم وأما الآخرة فأعد لهم عذاباً أليماً، وكان هذا مما يوهم أنه شامل لكل أفرادهم جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم..وأنهم آمنوا إيماناً صادقاً وعملوا الصالحات فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ووعدهم بالأجر العظيم يوم القيامة قال تعالى:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

وحقيقة الراسخ: الثابت القدم في المشي لا يتزلزل، واستعير للتمكن من الوصف مثل العلم بحيث لا تغره الشبه.. والراسخ في العلم بعيد عن التكلف والتعنت، فليس بينه وبين الحق حاجب فهم يعرفون دلائل صدق الأنبياء ولا يسألونهم خوارق العادات، وعطف «المؤمنون» على «الراسخون» ثناء عليهم بأنهم لم يسألوا نبيهم أن يريهم الآيات الخوارق للعادة فلذلك قال: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ أي جميعهم ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي القرآن وكفاهم به آية، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ على الرسل، ولا يعادون رسل الله تعصباً وحمية.

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣٩).

والمراد بالمؤمنين في قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الذين هداهم الله للإيمان من أهل الكتاب ولم يكونوا من الراسخين في العلم منهم، مثل اليهودي الذي كان يخدم رسول الله ﷺ وآمن به.

وعطف «المقيمين» بالنصب ثبت في المصحف الإمام، وقرأه المسلمون في الأقطار دون نكير، وهو طريقة عربية في عطف الأسماء الدالة على صفات محامد، على أمثالها، فيجوز في بعض المعطوفات النصب على التخصيص بالمدح، والرفع على الاستئناف للاهتمام، كما فعلوا ذلك في النعوت المتتابعة، سواء كانت بدون عطف أم بعطف، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال سيبويه في (كتابه) باب ما ينتصب في التعظيم والمدح: وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول، وإن شئت قطعته فابتدأته.. ثم قال: ونظيره قول الخرنق:

لا يبعدن قومي الذين همو ... سُم العُداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك ... والطيبين معاقد الأزر

والظاهر أن هذا مما يجري على قصد التفنن عند تكرر المتابعات، ولذلك تكرر وقوعه في القرآن كما في سورة البقرة، وفي هذه الآية وفي قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ في سورة المائدة[(١)].

سادساً: سورة الرعد:

هذه السورة مكية في قول مجاهد وروايته عن ابن عباس ورواية علي بن أبي طلحة وسعيد بن جبير عنه، وهو قول قتادة، وعن ابن جريج وقتادة في رواية عنه وعن ابن عباس أيضاً وعكرمة والحسن البصري، وعن عطاء عن ابن عباس أنها مدنية.

قال ابن عطية: والظاهر عندي أن المدني فيها كثير وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وإربد بن ربيعة فهو مدني[(٢)].

وأكد ذلك صاحب (التحرير والتنوير) وذكر عدة أمثلة لأشبه الآيات بأن يكون مدنياً ثم قال: «ومعانيها جارية على أسلوب معاني القرآن المكي من الاستدلال على الوحدانية وتقريع المشركين وتهديدهم.. ولا مانع من أن تكون مكية ومن آياتها نزلت

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٨-٢٩) باختصار وتصرف، ويُنظر: الكشاف (٢٧١).
(٢) المحرر الوجيز (١٠٢٦).

بالمدينة وألحقت بها، فإن ذلك في بعض سور القرآن، فالذين قالوا: هي مكية لم يذكروا موقعها من ترتيب المكيات سوى أنهم ذكروها بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم والذين جعلوها مدنية عدوها في النزول بعد سورة القتال وقبل سورة الرحمن وعددها سابعة وتسعين في عداد النزول، وإذ قد كانت سورة القتال نزلت عام الحديبية أو عام الفتح تكون سورة الرعد بعدها»[(١)].

وعلى كل حال فإنه قد جاء في سياق آيات من هذه السورة وصف لأولي الألباب بصفات عشر من ضمنها إقامة الصلاة، وهذه الصفات أكثرها جاء في سور مدنية كما سبق وأن تكلمت عنها في فصل «**الأعمال الصالحة التي قرنت مع الصلاة**» وهذا ما يرجح لدي أن أسلوب هذه الآيات أشبه بالمدني منه بالمكي.

والآيات هي: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٤].

إن هذه الآيات لها ارتباط وثيق بأول آية في السورة حيث خاطب الله نبيه قائلاً:

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

إن هؤلاء العالمين بحقائق الوحي هم الفضلاء الذين استقامت سيرتهم بعدما استنارت سريرتهم وقد أحصت هذه الآيات صفاتهم ساقتها في عشر وصايا من استجمعها كان أهلاً للجزاء الأوفى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وأولى هذه الوصايا: العقل الناضج، وثانيتها: الوفاء بالعهد الأعظم المأخوذ على الفطرة البشرية أن تتجه إلى ربها ولا تشرك به شيئاً[(٢)].

إن المقابل لمن يعلم أن ما أنزل الله هو الحق ليس هو من لا يعلم، إنما المقابل هو الأعمى، وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق، وهو الحق في الوقت

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٧٦).

(٢) يُنظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن لمحمد الغزالي (١٨٧).

ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف، فالعمى وحده هو الذي ينشيء الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى.. والعمى عمى البصيرة، وانطماس المدارك، واستغلاق القلوب، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح وانفصالها عن مصدر الإشعاع.. ولا يتذكر إلا الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكّر بالحق فتتذكر، وتنبه إلى دلائله فتتفكر.. وذكرت الآيات أن من صفاتهم أنهم أقاموا الصلاة .. وهي داخلة في الوفاء بعهد الله وميثاقه، ولكنه يبرزها لأنها الركن الأول لهذا الوفاء، ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله، ولأنها الصلة الظاهرة بين العبد والرب، الخالصة له ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه[(١)].

سابعاً: سورة البينة:

وردت تسمية هذه السورة في كلام النبي ﷺ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال: وسماني لك؟ قال: نعم. فبكى)[(٢)].

وقد اختلف في أنها مكية أو مدنية، وجزم ابن كثير ورجح غيره من المفسرين[(٣)] بأنها مدنية وهو الأظهر لكثرة ما فيها من تخطئة أهل الكتاب.. وهذا من خصائص الأسلوب المدني.. ومن أغراضها: توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ﷺ، والتعجيب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم كفروا بها، وتكذيبهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها ووعيدهم بعذاب الآخرة، والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية، والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ووعدهم بالنعيم الأبدي ورضا الله عنهم وإعطائه إياهم ما يرضيهم، وتخلل ذلك تنويه بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسل من قبله ﷺ، وما فيه من فضل وزيادة[(٤)].

والسورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريري هو الذي يرجح

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٥٦-٢٠٥٨) باختصار وتصرف.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة (لم يكن) البينة ، رقم (٤٩٥٩) (٣/ ٣٢٩) وصحيح مسلم، كتاب ، باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار رضي الله عنهم، رقم (٧٩٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٠١٨) وزاد المسير (١٥٧٥).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٨).

أنها مدنية إلى جانب الروايات القائلة بذلك.

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة.

والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعدما جاءهم العلم وجاءتهم البينة.

والحقيقة الثالثة: أن الدين في أصله واحد، وقواعده بسيطة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة.

والحقيقة الرابعة: أن الذين كفروا بعدما جاءتهم البينة هم شر البرية، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافاً بيناً.

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة وفي التصور الإيماني كذلك[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

إبطال لتنصل أهل الكتاب من متابعة الإسلام بعلة أنهم لا يتركون ما هم عليه حتى تأتيهم البينة وزعمهم أن البينة لم تأتهم.

وهو إبطال بطريق القول بالموجب في الجدل، أي: إذا سلمنا أنكم مُوصون بالتمسك بما أنتم عليه لا تنفكون عنه حتى تأتيكم البينة، فليس في الإسلام ما ينافي ما جاء به كتابكم يأمر بما أمر به القرآن، وهو عبادة الله وحده دون إشراك، وذلك هو الحنيفية وهي دين إبراهيم الذي أخذ عليهم العهد به، فذلك دين الإسلام وذلك ما أمرتم به في دينكم.

والتعبير بالفعل المسند للمجهول مفيد معنيين:

الأول: أي ما أمروا في كتابهم إلا بما جاء به الإسلام، فالمعنى: وما أمروا في التوراة والإنجيل إلا أن يعبدوا الله مخلصين إلى آخره، فإن التوراة أكدت على اليهود

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٤٧-٣٩٤٨) باختصار.

تجنب عبادة الأصنام، وأمرت بالصلاة وأمرت بالزكاة أمراً مؤكداً مكرراً..
والإنجيل لم يخالف التوراة.

والآخر: وما أمروا في الإسلام إلا بمثل ما أمرهم به كتابهم فلا معذرة لهم في الإعراض عن الإسلام على كلا التقديرين.

وإقامة الصلاة من أصول شريعة التوراة كل صباح ومساء.

و ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ الإضافة على بابها، والمعنى: أي دين الأمة القيمة أو دين الكتب القيمة وهذا إلزام لهم بأحقية الإسلام وأنه الدين القيم[(١)].

ثامناً: سورة النور:

هذه السورة كلها مدنية كما يقول ابن عطية وغيره[(٢)]، والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقى إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة، والهدف واحد في الشدة واللين هو تربية الضمائر، واستجاشة المشاعر، ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة حتى تشف وترف، وتتصل بنور الله.. وتتداخل الآداب النفسية الفردية، وآداب البيت والأسرة، وآداب الجماعة والقيادة، بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله، وهي في صميمها نور وشفافية وإشراق وطهارة، تربية عناصرها من مصدر النور الأول في السماوات والأرض نور الله الذي أشرقت به الظلمات، في السماوات والأرض، والقلوب والضمائر، والنفوس والأرواح[(٣)].

وفي هذه السورة تظهر خصائص الأسلوب المدني واضحة جلية، وذلك من خلال الآيات التي ذكرت فيها الصلاة والسياق الذي جاءت فيه، حيث جاء:

١- قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٧٩-٤٨٢) بتصرف واختصار، ويُنظر: الكشاف (١٢١٥).

(٢) المحرر الوجيز (١٣٤٢) وزاد المسير (٩٨٤) ومعالم التنزيل (٨٩٠).

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٨٦).

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

جاءت هذه الآيات بعد دروس مطولة عالج السياق فيها أغلظ ما في الكيان البشري ليرققه ويطهره ويرتفع به إلى آفاق النور، عالج عرامة اللحم والدم، وشهوة العين والفرج، ورغبة التجريح والتشهير ودفعة الغضب والغيظ، وعالج الفاحشة أن تشيع في النفس وأن تشيع في الحياة، وأن تشيع في القول، عالجها بتشديد حد الزنا، وحد القذف، وعالجها بعرض نموذج شنيع فظيع من رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، وعالجها بالوسائل الواقية بالاستئذان على البيوت وغض البصر وإخفاء الزينة، والنهي عن مثيرات الفتنة وموقظات الشهوة، ثم بالإحصان ومنع البغاء وتحرير الرقيق.. وذلك لتهيئة النفوس للأخذ بوسائل العفة والاستعلاء والشفافية والإشراق، وتخرج من التيه وتثوب إلى ربها شاكرة فضله ورحمته وهدايته.. بهذا التعليم وهذا التهذيب وهذا التوجيه ربى القرآن المدني الكيان البشري حتى أشرق بالنور، وتطلع إلى الأفق الكبير، واستشرف النور الكبير في آفاق السماوات والأرض، وهو على استعداد لتلقي الفيض الشامل الغامر في عالم كله إشراق، وكله نور فجاء قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥].

إن ذلك النور الطليق الشائع في السماوات والأرض، الفائض في السماوات والأرض، يتجلى ويتبلور في بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرد له وتؤثره على كل مغريات الحياة.

وهناك صلة تصويرية بين مشهد «المشكاة» ومشهد «البيوت» على طريقة التناسق القرآنية في عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب، وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور في المشكاة، والقلوب المشرقة بالنور في بيوت الله.

تلك البيوت ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ وإذن الله هو أمر للنفاذ، فهي مرفوعة قائمة وهي مطهرة رفيعة يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السماوات والأرض وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور الوضيء، وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة، المسبحة الواجفة المصلية الواهبة، قلوب الرجال الذين لا تلهيهم التجارة والبيع لتحصيل الكسب والشراء عن أداء حق الله في

الصلاة، وأداء حق العباد في الزكاة(١).

ومن أساليب القرآن المدني وخصائصه الواضحة في هذه السورة عرض بعض مشاهد الإيمان والهدى والنور في الكون الفسيح، ومن ذلك:

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

جاءت هذه الآية عقب آيات(٢) ضرب الله فيها المثل بأهل الضلالة وكيف حرمهم الهدى.. حيث يجب النظر والاعتبار كيف هدى الله تعالى كثيراً من أهل السماوات والأرض إلى تنزيهه المقتضي الإيمان به وحده، وبما ألهم الطير إلى أصواتها المعربة عن بهجتها بنعمة وجودها ورزقها الناشئين عن إمداد الله إياها بهما فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح الله وتنزيهه عن الشريك، فأصواتها تسبيح بلسان الحال(٣).

إن الإنسان ليس مفرداً في هذا الكون الفسيح، فإن من حوله، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته، وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال.. إخوان له من خلق الله، لهم طبائع شتى، وصور شتى، وأشكال شتى، ولكنهم بعد ذلك يلتقون في الله، ويتوجهون إليه، ويسبحون بحمده.

والقرآن يوجه الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله وإلى من حوله من خلق الله في السماوات والأرض وهم يسبحون بحمده وتقواه، ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد في كل يوم يراه، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه، ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبح بحمد الله.. والإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسبيح ربه، وهو أجدر خلق الله بالتسبيح والصلاة.

وإن الكون ليبدو في هذا المشهد الخاشع متجهاً كله إلى خالقه، مسبحاً بحمده، قائماً بصلاته، وأنه لكذلك في فطرته، وفي طاعته لمشيئة خالقه الممثلة في نواميسه، وإن الإنسان ليدرك حين يشف هذا المشهد ممثلاً في حسه كأنه يراه، وإنه ليسمع دقات هذا الكون

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥١٨-٢٥٢٠) باختصار وتصرف كبير.
(٢) سورة النور من الآية (٣٩، ٤٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٥٧-٢٥٨).

وإيقاعاته تسابيح لله، وإنه ليشارك كل كائن في هذا الوجود صلاته ونجواه[(١)].

ومن خصائص الأسلوب المدني التي تظهر في هذه السورة مجيء:

٣- قولـه تعـالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

حيث جاءت تعقيباً على وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ﷺ أن يستخلفهم في الأرض وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً.. فعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة، وبألا يحسب الرسول ﷺ وأمته حساباً لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذي ارتضى لهم.

إن العدة الحقيقية التي يربي عليها القرآن أتباعه هي الاتصال بالله وتقويم القلب بإقامة الصلاة، والاستعلاء على الشح، وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ والرضا بحكمه، وتنفيذ شريعة الله في الصغيرة والكبيرة وتحقيق النهج الذي أراده للحياة وختم الآية بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال، وفي الآخرة من الغضب والعذاب والنكال، وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحات فأهمها بالتصريح وسائرها بعموم حذف المتعلق بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي في كل ما يأمركم وينهاكم، ورتب على ذلك رجاء حصول الرحمة لهم في الدنيا والآخرة[(٢)].

كما تحدثت سورة النور عن بعض دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وربطها بمواقيت الصلاة وذلك في:

٤- قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

إن الإسلام منهاج حياة كامل فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٢١-٢٥٢٢) باختصار.

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٨٩).

وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية، وهذا من أظهر خصائص الأسلوب المدني.

لقد سبقت في السورة أحكام الاستئذان على البيوت وفي هذه الآية بيَّن أحكام الاستئذان في داخل البيوت، فالخدم والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة، فيجب أن يستأذنوا فيها، وهذه الأوقات هي:

١- الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج.

٢- وقت الظهيرة حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب الراحة.

٣- بعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب النوم.

إن إيجاب الاستئذان في هذه الأوقات كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم، وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر بينما يقرر النفسيون أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها.

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب، سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب، نظيفة التصورات، ويعقب على الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر وما يصلحها من الآداب، ومقام حكمته كذلك في علاج النفوس والقلوب[(١)].

تاسعاً: سورة الحج:

اختُلف في هذه السورة: هل هي مكية أم مدنية؟ أم كثير منها مكي وكثير منها مدني؟ وقال الجمهور: هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني، وهي مختلطة: أي لا

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٣٢) باختصار.

يعرف المكي بعينه، والمدني بعينه، قال ابن عطية: وهذا الأصح[(١)].

ويقول ابن عاشور: «ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة فإن افتتاحها بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جارٍ على سنن فواتح السور المكية، وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكة ومع هذا فليس الافتتاح بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بمعين أن تكون مكية، وإنما قال ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يراد به المشركون، ولذا فيجوز أن يوجه الخطاب به إلى المشركين في المدينة في أول مدة حلول النبي ﷺ بها، فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الحج: ٢٥] يناسب أنه نزل بالمدينة حيث صد المشركون النبي والمؤمنين عن البقاء معهم بمكة، وكذلك قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] فإنه صريح في أنه نزل في شأن الهجرة.. ولذلك فأنا أحسب هذه السورة نازلاً بعضها آخر مدة مقام النبي ﷺ بمكة.. وأن بقيتها نزلت في مدة مقام النبي ﷺ بالمدينة»[(٢)].

وأول موضوع في السورة جاء ذكر الصلاة فيه باللفظ هو قوله تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلۡنَا مَنسَكًا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

جاءت وسط آيات[(٣)] تتحدث عن الذين كفروا وكيف أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، وتستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس جميعاً، يستوي في ذلك المقيمون به والطارئون عليه.. وبهذه المناسبة يذكر طرفاً من قصة بناء البيت، وتكليف إبراهيم عليه السلام أن يقيمه على التوحيد، وأن يطهره من رجس الشرك ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى في القلوب وهي الهدف المقصود.. ويختم الآيات بالإذن للمؤمنين بالقتال لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا: ربنا الله.

(١) المحرر الوجيز (١٢٩٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٠-١٨٢) باختصار.
(٣) من الآية (٢٥-٤١).

إن الآيات التي معنا وجاء ذكر الصلاة فيها تؤكد على أن الإسلام يوحِّد المشاعر والاتجاهات ويتوجه بها كلها إلى الله ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل، والنشاط والعبادة والحركة والعادة إلى الوجهة الواحدة وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العبادة، وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به، وحتم ذكر اسم الله عليها، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الفرض البارز، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله، ثم يعقب بتقرير الوحدانية وبالأمر بالإسلام له وحده ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ وليس هو إسلام الإجبار والاضطرار، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فبمجرد ذكر اسم الله يحصل الوجل في ضمائرهم ومشاعرهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فهم يعبدون الله حق عبادته، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فهم لا يضنون على الله بما في أيديهم.

وهكذا نرى في أسلوب هذه الآيات كيف أنها تربط بين العقيدة والشعائر، فهي منبثقة من العقيدة وقائمة عليها، والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها، والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ولا تتمزق النفس الإنسانية في شتى الاتجاهات[(١)].

وفي آخر الآيات جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وهي اعتراض بين جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ وبين قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ حيث تضمنت الجملة الأولى الإذن للمسلمين بدفاع المشركين عنهم أتبع ذلك ببيان الحكمة في هذا الإذن بالدفاع مع التنويه بهذا الدفاع والمتولين له بأنه دفاع عن الحق والدين، ينتفع به جميع أهل أديان التوحيد من اليهود والنصارى والمسلمين، وليس هو دفاعاً لنفع المسلمين خاصة.. ولعل المعنى المراد هنا: لولا ما سبق قبل الإسلام من إذن الله لأمم التوحيد بقتال أهل الشرك «كما قاتل داود جالوت، وكما تغلب سليمان على ملكة سبأ» لمحق المشركون معالم التوحيد «كما محق

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٢-٢٤٢٣) بتصرف واختصار.

بختنصر هيكل سليمان».. وأذن الله للمسلمين بالقتال كما أذن للأمم قبلهم لكيلا يطغى عليهم المشركون كما طغوا على من قبلهم حين لم يأذن الله لهم بالقتال.

وإضافة الدفاع إلى الله إسناد مجازي عقلي لأنه أذن للناس أن يدفعوا عن معابدهم فكان إذن الله سبب الدفع، وهذا يهيب بأهل الأديان إلى التألب على مقاومة أهل الشرك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ضمان لهم بالنصر في ذلك الدفاع لأنهم بنصرهم ينصرون دين الله فكأنهم نصروا الله، ولذلك أكد الجملة بلام القسم ونون التوكيد(١).

ثم جاء قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وهي مسوقة للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بها أمر الله به من أصول الإسلام فإن بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرطوا في ضمان نصرهم وأمرُهم إلى الله، فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم(٢).

وفي آخر آيتين من سورة الحج ختمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم وينوه بشأنهم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها، ويقرر مكانها الذي قدره لها، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل، متى استقامت على النهج الذي أراده الله لها.

إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود، وهما ركنا الصلاة البارزان، ويكنى عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة، وحركة ظاهرة في التعبير، ترسمها

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٦-٢٧٩) باختصار وتصرف.

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٠).

مشهداً شاخصاً وهيئة منظورة، لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثراً وأقوى استجاشة للشعور، ويثني بالأمر العام بالعبادة وهي أشمل من الصلاة، فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله، فكل نشاط المسلم في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله، حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات، وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات.. ويختم بفعل الخير عامة، في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ تعبير شامل جامع دقيق، يصور تكليفاً ضخماً يحتاج إلى تلك التعبئة، وهذه الذخيرة وذلك الإعداد.. والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء وجهاد النفس وجهاد الشر والفساد.. كلها سواء[1].

وقوله: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ واقعة موقع العلة لما أمروا به ابتداء من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ أي: لأنه لما اجتباكم كان حقيقاً بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها.

والاجتباء: الاصطفاء والاختيار، أي هو اختاركم لتلقي دينه ونشره ونصره على معانديه، فيظهر أن هذا موجه لأصحاب رسول الله ﷺ أصالة ويشركهم فيه كل من جاء بعدهم بحكم اتحاد الوصف في الأجيال كما هو الشأن في مخاطبات التشريع.

وأعقب ذلك بتفضيل هذا الدين المستتبع تفضيل أهله بأن جعله ديناً لا حرج فيه لأن ذلك يسهل العمل به مع حصول مقصد الشريعة من العمل فيسعد أهله بسهولة امتثاله.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

تفريع على جملة ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ وما بعدها، أي: فاشكروا الله بالدوام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله.. لأنه هو المولى، والمولى يُعتصَم به ويرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته.. وفرع عليه إنشاء الثناء على الله بأنه أحسن مولى وأحسن

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٥-٢٤٤٦) بتصرف واختصار.

نصير، أي: نعم المدبر لشؤونكم، ونعم الناصر لكم، ونصير: صيغة مبالغة في النصر، أي نعم المولى لكم ونعم النصير لكم، وأما الكافرون فلا يتولاهم تولي العناية ولا ينصرهم.

وهذا الإنشاء يتضمن تحقيق حسن ولاية الله تعالى وحسن نصره وبذلك الاعتبار حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به.

وهذه الآية من براعة الختام لسورة الحج حيث كان خطاب المشركين فاتحاً لهذه السورة وشاغلاً لمعظمها عدا ما وقع اعتراضاً في خلال ذلك، فقد خوطب المشركون بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أربع مرات وعند استيفاء ما سبق إلى المشركين من الحجج والقوارع والنداء على مساوئ أعمالهم ختمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم وينوه بشأنهم[(١)].

عاشراً: سورة المجادلة:

يظهر بوضوح في هذه السورة أسلوب القرآن المدني مع الجماعة المسلمة الناشئة حيث تربي وتُقَوِّم، وتعد للنهوض بدورها العالمي، بل بدورها الكوني، الذي قدره الله لها في دورة هذا الكون ومقدراته.. ولقد كان أولئك المسلمون الذين يُعِدُّهم القدر لهذا الدور الضخم ناساً من الناس منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم واكتمل تصورهم للعقيدة ا لجديدة، وخلصت نفوسهم لها.. ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد حيث دخل في الإسلام من لم يتلق من التربية القسط الكافي، ولم يتنفس في الإسلام فترة طويلة، كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دخل في القلوب، وتربص بالفرص، وذبذبة بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين.

كما يظهر في هذه السورة طرفٌ من تلك الجهود الضخمة، وطرفٌ من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس، وفي علاج الأحداث والعادات والنزوات، كما تشهد جانباً من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين[(٢)].

وقد جاء ذكر الصلاة في سياق تربية النفوس المؤمنة على الأخذ بأدب السماحة

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٩-٣٥٣) باختصار وتصرف.

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٠٣-٣٥٠٤) بتصرف واختصار.

والطاعة في مجلس الرسول ﷺ، ومجالس العلم والذكر، والأخذ بأدب السؤال والحديث معه ﷺ بكل جد وتوقير فجاء قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٢، ١٣].

كان الصحابة رضوان الله عليهم يتنافسون في القرب من مجلس الرسول ﷺ لسماع أحاديثه ولمناجاته في أمور الدين، وأكثروا في ذلك حتى شق عليه ﷺ، وشغلوا أوقاته التي يجب أن تكون موزعة بين إبلاغ الرسالة والعبادة، والقيام ببعض وظائفه الخاصة، فإنه بشر يحتاج إلى قسط من الراحة، وإلى التحنث إلى ربه في خلواته، من أجل ذلك نزلت هذه الآيات آمرة بوجوب تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ﷺ والحديث معه لما في ذلك من منافع ومزايا منها:

١- إعظام الرسول ﷺ وإعظام مناجاته، فإن الشيء إذا نيل مع المشقة استعظم، وإذا نيل بسهولة لم يكن له منزلة ورفعة شأن.

٢- نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقات المقدمة قبل المناجاة.

٣- تمييز المنافقين الذين يحبون المال ويريدون عرض الدنيا -من المؤمنين حق الإيمان الذين يريدون الآخرة وما عند الله من نعيم مقيم.

روى ابن عباس وغيره: أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه وأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل هذه الآيات فكف كثير من الناس عن المناجاة[(١)].

وقد عمل بهذه الآية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فكان معه -كما روي عنه- دينار فصرفه دراهم وكان كلما أراد خلوة برسول الله ﷺ لأمر تصدق بدرهم[(٢)].

ولكن الأمر شق على المسلمين وعلم الله ذلك، وكان الأمر قد أدى غايته، وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها فخفف الله عنهم ونزلت الآية التي بعدها برفع

(١) تفسير القرآن العظيم (١٨٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٨٤٢).

التكليف وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب.

ومن أهمها الصلاة حيث أمرهم بأدائها وإقامتها على أكمل الوجوه لما فيها من الإخبات إلى الله والإنابة إليه والإخلاص له في القول والعمل، ونهيها عن الفحشاء والمنكر، ولما في الزكاة من تطهير النفوس وإزالة الشح بالمال المستحوذ على القلوب الدافع لها إلى ارتكاب الشرور والآثام.. كما أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به من الفرائض والواجبات، وينهاهم عنه من الموبقات.

وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فهو محيط بنواياكم وأعمالكم ومجازيكم بما قدمتم لأنفسكم من خير أو شر كما قال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

حادي عشر: سورة الجمعة:

وهي مدنية بالاتفاق.. وكان فرض صلاة الجمعة متقدماً على وقت نزول السورة فإن النبي ﷺ فرضها في خطبة خطب بها للناس وصلاها في أول يوم جمعة بعد الهجرة في دار لبني سالم بن عوف، وثبت أن أهل المدينة صلوها قبل قدوم رسول الله ﷺ فكان فرضها ثابتاً بالسنة قولاً وفعلاً، وما ذكر في هذه السورة من قوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة: ٩] ورد مورد التأكيد لحضور صلاة الجمعة وترك البيع والتحذير من الانصراف عن الصلاة قبل تمامها.

وافتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعة استهلال لأن الغرض الأول من السورة التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها، وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصاً على الابتياع من عير وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة[(١)].

وأسلوب هذه السورة واتجاهها العام يُقر في أخلاد الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المختارة أخيراً لحمل أمانة العقيدة الإيمانية، وأن هذا فضل من الله عليها وأن بعثة الرسول الأخير ﷺ في الأميين -وهم العرب- منة كبرى تستحق الالتفات والشكر، وتقتضي كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التي استجابت للرسول ﷺ، وحملت الأمانة، وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا مُنْبَتَّة، فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد، بعد

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٤-٢٠٦) باختصار وتصرف.

ما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء.. وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفاراً ولا وظيفة له في إدراكها ولا مشاركة له في أمرها!

وفي الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة في تلك الجماعة الأولى، في أثناء عملية البناء النفسي العسيرة المتطاولة الدقيقة، وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة في الربح وموروثات البيئة والعرف، وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى، والاستعداد النفسي لها.. والآيات التي معنا في آخر هذه السورة تشير إلى حادث معين، حيث كان رسول الله ﷺ يخطبهم في المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذي كانت القافلة تحاط به -على عادة الجاهلية- من ضرب الدفوف وحداء! وتركوا رسول الله ﷺ قائماً -فيما عدا اثني عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون! كما تذكر الروايات، التي قد لا تكون دقيقة من حيث العدد، ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه لها في القرآن الكريم[(١)].

وهي حادثة تكشف بذاتها عن مدى الجهد الذي بذل في تربية تلك الجماعة الأولى حتى انتهت إلى ما انتهت إليه، وحتى صارت ذلك النموذج الفريد في تاريخ الإسلام وفي تاريخ البشرية جميعاً، وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس في أي جيل من الأجيال، لتكوين الجماعة المسلمة التي تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة وتحاول تحقيقها في عالم الواقع كما حققتها الجماعة الأولى[(٢)].

ثاني عشر: سورة المائدة:

وتسمى سورة العقود، وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم متصلاً بالتشريع، وقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبئ بأنها أنزلت لاستكمال شرائع الإسلام ولذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود، أي بما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام من التزام ما يؤمرون به، فقد كان النبي ﷺ يأخذ البيعة على الصلاة والزكاة

---

(١) يُنظر بعضها في: تفسير القرآن العظيم (١٨٧٥) وغيره من التفاسير.

(٢) يقارن مع: في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٦٢-٣٥٦٣).

والنصح لكل مسلم كما في حديث جابر بن عبدالله في (الصحيح)[(١)].

كما احتوت على تمييز الحلال من الحرام في المأكولات، وعلى حفظ شعائر الله في الحج والشهر الحرام، والنهي عن بعض المحرمات من عوائد الجاهلية مثل الأزلام، وفيها: شرائع الوضوء، والغسل، والتيمم، والأمر بالعدل في الحكم، والأمر بالصدق في الشهادة وأحكام القصاص في الأنفس والأعضاء.. وتسلية الرسول ﷺ عن نفاق المنافقين، وتحريم الخمر والميسر، والأيمان وكفارتها، والحكم بين أهل الكتاب، وأصول المعاملة بين المسلمين، وبين أهل الكتاب، وبين المشركين والمنافقين.. والأمر بتخلق المسلمين بما يناقض أخلاق الضالين في تحريم ما أحل الله لهم، والتنويه بالكعبة وفضائلها وبركاتها على الناس، والتذكير للمسلمين بنعم الله تعالى، والتعريض بما وقع فيه أهل الكتاب من نبذ ما أُمروا به والتهاون فيه.. وختمت بالتذكير بيوم القيامة وشهادة الرسل على أممهم وشهادة عيسى على النصارى وتمجيد الله تعالى[(٢)].

والطابع العام لأسلوب هذه السورة هو طابع التقرير والحسم في التعبير.. سواء في ذلك الأحكام الشرعية التي تقتضي بطبيعتها التقرير والحسم في القرآن كله، أو المبادئ والتوجيهات التي قد تتخذ في غير هذه السورة أسلوباً آخر ولكنها في هذه السورة تقرر في حسم وصرامة في أسلوب التقرير الدقيق، وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة من بدئها إلى منتهاها[(٣)].

وقد ورد ذكر الصلاة في ست آيات من هذه السورة والآيات هي:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦].

٢- ﴿۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ١٢].

٣- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم (٥٦) عن جرير رضي الله عنه.

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٧٢، ٧٣) باختصار.

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٨٣٣) بتصرف.

٤- ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

٥- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وأول ما يلاحظ على الآيات وسياقها أن اثنتين منها صدرتا بالنداء للذين آمنوا، والأربع الباقية منها جاءت تلي آية سابقة لها صدرت بالنداء، ومن المعلوم أن هذه السورة المباركة اشتملت على ستة عشر نداءً للذين آمنوا، ونداءين للنبي ﷺ وخمسة نداءات لأهل الكتاب بعضها مباشر وبعضها بوساطة الرسول الكريم ﷺ، وهذه النداءات تعقبها إفادات وإضاءات وتعليمات وتوجيهات تحتاج إليها الجماعات حتى تقوم بأمر الله وتستقيم على منهاجه.

كما أن السورة نفسها صدرت بنداء الذين آمنوا وأمرهم بالإيفاء بالعقود وهذا «مؤذن بأن سترد بعده أحكام أو عقود كانت عقدت من الله على المؤمنين إجمالاً وتفصيلاً ذكرهم بها لأن عليهم الإيفاء بما عاقدوا الله عليه»(١).

كما يلاحظ أن أول آية جاءت في الصلاة هي نداء للذين آمنوا بالوضوء قبل الصلاة.. والصلاة نفسها هي أول بنود الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل كما جاء في الآية الثانية من الآيات الست التي معنا(٢).

وفي الآية الثالثة: أمر للمؤمنين بقصر ولايتهم على المؤمنين الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً وأخلصوا لله بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها وأحسنوا للخلق وبذلوا الزكاة لمستحقيها منهم، والتبري من ولاية غيرهم.

وفي رابعة الآيات: تهييج على عداوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار الذين يقدحون في دين الإسلام ويتخذونه هزواً ولعباً خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر الإسلام وأجل عباداته وذلك أنهم إذا سمعوا النداء لها اتخذوها هزواً ولعباً

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٧٤).
(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (٧٢).

وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، إن من علم حال الكفار وشدة معاداتهم له ولشعائر دينه وجب عليه معاداتهم، ومن لم يعادهم بعد هذا، دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء[(١)].

وفي خامس الآيات: حث للمؤمنين على تقوية المحبة بينهم والبعد عن الأشياء التي توجب العداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها خصوصاً الخمر والميسر ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.. كما أنها تصد القلب وتبعد البدن عن ذكر الله وعن الصلاة اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد ويشتغل قلبه، ويذهل لبه في الاشتغال بهما حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري شيئاً، فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها وتجعله من أهل الخبث وتوقعه في أعمال الشيطان فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة[(٢)].

أما الآية السادسة: ففيها حكم شرعي: في أنه لو وجبت الشهادة في حال الوصية على اثنين من غير المسلمين أن يحضرا عقب أدائهما صلاتهما التي يعظمونها فيقسمان بالله على ما استشهدوا عليه لأن ذلك قريب من إقبالهما على خشية الله والوقوف لعبادته كما نقل ذلك السدي عن ابن عباس[(٣)].

وتحتمل الآية أن المراد بالصلاة صلاة من صلوات المسلمين وبذلك فسرها جماعة من أهل العلم، وروي أن النبي ﷺ أحلف تميماً الداري وعدي بن بداء بعد صلاة العصر[(٤)].

كما يلاحظ على أسلوب هذه السورة أنه في ظل الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء يجيء ذكر الصلاة، وأحكام الطهارة لها كما هو في الآية الأولى التي معنا.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٩٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٥) باختصار وتصرف.
(٣) يقارن بين: التحرير والتنوير (٦/ ٨٦) وتفسير القرآن العظيم (٦٦٦).
(٤) تُنظر الروايات في: تفسير القرآن العظيم (٦٦٥-٦٦٦).

«إن الحديث عن الصلاة والطهارة إلى جانب الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء، وإن ذكر حكم الطهارة إلى جانب أحكام الصيد والإحرام والتعامل مع الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام.. إن هذا لا يجيء اتفاقاً ومصادفة لمجرد السرد ولا يجيء كذلك بعيداً عن جو السياق وأهدافه.. إنما هو يجيء في موضعه من السياق، ولحكمته في نظم القرآن.

إنها أولاً -لفتة إلى لون آخر من الطيبات.. طيبات الروح الخالصة إلى جانب طيبات الطعام والنساء.. لون يجد فيه قلب المؤمن ما لا يجده في سائر المتاع.. إنه متاع اللقاء مع الله، في جو من الطهر والخشوع والنقاء.. فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج ارتقى إلى متاع الطهارة والصلاة، استكمالاً لألوان المتاع الطيبة في حياة الإنسان.. والتي بها يتكامل وجوده.

ثم اللفتة الثانية: إن إحكام الطهارة والصلاة، كأحكام الطعام والنكاح، كأحكام الصيد في الحل والحرمة، كأحكام التعامل مع الناس في السلم والحرب.. كبقية الأحكام التالية في السورة.. كلها عبادة لله، و كلها دين الله، فلا انفصام في هذا الدين بين ما اصطلح أخيراً -في الفقه- على تسميته بـ«أحكام العبادات» وما اصطلح على تسميته بـ«أحكام المعاملات».. إن المنهج الرباني يتألف من هذه وتلك على السواء وحكم هذه كحكم تلك في أنها تؤلف دين الله وشريعته ومنهجه، وليست هذه بأولى من تلك في الطاعة والاتباع، لا بل إن أحد الشطرين لا يقوم بغير الآخر والدين لا يستقيم إلا بتحققهما في حياة الجماعة المسلمة، وكلها «عقود» من التي أمر الله المؤمنين في شأنها بالوفاء، وكلها «عبادات» يؤديها المسلم بنية القربى إلى الله، وكلها «إسلام» وإقرار من المسلم بعبوديته لله»[(١)].

ثم إن الآية الثانية التي معنا وهي في ذكر ميثاق بني إسرائيل ناسب ذكرها عقب ذكر ميثاق المسلمين تحذيراً من أن يكون ميثاقنا كميثاقهم.. وهكذا شأن القرآن في التفنن ومجيء الإرشاد في قالب القصص والتنقل من أسلوب إلى أسلوب[(٢)].

وكذا الآيتان الثالثة والرابعة يظهر فيهما خصائص الأسلوب المدني واضحاً

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٨٤٩) باختصار، ويُراجع فصل «الشمول» من كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».
(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٣٩).

حيث جاءت في سياق آيات[1] تحذر، بل تهدد من يتخذ من اليهود والنصارى أولياء، مع بيان حقيقة اليهود والتشهير بهم والتنديد بهم وكشف كيدهم ومناوراتهم ومداوراتهم، واستهزاؤهم بالدين وبالنداء للصلاة.

إن هذا القرآن يربي الفرد المسلم على أساس إخلاص ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة، وعلى ضرورة المفاصلة الكاملة بين الصف الذي يقف فيه، وكل صف لا يرفع راية الله ولا يتبع قيادة رسول الله ﷺ، ولا ينضم إلى الجماعة التي تمثل حزب الله عز وجل.

ثم يربي القرآن وعي المسلم بحقيقة أعدائه، وحقيقة المعركة التي يخوضها معهم ويخوضونها معه، إنها معركة العقيدة.. وهم يعادونه لعقيدته ودينه قبل أي شيء آخر.. وقيمة هذا المنهج، وقيمة هذا الأسلوب في التوجيه عظيمة، فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها أمران مهمان في تحقيق الإيمان والتربية الشخصية للمسلم ليتمحض ولاؤه لله ورسوله وللمؤمنين الذين من صفتهم إقامة الصلاة -لا مجرد أدائها، وإقامة الصلاة تعني أداءها أداءً كاملاً تنشأ عنه آثارها التي يقررها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومن صفتهم إيتاء الزكاة.. أي أداء حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة.. وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة الله في شؤون الحياة، فهي إقرار منهم بسلطان الله في أمرهم كله.. وهذا هو الإسلام.. ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ ذلك شأنهم، كأنه الحالة الأصلية لهم، ومن ثَمَّ لم يقف عند قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فهذه السمة أعم وأشمل، إذ إنها ترسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم، فأبرز سمة لهم هي هذه السمة وبها يعرفون.. وهذا من أعمق إيحاءات التعبيرات القرآنية[2].

أما الآيتان الخامسة والسادسة فجاءتا في سياق آيات[3] تتناول قضية التشريع، وتبدأ كل فقرة من فقرات هذا السياق بنداء واحد متكرر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ..

---

(١) من الآية (٥١-٦٦) من سورة المائدة.

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٩٠٧-٩٢٠) باختصار وتصرف.

(٣) من الآيات (٨٧-١٠٨).

ومنها قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

ولهذا النداء على هذا النحو مكانته ودلالته في هذا السياق الذي يعالج قضية التشريع فيجعلها هي قضية الألوهية وقضية الإيمان، وقضية الدين.

إنه النداء بصفة الإيمان الذي معناه ومقتضاه الاعتراف بألوهية الله وحده والاعتراف له سبحانه بالحاكمية.. فهو نداء التذكير والتقرير لأصل الإيمان وقاعدته بهذه المناسبة الحاضرة في السياق، ومعه الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول والتحذير من التولي والإعراض، والتهديد بعقاب الله الشديد، والأطماع في مغفرته ورحمته لمن أناب[(١)].

فآية تحريم الخمر جاءت في سياق قضية التشريع بالتحريم والتحليل، وفي خط التربية للأمة المسلمة في المدينة، وتخليصها من جو الجاهلية ورواسبها وتقاليدها الشخصية والاجتماعية، يجيء النص القاطع الأخير في تحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام، أي إلى الشرك بالله.

ويستمر السياق في كشف خطة الشيطان من وراء هذا الرجس.. إنها إيقاع العداوة والبغضاء في الصف المسلم، كما إنها صد «الذين آمنوا» عن ذكر الله وعن الصلاة.

وهذه الأهداف التي يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون أن يروها في عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهي الصادق بذاته، فما يحتاج الإنسان إلى طول بحث حتى يرى أن الشيطان يوقع العداوة والبغضاء في الخمر والميسر بين الناس.. وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فلا يحتاجان إلى نظر.. فالخمر تنسي، والميسر يُلهي،

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩٦٩) باختصار.

وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين.

وهكذا عندما تبلغ الإشارة إلى هدف الشيطان من هذا الرجس غايتها في إيقاظ قلوب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وتحفزها يجيء السؤال الذي لا جواب له عندئذٍ إلا جواب عمر رضي الله عنه وهو يسمع: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فيجيب لتوه: «انتهينا. انتهينا»[(١)].

أما الآية السادسة ففيها الحكم الأخير من الأحكام الشرعية التي تضمنتها هذه السورة في بيان بعض أحكام المعاملات في المجتمع المسلم وهو الخاص بتشريع الإشهاد على الوصية في حالة الضرب في الأرض، والبعد عن المجتمع والضمانات التي تقيمها الشريعة ليصل الحق إلى أهله.. وذلك أنه إذا كان الشاهدان من غير المسلمين وارتاب أهل الميت في صدقهما فإنهم يوقفونهما بعد أدائهما للصلاة -حسب عقيدتهما- ليحلفا بالله أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا لأحد آخر ولو كان ذا قربى وبذلك تنفذ شهادتهما.

إن الإشهاد والائتمان على هذا النحو ثم الحلف بالله في مجتمع بعد الصلاة لاستجاشة الوجدان الديني، والتحرج كذلك من الفضيحة في المجتمع عند ظهور الكذب والخيانة كلها تشي بسمات مجتمع خاص تفي بحاجاته وملابساته هذه الإجراءات.

ولقد تملك المجتمعات اليوم وسائل أخرى للإثبات، وأشكالاً أخرى من الإجراءات كالكتابة والتسجيل والإيداع في المصارف.. وما إليها.. ولكن هذا النص لم يفقد قدرته على العمل في المجتمعات البشرية.. إن هذا الدين جاء للبشرية جميعاً في كل أقطارها وفي كل أعصارها، وإنها في حاجة إلى أحكام وإجراءات تواكب حاجاتها في جميع أشكالها وأطوارها، وإنها تجد في هذا الدين ما يلبي هذه الحاجات في كل حالة.. وتجد في شريعته ما يلبي حاجاتها الحاضرة، ثم يرتقي بها إلى تلبية حاجاتها المتطورة.. وأن هذه معجزة هذا الدين ومعجزة شريعته وآية أنه من عند الله، وأنها من اختياره سبحانه[(٢)].

ثالث عشر: سورة التوبة:

(١) يقارن مع تفسير القرآن العظيم (٦٤٩) وفي ظلال القرآن (٢/ ٩٧٣-٩٧٦) باختصار وتصرف.

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٩٩٤) باختصار وتصرف.

هذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن المدني، إن لم تكن هي آخر ما نزل، وقد تضمنت أحكاماً نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته، وتحديد قيمه ومقاماته، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته[1] ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه، وكل طبقة وصفاً دقيقاً مبيناً.

والسورة -بهذا الاعتبار- ذات أهمية خاصة في بيان خصائص أسلوب القرآن المدني حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها، وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك الأسلوب وعن مدى حسمه كذلك وبدون هذه المراجعة تختلط الصور والأحكام والقواعد كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكاماً مرحلية فجعلت نهائية، ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية، وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى.

والجمهور من أهل التفسير على أنها نزلت دفعة واحدة فتكون مثل سورة الأنعام بين السور الطوال.

«إلا أنه بمراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية، ومراجعة ما جاء في الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته، ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك يمكن الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل.. **الأولى** منها كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من العام التاسع للهجرة، والمرحلة **الثانية**: كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثناياها، والمرحلة **الثالثة**: كانت بعد العودة منها، أما مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها فقد نزلت متأخرة في نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج في ذي القعدة أو في ذي الحجة»[2].

وقد جاء ذكر الصلاة بلفظها في ثماني آيات، ثلاث منها في سياق الحديث عن المشركين، وآيتان في المنافقين، وثلاث في المؤمنين.

---

(١) المقصود بالطبقات هنا ليست طبقات اجتماعية بالمعنى الصغير المفهوم الآن من الطبقية، ولكنها الطبقات التي تقوم على قيم إسلامية بحتة: كالسابقين من المهاجرين والأنصار، وأهل بدر، وأصحاب بيعة الرضوان، و من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، والقاعدين والمنافقين..إلخ.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٦٤-١٥٦٥) باختصار، ويُقارن مع التحرير والتنوير (١٠/ ٩٥-١٠٢).

أ- أما الآيات التي جاءت عن المشركين فهي:

١) قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

٢) وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

جاءت هذه الآيات الثلاث في المقطع الأول من السورة الذي نزل في نهاية السنة التاسعة للهجرة، وهذا السياق فيه تحديد للعلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامي، والمشركين عامة في الجزيرة، مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقدية التي يقوم عليها هذا التحديد، بالأسلوب القرآن الموحي المؤثر، وفي تعبيرات قوية الإيقاع حاسمة الدلالة، عميقة التأثير، فيها من القوة في التحضيض والتأليب على قتال المشركين ومقاطعتهم في الجزيرة قاطبة..[1]، فقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في الآية الأولى التي معنا جاءت تفريعاً على الأفعال المتقدمة في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ﴾.

والتوبة عن الشرك هي الإيمان، أي فإن آمنوا إيماناً صادقاً بأن أقاموا الصلاة الدالة إقامتها على أن صاحبها لم يكن كاذباً في إيمانه، وبأن آتوا الزكاة الدال إيتاؤها على أنهم مؤمنون حقاً، لأن بذل المال للمسلمين أمارة صدق النية فيما بذل فيه، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شرط في كف القتال عنهم إذا آمنوا.

ومعنى: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ اتركوا طريقهم الذي يمرون به، أي اتركوا لهم كل طريق أمرتم برصدهم فيه، أي اتركوهم يسيرون مجتازين أو قادمين عليكم، إذ لا بأس عليكم منهم في الحالتين فإنهم صاروا إخوانكم كما قال في الآية الثانية: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾.

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٦٥-١٥٦٦) باختصار وتصرف.

وأيضاً قوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ مركب مستعمل هنا تمثيلاً في عدم الإضرار بهم ومتاركتهم، يقال: خل سبيلي أي: دعني وشأني كما قال جرير:

خل السبيل لمن يبني المنار به ... وأبرز ببرزة حيث اضطرك القدر

وهو مقابل للتمثيل في قوله: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ (١).

وأما قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾.

تفريع حكم على حكم لتعقيب الشدة باللين إن هم أقلعوا عن عداوة المسلمين بأن دخلوا في الإسلام لقصد محو أثر الحنق عليهم إذا هم أسلموا حيث جاءت هذه الآية بعد قوله: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ [التوبة: ٩، ١٠].

وفي هذا تنبيه للمشركين على أن تداركهم أمرهم هين عليهم، وفرع على التوبة أنهم يصيرون إخواناً للمؤمنين، ولما كان المقام هنا لذكر عداوتهم مع المؤمنين جعلت توبتهم سبباً للأخوة مع المؤمنين بخلاف مقام الآية الأولى، حيث إن المعقب بالتوبة هنالك هو الأمر بقتالهم والترصد لهم، فناسب أن يفرع على توبتهم عدم التعرض لهم بسوء، وقد حصل من مجموع الآيتين أن توبتهم توجب أمنهم وأخوتهم.

ومن لطائف الآيتين أن جعلت الأخوة مذكورة ثانياً لأنها أخص الفائدتين من توبتهم، فكانت هذه الآية مؤيدة لسابقتها في أصل الحكم(٢).

أما الآية الثالثة فجاءت بعد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

فهذا أمر مستنكر منذ الابتداء، ليس له مبرر، لأنه مخالف لطبائع الأشياء، إن بيوت الله خالصة لله لا يذكر فيها إلا اسمه، ولا يدعى معه فيها أحد غيره، فكيف يعمرها من لا يعمر التوحيد قلوبهم، ومن يدعون مع الله شركاء، ومن يشهدون على أنفسهم بالكفر شهادة الواقع الذي لا يملكون إنكاره، ولا يسعهم إلا إقراره؟

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١١٦-١١٧) بتصرف واختصار.

(٢) يُقارن مع التحرير والتنوير (١٠/ ١٢٧).

فأعمالهم باطلة أصلاً، ومنها عمارة بيت الله التي لا تقوم إلا على قاعدة من توحيد الله.

إن العبادة تعبير عن العقيدة، فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة، وأداء الشعائر، وعمارة المساجد ليست بشيء ما لم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيماني الصحيح، وبالعمل الواقع الصريح، وبالتجرد لله في العمل والعبادة على السواء لهذا جاء قوله تعالى بعدها: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

والنص على خشية الله وحده دون سواه بعد شرطيْ الإيمان الباطن والعمل الظاهر -من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة- لا يجيء نافلة فلا بد من التجرد لله، ولا بد من التخلص من كل ظل للشرك في الشعور أو السلوك، وخشية أحد غير الله لون من الشرك تنبه إليه الآية قصداً في هذا الموضع ليتمخض الاعتقاد والعمل كله لله، وعندئذ يستحق المؤمنون أن يعمروا مساجد الله ويستحقون أن يرجوا الهداية من الله.

هذه هي القاعدة في استحقاق عمارة بيوت الله، وفي تقويم العبادات والشعائر على السواء يبينها الله للمسلمين والمشركين[(١)].

ب- **أما الآيتان اللتان جاءتا عن المنافقين وهما** قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

جاءت الآيات في سياق طويل[(٢)] يتحدث عن جماعة المنافقين الذين اندسوا في صفوف المسلمين باسم الإسلام، بعد أن غلب وظهر، فرأى هؤلاء أن حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف.

فجاء هذا السياق الطويل ليفضح أفعال المنافقين في المجتمع المسلم، ووصف

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٣-١٦١٤) باختصار وتصرف.

(٢) من الآية (٤٢-٩٢).

أحوالهم النفسية والعملية، ومواقفهم في غزوة تبوك، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد، وبث الضعف والفرقة في الصف، وإيذاء الرسول ﷺ والخلّص من المؤمنين.. كما حذرت الآيات من كيد المنافقين وتحديد العلاقات معهم، والمفاصلة بين الفريقين وتمييز كل منهما بصفاته وأعماله[(١)].

والآية الأولى هنا جاءت عطفاً على جملة ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ في الآية قبلها.. لأن هذا بيان للتعليل لعدم قبول نفقات المنافقين بزيادة ذكر سببين آخرين مانعين من قبول أعمالهم هما من آثار الكفر والفسوق وهما:

أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، وأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون، والكفر وإن كان وحده كافياً في عدم القبول، إلا أن ذكر هذين السببين إشارة إلى تمكن الكفر من قلوبهم وإلى مذمتهم بالنفاق الدال على الجبن والتردد.

فذكر الكفر بيان لذكر الفسوق، وذكر التكاسل عن الصلاة لإظهار أنهم متهاونون بأعظم عبادة فكيف يكون إنفاقهم عن إخلاص ورغبة، وذكر الكراهية في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه الخصلة المتحدث عنها[(٢)].

أما الآية الثانية فجاءت بعد أن انقضى الكلام على الاستغفار للمنافقين الناشئ عن الاعتذار والحلف الكاذبين وكان الإعلام بأن الله لا يغفر لهم مشوباً بصورة التخيير في الاستغفار لهم، وكان ذلك يبقي شيئاً من طمعهم في الانتفاع بالاستغفار لأنهم يحسبون المعاملة الربانية تجري على ظواهر الأعمال والألفاظ، لهذا صرح بالنهي عن الاستغفار لهم والصلاة على موتاهم فإن الصلاة على الميت استغفار.

فجملة ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ عطف على جملة ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، عطف كلام مراد إلحاقه بكلام آخر لأن القرآن ينزل مراعى فيه مواقع وضع ا لآي.

والفسق مراد به الكفر فالتعبير بـ ﴿فَسِقُونَ﴾ عوض «كافرون» مجرد تفنن والأحسن أن يفسر الفسق هنا بالخروج عن الإيمان بعد التلبس به، أي بصورة الإيمان، فيكون المراد من الفسق معنى أشنع من الكفر[(٣)].

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٤-٢٨٥) بتصرف واختصار.

جـ- أما الآيات الواردة عن المؤمنين خاصة فهي:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٩٩].

٣- وقوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

الآية الأولى جاءت في السياق الطويل الذي يتحدث عن المنافقين حيث جاءت الآية تقابل قوله: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

فقوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ مقابل قوله في المنافقين: ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾.

وقوله: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مقابل قوله في المنافقين: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾.

وقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ مقابل قوله في المنافقين: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ لأن الطاعة تقتضي مراقبة المطاع فهي ضد النسيان.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ مقابل قوله في المنافقين: ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾.

وزيد في وصف المؤمنين هنا ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تنويهاً بأن الصلاة هي أعظم المعروف وهي الصلة التي تربطهم بالله.

وهذا يدل على أن التعبير القرآني دقيق جداً لا يغفل المعاني الدقيقة في التفريق بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين، حيث عبر في جانب المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض للإشارة إلى أن اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء ليس واحد منهم مقلداً للآخر ولا تابعاً له على غير بصيرة لما في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر بخلاف المنافقين فكأن بعضهم ناشيء عن بعض في مذامهم(١).

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٢٦٢).

أما الآية الثانية والثالثة فجاءت في سياق الآيات[1] التي فيها تصنيف للمجتمع الإسلامي إبان غزوة تبوك يصور طوائفه وطبقاته الإيمانية الداخلة في تركيبه العام مع تميز كل منها بصفاته وأعماله، فمن المعلوم أن المجتمع الإسلامي كان يتكون من السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع الصلبة القوية، وهناك جماعات أخرى.. الأعراب وفيهم المخلصون، والمنافقون، والذين لم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان، والمنافقون من أهل المدينة، وآخرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامي ولم ينصهروا في بوتقة الإسلام تماماً، وطائفة مجهولة لا تعرف حقيقة مصيرها متروك أمرها لله.. والآيات تتحدث عن هذه الجماعات كلها في اختصار مفيد وتقرر كيف تُعَامَل في المجتمع المسلم، وتوجه الرسول ﷺ والخلص من المسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم[2].

فالآية الثانية التي معنا هنا تتحدث عن فريق من الأعراب ممن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، حيث كان إيمانهم بالله واليوم الآخر باعثاً على الإنفاق، لا الخوف من الناس، ولا الملق للغالبين، ولا حساب الربح والخسارة في دنيا الناس.

وهذا الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر يبتغي بما ينفق أن يكون قربى عند الله ويتطلب صلوات الرسول أي: دعواته الدالة على رضاه ﷺ المقبولة عند الله، وهو يدعو بها للمؤمنين المنفقين ابتغاء القربى من الله ورضاه، لذلك يبادر السياق فيقرر لهم أنها قربى مقبولة عند الله، ويبشرهم بحسن العاقبة وعداً من الله حقاً و ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ ويجسِّم الرحمة كأنها دار يدخلونها فتحتويهم وذلك في مقابل تجسيم ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ على الفريق الآخر الذي يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بالمؤمنين الدوائر[3].

أما الآية الثالثة فهي ضمن آيات جاءت في بيان فوائد صدقة الأموال والحث عليها، وقبول التوبة لمن قصّر في الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه، وهي أمر للرسول ﷺ بأن يأخذ من أموال هؤلاء ومن غيرهم من سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها من نقد وأنعام وأموال تجارة، صدقة بمقدار معين في الزكاة المفروضة، أو بمقدار غير معين

(١) من الآية (٩٧-١١٠) من سورة التوبة.
(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٦٨) بتصرف.
(٣) يُقارن بين التحرير والتنوير (١١/ ١٦) وفي ظلال القرآن (٣/ ١٧٠١).

في زكاة التطوع يطهرهم بها من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين، وتزكي أنفسهم بها و ترفعهم إلى منازل الأبرار بفعل الخيرات حتى يكونوا أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية.. ثم ادع أيها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم، فإن دعاءك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب نفوسهم وتطمئن قلوبهم بقبول توبتهم ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها ووضعها في مواضعها[1].

(١) تفسير المراغي (١١/ ١٥-١٧) بتصرف واختصار.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه، وبعد:

فإن من أهم النتائج و التوصيات التي وصلت إليها من خلال الدراسة:

١- تردد أئمة اللغة في اشتقاق لفظ « الصلاة » والأصل فيه، هل هو من «الدعاء» أو «الصِّلا» أو «الصَّلا» أو «الصلوين»...، وأنه لا نقطع بأن مراد الله تعالى من هذه الألفاظ ما يتبادر إلى أفهامنا في زماننا هذا لاحتمال أنها كانت في زمن الرسول ﷺ موضوعة لمعان أخر خفيت علينا، ولا مانع من أن يكون لفظ مشهور منقول من معنى خفي، لأن العبرة في الشيوع بالاستعمال، وأما الاشتقاق فبحث علمي.

٢- هناك صله وثيقة بين معنى الصلاة في اللغة، والاصطلاح، فالدعاء، والتعظيم، واللزوم.....كلها معانٍ موجودة في الصلاة بمعناها الشرعي وأطلقت على الصلاة كلها من باب تسمية الشيء ببعض أجزائه.

٣- عرف العرب، الصلاة، والسجود والركوع، وقد أخبر الله عن إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة إبراهيم آية ٣٧] وقد كان بين ظهرانيهم اليهود والنصارى يأتون بصلاتهم على هيئة مخصوصة.

٤- المتتبع لإطلاقات القرآن الكريم للفظ «الصلاة» يظهر له وبوضوح أنه لم يقصر إطلاق لفظ «الصلاة» على الصلوات الخمس المفروضة وحسب، بل أطلقه عليها وعلى غيرها.. وقد أحصيت عشرين وجهاً من المعاني التي أرادها القرآن من لفظ «الصلاة».

٥- كما أحصيت اثني عشر لفظاً جاء بها القرآن الكريم في معنى الصلاة وذلك من تعظيمه والاهتمام بشأنها حيث ذكرها بأسماء شتى متعددة، وهذه الأسماء هي: القيام، القراءة، الركوع، السجود، الذكر، الاستغفار، الإيمان، القنوت، الحسنات، التسبيح، الحمد، الدعاء.

٦- عظم الله عز وجل شأن الصلاة في القرآن الكريم حيث ذكرها في مائه آية بلفظ «الصلاة» ومشتقاته، أولها ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وآخرها ﴿فَصَلِّ

﴿لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ ، كما ذكرها في عشرات الآيات بغير لفظ الصلاة، وفي آيات أخرى عامة تدخل فيها الصلاة بصورة من الصور، حتى أكاد أجزم أنه لم تخل سورة من كتاب الله الكريم إلا وفيها ذكر للصلاة إما نصاً أو إشارة.

٧- في عشرات الآيات من السور المكية والمدنية أكد الله على أنه فرض الصلاة على جميع الأنبياء والرسل والأمم السابقين، ونص في بعضها على أنها أول فريضة بعد الإخلاص بالعبادة لله، وأنها واجبه في وقتها، كما توعد الله من أضاعها، ووبخ الكافر على تركها.

٨- ومن تعظيم القرآن لشأن الصلاة وقدرها أن مدح الله تعالى المصلين وذكر جزاءهم في الدنيا والآخرة، وتحدث عن المساجد والقبلة، وكل ما يتعلق بها.

٩- ميّز القرآن الكريم الصلاة عن سائر العبادات بوجوبها على كل حال وبعدم سقوطها، فهي فريضة دائمة على الحر والعبد، والرجل و المرأة، والغني والفقير، والصحيح والمريض، والمقيم والمسافر، والآمن والخائف.

١٠- للصلاة حِكَمٌ كثيرة ومن أعظم حكمها تحقيق التقوى في القلب والابتعاد عن الفحشاء والمنكر، وذلك لتحقق الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها وبعث جميع الرسل يدعون إليها وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته..

١١- من فضائل الصلاة أنها أول أسباب رحمة الله لعباده، وهي أول عمل صالح يعد من عزم الأمور، وهي علامة الولاية بين المؤمنين، وشرط للأخوة في الدين، وهي عبادة تشترك فيها جميع المخلوقات لله رب العالمين .

١٢- للصلاة خصائص كثيرة من أهمها: إنها دين الله الذي يدين به أهل السماوات والأرض، وهي مفتاح شرائع الأنبياء، ولم يبعث نبي إلا بالصلاة، كما أن من خصائصها أن الله فرضها بدون واسطة بينه وبين أنبيائه، وسماها إيماناً، وقرنها بالتصديق في آيات كثيرة من كتابه، كما اشترط لها أكمل الأحوال من الطهارة الحسية والمعنوية وليس هذا لغيرها من العبادات. كما أن من خصائصها أن الله استعمل فيها جميع أعضاء الإنسان من القلب واللسان وسائر الجوارح .

١٣- ثمرات الصلاة وآثارها على النفس والأخلاق كثيرة جداً وقد تحدث القرآن عنها جملة ومن ذلك: الفلاح في الدنيا والآخرة، وهي سبب للاستقامة على الصراط

المستقيم، كما أنها تكفر الصغائر من السيئات، ومن ثمراتها سعة الرزق وزيادة الفضل في الدنيا والآخرة، كما أنها من أكبر الأسباب الموجبة لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية، وفيها علاج للهلع الذي جبلت عليه النفس البشرية، حيث تكتسب النفس من الصلاة طمأنينة القلب وسكينته.

١٤- ومن أعظم ثمرات الصلاة: اكتساب رحمة الله ومغفرته، وثنائه وكرامته وبركته واستغفار ملائكته ودعائهم .. ومن ثم الخروج من الظلمات إلى النور.

١٥- جاء حديث القرآن عن ترك الصلاة وجزائه و الآثار المترتبة عليه في عدة سور مكية و أخرى مدنية، كل ذلك بأسلوب فيه تنويع في العرض، واهتمام بالغ وألفاظ جوامع.

١٦- بتدبر الآيات الواردة في الصلاة يلاحظ أنها قرنت بأعمال صالحة كثيرة منها ما هو عام كالعبادة، وعمل الصالحات، والإيمان بالغيب، والتقوى، وفعل الخيرات ومنها ما هو أخص من ذلك: كالزكاة، والصبر، والجهاد، والاعتصام بالله، والتمسك بالكتاب وتلاوته، والوفاء بالعهد، والإحسان إلى الوالدين، وذي القربى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....وذلك لِحِكم كثيرة ظهرت أثناء البحث.

١٧- مرَّ فرض الصلاة وتشريعها على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين بعدة مراحل:

أ- وجوب قيام الليل على النبي ﷺ وتأسي المؤمنين به في ذلك.

ب - نزول سورة الفاتحة التي تسمى سورة الصلاة.

ج - نسخ استيعاب نصف الليل ودونه بقليل على النبي ﷺ وعلى المؤمنين الذين تأسوا به.

د- نزول آيات في سور مكية فيها حث للنبي ﷺ على الصبر والصلاة والدعوة إليها.

هـ- فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج في أواخر العهد المكي.

١٨- تعرض القرآن للأحوال والصفات التي تميز صلاة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون من بعدهم وذكر من ذلك: أنهم يكثرون الالتجاء إلى الله في أن يوفقهم وذريتهم لإقامة الصلاة لله رب العالمين، ووصفهم بالخشوع لله داخل الصلاة وخارجها مع محافظتهم ومداومتهم عليها ويقومون بأمر الأولاد والأهل بالصلاة،

وأنهم هم العُمّار الحقيقيون للمساجد بالصلاة فيها والقيام بجميع الأعمال الداخلة في عمارة بيوت الله، ووصفهم بكثرة الصلاة آناء الليل وأطراف النهار.

١٩- تعرضت الآيات القرآنية لذكر صلاة المشركين البدعية الباطلة سواء من الأمم السابقة أو من المعاصرين للنبي ﷺ، كما دعا القرآن المشركين لإقامة الصلاة وذكر مواقفهم من هذه الدعوة ومن المؤمنين المصلين، ومن مواقفهم: صد المؤمنين عن الصلاة في المسجد الحرام مع إقامتهم لصلاتهم البدعية، ثم دعاهم إلى إقامة الصلاة وجعلها شرطاً لتوبتهم وقبولهم إخوة في الدين.

٢٠- تعرضت الآيات القرآنية لبيان حال المنافقين مع الصلاة ووصفتهم وصفاً دقيقاً، فمن ذلك: سهوهم عن الصلاة ومراءاتهم بها، مع الكسل والتثاقل في القيام لها، فهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وشاركوا السفهاء في الاعتراض على تحويل القبلة...

٢١- تعرض القرآن لأهل الكتاب وبيّن حالهم مع الصلاة بدءاً من موقفهم من العهود والمواثيق التي أخذت عليهم بإقامة الصلاة التي فرضت على أنبيائهم وعليهم، ثم موقف أهل الكتاب المعاصرين للرسول ﷺ من الصلاة والقبلة والآذان، كما تعرض القرآن لبيان حال مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يحرفوه.

٢٢- جاء حديث القرآن الكريم عن أنواع الصلوات حديثاً مجملاً وإن كان فيه شيء من البيان لبعضها وترك البيان الوافي لسنة رسول الله ﷺ لتأكيد الترابط بين الكتاب والسنة ووجوب العمل بهما، وقد أحصت الدراسة اثني عشر نوعاً من الصلوات التي أشار إليها القرآن الكريم.

٢٣- أعظم مقاصد وفقه الصلاة المستنبطة من القرآن الكريم هو: أن إقامة الصلاة تحقيق لذكر الله في الأرض، كما أن الخشوع روح الصلاة ولبها.

٢٤- أشار القرآن الكريم صراحة إلى جملة لا بأس بها من شروط الصلاة، وأركانها، وواجباتها، وسننها، التي استنبطها الفقهاء من الكتاب والسنة وأصّلوها في كتبهم.

٢٥- من خصائص أسلوب القرآن التي ظهرت من خلال دراسة الآيات المكية أن فيها تأسيس للعقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده، وجاء ذكر مشروعية الصلاة وفرضها من خلال تفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة وبيان

ما دعا إليه الأنبياء السابقون. وكذا وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، كما تميز الأسلوب المكي بالتنديد بأفعال المشركين وفضح جرائمهم ومواقفهم من الصلاة وأهلها وبيان جزائهم في الآخرة، مع التنويع في الأدلة والتفنن في العرض وسلوك سبيل التدرج حتى ينقاد المخاطبون إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته و ربوبيته.

٢٦- من خصائص الأسلوب المدني في حديثه عن الصلاة أنه تحدث عن كثير من التفاصيل في أحكامها وما يتعلق بها من أركان، وشروط، وواجبات، كما فيه دعوة لأهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الصلاة، ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وناقش معهم المنافقين ووصف صلاتهم، ورد عليهم في مواقفهم من القبلة، والآذان وصلاة المؤمنين.

٢٧- إن هذه الدراسة محاولة يعتريها من السهو، والنقص ما يعتري غيرها من المحاولات، وكتاب الله تعالى محيط واسع لا نهاية لعجائبه وكل واحد من المسلمين يأخذ من هذا الكتاب العزيز على قدر ما يفتح الله به عليه من الفهم والاستدلال والاستنباط ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة آية ٢٨٦].

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفهـــــارس

١- فهرس الآيات القرآنيـــة.
٢- فهرس الأحاديث والآثار.
٣- فهرس المراجع والمصادر.
٤- فهرس الموضــوعـــات.

فهرس الآيات القرآنية

الآيــــــــــة	السورة	الآية	الصفحــــــــة
ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ	الفاتحة	٦	٧٧
ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ	البقرة	٣	١٠، ٣٨، ١٢٢، ١٣٩، ٢٢٣، ٤٤٦
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ	البقرة	٥	٧٤، ١١٥
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ	البقرة	٨	٤٧١
أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ	البقرة	١٣	٢٧٢
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ	البقرة	٤٣	١٠، ٢٣، ١٣٠، ٢٨١، ٣٠٤، ٤٤٧
وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ	البقرة	٤٥	٧١، ١٤٢، ٢٣٧، ٢٨٣، ٣٤٣، ٤٤٧، ٤٦٩
وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ	البقرة	٧٤	٢٠٦
فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ	البقرة	٧٩	١٠٠
وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ	البقرة	٨٣	١٣٠، ١٥٤، ١٦٣، ٢٧٧، ٤٤٨
وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا	البقرة	١٠٩	٤٤٩
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ	البقرة	١١٠	١٣٠
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ	البقرة	١١٤	٣٣٣
وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ	البقرة	١١٥	٣٨٣
وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا	البقرة	١٢٥	١٥٧، ٢٤٨، ٣٠٨، ٣٧٨، ٤٥٠
فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ	البقرة	١٣٧	١٤٣
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ	البقرة	١٤٠	٣٦٦
۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ	البقرة	١٤٢	٢٧٢، ٢٨٥
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ	البقرة	١٤٣	٢٧، ٦٣
قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ	البقرة	١٤٤	٦٩، ٢٨٥، ٢٩٩، ٣٤٣، ٣٦٦، ٣٨١
وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ	البقرة	١٤٨	١٧١
وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ	البقرة	١٤٩	٣٨١

الآيـــــــة	السورة	الآية	الصفحـــــة
فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ	البقرة	١٥٢	٤٦، ٣٣١
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ	البقرة	١٥٣	٧١، ١٤٢، ٤٥١
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ	البقرة	١٥٦	٤٦
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ	البقرة	١٥٧	١٢، ٤٧، ٤٥٢
۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ	البقرة	١٧٧	١٢٣، ١٣١، ١٤٢، ١٥٤، ٤٥٢، ٤٧٣
فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ	البقرة	١٨٤	٤٠، ٣٠٦
يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ....وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ	البقرة	١٨٥	٣١٢، ٣٢٠
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ	البقرة	٢٠١	١٩٥
يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ	البقرة	٢١٥	٤٥٥
۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ	البقرة	٢١٩	٣٦٨
وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ	البقرة	٢٢٢	٣٦٩، ٣٧٥
وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ	البقرة	٢٣٧	٤٥٥
حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ	البقرة	٢٣٨	١٥، ٢٢، ٧٠، ٢٩٥، ٣١٨، ٣٨٦، ٤٥٥
فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ	البقرة	٢٣٩	٣٨٢
فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ	البقرة	٢٣٩	٢٥، ٣٣٢
وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ	البقرة	٢٥٤	١١٥
كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ	البقرة	٢٦١	٨١
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ	البقرة	٢٧٧	٨٤، ١٢٤، ١٣٢، ٢٢٥، ٤٥٥
فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ	آل عمران	٣٩	١٦، ٣٥، ١٦٥، ٣٨٧، ٤٦١
وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ	آل عمران	٤٢	١٦٦
يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ	آل عمران	٤٣	٣٥، ٣٠٤
وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ	آل عمران	٥٤	١١١
إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا	آل عمران	٩٦	٣٩، ١٥٧
وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ	آل عمران	٩٧	٤٠
۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ	آل عمران	١١٣	٢٨٩
وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ	آل عمران	١٣٥	٣٠٩

الآيـــــــة	السورة	الآية	الصفحـــــة
ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا	آل عمران	١٩١	٣١٩، ٣٨٧
وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا	النساء	٢٩	٣١٩
إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ	النساء	٣١	٧٩
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ	النساء	٤٣	٧٠، ٣١٩، ٣٦٧، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٦٥
أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ	النساء	٧٧	١٣٣، ١٤٥، ٤٦٥
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ	النساء	٨٢	٣٦٥
وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ	النساء	١٠١	١٥، ٤٠، ٦٥، ٢٠١، ٣١٥، ٤٦٨
وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ	النساء	١٠٢	١٦، ٣٠٥، ٣١٧
فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا	النساء	١٠٣	٣٦، ٣٣٢، ٣٧، ٣٧٩، ٣٨٧، ٣٩٢، ٤٠١
بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ	النساء	١٣٨	٤٧١
وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا	النساء	١٤١	٤٧١
إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ	النساء	١٤٢	١٩، ١١٠، ٢٦٩، ٣٩٣، ٤٧١
لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ	النساء	١٦٢	١٢٤، ١٣٤، ٢٢٩، ٢٩١، ٤٧٢
ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ	المائدة	٥	٣٦٦
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ	المائدة	٦	٦٨، ٣١٩، ٣٧٠، ٣٧٨، ٤٩٠
۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ	المائدة	١٢	٨٠، ١٢٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٦٣، ٢٧٩، ٤٩٠
وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ	المائدة	١٤	٢٨٠
إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ	المائدة	٢٧	٧٧
۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ	المائدة	٥١	٥٢
فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ	المائدة	٥٢	٥٢
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ	المائدة	٥٤	٥٢
إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ	المائدة	٥٥	٥٢، ١٢٥، ١٣٦، ٢٢٤، ٤٩٠
وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ	المائدة	٥٦	٥٣

الآيـــــــــة	السورة	الآية	الصفحـــــة
وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا	المائدة	٥٨	١٣، ٢٨٦، ٤٩٠
لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ	المائدة	٦٨	٢٢٢
وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ	المائدة	٧٦	١١٥
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ	المائدة	٩٠	٣٤٠، ٣٦٨، ٤٩٤
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ	المائدة	٩١	٤٩٠
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ	المائدة	١٠٦	١٤، ٤٩٠، ٤٩٤
وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ	الأنعام	٥٢	٣٠
قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا	الأنعام	٧١	٢٥٧، ٤٠٧
وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ	الأنعام	٧٢	١٥٣، ٤٠٧
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ	الأنعام	٧٣	٤٠٨
۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً	الأنعام	٧٤	٤٠٩
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا	الأنعام	٧٩	٢٥٧
وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ	الأنعام	٩٢	٦٥، ١٢٢، ٢٣٩، ٤٠٧، ٤٠٩
وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ	الأنعام	٩٤	٤٠٩
لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ	الأنعام	١٥٨	٢١٧
قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ	الأنعام	١٦١	٢٥٧
قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ	الأنعام	١٦٢	١١٧، ١٨٩، ٢٢٢، ٣١٣، ٤٠٧، ٤١٠
قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ	الأعراف	٢٩	٣٩، ١٧٠، ٣٠٣
۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ	الأعراف	٣١	٣٩، ٦٩، ١١٤، ١٧٠، ٣٥٣، ٣٧٩
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ	الأعراف	٣٢	١١٤
ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً	الأعراف	٥٥	٣٥٧
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟	الأعراف	٩٦	٣٢٤
وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ	الأعراف	١٧٠	١٤٨، ٢٢٦، ٢٨٨
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ	الأعراف	١٧٢	٤١١
وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ	الأعراف	٢٠٥	١٩١، ٣٣٦
إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ	الأعراف	٢٠٦	٥٥، ٢٠٣، ٣١١

الآيــــــــة	السورة	الآية	الصفحــــــة
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ	الأنفال	٢	٤٨، ٣٣٤، ٤٥٦،
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ	الأنفال	٣	١٣٩، ٢٢٤
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا	الأنفال	٤	١١٥
وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ	الأنفال	١١	٣٦٩
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ	الأنفال	٢٦	٤٥٨
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ	الأنفال	٣٣	٢٦
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ	الأنفال	٣٤	٢٦٢
وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً	الأنفال	٣٥	١٨، ٢٦٤، ٤٥٨
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ	الأنفال	٣٦	٤٥٨
فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ	التوبة	٥	٣٦، ٥٤، ١٣٦، ٢٦٥، ٤٩٧
ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا	التوبة	٩	٤٩٨
فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ	التوبة	١١	٣٦، ٥٣، ٥٥، ١٣٦، ٢٦٥، ٤٩٧
مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ	التوبة	١٧	٢٦٢، ٣٦٧، ٤٩٩
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ	التوبة	١٨	٤٠، ١٢٦، ١٣٦، ١٥٢، ٢٤٦، ٣٣٣، ٤٩٧
قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ	التوبة	٥٣	١١١
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ	التوبة	٥٤	١١١، ٢٦٩، ٥٠٠
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ	التوبة	٦٧	٥٠١
وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ	التوبة	٧١	٣٨، ٥٣، ١٣٧، ١٤٧، ١٥١، ٢٢٤، ٥٠١
وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا	التوبة	٨٤	١٥، ٢٧٣، ٣١٤، ٥٠٠
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ	التوبة	٩١	٣٢٥
وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ	التوبة	٩٩	١١، ٥٠١
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ	التوبة	١٠٣	١١، ٥٠١
وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا	التوبة	١٠٧	٣٩
فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ	التوبة	١٠٨	٣٦٩
۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ	التوبة	١١١	١٤٧
ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ	التوبة	١١٢	١١٩، ٢٥٤
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا	يونس	٨٧	١٦، ٣٥، ٢٧٧، ٤١٧

الآيـــــــــة	السورة	الآية	الصفحـــــة
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ	يونس	١٠٤	٢٥٨
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ	هود	٥٢	٣٢٤
۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا	هود	٨٤	١٦٨
قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ	هود	٨٧	١٧، ٣٤، ١٦٨، ٤١٩
فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ	هود	١١٢	٣٣١، ٣٦٦
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ	هود	١١٤	١٤، ٢٨، ٧٩، ٢٩٥، ٣٣٠، ٣٦٦، ٣٨٠، ٤١٩
مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ	يوسف	٣٨	١٦١
وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ	الرعد	١	٤٧٤
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا	الرعد	١٥	٥٦، ٢١٠، ٢٥٦
۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ	الرعد	١٩	٤٧٤
وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ	الرعد	٢٢	١٣٩، ١٤٤، ١٥٤، ٢٢٦
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ	الرعد	٢٨	٨٨، ٣٩٢
وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ	إبراهيم	٢	١٠٣
۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا	إبراهيم	٢٨	٤٤١
قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ	إبراهيم	٣١	١٣٧، ٤٤٠
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ	إبراهيم	٣٢	٤٤١
وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا	إبراهيم	٣٥	١٥٩
وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ	إبراهيم	٣٥	٢٢٠
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ	إبراهيم	٣٧	٨، ١٦، ٣٤، ٥٩، ١٥٩، ٤٤١
رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى	إبراهيم	٤٠	١٦٠، ٢٢٠، ٤٤١
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ	الحجر	٩٧	٢٤
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ	النحل	٣٦	٥٩، ١٥٦
وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ	النحل	٤٤	٣٦٥
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ	النحل	٤٨	٥٦، ٢٠٧، ٢٥٦
فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ	النحل	٩٨	٣٧٠، ٤٠٠
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا	النحل	١٢٠	٢٢
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ	النحل	١٢٣	١٦١

الآيـــــــــة	السورة	الآية	الصفحـــــة
سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا	الإسراء	١	٦٢، ١٩٥
وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ	الإسراء	١٩	٣٠٠
وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ	الإسراء	٢٤	٢٢١
تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ	الإسراء	٤٤	٢٠٤
وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ	الإسراء	٥٩	٣٢١
أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ	الإسراء	٧٨	٢٢، ١٨١، ٢٩٥، ٣٣١، ٣٨٠
وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ	الإسراء	٧٩	١٧٦، ١٩١، ٢٥١، ٢٩٦
إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ	الإسراء	١٠٧	٢٣٣، ٢٨٩
قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ	الإسراء	١١٠	١٣، ١٨٠، ١٩٣، ٢٦١، ٤٣٢
وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ	الكهف	٢٨	٣٠
قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا	مريم	٣٠	٣٦، ٦٢، ١٦٧، ٤١٢
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا	مريم	٣١	١٦، ١٢٦
وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ	مريم	٥٥	١٢٦، ٢٤٣
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم	مريم	٥٨	١٠٧، ١٦٩، ٢٣٢
۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ	مريم	٥٩	٣٧، ١٠٧، ٢٧١، ٤١٢، ٤١٣
وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ	مريم	٧٦	١٤٣
وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا	مريم	٩٠-٩١	٢٠٦
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ	مريم	٥٤	١٦، ٣٥، ١٦١، ٤١٢
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم	مريم	٥٨	٣٣
إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ	طه	١٢	٦٠
فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ	طه	١٣	٣٥
إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ	طه	١٤	٤١، ٨٩، ١١٧، ١٦٢، ٢٧٦، ٣٢٩، ٤١٤
أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۗ	طه	١٢٨	٤١٦
وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ	طه	١٣١	٨١
وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ	طه	١٣٢	٧١، ٨١، ١٤١، ١٩٤، ٢٤٤، ٤١٥

الآيـــــــة	السورة	الآية	الصفحـــــة
وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ	طه	١٣٣	٤١٦
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ	الأنبياء	٢٥	٥٩، ١٥٦
خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ	الأنبياء	٣٧	٨٥
وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ	الأنبياء	٧٢	٣٥
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا	الأنبياء	٧٣	٥٨، ١٢٨، ١٥٣، ١٦١، ٤١٨
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ	الأنبياء	٧٣	٢٣٠
إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ	الأنبياء	٩٠	٢٣١
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ	الحج	١٨	٥٦، ٢١٠
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ	الحج	٢٥	٤٨٠
وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ	الحج	٢٦	٣٤، ٣٩، ١٥٧، ٢٤٨، ٣٦٩
وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ	الحج	٣٤	١٥١، ٣٣٤، ٤٨٢
ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ	الحج	٣٥	١٠، ١٣٩، ١٤٤، ٢٣١
لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا	الحج	٣٧	٣٤٩
أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ	الحج	٣٩	٤٨٠
وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ	الحج	٤٠	٤، ١٨، ١٤٥، ٣٣٥، ٤٨٣
ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ	الحج	٤١	١٣٥، ١٤٥، ٢٢٧، ٤٨٤
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ	الحج	٦٤	١١٥
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ	الحج	٧٧	٧٠، ٧٦، ١١٩، ١٤٦، ١٥٤، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤٨٤
وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ	الحج	٧٨	١٣٥، ١٤٦، ١٥٢، ٣٢٠، ٤٨٥
قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ	المؤمنون	١	٣٨، ٧١، ٧٤، ١٢٨، ٢٣٥، ٣٤٣، ٤٢٢
وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ	المؤمنون	٩	٣٨، ٧٤، ٢٤٠
۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ	النور	٣٥	٤٧٨
فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ	النور	٣٦	٢٤٩، ٣٠٦، ٣٣٢، ٤٧٧

الآيـــــة	السورة	الآية	الصفحـــة
رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ	النور	٣٧	٢٥، ١٣٤، ١٩٥
لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ	النور	٣٨	٨٣
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ	النور	٤١	١٩، ٥٦، ٢٠٣، ٢١٠، ٢١٣، ٤٧٨
قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ	النور	٥٤	٥٠
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ	النور	٥٦	٥٠، ٩٦، ١٣٥، ٤٧٩
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ	النور	٥٨	٢٩٥، ٤٨٠
وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا	الفرقان	٢٣	٣٦٧
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ	الفرقان	٦٠	٢٦١
وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ	الفرقان	٦٢	١٧٩، ٣٣٩
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا	الفرقان	٦٤	١٩٣، ٢٥١، ٢٩٧، ٣٨٧
وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ	الشعراء	٢١٤	٢٤٤
وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ	الشعراء	٢١٧	٢٤، ٢٩٧
وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ	الشعراء	٢١٩	٢٤
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ	النمل	٣	١٢٧، ٢٢٤، ٤٢٣
وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ	النمل	٢٤	٢٥٥
۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ	القصص	٢٩	١٨٥
أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا	القصص	٥٧	١٥٩
ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ	العنكبوت	٤٥	٢٩، ٤٢، ٧٧، ٨٠، ١٣٣، ١٤٨، ١٥٣، ٣٢٩، ٤١٥، ٤٢٤، ٤٩٤
وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ	العنكبوت	٦٩	٤٢٤
فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ	الروم	١٧	٢٩، ٣٣١، ٣٨١
وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ	الروم	١٨	٣٠
﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾	الروم	٣٠	٤١١
۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ	الروم	٣١	١٥٣
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ	لقمان	٤	١٢١، ١٢٧، ٢٢٤، ٤٢٣
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ	لقمان	٥	٧٤

الآيـــــة	السورة	الآية	الصفحـــــة
يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ	لقمان	١٧	٥١، ١٤١، ١٤٤، ١٦٩، ٢٤٥، ٤٣٧
إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا	السجدة	١٥	٢٥٢، ٣٩٣
تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ	السجدة	١٦	٧١، ٢٩٧
وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ	الأحزاب	٣٣	١٣٢، ١٥٠، ٤٦٢
وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ	الأحزاب	٣٣	١٠
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ	الأحزاب	٣٥	٢٣٤، ٣٤٢
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا	الأحزاب	٤١	٤٦، ٩١، ٣٣٧، ٤٦٣
هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ	الأحزاب	٤٣	١٢، ٤٥
إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ	الأحزاب	٥٦	٣، ١٢، ٤٤، ٣٩٣، ٤٦٤
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ	سبأ	١٣	١٦٦
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ	فاطر	١٨	١٢٠، ١٥١، ٢٢٧، ٤٣٤
إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟	فاطر	٢٨	١٤٩
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ	فاطر	٢٩	٣٩، ٨٠، ١٣٧، ١٤٨، ٢٢٨، ٤٣٦
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ	الصافات	٢٧	٩٧
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ	الصافات	٥١	٩٧
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ	الصافات	١٠٢	١٦٢، ٤١٣
فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ	الصافات	١٤٣	٣٤، ١٦٩
وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ	الصافات	١٦٥	٥٦، ٢٠٤
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ	الصافات	١٧٣	٥٣
وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ	ص	١٧	٢٠٥
إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ	ص	١٨	٣٠٦
وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩	ص	٢٤	٣٥، ١٦٤، ٣٠٩
كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ	ص	٢٩	٣٥٥، ٣٦٥
وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ	ص	٣٠	١٦٥

الآيـــــــــة	السورة	الآية	الصفحـــــة
إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي	ص	٣٢	٢٥، ٣٥
أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا	الزمر	٩	٢٧، ٢٥٣، ٢٩٨، ٣٣٦
لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ	الزمر	٣٥	٨٣
أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ	غافر	٢٨	١٩٠
وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ	غافر	٥٥	١٧٣
وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ	غافر	٦٠	٢٢١
وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ	فصلت	٦-٧	١٢٧، ١٠٣
فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ	فصلت	١١	٥٧
لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ	فصلت	٢٦	٤٠٦
وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ	فصلت	٣٧	٢٥٦
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ	الشورى	٥	١١٥
وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ	الشورى	٣٨	٣٨، ١٣٧، ١٥١، ٢٢٩، ٤٣٨
وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ	الجاثية	٧	١٠٣
أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ	الأحقاف	٣١	٩٦
فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ	الأحقاف	٣٥	٥١
فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ	محمد	١٨	٣٦٤
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ	محمد	٢٤	٣٦٥
مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ	الفتح	٢٩	٢٤٩
أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا	ق	٦	١٩١
وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ	ق	٣٨	١٩١
فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ	ق	٣٩	١٩٠، ١٩٢
وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ	ق	٤٠	٣٠٧
كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ	الذاريات	١٧	٢٥٢، ٢٩٨
وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ	الذاريات	١٨	٢٦
وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ	الذاريات	٥٦	٤١، ٨٢، ١٩٥
لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ	النجم	١٨	٦٣

الآيــــــة	السورة	الآية	الصفحــــة
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ	النجم	٣٩	٣٠٠
أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ	النجم	٥٩	٢٦٠
فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩	النجم	٦٢	٩٦
يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ	القمر	٦	٩٥
إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ	القمر	٤٧	٩٩
وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ	الرحمن	٦	٥٦، ٢١٠
فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ	الواقعة	٧٤	٣٩٦
يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا	الحديد	١٣	١١٢
سَبَّحَ لِلَّهِ	الحديد	١	٣٠
۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ	الحديد	١٦	٧١
رَأْفَةً وَرَحْمَةً	الحديد	٢٧	٤٧
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً	المجادلة	١٢	٤٨٦
ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ	المجادلة	١٣	١٣٥، ١٥٠
يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ	المجادلة	١٨	١١١
سَبَّحَ لِلَّهِ	الحشر	١	٣٠
سَبَّحَ لِلَّهِ	الصف	١	٣٠
إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ	الجمعة	٩	٩، ١٤، ٢٩٨، ٣٣٩، ٤٨٨
قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ	الجمعة	١١	٨٣
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ	المنافقون	٩	٢٥، ٣٧، ١١٤
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ	التغابن	١٦	٣٢٠، ٣٨٣
وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا	الطلاق	٢-٣	٨٢
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا	التحريم	٦	٢٢١، ٢٤٥
وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ	التحريم	١٢	٢٢
أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ	القلم	٤١	٩٥
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ	القلم	٤٢	٩٤، ٢٥٨، ٣٠٢
۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا	المعارج	١٩	٣٨، ٨٥
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ	المعارج	٢٢	٣٨، ٣٩، ٨٧، ٢٤٢، ٤٤٣

الآيـــــة	السورة	الآية	الصفحـــة
ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ	المعارج	٢٣	٣٩، ٨٧، ٢٤٢، ٤٤٣
وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ	المعارج	٢٤	١٣٨
وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ	المعارج	٣٤	٨٧، ٢٤٢، ٤٤٣
أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ	المعارج	٣٥	٤٤٤
ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا	نوح	١٠	٣٢٤
وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا	الجن	١٨	٣٩
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ	المزمل	١	١٧٣
قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا	المزمل	٢	٢١، ٢٥١
وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا	المزمل	٤	٣٥٦
وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا	المزمل	٨	٣٣٧
۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ	المزمل	٢٠	٢١، ١٨٣، ٢٤٩
فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ	المزمل	٢٠	١٢٩، ١٤٠، ٣٨٨
وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ	المدثر	٤	٣٧٨
كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ	المدثر	٣٨	٧٤، ٩٦، ٤٢٨، ٢٥٨
مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ	المدثر	٤٢	٣٧
قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ	المدثر	٤٣	١٠١، ٤١٤
أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ	القيامة	٣	٦٤
فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ	القيامة	٣١	١٧، ٣٧، ٦٤، ١٠٣، ٤٣٠
وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا	الإنسان	٢٥	٣٣٧
وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا	الإنسان	٢٦	٢٩٧
وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ	المرسلات	٤٥-٤٦	١٠٥، ٢٦٢
وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ	المرسلات	٤٧	١٠٥
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ	المرسلات	٤٨	٢٣، ٣٨
وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ	المطففين	١	١٠٠، ١٠٣
إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ	المطففين	٢٩	٩٩
وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ	المطففين	٣١	١٠٣
فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ	الإنشقاق	٢٠	٢٦٢
سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى	الأعلى	١	٣٩٧

الآيـــــة	السورة	الآية	الصفحـــة
قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ	الأعلى	١٤	١٤، ٧٣، ٣١٢، ٣٣٨، ٤٢١
بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ	الفجر	١٧	١٢٧
يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ	الفجر	٢٧	٩٠
قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا	الشمس	٩	٧٤
ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ	العلق	١	١٧٤
إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ	العلق	٦-٧	٨٥
أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ	العلق	٩	١٧٩، ١٩٠، ٢٥٩، ٤٢٦
كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ	العلق	١٥	٤٢٧
كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩	العلق	١٩	٧٩، ٣٩١، ٤٢٨
وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ	البينة	٤	٢٨١
وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ	البينة	٥	٣٦، ٥٩، ١١٨، ١٣٤، ٣٨٣، ٤٧٦
فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ	الزلزلة	٧، ٨	٤٨٦
وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ	الهمزة	١	١٠٠، ١٠٣
فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ	الماعون	٤-٥	١٩، ٣٧، ١٠٠، ٢٦٨
فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ	الكوثر	٢	١١٨، ١٨٩، ٣١٢، ٤٢٢

فهرس أطراف الأحاديث والآثار

طرف الحديـــــث / الأثـــــــر **الصفحة**

أتاني جبريل في أول ما أوحى الله فعلمني الوضوء والصلاة ------------ ١٧٤
أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال: يا رسول الله ليس لي قائد ------------- ٣٠٣
أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه -------------------- ٨٧، ٢٣٠
اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد --------------------- ٣٦١
إذا أراد أحدكم أن يذهب الخلاء وقامت الصلاة فليبدأ بالخلاء ---------- ٣٦٠
إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ------------- ٢٤٥
إذا تثاءب أحدكم في الصلاة فليكظم ما استطاع ------------------ ٣٦١
إذا توضأت فمضمض ------------------------------- ٣٧١
إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه -------------------- ٣٩٥
إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب --------------------------- ٢
إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ---------------- ٢٣٤
إذا رأيتم ذلك فصلوا ------------------------------ ٣٢٣
إذا صلى أحدكم إلى سترة فليدن منها ------------------------ ٣٥٨
إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي --------------- ٣١٠
إذا قرب العشاء وحضرت الصلاة فابدءوا به --------------------- ٣٦٠
إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ----------- ٣٨٦
إذا كان أحدكم في الصلاة فلا يرفع بصره إلى السماء --------------- ٣٦٢
إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبَل وجهه --------------------- ٣٦٢
إذا نعس أحدكم في الصلاة فلينم حتى يعلم ما يقول --------------- ٣٦٠
إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم ------------- ٣٦٠
إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء ------------- ٣٦٠
الأذنان من الرأس --------------------------------- ٣٧٢

طرف الحديـــث / الأثـــــر **الصفحة**

اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم بن حذيفة فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي ----٣٥٩
أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه ----------------------٢٩
ارجع فصل فإنك لم تصل --------------------------------١٠٨
أرحنا يا بلال بالصلاة ----------------------------------٣٥٢
استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة --------------٣٠٦
أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته ----------------------٣٥٣
أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت ----------------------٢٩٨
أعطاني أبي صدقة ماله فأتيت بها رسول الله ﷺ --------------------٣
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء -----٣٥٧، ٣٩١، ٣٩٢
أقم الصلاة أرحنا بها ------------------------------------٧٢
ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة ----------------------٢٥٢
إلا المغرب فإنها وتر النهار، وإلا الصبح فإنها تطول فيها القراءة ----------٣١٦
ألا إني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه -------------------------٣٦٥
ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ ----------------------٥٦
أما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمنٌ أن يستجاب لكم -------------٣٥٧
أُمرت أن أسجد على سبعة أعظم --------------------------٣٩١
أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ---------------------------٣٦
أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله --------------------٢٦٥
أمرنا -تعني النبي ﷺ- أن نخرج في العيدين: العواتق ---------------٣١٣
أمّني جبريل عند البيت مرتين ------------------------------٣٤
إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر --------------١١٣
إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة والصبح ----------------------٢٦٩
إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه -------------------٣٥٥

طرف الحديــــث / الأثــــــر الصفحة

إن أفضل الصلاة الركوع والسجود ------------------------٣٨٩
إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله -------------------------٣٢١
إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها ------------------٣٥٨
إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ------------------٤٧٥
إن الله فرض الصلاة على لسان نبيكم ﷺ على المسافر ركعتين -------------٢٠١
إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ----------------------٣٣٩
إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته -----------------٣١٦
أن النبي ﷺ خرج من المدينة لا يخاف إلا الله رب العالمين فصلى ركعتين -----٦٦
أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يتوضأ -----------٣٧٥
أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تورمت قدماه--------------------١٨٥
إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر ---------- **٤٩**
أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ----------------------------- **٨٠**
إن رسول الله ﷺ خرج متبذلاً متواضعاً متضرعاً حتى أتى المصلى ---------٣٤٩
أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحي إليه أتاه جبريل فعلمه الوضوء ----------١٧٣
أن رسول الله ﷺ قال له: ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ ----------٢٥٢
إن للصلاة أولاً وآخراً ----------------------------------٣٨١
إن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المساجد -------------------١٦٦
إنما الأعمال بالنيات -----------------------------------٣٨٤
أنه صلى بأصحابه صلاة العشاء (أبو هريرة رضي الله عنه) ---------------٣١٠
أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد ------------٣٧٠
إنها ألهتني آنفاً عن صلاتي --------------------------------٣٥٠
إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً فقد والله خشيت أن يكون أمراً ---------١٧٩
إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ --------------------------٢٠٦

طرف الحديـــث / الأثـــــر **الصفحة**

أول سورة أنزلت فيها سجدة «والنجم» ---------------------- ٢٦٠
أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع ---------------------- ٣٤٦
أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ---------------------- ٣٠٦
بسم الله الرحمن الرحيم، وفي رواية: ثم يقف ---------------------- ٣٥٦
بعثني رسول الله ﷺ في حاجة فأجنبت ---------------------- ٣٧٧
تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة ---------- ٢٢
تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق ---------------------- ١١٣
توضأ رسول الله ﷺ ثم قال: من توضأ وضوئي هذا ---------------------- ٨٠
جعلت قرة عيني في الصلاة ---------------------- ٨٩
حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب ---------------------- ٣٥٢
خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة ---------------------- ٦٦
خمس صلوات افترضهن الله تعالى من أحسن وضوءهن ---------------------- ٣٤٥
الدعاء هو العبادة ---------------------- ٢٢١
رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع ---------------------- ٨٢
رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى ---------------------- ٣٤٩
رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته ---------------------- ٢٤٥
رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق ---------- ٣٦٧
سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ ---------- ٢٤١
سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله؟ ---------------------- ٣٨١
سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت ---- ٣٩٤
سبق رسول الله ﷺ، وصلى أبو بكر، وثلّث عمر ---------------------- ٥
سجدت فيها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه -------- ٣١٠
شغلتني أعلام هذه ---------------------- ٣٥٩

طرف الحديـــث / الأثـــــــر **الصفحة**

شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر -------------------- ١٥

صحبت رسول الله ﷺ فكان لا يزيد في السفر على ركعتين ------------ ٣١٥

صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ---------------- ٦٦، ٣١٥

صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب ------------ ٣٢٠

صلاة أحدكم في المسجد تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة ------ ٣٣٣

صلوا على صاحبكم -------------------------- ٣١٤

صلوا كما رأيتموني أصلي ------------------------- ٣٨٦

الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات--- ٢٨،٧٩

صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين ---------------- ٦٦

صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة يقرأ مسترسلاً ---------------- ٣٥٥

عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله تعالى --------------- ٢٣٤

فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم -------------------- ٣٨٣

فانطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين: أنبئيني عن خلق النبي ﷺ ------ ١٧٥

فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر----- ٢٠١، ٣١٦

فرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر النبي ﷺ ------------------ ٣١٦

فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة -------- ٥٦، ٣٧٦

فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ------------- ١٧٦

ففرض الله على أمتي خمسين صلاة--------------------- ٦٣، ١٧٣

قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة ---------------- ٢٥٩

قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟---------------- ٢٥٩

قال لي النبي ﷺ: اقرأ علي. قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ ----------- ٣٤٩

قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين ------- ٤٠٨

قرأت على النبي ﷺ «والنجم» فلم يسجد فيها ---------------- ٣١١

طرف الحديـــث / الأثـــــر **الصفحة**

قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ----------------------٣٨٨
قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد --------------------٣٩٤
كان النبي ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهم -------------------١١
كان النبي ﷺ يصلي عند المقام فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ -----٢٥٩
كان رسول الله ﷺ إذا صلى طأطأ رأسه ورمى ببصره نحو الأرض -------٣٥٤
كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها ----------------------٣٥٩
كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده --------٣٩٤
كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ------------------------٢٠٦
لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك (الطمأنينة) -----------------٣٥٣
لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل- يعني صلبه- في الركوع والسجود -----١٠٩
لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى -----١٦٦
لا خير في دين لا ركوع فيه --------------------------٢٤
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب -------------------١٨٢، ٣٩٨
لا يزال الله عز وجل مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت ---------٣٦١
لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر -----------------٢٠٦
لا يلج النار رجل بكى من خشية الله ---------------------٢٣٤
لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل ----------------------٣١٩
لما توفي عبدالله -وهو ابن أبيّ- جاء ابنه عبدالله-------------------٢٧٤
لما نزلـــــــــــــت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال لنــــــــــــا رســـــــــــول الله ﷺ: (اجعلوهــــــا في ركوعكم) --٣٩٦
اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً، مريعاً، طبقاً ----------------------٣٢٥
اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع --------------------٣٦٢

طرف الحديـــث / الأثـــــر **الصفحة**

اللهم لك ركعت، وبك آمنت ------------------------ ٣٤٤
لو أن أولكم وآخركم ------------------------ ٣٣٨
لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ------------------------ ٢٥٩
لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء ------------------------ ٣٧٤
ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها ------------------------ ٣٥٨
المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه ------------------------ ١٢٥
ما بال أقوام يرفعون أبصارهم في صلاتهم ------------------------ ٣٤٤
ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيُحسن وضوءها ------------------------ ٣٤٥
ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً ------------------------ ٣١٥
ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ------------------------ ٣٠٩
ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين ------------------------ ٣١٥
ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلغ ------------------------ ٣٠٩
مثل الذي لا يتم ركوعه وينقر في سجوده ------------------------ ٣٥٣
مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ------------------------ ١٢٥
مثل المجاهد في سبيل الله -والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ------------------------ ٣٤٥
مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم ------------------------ ٣٧٦
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ------------------------ ٣٨٤
من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ------------------------ ٦٥، ٢٤٠
من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين ------------------------ ٣٠٩
من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ------------------------ ٣١٤
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ------------------------ ١٣٤
من لم يسأل الله يغضب عليه ------------------------ ٣٥٧
نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ------------------------ ٢٩٩

طرف الحديـــث / الأثـــــر **الصفحة**

نهاني عن نقرة كنقرة الديك، وإقعاء كإقعاء الكلب --------------- ٣٦٢
نهى رسول الله ﷺ في الصلاة عن ثلاث: عن نقر الغراب ------------- ٣٦٢
وافقت ربي في ثلاث، ووافقني ربي في ثلاث -------------------- ٣٠٨
وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً ---------------------- ٣٧١
وددت لو أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها----------------- ٢٨٤
ويل للأعقاب من النار ------------------------------ ٣٧٣
يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت ----------------- ٣٠٩
يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي ----------------- ٣٥٥
يا رسول الله إن المدينة كثيرة الهوام والسباع -------------------- ٣٠٣
يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟----------------------- ١٥٧
يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ---------------- ٩٢
يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة --------------- ٩٦

فهرس المصادر والمراجع

- اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، المسمى: منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات، للشيخ: أحمد محمد البنا، قدم له: د. شعبان إسماعيل، عالم الكتب، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الإجماع: محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تحقيق ودراسة: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار المسلم، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، ت: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الجَصَّاص الرازي، مراجعة: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد بن مصطفى الحنفي، وضع الحواشي: عبداللطيف عبدالرحمن، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م
- الأركان الأربعة لأبي الحسن الندوي، الناشر: دار الكتب الإسلامية، دار إحياء العلوم - بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني، بإشراف/ محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، موسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٩٩هـ
- أسرار الصلاة والفرق والموازنة بين ذوق الصلاة والسماع لابن قيم الجوزية، تحقيق إياد القيسي- دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، ط بدون، سنة بدون.
- الإكليل في استنباط التنزيل، جلال الدين السيوطي، ت: سيف الدين عبدالقادر الكاتب، دار الكتب العلميه، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ.
- البحر المحيط، لمحمد بن يوسف المعروف بأبي حيان الأندلسي- دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ت: د. أحمد أبو ملحم، وآخرين، مكتبة المعارف، الرياض، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبدالله الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط بدون، سنة بدون.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي، المكتبة العلمية، بيروت، توزيع: دار الباز بمكة المكرمة، سنة بدون.
- تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٩م.
- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- تحصيل نظائر القرآن، للحكيم الترمذي، ت: حسني نصر زيدان، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٩٠هـ.
- التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٤١٦هـ.
- تعظيم قدر الصلاة للإمام المروزي، ضبط نصوصه: أحمد أبو المجد، دار العقيدة، الاسكندرية، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- تفسير البيضاوي، ناصر الدين البيضاوي –تقديم محمود عبدالقادر الأرناؤوط، طبعة جديدة منقحة، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر بدون، بيروت، طبعة بدون، ١٩٧٨م.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، طبعة جديد منقحة ومرتبة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- التفسير الكبير، لأحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني، الشهير بابن تيمية، جمع وتحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، ١٤٠٨هـ.
- تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.
- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت: د. عبدالله هاشم اليماني المدني، المدينة المنورة، ط بدون، ١٣٨٤هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري، ت: سعيد أحمد إعراب، الناشر بدون، مدينة النشر بدون، ط بدون، ١٤١٣هـ/ ١٩٨٨م.
- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، للشيخ إسماعيل حقي البروسي، اختصار وتحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، قدم له الشيخ عبدالله عقيل والشيخ محمد صالح العثيمين، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤١٧هـ.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، الشهير بابن الأثير، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، دار الفكر، بيروت، طبعة بدون، ١٣٩٠هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط بدون، سنة بدون.
- تفسير المراغي، أحمد مطلق الراغي، دار الفكر، ط بدون، تاريخ.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب. تحقيق: شعيب الأرناؤط ، إبراهيم باجس. الطبعة السابعة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر - بيروت .
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ت: د. محمد إبراهيم الحفناوي و د. محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الروض المربع، منصور بن يونس البهوتي مع حاشية العنقري، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٣٩٠هـ.
- حجة الله البالغة، لأحمد بن عبدالرحيم الدهلوي، اعتنى به: محمد طعمه حلبي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الخشوع في الصلاة، زين الدين بن رجب الحنبلي، تعليق وتخريج: علي حسن عبدالحميد، دار عمار، عمان، ط ١٤٠٦هـ.
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: د.عبدالله عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية الإسلامية، ط١، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- دراسات في علوم القرآن الكريم د. فهد الرومي، ط ١٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الدعاء في القرآن الكريم لمحمد محمود عبود زين، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة.
- دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق د/ عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.
- الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء، المنصورة، طبعة بدون، ١٩٨٧م.
- روح الصلاة في الإسلام لعفيف طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٧، ١٩٨٥م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، منشورات محمد علي بيضون، ط ٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٢م.

- الروح، لشمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، الشهير بابن القيم، ت: يوسف بديوي، دار ابن كثير، دمشق، ط بدون، ١٤١٤هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، المكتب الإسلامي، تقديم زهير الشاويش، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لشمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، الشهير بابن القيم، ت: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، ط١٦، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- السلسبيل في معرفة الدليل، حاشية على زاد المستقنع، للشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، مطابع دار الهلال، ط٣، ١٤٠١هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، لمحمد بن ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط بدون، سنة بدون.
- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط بدون، سنة بدون.
- سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، اعتنى به: فريق بيت الأفكار الدولية، نشر: بيت الأفكار الدولية، ط بدون، تاريخ بدون.
- سنن الدارمي: عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي السمرقندي، حقق نصه، وخرج أحاديثه، وفهرسه: فواز أحمد رمزلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي مع حاشية الإمام السندي، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- سنن النسائي (المجتبى) تحقيق عبدالفتاح أبو غدة. الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ. مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب .
- سيد ولد آدم ﷺ لعبدالفتاح حسن راوه المكي، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- السيرة النبوية: لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِمْيري (ت/ ٢١٣هـ، أو ٢١٨هـ)، دار

ابن حزم، بيرت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- شرح السنة، للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- شرح العمدة، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، ، تحقيق: د. صالح بن محمد الحسن، مطابع الفرزدق، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.
- الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عيثمين
- شرح صحيح مسلم، لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، مراجعة: خليل الميس، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الصبر في القرآن الكريم د/ يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- صحيح ابن حبان. تحقيق : شعيب الأرناؤط الطبعة الثانية ١٤١٤هـ. مؤسسة الرسالة - بيروت.
- صحيح ابن خزيمة. تحقيق : محمد مصطفى الأعظمي. ١٣٩٠هـ. طبع المكتب الإسلامي - بيروت .
- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير): محمد ناصر الدين الألباني(ت/ ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- صحيح سنن ابن ماجه، لمحمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
- صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف: زهير الشاويش، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف: زهير الشاويش، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- صحيح سنن النسائي، ، لمحمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف: زهير الشاويش، ط۱، ۱٤۰۹هـ/ ۱۹۸۸م.
- صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط بدون، سنة بدون.
- صلاة المؤمن د/ سعيد بن علي بن وهف القحطاني، توزيع مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، ط۲، ۱٤۲٤هـ/ ۲۰۰۳م.
- الصلاة في القرآن الكريم د. فهد بن عبدالرحمن الرومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦، ۱٤۱٤هـ.
- الصلاة وحكم تاركها لابن قيم الجوزية. تحقيق: تيسير زعيتر. الطبعة الثانية ۱٤۰٥هـ - ۱۹۸٥م. المكتب الإسلامي - بيروت .
- الصلاة ومقاصدها، الحكيم ابن الترمذي، ت: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان ط۲، ۱٤۱۱هـ - ۱۹۹۱م.
- كتاب الضعفاء، لأبي جعفر محمد بن عمرو العقيلي، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط۱، ۱٤۲۰هـ/ ۲۰۰۰م.
- ضعيف سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط۲ للطبعة الجديدة، ۱٤۲۲هـ/ ۲۰۰۲م.
- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد بن منيع الزهري، الشهير بابن سعد، ت: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط۱، ۱٤۱۰هـ/ ۱۹۹۰م.
- العمدة في غريب القرآن لمكي بن أبي طالب
- الغرابة في الحديث النبوي، لعبدالفتاح عبدالعليم البركاوي، الناشر بدون، القاهرة، ط۱، ۱٤۰۷هـ.
- الفائق في غريب الحديث، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ت: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت -لبنان، ۱٤۱٤هـ/ ۱۹۹۳م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مراجعة: محمد فؤاد عبدالباقي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط بدون، سنة بدون.
- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لأحمد عبدالرحمن البنا، الشهير بالساعاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، طبعة بدون، تاريخ بدون.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد علي الشوكاني، ضبطه وصححه : أحمد عبدالسلام، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط بدون، سنة بدون.

- الفروع، لشمس الدين عبدالله بن محمد بـن مفلـح المقـدسي، الشهــير بـابن مفلـح، تحقيـق: أبي الزهـراء حازم القاضي، دار الكتب العلمية؛ بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- الفقه على المذاهب الأربعة، للجزيري وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣.
- في ظلال القرآن. الطبعة الشرعية العاشرة ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م. طبع دار الشروق .
- القاموس المحيط، لمجد الـدين محمـد بـن يعقـوب الفيروزآبـادي، مؤسسـة الرسـالة، دار الريـان للتراث، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- قصص الأنبياء لابن كثير، ت: د/ مصـطفى عبدالواحـد، دار القبلـة للثقافـة الإسـلامية، جـدة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط٤، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- صفة صلاة النبي ﷺ، لمحمد ناصر الـدين الألبـاني، المكتـب الإسـلامي، بـيروت، طبعـة بـدون، ١٩٨١م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجـوه التأويـل، لأبي القاسـم محمـود بـن عمـر الزمخشري، ت: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر، لابـن العـماد، تحقيـق: فـؤاد عبـدالمنعم أحمـد، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، طبعة بدون، تاريخ بدون.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع لأبي محمد مكي بن أبي طالب ، ت: د/ محـي الـدين رمضـان، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠١هـ.
- الكليات (معجم في المصـطلحات والفـروق اللغويـة)، لأبي البقـاء أيـوب بـن موسـى الحسـيني الكفوي، اعتنى به: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري، الشهير بابن مَنْظُور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٦، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٩٨٠م.
- مجمع الزوائـد ومنبـع الفوائـد، لعـلي بـن أبي بكـر الهيثمـي، ت: عبـدالله الـدرويش، دار الفكـر، بيروت- لبنان، ط بدون، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، إعداد: محمد قاسم، مكتبة ابن تيمية للطباعة، القاهرة، ط بدون، سـنة بدون.
- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسـمي، ت: أحمـد بـن عـلي وحمـدي صـبح، دار الحـديث، القاهرة، ط بدون، سنة بدون.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٣، ٢٠٠٢م.

- مختار الصحاح، لزين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، اعتنى بها: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط ٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي، المطبعة السلفية ومكتبتها، الروضة- مصر، ١٣٧٩هـ.
- مختصر منهاج القاصدين، لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، دار التراث، القاهرة، طبعة بدون، ١٩٨٢م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لشمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، الشهير بابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- المستدرك للحاكم، ت: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
- مسند أبي يعلى. تحقيق: حسين سليم أسد. ط١، ١٤٠٤هـ. دار المأمون للتراث-دمشق.
- المسند، لأحمد بن حنبل الشيباني، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، إعداد جماعة من العلماء بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، ت: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.
- معالم التنزيل، لأبي محمد بن مسعود البغوي، ت: محمد النمر وآخرين، دار طيبة، الرياض، ط بدون، ١٤٠٩هـ.
- معاني الركوع والسجود في القرآن المجيد د. إبراهيم الدوسري، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج، ت: د. عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة بدون، ١٤١٠هـ.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم ، طبعة منقحة، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، مطابع الأوفست بشركة الاعلانات الشرقيه.
- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، أعده حسان عبدالمنان، بيت الأفكار الدولية.
- المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

- المعجم الوسيط: إصدار مجمع اللغة العربية بمصر، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المكتبة الإسلامية، تركيا، ط٢، تاريخ بدون.
- المغني، لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، ت: د. عبدالله التركي ود. عبدالفتاح الحلو، توزيع: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، لأبي عبدالله محمد بن عمر الشهير بالفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، سنة بدون.
- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ.
- المقاييس في اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، الشهير بابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، تاريخ بدون.
- من معالم الهدي القرآني في بر الوالدين د. سليمان الصادق البيرة، مطبعة سفير، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧.
- منار السبيل لإبراهيم الضويان، ت: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٥، ١٤٠٢هـ.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط بدون، سنة بدون.
- منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ابن لجوزي، ت: محمد الصفطاوي، والدكتور/ فؤاد عبدالمنعم، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن حميد وعبدالرحمن بن ملوح، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط٤، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- الموطأ: للإمام مالك بن أنس، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة، طبعة بدون، تاريخ بدون.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لأبي عبدالله محمد بن عثمان الذهبي، ت: علي البجاوي، طبعة عيسى البابي الحلبي، مدينة النشر بدون، ط بدون، ١٩٦٣م.
- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن لمحمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم الراضي،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، طبعة بدون، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية، ومؤسسة الكتب الثقافية، مدينة النشر بدون، ط بدون، سنة بدون.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، الشهير بابن الأثير، ت: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط بدون، سنة بدون.
- نيل الأوطار للإمام من أحاديث سيد الأخيار، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الجيل، بيروت، طبعة بدون، تاريخ بدون.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب، لشمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، الشهير بابن القيم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، طبعة بدون، ١٣٩٩هـ.
- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، لأبي عبدالله الدامغاني، ت: عربي عبدالحميد علي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز مكة المكرمة.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع **الصفحة**

المقدمة ------------------------------------ أ-ح

الباب الأول: حقيقة الصلاة في اللغة والقرآن ---------------------- ١-٣١

الفصل الأول: معنى الصلاة، وألفاظها في القرآن الكريم ------------- ٢-٢٠

المبحث الأول: الصلاة في اللغة والاصطلاح ---------------- ٢-٩

المطلب الأول: الصلاة في اللغة ---------------------- ٢-٦

المطلب الثاني: الصلاة في الشرع --------------------- ٧-٩

المبحث الثاني: وجوه ونظائر الصلاة في القرآن الكريم ----------- ١٠-٢٠

الوجه الأول: بمعنى الصلوات الخمس بعينها ------------------ ١٠

الوجه الثاني: بمعنى الدعاء ------------------------- ١١

الوجه الثالث: بمعنى الاستغفار ----------------------- ١١

الوجه الرابع: بمعنى المغفرة ------------------------ ١٢

الوجه الخامس: بمعنى الرحمة ------------------------ ١٢

الوجه السادس: بمعنى القراءة ------------------------ ١٣

الوجه السابع: بمعنى صلاة الجماعة --------------------- ١٣

الوجه الثامن: بمعنى صلاة الجمعة ---------------------- ١٤

الوجه التاسع: بمعنى صلاة العيد ----------------------- ١٤

الوجه العاشر: بمعنى صلاة العصر ---------------------- ١٤

الوجه الحادي عشر: بمعنى صلاة الجنازة ------------------ ١٥

الوجه الثاني عشر: بمعنى صلاة السفر -------------------- ١٥

الوجه الثالث عشر: بمعنى صلاة الخوف ------------------- ١٦

الوجه الرابع عشر: بمعنى صلاة الأمم الماضية ---------------- ١٦

الوجه الخامس عشر: بمعنى الإسلام --------------------- ١٧

الوجه السادس عشر: بمعنى الدِّين ---------------------- ١٧

الموضـــــــــــــوع **الصفحة**

الوجه السابع عشر: بمعنى مواضع الصلاة وبيوتها أو الكنائس --------- ١٨
الوجه الثامن عشر: بمعنى صلاة المشركين ------------------ ١٨
الوجه التاسع عشر: بمعنى صلاة المنافقين ------------------ ١٩
الوجه العشرون: بمعنى صلاة جميع المخلوقات ------------------ ٢٠
الفصل الثاني: الألفاظ المستعملة في معنى الصلاة ------------------ ٢١-٣١
أولاً: سميت «قياماً» ---------------------------------- ٢١
ثانياً: سميت «قراءة» ---------------------------------- ٢٢
ثالثاً: سميت «ركوعاً»---------------------------------- ٢٣
رابعاً: سميت سجوداً ---------------------------------- ٢٤
خامساً: سميت ذكراً ---------------------------------- ٢٥
سادساً: قد يعبر عن الصلاة بلفظ «الاستغفار» ------------------ ٢٦
سابعاً: قد يطلق القرآن على الصلاة لفظ «الإيمان» ---------------- ٢٧
ثامناً: قد يطلق القرآن على الصلاة لفظ «القنوت» ---------------- ٢٧
تاسعاً: قد يطلق القرآن على الصلاة اسم «الحسنات» --------------- ٢٨
عاشراً: قد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ «التسبيح» --------------- ٢٩
أحد عشر: قد يطلق القرآن على الصلاة لفظ «الحمد» --------------- ٣٠
ثاني عشر: قد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ «الدعاء» --------------- ٣٠
الباب الثاني: حديث القرآن عن الصلاة وبيان منزلتها ومكانتها --------- ٣٢-١٤٢
الفصل الأول: أهمية الصلاة وعظم شأنها ------------------------ ٣٣-٤١
أولاً: التأكيد على فرضها على جميع الأنبياء والرسل السابقين ---------- ٣٣
ثانياً: التنصيص على أنها أول فريضة بعد الإخلاص بالعبادة لله --------- ٣٦
ثالثاً: التنصيص على وجوبها في وقتها ------------------------- ٣٦
رابعاً: الوعيد على من أضاعها، وتوبيخه تعالى الكافر على تركها--------- ٣٧
خامساً: مدح الله تعالى المصلين وثناؤه عليهم وذكر جزائهم في الدنيا والآخرة ٣٨
سادساً: الحديث عن المساجد والقبلة ------------------------- ٣٩

الموضـــــــــوع | **الصفحة**

سابعاً: لا تسقط بحال من الأحوال ---------------------- ٤٠
ثامناً: ذكره جل أنواعها وأحكامها ---------------------- ٤١
الفصل الثاني: الحكمة من الصلاة وفضائلها ---------------- ٤٢-٥٧
أولاً: ســـــــمى الله ثناءه على خلقــــــــه ورحمته بهم واستغفار ملائكته لهم باســــم
«الصلاة» -- ٤٤
ثانياً: أنها أول عمل من أعمال الجوارح التي توصل إلى حق الإيمان ------ ٤٨
ثالثاً: جعلها الله أول أسباب رحمته لعباده المؤمنين----------------- ٥٠
رابعاً: أنها أول عمل صالح يُعد من عزم الأمور--------------------- ٥٠
خامساً: أنها من علامة الولاية بين المؤمنين وشرط للأخوة في الدين------ ٥٢
سادساً: أنها عبادة تشترك فيها جميع المخلوقات لله رب العالمين --------- ٥٥
الفصل الثالث: خصائص الصلاة ------------------------- ٥٨-٧٢
أولاً: أنها دين الله الذي يدين به أهل السموات والأرض ------------ ٥٨
ثانياً: فرضها بدون واسطة ------------------------------ ٦٠
ثالثاً: أن الله سماها إيماناً --------------------------------- ٦٣
رابعاً: أنها مقرونة بالتصديق ------------------------------ ٦٤
خامساً: أن الله أوجبها على كل حال ------------------------ ٦٥
سادساً: أن الله اشترط لها أكمل الأحوال من -------------------- ٦٨
سابعاً: أن الله استعمل فيها جميع أعضاء الإنسان ----------------- ٧٠
ثامناً: الأمر بالاستعانة بها مع الصبر ------------------------- ٧١
الفصل الرابع: ثمرات الصلاة وآثارها على النفس والأخلاق --------- ٧٣-٩٣
أولاً: الفلاح في الدنيا والآخرة ---------------------------- ٧٣
ثانياً: الاستقامة على الصراط المستقيم ----------------------- ٧٧
ثالثاً: تكفير الصغائر من السيئات -------------------------- ٧٩
رابعاً: سعة الرزق وزيادة الفضل في الدنيا والآخرة---------------- ٨٠
خامساً: الصلاة من أكبر الأســـــباب الموجبــــــة لاجتنــــــاب

الموضـــــــوع **الصفحة**

مـــــا حـــــرم الله مـــــن
المكاسب الربوية ---------------------------------- ٨٤
سادساً: علاج للهلع الذي جُبلت عليه النفس البشرية ------------- ٨٥
سابعاً: طمأنينة القلب وسكينة النفس ---------------------- ٨٨
ثامناً: اكتساب رحمة الله، ومغفرته، وثنائه وكرامته وبركته ----------- ٩١
الفصل الخامس: الآثار المترتبة على ترك الصلاة والجزاء على ذلك -------- ٩٤-١١٦
الفصل السادس: الأعمال الصالحة التي قرنت مع الأمر بالصلاة ------ ١١٧-١٥٤
أولاً: عبادة الله -- ١١٧
ثانياً: الإيمان وأركانه--------------------------------------- ١٢٠
ثالثاً: الزكاة--- ١٢١
رابعاً: الإنفاق من رزق الله ---------------------------------- ١٣٧
خامساً: إقراض الله -- ١٤٠
سادساً: الصبر --- ١٤١
سابعاً: الجهاد بمعناه العام ---------------------------------- ١٤٤
ثامناً: التمسك بالكتاب وتلاوته ------------------------------ ١٤٨
تاسعاً: طاعة الله والرسول ﷺ ------------------------------- ١٥٠
عاشراً: خشية الله والاستجابة له والاعتصام به ------------------ ١٥١
أحد عشر: الإنابة والتقوى ---------------------------------- ١٥٢
ثاني عشر: فعل الخيرات-------------------------------------- ١٥٣
الباب الثالث: الصلاة فريضة الله على خلقه أجمعين ---------------- ١٥٥-٢١٨
الفصل الأول: الصلاة فريضة إلهية على سائر الأنبياء والأمم ---------- ١٥٦-١٧٢
الفصل الثاني: فرض الصلاة وتطور تشريعها على الرسول محمد ﷺ --- ١٧٣-٢٠٢
أولاً: وجوب قيام الليل على النبي ﷺ وتأسي المؤمنين به في ذلك ------ ١٧٣
ثانياً: نزول سورة «الصلاة»---------------------------------- ١٧٩
ثالثاً: نسخ استيعاب نصف الليل أو دونه بقليل------------------ ١٨٣

الموضــــــــــــــوع **الصفحة**

رابعاً: نـــــــــزول آيات في ســـــــــــــور مكية فيها حث للرســـــــــــــول ﷺ على الصبر والصلاة-- ١٨٩
خامساً: فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج ------------ ١٩٥
الفصل الثالث: جميع من في الكون في صلاة دائمة وعبادة مستمرة ----- ٢٠٣-٢١٨
الباب الرابع: أنواع المصلين وصفاتهم في القرآن الكريم ------------ ٢١٩-٢٨٧
الفصل الأول: الأنبياء والمؤمنون وحالهم مع الصلاة ------------- ٢٢٠-٢٥٤
أولاً: الإلتجاء إلى الله في أن يوفقهم وذريتهم لإقامة الصلاة ---------- ٢٢٠
ثانياً: إقامة الصلاة لله رب العالمين ---------------------- ٢٢١
ثالثاً: الخشوع في الصلاة-------------------------------- ٢٣١
رابعاً: المحافظة والمداومة على الصلاة --------------------- ٢٣٩
خامساً: أمر الأولاد والأهل بالصلاة ---------------------- ٢٤٣
سادساً: عمارة المساجد بالصلاة فيها وغير ذلك من عمارتها ---------- ٢٤٦
سابعاً: كثرة صلاتهم بالليل والنهار --------------------- ٢٤٩
الفصل الثاني: المشركون وحالهم مع الصلاة ---------------- ٢٥٥-٢٦٦
أولاً: صلاة المشركين السابقين ----------------------- ٢٥٥
ثانياً: دعوة القرآن المشركين للصلاة -------------------- ٢٥٧
ثالثاً: موقف المشركين من الدعوة إلى الصلاة ومن المصلين ---------- ٢٥٩
رابعاً: صد المؤمنين عن الصلاة في المسجد الحرام وإقامة صلاة بدعية فيه -- ٢٦٢
خامساً: إقامة الصلاة شرط لتوبة المشركين وقبولهم أخوة في الدين ----- ٢٦٥
الفصل الثالث: المنافقون وحالهم مع الصلاة ----------------- ٢٦٧-٢٧٥
أولاً: السهو عن الصلاة والمراءة بها ---------------------- ٢٦٨
ثانياً: الكسل في الصلاة والتثاقل في القيام لها ---------------- ٢٦٩
ثالثاً: إضاعة الصلاة واتباع الشهوات --------------------- ٢٧١
رابعاً: الاعتراض على تحويل القبلة------------------------ ٢٧٢

الموضـــــــــوع **الصفحة**

الفصل الرابع: أهل الكتاب وحالهم مع الصلاة --------------- ٢٧٦-٢٨٧

أولاً: موقفهم من العهود والمواثيق التي أخذت عليهم بإقامة الصلاة

التي فرضت عليهم ------------------------------ ٢٧٦

ثانياً: موقف أهل الكتـــــاب المعاصريـــــــن للرســـــول ﷺ

من الصـــــلاة

والقبلـــــة والأذان------------------------------ ٢٨٠

ثالثاً: حال مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يحرفوه ------ ٢٨٨

الباب الخامس: أنواع الصلوات الواردة في القرآن الكريم ----------- ٢٩٣-٣٢٦

أولاً: الصلوات الخمس المفروضة ------------------------- ٢٩٤

ثانياً: صلاة الليل---------------------------------- ٢٩٦

ثالثاً: صلاة الجمعة ----------------------------- ٢٩٨

رابعاً: صلاة الجماعة ---------------------------- ٣٠٢

خامساً: صلاة النافلة «التطوع»:

١- صلاة الضحى ---------------------------- ٣٠٦

٢- الركعتان بعد المغرب------------------------- ٣٠٧

٣- ركعتي الطواف---------------------------- ٣٠٨

٤- صلاة التوبة------------------------------ ٣٠٩

٥- سجود التلاوة ---------------------------- ٣١٠

سادساً: صلاة العيد ------------------------------ ٣١٢

سابعاً: الصلاة على الميت ------------------------- ٣١٤

ثامناً: صلاة السفر ------------------------------ ٣١٥

تاسعاً: صلاة الخوف ---------------------------- ٣١٧

عاشراً: صلاة المريض ---------------------------- ٣١٩

أحد عشر: صلاة الكسوف والخسوف--------------------- ٣٢١

ثاني عشر: صلاة الاستسقاء------------------------ ٣٢٤

الموضــــــــــوع | **الصفحة**

الباب السادس: مقاصد وفقه الصلاة في القرآن الكريم ------------ ٣٢٧-٤٠١
الفصل الأول: إقامة الصلاة تحقيق لذكر الله ------------------ ٣٢٨-٣٤١
الفصل الثاني: الخشوع روح الصلاة ولبها ------------------ ٣٤٢-٣٦٣
حكم الخشوع -------------------------------- ٣٤٣
فضل الخشوع -------------------------------- ٣٤٥
إخفاء الخشوع -------------------------------- ٣٥١
الأسباب المعينة على الخشوع: -------------------------- ٣٥٢
الموانع والشواغل التي تصرف عن الخشوع ------------------ ٣٥٩
الفصل الثالث: شروط الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم --------- ٣٦٤-٣٨٤
الشرط الأول: الإسلام -------------------------- ٣٦٤
الشرط الثاني: العقل ----------------------------- ٣٦٧
الشرط الثالث: الطهارة -------------------------- ٣٦٩
الشرط الرابع: إزالة النجاسة من ثلاث من البدن، والثوب، والبقعة ---- ٣٧٨
الشرط الخامس: ستر العورة ------------------------ ٣٧٩
الشرط السادس: دخول الوقت ---------------------- ٣٧٩
الشرط السابع: استقبال القبلة ---------------------- ٣٨١
الشرط الثامن: النية ----------------------------- ٣٨٣
الفصل الرابع: أركان الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم --------- ٣٨٥-٣٩٥
الركنين الأول والثاني: القيام في الفرض مع القدرة، وتكبيرة الإحرام---- ٣٨٦
الركن الثالث: قراءة الفاتحة مرتبة في كل ركعة ---------------- ٣٨٨
الركن الرابع: الركوع ---------------------------- ٣٨٩
الركن الخامس: السجود على الأعضاء السبعة ------------------ ٣٩٠
الركن السادس: الطمأنينة في جميع الأركان ------------------ ٣٩٢
الركن السابع: الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير ----------- ٣٩٣
الفصل الخامس: واجبات الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم ------ ٣٩٦-٣٩٧

الموضــــــــــوع **الصفحة**

الفصل السادس: سنن الصلاة التي أشار إليها القرآن الكريم ---------٣٩٨-٤٠١
الباب السابع: أسلوب القرآن وخصائصه في حديثه عن الصلاة --------٤٠٢-٥٠٣
تمهيد ---٤٠٣
الفصل الأول: خصائص وأسلوب القرآن في العهد المكي -----------٤٠٦-٤٤٤
أولاً: تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده ----٤٠٧
ثانياً: الاهتمام بالصــــــلاة وذكر مشروعيتهـــــا وفرضهـــــــا
من خـــــلال تفصيل
قصـــــــص الأنبيــــــاء والأمــــــم الســـــابقة،
وبيـــــان مــــــا دعا إليـــــه الأنبيـــــاء
الســـــابقون مـــــــن عقائـــــــد ومواقف أممهم منهم ٤١٢
ثالثاً: وضـــع الأســـس العامـــــــة للتشريع والفضـائل
الأخلاقيــــــــة التي يقـــوم
عليها كيان المجتمع ------------------------------٤٢١
رابعاً: التنديـد بأفعـال المشركين وفضـح جرائمهم ومواقفهـم مـــن الصلاة
وأهلها وبيان جزائهم في الآخرة ---------------------٤٢٥
خامساً: التنويع في الأدلة، والتفنـن في العرض مع سلوك ســـبيل التــدرج
حتـــى ينقـــاد المخاطبـــون إلى الاعـــتراف بتـــوحيـــــد الله
في ألــــــوهيتــــــه
وربوبيته ---------------------------------------٤٣٤
الفصل الثاني: خصائص وأسلوب القرآن في العهد المدني -----------٤٤٥-٥٠٣
أولاً: سورة البقرة ---------------------------------٤٤٦
ثانياً: سورة الأنفال --------------------------------٤٥٦
ثالثاً: سورة آل عمران ------------------------------٤٥٩
رابعاً: سورة الأحزاب -------------------------------٤٦١
خامساً: سورة النساء -------------------------------٤٦٤

الموضـــــــــــوع **الصفحة**

سادساً: سورة الرعد -- ٤٧٣
سابعاً: سورة البينة -- ٤٧٥
ثامناً: سورة النور -- ٤٧٧
تاسعاً: سورة الحج -- ٤٨١
عاشراً: سورة المجادلة -- ٤٨٦
أحد عشر: سورة الجمعة -- ٤٨٨
ثاني عشر: سورة المائدة -- ٤٨٩
ثالث عشر: سورة التوبة -- ٤٩٦
الخاتمة -- ٥٠٤
الفهارس -- ٥٠٩-٥٥٠
فهرس الآيات القرآنية -- ٥١٠
فهرس الأحاديث والآثار -- ٥٢٤
فهرس المصادر والمراجع -- ٥٣٢
فهرس الموضوعات -- ٥٤٢